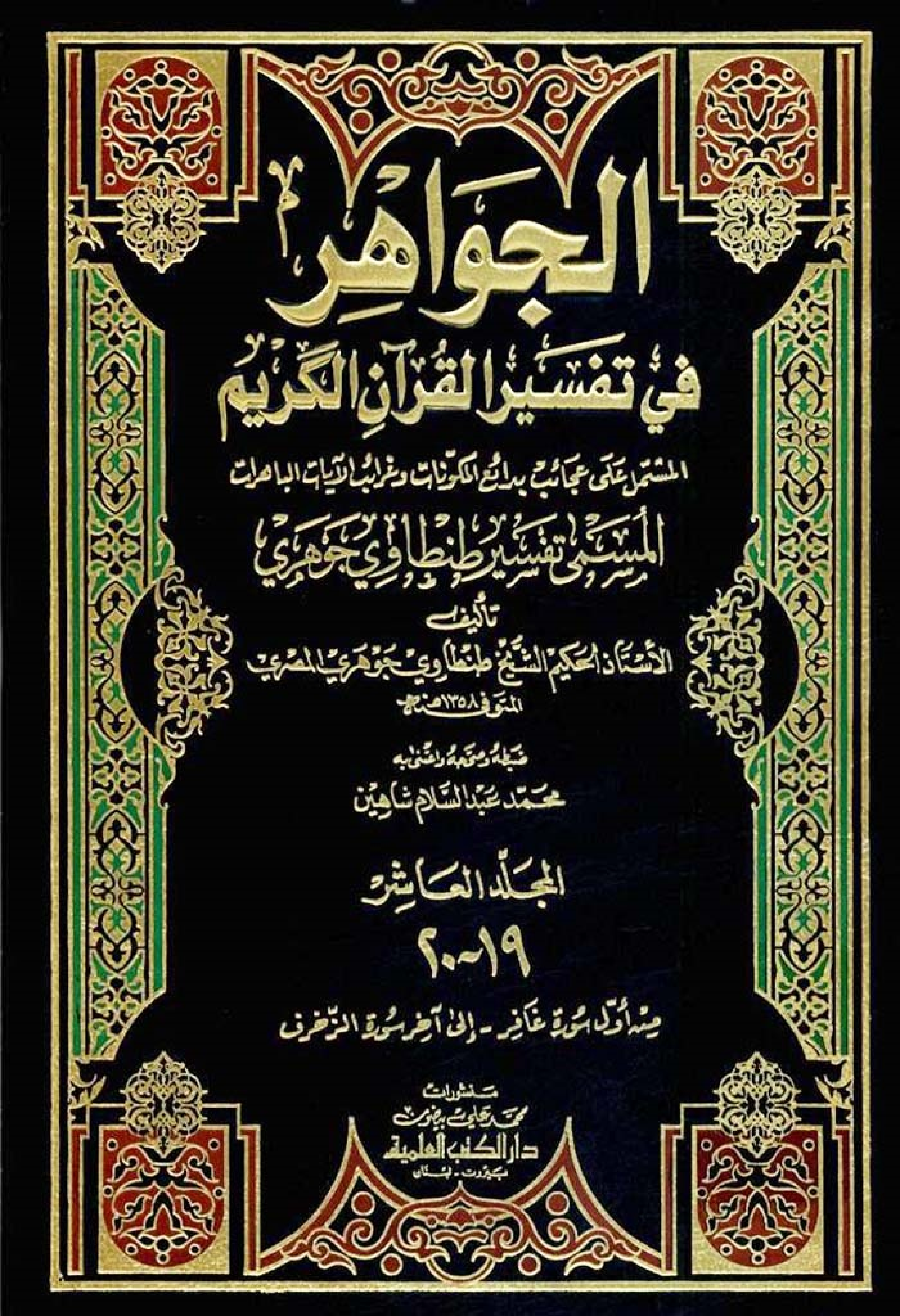

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد العاشر
١٩-٢٠
من أول سورة غافر - إلى آخر سورة الزخرف
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الجواهر
في
تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

الجزء العشرون

المحتوى:

سورة الشورى وسورة الزخرف

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾
[النحل: ٤٤]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الشورى

هي مكية

إلا أربع آيات من قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ (٢٤) ﴾

إلى قوله: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) ﴾

مع قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٨) ﴾

فمدنية

آياتها ٥٣، نزلت بعد « فصلت »

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣) لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١١) لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٢)

۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم

مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم
مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ
ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا
كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾
فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ
فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن
سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن
وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ
ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم
مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن
قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ
أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ
بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا
وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا
أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى
بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

اعلم أيها الذكي أن هذه السورة تشتمل على قسمين : القسم الأول من أول السورة إلى قوله : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ ، وفي هذا القسم :

(١) أن لله ملائكة يقومون بتدبير شؤون العالم المادي من جماد وحيوان وإنسان . وأيضاً يقومون بإلهام الناس ما ينفعهم في أمورهم الدينية والدنيوية تتميماً لقوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت : ٥٣] ، فإن ما يعرفه البشر من العلوم والمعارف يكون بإلهام ، فإذا استعد الإنسان لعمل نافع دنيوي أو أخروي أحس في قلبه بفكرة ، ثم هو نفسه بعد ذلك يتصرف فيها بعقله ، لأنهم لا يلهمون إلا من وجدوا عنده استعداداً للإلهام .

(٢) وأنه صلى الله عليه وسلم أنزل عليه قرآن عربي لينذر أهل مكة ومن حولها ، وذلك بالوحي الذي أنزله الله عليه بواسطة الملائكة المذكورين كجبريل . وليس الوحي لقوم والإيمان والكفر لآخرين إلا على مقتضى الاستعداد . وهذا العالم لا يمكن أن يكون جميع أفراده على حال واحدة ، فهم مختلفون في جميع الأحوال ، وهذا الاختلاف نجم منه الاستعداد للإيمان والاستعداد للكفر . فعالمنا هذا لا يصح إلا على هذا الضرب من الاختلاف .

(٣) وكما اختلف الناس في أحوالهم كالإيمان والكفر اختلف كل شيء في السماوات والأرض كالذكر والأنثى والإنسان والأنعام ، فأما هو فليس كمثله شيء ، وإنّما مفاتيح العوالم بيده ، فمن شاء وسع له في رزقه ومن شاء ضيق عليه ، فإذا اختلف الناس إيماناً وكفراً ، واختلفت المخلوقات ذكورة وأنوثة ؛ وتنوعاً في الخليقة ، فهكذا اختلفوا في الأرزاق بحسب الاستعداد والنظام ضيقاً وسعة .

(٤) ثم رجع القول إلى الوحي والدين والنبوة ، فأفاد أن الوحي الذي أنزله الله على الأنبياء جميعاً كنوح ومحمد صلى الله عليه وسلم وإبراهيم وموسى وعيسى يدعو إلى أمر واحد وهو الإيمان بالقلب والطاعة بالعمل ، وأن لا يختلفوا في هذا الأصل ، ثم إن شرائعهم تتفرع كل بحسب زمانه كما تفرعت الحيوانات إلى أنواع وذكران وإناث والأصل واحد وهي الحركة والنمو . ثم إن الأمم بعد ما عرفوا أن التفريق ضلال وأن رسلهم حق وقد قرؤوا كتبهم وعقلوها تفرقوا ، وهكذا هؤلاء الذين دعوتهم كبر عليهم ما تدعوهم إليه ، وكذا أهل الكتاب في زمانك أصبحوا في شك مقلق .

(٥) فاصدع بأمرك ، وادع للدين ، واستقم على الدعوة ، ولا تتبع أهواءهم ، وكلمهم في القوة العلمية والقوة العملية ، وحججهم لا تقوم ضد الحقائق الثابتة .

(٦) ثم إنه سبحانه أبان أن نظامه كامل والعالم كله موزون منظم ، وهذه الكتب الدينية إنّما نزلت لإقامة العدل بين الناس بحسب الظاهر ، فمن كان باطنه غير كامل وهو ظالم فأمامه العدل العام في السماوات والأرض يتلقاه يوم القيامة ، وهذا برهان إما خطابي وإما عقلي على اليوم الآخر كما ستراه بعد ، والناس فريقان في أمر الساعة : فريق مستهزئ بها ، وفريق مصدق خائف . إن الله وسع في ملكه البار والفاجر والصالح والطالح ، فلم يهلك المستهزئ ، بل أمهله إلى يوم القيامة . وإن أمر الرزق ليس تابعاً للعقائد ، بل هو تبع للمشيئة والمصلحة المعلومة عنده تعالى . وأمر الآخرة يرجع إلى إرادة الإنسان نفسه . فمن جعل همه العاجلة نالها لا غير . ومن جعل همه الآجلة أعطي النعمتين . وذلك

على حسب النظام العام. والعدل أن لا يعطى الإنسان إلا على مقدار ما يستحقه وما يقبله استعداده. ولذلك يكون الظالمون يوم القيامة وجلين خائفين من ذنوبهم، والصالحون منعمين. وهذه هي البشارة التي بشر الله بها عباده الصالحين. ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أنه لا يسألهم عن التبليغ أجراً، وإنّما يسألهم أن يودوا الله ورسوله في تقربهم إليه بالطاعة والعمل الصالح، وذلك ليكونوا في روضات الجنات.

وأما القسم الثاني وهو من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾[الآية: ٢٧] إلى آخر السورة؛ ففيه أن تسخير العباد في جلب الرزق لم يكن عبثاً بل هو لتدريبهم على العمل، ومن فوائد ذلك عدم التكبر والبطر والظلم، ولأجل ارتقاء نفوسهم وتدريبهم على الصبر جعلهم بين رجاء وخوف وضيق وسعة، فلا ينزل الماء عفواً بلا طلب، بل يجعل الأرض يابسة ليطلبوا الماء ويشتاقوا إلى المطر، ثم ينزل ليكون ذلك أدعى للتفكر والتدبر والاستبصار والشكر، وإذا ركبوا في البحر جرت الرياح جرياً غير متصل ليحصل لهم الخوف والرجاء كما حصل في المطر. على أنه إذا نزل المطر وعم الخصب واستقامت السلامة، فليس كل هذا له معنى في نفسه، إن ذلك متاع الحياة الدنيا، ولكن الفضائل النفسية والأخلاق والعلوم هي الباقية، فمن تلك الفضائل الشورى بين المسلمين والإحسان، والجود بالمال على مستحقيه، والعفو عن المذنب، وأن لا يكون عقابه إلا على قدر ذنبه، وخير من هذا العفو فهو خير وأبقى.

ثم ختم السورة بما يفيد اختصاصه بالملك، وأنه يفعل ما يشاء على مقتضى حكمة يعلمها، وأن الناس مختلفون في الذرية من حيث الذكران والإناث والتعم وعدمه، وهكذا في القرب منه حتى خص الوحي بفريق مستعد لذلك، ومع ذلك فلكلام الله معهم شرائط وأحوال ثلاثة. انتهى إجمال المقال على السورة.

التفسير اللفظي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ ﴾ الحاء والميم يرجعان للحمد كما تقدم في السور السابقة، والحمد يرجع لأمر الدنيا والآخرة، فهو متضمن معرفة النعم، وذلك يستوجب سائر العلوم، وقد جاء الحمد في السورة السابقة في قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت: ٤٢]، وفي هذه السورة في قوله: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[الآية: ٥]، و« العين » في « العزيز » و« العظيم » و« العلي » و« القاف » من « قدير » في قوله: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾[الآية: ٢٩]، و« السين » من « الساعة »، فهذه الحروف داخلة فيما تقرر في أول « آل عمران » وغيرها، وتختص بما اختصت به الـ ﴿ حمٓ ﴾ في أنها حاضة على الحمد وازدياد العلم والحكمة، لا سيما بما سيأتي من البرهان على الساعة وقيامها. فإن هذا البرهان عقلي أو إقناعي ترتاح إليه النفوس وتطمئن القلوب كما ستراه، لأنه مستمد من علوم الخليقة والنظم الطبيعية. فإنه يقرر في النفوس قدرة الله على جمع النفوس البشرية يوم القيامة. وهذا دلالة على « السين » و« القاف ». أما « العين » فمرجعها جلال الله وعظمته

وكبرياؤه وعزته وعلوه، فهاهنا محامد وعلوم يراد بها القربى من ذي العزة والعظمة. وبهذه العلوم تعرف البراهين الدالة على عدله، وأنه لا يدع أمر العالم سدى بل لا بد من بعثهم وحسابهم، وكأن هذه المعاني التي تشير لها هذه الحروف أهم ما في السورة، فإن العلوم جميعها وأخصها ما تعلق بالله وباليوم الآخر ليس بعدها مزيد لمستزيد. قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي: مثل ما في هذه السورة من المعاني يوحي إليك الله العزيز في ملكه فلا يكلم أحداً إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، ذلك لعلوه وعزته وحكمته، فلعزته ترفع عن أحوال الحوادث، ولحكمته كلمهم على مقدار حالهم.

ثم وضح عزته وعلوه فقال: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾، هذه الجمل كلها لتبيان عظمته وعلوه وكبريائه وحكمته، ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ ﴾ أي: ينفطرن من علو شأنه وعظمته، أي: تكاد كل واحدة تنفطر فوق التي تليها من عظمة الله تعالى. ولذلك ترى هذه العوالم التي نعيش فيها واشتقت منها المادة ما هي إلا أثير، أي عوالم لا لون لها ولا طعم ولا وزن، فهي في الحقيقة عوالم ذائبة منفطرة، بل تكاد تكون حركات مضطربات لا مستقر لها، ومنها كونت الشموس. فهذه الشموس السارحات في عالم الأثير تكاد تنفطر وذلك من عظمته، إنه عليّ، وإنه عظيم، ولعلوه لا تتناوله الحواس، وهكذا المادة التي هو خلقها ودبرتها الملائكة لا تصيبها الحواس، وإنّما الشموس والأقمار والأرضون هي التي تتناولها الحواس. وهذه على شفا جرف هار، فهي أيضاً مستعدة للانفطار والانشقاق كما ثبت في عصر العلم الحاضر، فما من كوكب أو شمس أو قمر إلا وهي مستعدة يوماً ما لأن ترجع أثيراً، فهي تكاد ترجع للطبيعة كرة أخرى لأنها مغروسة في العالم الأثيري اللطيف، فتكاد ترجع لأصلها، وإنّما الذي يحفظها ويقيم أمرها هم عوالم الملائكة بإذن ربهم، وهذا قوله: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ فهم يحافظون على هذه العوالم خيفة أن يتطرق إليها الخلل بنواميس سنها لهم، ويلهمون الناس ما يحتاجون إليه، فما مثل الملائكة إلا كمثل الضوء يعطي الحياة بحرارته ويعطي الهدى بنوره، هكذا هؤلاء الملائكة يحافظون على الشموس والأرضين بقوتهم المستمدة من ربهم، ويلهمون الخير لمن استعد لذلك. فالشموس التي نراها والأرضون لولا الملائكة لذابت في الأثير، والحافظ لها الملائكة. وإنّما نبه الناس على ذلك ليفكروا في ذلك ويعلموا أن هذا العالم الذي نعيش فيه كله حياة وحكمة. فعلى الإنسان أن يفكر في أن يكون عضواً نافعاً في جسم هذا العالم الكلي حتى يلحق الملأ الأعلى. فليكن من المصلحين في الأرض على قدر طاقته، ولا جرم أن إلهام الملائكة ومحافظتهم على الناس بأمر ربهم مفيدة للناس، وذلك دلالة على أن الله كثير المغفرة والرحمة، إذ سخر الملائكة للاستغفار لمن في الأرض فغفر لهم ورحمهم، وذلك قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ شركاء ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ رقيب على أعمالهم فيجازيهم، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم ﴾ يا محمد ﴿ بِوَكِيلٍ ﴾ بموكول إليك أمرهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أي: مثل المعنى الذي في الآية التي قبل هذه من أن الله رقيب عليهم لا أنت، بل أنت منذر.

وقد تكرر في القرآن في مواضع كثيرة، أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أي أهل أم القرى وهي مكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من العرب ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ ﴾ يوم القيامة تجمع الخلائق فيه والأرواح والأشباح والأعمال والعمال، وقوله: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ جملة اعتراضية، وهم بعد جمعهم ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ مهتدين أو ضالين ﴿ وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ﴾ بالهداية ﴿ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ ﴾ يدفع عنهم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يمنعهم من العذاب ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ﴾ هو وليك يا محمد وولي من اتبعك ﴿ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وكيف يستحق أحد أن يكون ولياً إلا من كان بهذه الصفة ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ ﴾ أنتم والكفار ﴿ فِيهِ مِن شَيْءٍ ﴾ من أمر من أمور الدنيا أو الدين ﴿ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ مفوض إليه، فهو يميز المحق فينصره من المبطل فيخذله ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ في مجامع الأمور ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع في المعضلات ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ خبر آخر لـ«ذلكم» ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ من جنسكم ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ حلائل ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ أصنافاً ذكراناً وإناثاً ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يخلقكم أو يكثركم ﴿ فِيهِ ﴾ في الرحم ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ كلمة التشبيه كررت لتأكيد نفي التماثل، أي ليس مثله شيء ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لسائر المسموعات ﴿ ٱلْبَصِيرُ ﴾ لسائر المبصرات ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ مفاتيح الرزق فيهما، ففي السماء بالأمطار وفي الأرض بالإنبات، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي: يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء، ذلك لأن مفاتيح الرزق بيده ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ من البسط والتضييق، ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ أي: شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد ومن بينهما من أرباب الشرائع، أي الأصل المشترك بينهم، وهو المبين بقوله: ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ ﴾ الإيمان والطاعة ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ ولا تختلفوا في هذا الأصل، فأما فروع الشرائع فهي مختلفة ﴿ كَبُرَ ﴾ عظم ﴿ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ من التوحيد ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ﴾ يجتلب إلى الدين ﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ ﴾ بالإرشاد ﴿ مَن يُنِيبُ ﴾ يقبل عليه ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ ﴾ أي الأمم السابقة ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ بأن التفرق ضلال ﴿ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ عداوة وطلباً للدنيا ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ بالإمهال ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ هو يوم القيامة ﴿ لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ باستئصال المبطلين ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ يعني أهل الكتاب المشركين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فإن هذين القسمين أوتوا القرآن وشكوا فيه بعد ما تفرق قدماء أهل الكتاب وهم يعلمون أن التفرق ضلال، فقوله: ﴿ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ من الكتاب، أي: القرآن ﴿ مُرِيبٍ ﴾ مقلق، أو مدخل في الريبة ﴿ فَلِذَٰلِكَ ﴾ فلأجل ذلك ﴿ فَٱدْعُ ﴾ إلى الاتفاق على الملة الحنيفية ﴿ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ واستقم على الدعوة ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ الباطلة ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ أي: جميع الكتب السماوية ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إلي ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أي: كلنا عبيده ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾، كقوله: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]، ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ لا خصومة لأن الحق قد

ظهر والحجة قائمة عليكم ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المرجع ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ ﴾ يخاصمون في دينه ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام ليردوهم إلى الجاهلية ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ ﴾ باطلة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ بكفرهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في الآخرة ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ملتبساً به بعيداً من الباطل ﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ أي: العدل والتسوية، وهو النظام العام، ولا جرم أن الكتب السماوية من نوع الميزان العام والعدل الشامل الذي ظهر في عالمنا الأرضي والسماوي.

ولما كانت الأحكام القضائية لا تعتمد إلا على الظواهر وكان هناك بواطن مخبوءة أرجئت لقيام الساعة حتى يكون الميزان الإنساني تاماً كالميزان العام فكأن سائلاً يقول: يا رب، إنا نرى الناس في الدنيا يغشون ويكذبون ولا عدل بينهم والقضاة يحكمون بالظاهر، وأيضاً ربما رأينا الصالح حقيراً والشرير عظيماً فأين الميزان في عالمنا؟ فأجاب: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ منك، أي: لعل الساعة قريب وأنت لا تدري ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ استهزاء ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ خائفون منها ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ الكائن لا محالة ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ ﴾ يجادلون فيها ﴿ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ في إيصال المنافع وصرف البلاء من وجه يلطف إدراكه ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ يوسع رزق من يشاء إذا علم مصلحته، وفي الحديث: «إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك». ثم قال: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الباهر القدرة المنيع الذي لا يغلب ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي: كسب الآخرة، أي: من كان يريد بعمله الآخرة ﴿ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ بالتضعيف ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: يريد بعمله الدنيا مؤثراً لها على الآخرة، سمي ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة حرثاً مجازاً ﴿ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ شيئاً ﴿ وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ إذ الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ﴾ أي: بل ألهم شركاء ﴿ شَرَعُوا۟ لَهُم ﴾ بالتزيين ﴿ مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ أي: لم يأمر به ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ ﴾ القضاء السابق بتأجيل الجزاء ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين الكافرين والمؤمنين ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: وإن المشركين لهم عذاب أليم في الآخرة وإن لم يعذبوا في الدنيا ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المشركين ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين ﴿ مِمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ من جزاء كفرهم ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ نازل بهم لا محالة ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ﴾ والروضة أطيب بقعة في الجنة وأنزهها ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي: ما يشتهون ثابت لهم عند ربهم ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ على العمل القليل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الفضل الكبير ﴿ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ ﴾ به ﴿ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على التبليغ ﴿ أَجْرًا ﴾ نفعاً منكم ﴿ إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي: لكن أسألكم التقرب إلى الله والتودد إليه بالطاعة والعمل الصالح، وهذا قول الحسن، ويدخل فيه مودة النبي صلى الله عليه وسلم ومودة قرابته ومودة القرابة من المسلمين، فمن تقرب إلى الله أحب رسوله وأكرم قرابة الرسول وقرابته هو من المسلمين، وهكذا يكرم أبويه إذا كانا كافرين، فهذا

القول يجمع سائر الأقوال، ومن إكرام قرابته صلى الله عليه وسلم تعليمهم إذا جهلوا، وتذكيرهم إذا غفلوا. وأما إكرامهم بمعنى التعظيم وحده فهو قصور معيب وجهل بديننا القويم. ﴿ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً ﴾ ومن يكتسب طاعة، سيما حب آل الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا ﴾ أي: في الحسنة بمضاعفة الثواب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ﴾ بل أيقولون ﴿ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ ﴾ افترى محمد بدعوى النبوة أو القرآن ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ ﴾ أي: إن يشأ الله خذلانك يختم على قلبك لتجترئ بالافتراء عليه.

ثم استأنف فقال: ﴿ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ ﴾ حذفت الواو من «يمحو» خطاً ولفظاً وهي مثبتة في مصحف نافع، فهو فعل مرفوع بضمة مقدرة على الواو ﴿ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ ﴾ أي: بما أنزل من كتابه على لسان نبيه. وهذا وعد قد تحقق. فهو محا باطلهم وأثبت حق الإسلام. وأيضاً لو كان ما يقوله محمد صلى الله عليه وسلم مفترى لمحقه الله جرياً على عادته أن يمحو كل باطل، ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فهو يعلم المبطل والمحق فيعامل كلًّا بما هو أهل له، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه، والتوبة صدق العزيمة على ترك الذنوب، وأن لا يجد حلاوة الذنب في القلب عند ذكره، ﴿ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ وهي ما دون الشرك، فهو يعفو عمن شاء بلا توبة ﴿ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ من التوبة والمعصية ﴿ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ ﴾ إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم ﴿ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ في الآخرة ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ أي: لو أغناهم جميعاً ﴿ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: لبغى هذا على ذاك، وذاك على هذا. فالغني يبطر أو يتكبر ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ ﴾ بتقدير ﴿ مَّا يَشَآءُۚ ﴾ ما اقتضته مشيئته ﴿ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ يعلم خفايا أمرهم وظواهر حالهم فيعطي كلًّا ما يناسبه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ ﴾ المطر الذي يغيثهم من الجدب ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ أيسوا ﴿ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ ﴾ في كل شيء من مخلوقاته ﴿ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه ونشر رحمته ﴿ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ المستحق للحمد على ذلك ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ مع عظمهما ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ ﴾ أي: وما فرق من الدواب في الأرض وحدها، والتعبير بهذا كالتعبير في قوله: ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢] مع أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر الملح، كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد، وإنّما هو في فخذ من أفخاذهم، هذا إذا وقفنا عند النظر السطحي. فأما إذا فكرنا فإنا نجد هناك من العوالم ما تستحقر أرضنا بالنسبة له. ولقد يظن علماء الهيئة الآن أن أقل عدد يظن من الأرضين لا ينقص عن ثلاثمائة ألف ألف أرض فيها سكان قياساً على أرضنا التي نحن عليها. هذا ما يقوله علماء الفلك، فأما علماء الأرواح فإنهم لما استنطقوها قالت: إن هناك عوالم في هذا الكون مسكونة تستحقر أرضكم بالنسبة لها، وما أنتم بالنسبة لهم إلا كالنمل بالنسبة لكم.

وهاك جملة من كلام روح غاليلي لما استحضروها قال: إن الملايين من الشموس المؤلفة منها مجرتكم يحيط بأكثرها سيارات وعوالم تستمد منها النور والحياة، فمنها ما يماثل نجم «سيريوس»

الذي يربو حجمه وبهاؤه على شمسكم ألوفاً من المرار، والسيارات المحيطة به تفوق سيارات الشمس كبراً وسناء، ومنها شموس مثناة، أي: نجوم توائم تختلف وظائفها الفلكية عن وظائف شمسكم، ففي السيارات المحيطة بتلك الشموس المثناة لا تعد السنون والأيام كما في أرضكم، وأحوال الحياة فيها يتعذر عليكم تصورها، ومن الشموس ما لا سيارات له إنّما أحوال سكناها خير الأحوال. انتهى المقصود منه.

فهاهو ذا «غاليلي» لما استحضروا روحه أفادنا أن من السيارات ما هو خير من أرضنا، كما أن شمسه أحسن من شمسنا، ومن السيارات ما يسكن نفسه وتكون السكنى فيه والحياة خير من سواه، وأن السيارات التي تتبع الشموس التوائم تكون الحياة فيها كأنها جنة بالنسبة لأرضنا. وعلى ذلك أصبح ما كان عند الفلكيين ظناً عند علماء الأرواح يقيناً، وإذن يكون هذا تفسير للقرآن. وبعبارة أخرى: هذا هو سر القرآن، إذ يقول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣] في السورة السابقة. وأي آيات أبدع من هذه. يقول الله: ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾، ويقول العلم الحديث ظناً تارة وإقناعاً أخرى: إن أرضنا لا قيمة لها والحياة فيها حقيرة. والحياة هناك أجمل وسعادتها أتم.

بل جاء في مقال هذه الروح أيضاً أن هناك عوالم أقل من أرضنا استعداداً وأهلها أكثر شقاء من أهل الأرض. إن ذلك معجزات القرآن قد أرانا الله آياته في الأنفس والآفاق، والمسلمون مقصرون في البحث والعلم والتفكير. فليجدوا في علوم الفلك والطبيعة والأرواح. وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ أي: في أيّ وقت يشاء متمكن منه. ثم إن قولنا في هذا المقام: إن اللؤلؤ لا يخرج إلا من البحر الملح، كذبه العلم الحديث أيضاً، فسيأتي في سورة «الرحمن» أن الماء العذب يخرج منه اللؤلؤ، فهذه معجزة ثانية للقرآن. ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ المراد بالمصائب الأحوال المكروهة من الأوجاع والأسقام والقحط والغلاء والغرق والصواعق، والذي كسبته أيدينا هي الذنوب والمعاصي، ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ من الذنوب فلا يعاقب عليها. وهذه الآية في المجرمين. أما غيرهم فإن مصائبهم لرفع درجاتهم بالأجر لصبرهم عليها. وفي رواية عن ابن عباس: «إنه ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر». وروي عن عليّ كرم الله وجهه: «ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾، وسأفسرها لكم يا عليّ: ما أصابكم من مصيبة أي مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله أكرم من أن يثني ـ بتشديد النون ـ عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه». وروي عن غيره ما يفيد أن المصائب إما لرفع درجة أو لمغفرة ذنب. هذا ملخص ما عليه جمهور أمتنا الإسلامية.

وقالت طائفة تميل إلى التناسخ: لو لم يكن للأطفال حال كانوا عليها قبل هذه الحالة ما تألموا. وأجاب العلماء بأن الآية مخصوصة بالمكلفين كما هو السياق. وإذا أردت تحقيق المقام عقلياً فارجع إلى ما في هذا التفسير في سورة «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الآية: ١٥٥] الخ،

فإنك سترى كيف كان القرآن معجزاً. وكيف كان الفيلسوف قابس ألف كتاباً على هذا المعنى يسمى «لغز قابس»، وأماط اللثام عن هذا المقام. هناك تعرف سر القرآن وأن العلوم كلها له برهان. فوالله ما قلت لك هذا وأنا من المتكلفين، وإنّما أنا من الموقنين. وإلا فكيف تتحد العلوم الفلسفية والآيات القرآنية. وكيف يقول قابس في رسالته التي ترجمت إلى جميع لغات أوروبا: إنه لا ينال السعادة في هذه الدنيا إلا الذين عركهم الدهر وطحنهم بكلكله، ومرنهم على تحمل المصائب، وأذاقهم العذاب الهون حتى صقلهم بصقاله وآذاهم بنباله وقتلهم بسيوف رجاله، وحط بساحاتهم ونزل بديارهم بخيله ورجله وشاركهم في الأموال والأولاد، ولم يعبأ بالعلوم وفهمها، ولا بالآداب ودرسها، ولا بالنعم وحوزها، ولا بالأموال وكنزها. وجعل ذلك كله يصيب البار والفاجر والعالم والجاهل، كالليل والنهار والحر والبرد والحسن والقبح، فأي علاقة لسعادة الإنسان بما يعتريه من الأحوال أنه لا سعادة كاملة إلا بأن تصقله المصائب صقلاً وتنزل عليه تفصيلاً وجملاً حتى يتكامل عقله ويكظم غيظه ويتم احتماله ويظهر جماله، بهذا يظهر جمال القرآن ويعرف الناس سر الفرقان، ولكن بعد أن تدرس ما كتب في سورة «البقرة» وكأن الإنسان خلق وفيه نقص كثير بطبعه، وهذا النقص لا يذهب إلا بأعمال شريفة وعلوم منيفة ومصائب تساعد على ارتقائه، فالكسب ربما كان لما هو أعم مما جبل عليه الإنسان من النقص وما فعله بيده من الذنوب، ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[الشورى: ٢٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فائتين ما قضى عليكم من المصائب ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ يحرسكم منها ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الجارية ﴿فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ كالجبال ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ التي تجري بها السفن ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي: فيبقين ثوابت على ظهر البحر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكل مؤمن كامل صبر على المصائب وشكر على النعم وحبس نفسه على النظر في آيات الله والتفكر في آلائه الذي هو نوع من الشكر ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أي: يهلك أهلهن ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب بإرسال الريح العاصفة المغرقة، والمعنى: إن يشأ يسكن الريح فيركدن، أو يعصفها فيغرقن بعصفها، ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ من الذنوب، فلا يجازي عليها، أي: إن يشأ يهلك قوماً وينج آخرين على طريق العفو عنهم، وإنّما يوبق من يوبقهم بما كسبوا لينتقم منهم، ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ في إبطالها ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهرب من العذاب ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ من زينة الدنيا ﴿فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ليس هو من زاد المعاد ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وحينئذ يكون المؤمن والكافر مستويين في متاع الحياة الدنيا، فإذا صار إلى الله تعالى كان ما عند الله من الثواب خيراً وأبقى للمؤمن، ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ كالقتل والزنا والسرقة ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: يكظمون الغيظ ويحلمون ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ أي: أجابوه إلى ما دعاهم إليه من الطاعة ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يتشاورون فيما يبدو لهم ولا يعجلون ولا ينفردون برأي لشدة تيقظهم وحذرهم، يقال: ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

في سبيل الخير ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ ﴾ الظلم والعدوان ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ينتقمون من ظالمهم من غير تعد. قال النخعي: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فإذا قدروا عفوا.

فالمؤمنون إذن قسمان: قسم يعفون، فبدأ بذكرهم وهو قوله: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى:٣٧]. وقسم ينتصرون من الظالم، وهو المذكور في هذه الآية. ثم لخصهما فقال: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ سمى الثانية سيئة للازدواج ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وفي هذا تعظيم للموعود به ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المبتدئين بالسيئة والمتجاوزين في الانتقام ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ ﴾ بعد ما ظلم ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ بالمعاتبة والمعاقبة ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ يبتدئون بهم بالإضرار ﴿ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ على ظلمهم ﴿ وَلَمَن صَبَرَ ﴾ أي: لم ينتقم ﴿ وَغَفَرَ ﴾ وتجاوز عن ظالمه ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الصبر والتجاوز ﴿ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ أي: مما ينبغي أن يوجبه العاقل على نفسه ولا يترخص في تركه، وحذف الضمير الراجع لأنه مفهم، أي: إن ذلك منه الخ.

واعلم أن هذه الآيات كلها لإيضاح المقام وتبيانه، ففيها ذم الظلم بالابتداء أو مجاوزة الحد، وفيها أن لا عتاب على من عاقب بمثل ما عوقب به، وفيها إعظام أمر العفو، فهاهنا ظلم وانتصار وعفو ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من ناصر يتولاه من بعد خذلان الله إياه ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾ يوم القيامة ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي: إنهم يسألون الرجعة إلى الدنيا ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ على النار ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ متذللين خاضعين ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ﴾ يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها وذلة ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ بتعريضهم للعذاب المخلد ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ظرف لـ «خسروا»، ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ أي: وصول إلى الحق في الدنيا والجنة في العقبى ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم ﴾ أي: أجيبوا داعي الله، يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ لا يرده الله بعد ما حكم به ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ ﴾ مفر ﴿ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ إنكار لما اقترفوه، لأنه مكتوب في صحائفكم وتشهد به ألسنتكم وجوارحكم ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ رقيباً أو محاسباً ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ ليس عليك إلا البلاغ. وفيه تسلية له صلى الله عليه وسلم. ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ كالغنى والصحة ﴿ فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ قحط أو مرض ﴿ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ لنعم الله المترادفة عليه، كأنه يقول: إن هذا الجنس موسوم بكفران النعم، أي: إنه إذا مسه الشر يكون جزوعاً كما إذا مسه الخير فإنه يكون منوعاً. ولكن تهذيب نفسه بالعلم والدين يجعله محتملاً صابراً. ومن تأمل النفوس الإنسانية وجدها كالمجبولة على اليأس ونكران النعمة وقت هجوم المصائب، ولا يخرج الناس من هذا المأزق إلا الدين والعلم والصبر، ومما ابتلي به الناس فيجعلهم يكفرون النعم أمر الذرية، فيقول من لا ولد له: يا ليت لي ولداً، ويقول من رزق بنات: يا ليتني أعطيت ذكراً، ومن عنده ذكور يقول: يا ليت لي من البنات ولو واحدة، ومن عنده القسمان ربما اعتراه أحد

الأمرين : إما الإعجاب والطغيان ، وإما كفر النعمة من الفقر والنصب في تغذيتهم وتربيتهم . فليعلم الناس أن ذلك منهم رعونة ، فليرض كل بما قسم له ، فإنهم إنّما خلقوا في الأرض ليتعلموا الصبر والطاعة ، وهم لا يطيرون إلى العالم الأعلى إلا بقواهم النفسية ، فلا ذكر ولا أنثى عند الموت ، ولا مال ولا جند ولا أعوان ، إن الله رب الجميع ، وهو مالك السماوات والأرض ، ويعلم المصلحة ، ويعطي زيداً ما منع عمراً لحكمة أرادها ، ويخص كلًّا بمزية ، فيعطي من لا ولد له مزية أخرى ، ويحرم من له ولد من بعض المزايا وهكذا ، ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فله أن يقسم النعم والنقم كيف يشاء ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ فلا يولد للأول ذكر ولا للثاني أنثى ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ يجمع بينهما فيولد له الذكور والإناث ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فلا يولد له ولد ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ ﴾ بما يخلق ﴿ قَدِيرٌ ﴾ على ما يريد أن يخلق ، فيفعل ما يفعل بحكمة وعلم ، هذا في تقسيم النعم البدنية . وأعقبها بتقسيم النعم العقلية ، وأفاد أنها أيضاً على مقتضى الحكمة ولا اعتراض على القسمة فيها . فالناس محجوبون عن ربهم لأنهم في عالم المادة وهو منزه ، ولكن منهم من رق حجابه وخلصت نفسه .

(١) فيحس بمعاني تلقى في قلبه ، وهو معنى النفث في الروع ، كما روي : « نفث في روعي » ، أو يرى رؤيا مناسبة كرؤيا الخليل عليه السلام بذبح ولده .

(٢) أو يسمع كلاماً من وراء حجاب ، كما سمع موسى عليه السلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه . فالعبد هنا سمع كلاماً ولم ير المتكلم .

(٣) أو يرسل الله ملكاً فيوحي الملك إلى النبي بإذن الله ما يشاء . ومن النوع الأول نبوة النبي صلى الله عليه وسلم في ابتدائها ، فإنها كانت في المنام ستة أشهر ، ومن الثالث ما بعد ذلك ، فقد كان جبريل ينزل عليه بالوحي . وأما الثاني فهو ما حصل لموسى عليه السلام . وهذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ أي : وما صح أن يكلم الله أحداً إلا موحياً أو مسمعاً من وراء حجاب أو مرسلاً . وقوله : ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ ﴾ أي : عن صفات المخلوقين ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل ما تقتضيه الحكمة ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ وكما أوحينا إلى سائر الرسل ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ نبوة أو قرآناً فهو به حياة الأرواح ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى ﴾ قبل الوحي ﴿ مَا ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي : القرآن ﴿ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ أي : شرائعه ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا ﴾ أي : جعلنا القرآن أو الإيمان نوراً ﴿ نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ ﴾ أي : لتدعو ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ دين الإسلام ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ دين الله الذي شرعه لعباده ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي : أمور الخلائق ، فيضع كلًّا في درجته من جحيم ونعيم . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها .

لطائف هذه السورة

(١) في قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الآية : ٥] .

(٢) وفي قوله: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾[الآية: ١١] مع قوله: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾[الآية: ٤٩] الخ، وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾[الآية: ٢٩].

(٣) وفي قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾[الآية: ١٧] الخ.

(٤) وفي قوله: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾[الآية: ١٩].

(٥) وفي قوله: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[الآية: ٣٨].

(٦) وفي قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾[الآية: ٥١] الخ.

(٧) وفي قوله: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾[الآية: ٣٠].

اللطيفة الأولى والسادسة

في قوله: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾

وفي قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾

لقد جاء في هذه الآية الثانية وجه آخر غير ما تقدم. فيقال: لا يكلم الله البشر إلا بأحد طرق ثلاث: إما أن يوحي إلى الأنبياء بالملائكة، وإما أن يكلم الأمم بواسطة هؤلاء الأنبياء الذين تلقوا عن الملائكة، وإما أن يكلم الأنبياء من غير أن يروه كمسألة موسى عليه السلام. وإذن نشرع في عجائب هاتين الآيتين فنقول:

اعلم أن الله عز وجل جعل العالم المادي والروحي بينهما تشابه، كما قال تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾[الملك: ٣] وقال: ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾[الرحمن: ٧-٨].

فالعالم الروحي والعالم الجسمي يختلفان جوهراً ويتحدان في النظام العام. فانظر أولاً في هذا العالم المشاهد، وتأمل تجد الناس يعيشون في وسط الأنوار، فأما الظلمات فهي قليلة. إن الشموس لا تكاد تعد ولا تحصى، فأما السيارات حولها فهي مستضيئة بها. وكذلك التوابع، فأرضنا وقمرنا يستضيئان بنور الشمس. وكذلك السيارات. ويظن أن للشموس سيارات ولكن لا يستضيء منها إلا ما كان جسمه معتماً كأرضنا، أي: برد سطحه وصار مثلها. وجميع الأقسام تنقسم إلى ثلاثة أقسام: أجسام مضيئة كالشموس التي هي هذا العالم كله، حتى إن أرضنا كوكب مضيء لولا قشرتها، فأما باطنها فإنه نار على حاله، فأكثر أجسام عالمنا مضيئة، والنادر جداً ما لا ضوء له، وهي أمثال قشرة أرضنا الصغيرة، وأجسام معتمة كسطح الأرض والقمر والنبات والحيوان والأحجار، وأجسام شفافة كالهواء. فالأول يفيض النور، والثاني يستضيء، والثالث يقبله ولا يحجبه عن المعتم. والأجسام المعتمة منها ما هو صقيل كسطح المرآة، فإنه يقبل النور ويحجبه عما وراءه ولكنه يعكسه على ما أمامه. هذا هو العالم المشاهد وأقسامه، فلننظره نجد أن الشمس تفيض النور، والهواء شفاف منفصل، وجرم العين شفاف متصل بالأجسام. فلننظر في عالم العقل والروح نجد أن في العالم الإنساني من يقبلون العلم بالتعليم وهم جمهور الأمم، فهم في قبولهم العلم أشبه بهم حين يقبلون الصور التي وردت من طريق العين الواردة من الخارج، ونجد الأنبياء والعلماء فيهم أشبه بالعيون المركبة فيهم.

فكما قبلت العيون الصور بسبب ضوء الشمس وأدتها إلى النفوس هكذا قبل الأنبياء وهم عيون الأمم العلوم ووصلوها إلى أممهم. فإذن تبين لنا أن العالم المشاهد أوضح لنا ست مسائل من ثمانية، وإيضاحه أننا نقول: في العالم الروحي نفس متعلمة وأنبياء معلمون وملائكة موصلون والله مبدأ الفيض، فنحن لا نعلم من هذه الأربعة إلا اثنين: نعلم النفس المتعلمة، والنفس المعلمة، ولكن الاثنان الباقيان محجوبان عنا، وهما الله والملك، فأرانا الله هذه الأقسام الأربعة في العالم المادي وقال: انظروا تجدوها واضحة، أجسام مظلمة تستضيء، وأجسام شفافة متصلة تقبل، وأجسام شفافة منفصلة، وأجسام مفيضة للنور. فهذه القسمة تامة في العالم المادي، وقد رأيتم اثنين في العالم الروحي فبطريق الإقناع تعرفون أن هناك ملكاً، ووراء الملك إله، كما كان وراء العين هواء ووراء الهواء شمس وهذا لمن لم يقرأ علم الأرواح، فالله تعالى هو المعلم، وهو الذي يكلم الناس بالملك والأنبياء، كما أن الشمس تضيء على الأرض وتتضح لنا الصور بطريق الهواء الشفاف وبطريق العيون، والفضل كله راجع للشمس، هكذا العلوم الدينية والعلمية والصناعية، وجميع ما في الأرض من علم مكمل لأهلها مصدره الله تعالى، غاية الأمر أنه تارة يكون بوسط للجمهور وبغير وسط للنفوس الشريفة. وهذا يوضح لنا قول علمائنا: إن الله عميم الجود ليس بمانع له عن أحد، ولكن الفيض يكون على مقدار الاستعداد.

فإذا سمعنا أن زيداً قد ألهم العلم ونشر الحكمة، فلتعلم أن في نفسه صفاء استعد به أن يتقبل الحكمة العامة المغروسة في قلوب نفوس الأرواح الحائمة حولنا، وهي مستمدة من الله كاستمداد الهواء النور من الشمس. وإذا سمعنا أن عمراً اتبع هواه وأغراه الشيطان فلنعلم أن النفوس التي ألهمته منحرفة وهو يشابهها في الانحراف، كما نرى الزجاجة الملونة تلون الماء الذي وراءها فنراه أصفر أو أخضر أو أحمر تبعاً لها، مع أن النور عام والناس مطلعون عليه، ولكن لا قدرة لهم على تغيير الطبائع، فالأرواح الشريفة يرون الشياطين أمامهم أشبه بذلك الزجاج الملون، ويرون الأحياء الذين يشاكلونهم مغرمين بآرائهم عاكفين على الإصغاء إليهم.

هذه هي مجامع الحكمة في هذه الآيات. إذا عرفت ما ذكرته لك فانظر في هذه الآيات. ذكر الله السماوات والأرض وأن عظمة الله تكاد تنفطر فيها السماوات. ثم أتبعه بذكر الملائكة مشيراً إلى ما ذكرناه، كأنه يقول: انظروا إلى السماوات والأرض وإلى عظمتي فيها فإنكم ترون الظلمات والأنوار الخ، فانظروا إلى الملائكة إنهم يسبحون ويحمدون. فهم يعرفون جلال الله وإكرامه، أي: صفات التقديس وصفات الإكرام، فهم يعرفون بعده عن مشابهة المخلوقات، ويقدسونه تقديساً، ويقرؤون عجائب صنعه وحكمته وقدرته المعبر عنها بالحمد. فهم يعرفون أن ذاته كاملة تفيض الخير. فقدم التسبيح لأنه يرجع لكمال الذات، وأخر الحمد لأنه يرجع لتكميل الغير وإضافة النور، فالمقدس ذات منزهة كاملة، والمقدس المحمود ذات كاملة مفيضة الخير والكمال على غيرها. وبهذه العلوم والمعارف كانت الملائكة أرقى من أهل الأرض، لأن أرواحهم لطفت فلم تلائم هذه المادة ولا تعيش فيها، فأصبحت كالهواء من حيث قبول النور العلمي وإفاضته، وليس يمنع الناس عن ذلك الكمال إلا

الجهل، كما قال سقراط: الناس لا يعذبون إلا لجهلهم، ولولا سعة علم الملائكة ما ارتفعوا عن المادة وما كانوا مسيطرين عليها، وعلى مقدار جهل الإنسان يكون بعيداً عن العالم الروحي. فهذا ملخص ما يفيده قوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[الشورى: ٥].

وأما قوله: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الشورى: ٥] فهو إفاضة الخير، فهم من حيث التقديس والتحميد يفاض عليهم من الله، ومن حيث الاستغفار مفيضون الخير على الناس. ولما كان الإنسان لا يقدر أن يرى النور إلا بآلة متصلة وهي العين؛ هكذا لا يقدر الجمهور من الناس أن يدركوا العلم إلا بنفس تكون منهم تشبه العين في جسم الإنسان، فهي تتصل بالملائكة من وجه وتتصل بالناس من وجه آخر، أي: إن الأنبياء بروحانيتهم متصلون بالملائكة، وبماديتهم يتصلون بالناس، كما اتصلت العين بالضوء من جهة الهواء، واتصلت بالمخ من الداخل، واتجهت الصور منها إلى النفس فأدركتها، فهي قابلة موصلة، والأنبياء قابلون موصلون، فالله كلم الأنبياء بالملائكة وكلمنا بالأنبياء، ويشير إلى هذا المقام أيضاً ما جاء في سورة « النبأ »: ﴿ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾[النبأ: ٣٧-٣٨]. وبهذا نفهم الآيتين في أول السورة وآخرها، وهذا المقام من عجائب العلم والحكمة، إن الناس يرون هذا كله بأعينهم الجهال والعلماء، لكن لا يدركه إلا من انفتحت بصيرته إليه. انتهى الكلام على اللطيفة الأولى والسادسة.

اللطيفة الثانية والرابعة

في الكلام على التناسل واختلاف الذكور والإناث في الحيوان والإنسان ولطف الله في تغذيته

فمن الثاني جاء في كتابي « جواهر العلوم » في صحيفة ٩١ وبعدها وهذا نصه: فقال إبراهيم: اعلمي نورك الله بنور العلم أن الخالق جل اسمه جعل تركيب الأسماك مناسباً للمعيشة في الماء، كما جعل للطيور أجنحة تساعدها على الطيران في الهواء. فقالت: وكيف ذلك؟ فقال: إن الأسماك تحتاج في تصرفها في معاشها وتقلبها في أطوارها إلى أن تعوم في الماء من جهة إلى أخرى، أو تنخفض تارة وترتفع أخرى، أو تتجه يميناً ويساراً لتبحث عن غذائها أو تهرب من عدوها أو تطلب صيدها، فجعل الله سبحانه وتعالى لها عوامات كمجاذيف السفينة تشاهد في الأسماك في الجوانب وعلى الظهر ومن خلفها وحوصلة تسمى حوصلة العوم، وهي عبارة عن كيس مملوء هواء خالصاً تضغطه إذا أرادت أن تغوص في الماء فيصغر حجمها، وتمدده إذا أرادت أن تطفو على سطحه فيكبر حجمها وجعل ذنبها مستعداً لأن يديرها يميناً وشمالاً في البحر، فكما أن للسمكة عوامات تمخر بها الماء كذلك جعل للسفينة مجاذيف وشرعاً تسيرها حيثما أراد الإنسان، وكما أن لها ذنباً يكون موازناً لجسمها عند الانحراف يميناً وشمالاً كذلك جعلت الدفة « السكان » للسفينة حتى يسهل التفاتها يمنة ويسرة، فلو انقطع ذنب السمكة مثلاً ما أمكنها أن تنحرف إلى إحدى الجهتين بل تتجه دائماً جهة الأمام، ولو انعدمت عواماتها التي في جوانبها وعلى ظهرها لوقفت في مكان واحد وتعطلت عن اكتساب معيشتها. ومن العجيب أن الأسماك جعل شكلها على هيئة تناسب اختراق الماء، فلم تجعل رأسها مفرطحة حتى تقاومها لجج

المياه فتعوقها عن السباحة. فما أدق صنعته سبحانه وما أعظم رحمته! وكل حي يغدو ويروح في بحار نعمه مشمولاً بسوابغها. قال عز وجل: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴾[المؤمنون:١٧]، فعجائب الكون ظاهرة والناس عنها غافلون بلذاتهم وشهواتهم. قال عليه الصلاة والسلام: «لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات والأرض»، فالإبل مثلاً قصرت أذنابها لاستغنائها بطول أعناقها، وعكس ذلك في البقر، وكم من حكم ضربنا عن ذكرها صفحاً ليراجعها محب الحكمة في العلوم الطبيعية، ﴿ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ٢١٣].

فصل: في حكمة خلق الحشرات

فقالت: يا سيدي إني أعتقد أن كل هذه العوالم مؤسسة على حكم تحار فيها العقول، ولكن إلى الآن لم أصل إلى حكمة خلق الحشرات من نحو الزنابير والذباب والبعوض، فهل عثرت على ذلك في كتاب؟ قال: نعم، إن الله عز وجل يخلق الشيء لحكم كثيرة منها يعرف ومنها لا يعرف. أما هذه الحشرات كالزنابير والذباب وغيرها فإن حكمها كثيرة، منها أن العفونات الفاسدة التي على وجه الأرض لو بقيت لفسد الهواء وجاء الوباء وانتشر الهلاك وعم الخراب، فخلق الله سبحانه وتعالى تلك الحيوانات منها ليصفو لحمها ولا يعرض لها الفساد الذي هو سبب الوباء وهلاك الحيوان، ولذلك ترين الزنابير والديدان والخنافس في دكان القصاب «الجزار» والدباس أكثر مما يرى في دكان البزاز «القماش» والحداد، فاقتضت الحكمة الإلهية صرف العفونات إليها ليصفو الهواء منها ونسلم من الوباء. ومن الحكم العجيبة والأسرار الطبيعية الإلهية أنك ترين أن نحو الحيات والعقارب تسكن عادة وتكثر في الأماكن العتيقة والمحال الفاسدة، وهكذا خشاش الأرض من الخنافس والصراصير وغيرها، وترين «الناموس» لا يتولد إلا في المحال المستنقعة، وكذا الذباب يكثر في المحال القذرة، وذلك كله لطف من الله بعباده ورحمة بهم، فهذه كلها فضلاً عن كونها تحيل إلى جسمها المواد الفاسدة وتنقي الهواء؛ فهي من جهة أخرى مؤذية بطبعها، ينفر منها الإنسان، فتحمله على إزالة ذلك السبب، فكأن لسان حال الحيات والعقارب يقول: إن لم تصلح هذا المكان أو تخرج منه وإلا لدغتك.

ولما كان الهواء الفاسد الحامل للمواد المضرة لا يحس الإنسان بضرره فيحدث الضرر في الأجسام أو يميت الإنسان وهو لا يشعر به، جعل الحكيم الخبير تلك الحيوانات وأودع فيها سماً يحس بألمه الإنسان، فيتنبه فيتخذ الاحتياطات اللازمة للابتعاد عنه، وهو مع ذلك لم يقصد منه إلا البعد عن تلك الأماكن العفنة، فضلاً من الله ونعمة. وهكذا نرى أن من على وجهه قذر يعلوه الذباب لينقي ما عليه، وخلق في الإنسان كراهية طبيعية لذلك حتى يضطر أن يغسل وجهه فيزيل ذلك القذر، فكأن الذباب شرطي «جندي» يلازم أهل القذر ويأمرهم بالنظافة وإلا ضربهم بسوط يؤلمهم وهو الكراهية الشديدة.

فسبحان من أودع في كل صغير وكبير من الحيوانات من الحكم والغرائب ما يجهله أكثر الناس وهو نافع لهم، ولذلك ضرب الله بهذه الحيوانات الأمثال حتى قال: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤١]

فأنكره الجاهلون من المشركين، فرد عليهم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾[البقرة: ٢٦]. ثم بين أن الذين يفهمون ذلك هم العالمون، فقال في آية أخرى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٤٣-٤٤]، فأفاد بهذه الآية أنه لا يفهم تلك الحكم إلا أصحاب النفوس العالية الشريفة الناظرون في ملكوت السماوات والأرض، الذين عبر عنهم بـ« العالمون » بكسر اللام.

هذا، ومن عجيب الحكم أنه عز وجل جعل صغارها مأكولة لكبارها، ولولا ذلك لامتلأ وجه الأرض منها، فليس في ملكه ذرة إلا وفيها من الحكم ما لا يحصى. وأعجب من هذا أن كل ما جعل سبباً لهلاك حيوان جعل لحمه سبباً لدفع ذلك السم، فإن الأطباء الأقدمين قالوا: إن في لحم الحيوان قوة دافعة لسمه، فأدخلوا لحمها في الترياق، والتجربة تشهد أن من لدغته عقرب يلطخ الموضع برطوبة لحمها فيسكن ألمها في الحال. ثم إن هذا النوع من الحيوانات يختلف حالها عند الشتاء، فمنها ما يموت من برد الهواء كالديدان والبق والبراغيث، ومنها ما يكمن فيه ولا يأكل شيئاً كالحيات والعقارب، ومنها ما يدخر ما يكفيه لشتائها كالنحل والنمل، فتأملي تلك الأفعال العجيبة، واعلمي أن هذا العالم كله حكم ومصالح، ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣]، فربما ظهر للخاصة من حكمه ما لا يظهر للعامة، وظهر لخاصة الخاصة ما لا يظهر للخاصة، فإن من رأى تلك الحشرات الصغيرة لم يدر في خلده أن لها بعض تلك المنافع والحكم، من تلقيح الأشجار وإصفاء الجو من العفونات، فهي من المعينات على مأكلنا وبقاء حياتنا، وإن من أجل الحكم وألطفها وأدقها أكل الحيوانات بعضها بعضاً، فكم في الجبال والأودية والسهول والقفار من حيوانات لو بقيت جثثها لفسد الهواء، ثم هبت الرياح إلى ما جاورها من البلاد وعم الخراب. ولذلك قال الشيخ كمال الدين الدميري في « حياة الحيوان الكبرى »: إن الذئب يصيد الثعلب فيأكله، والثعلب يصيد القنفذ فيأكله، والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها، والأفعى تصيد العصفور فتأكله، والعصفور يصيد الجراد فيأكله، والجراد يلتمس فراخ الزنابير فيأكلها، والزنبور يصيد النحلة فيأكلها، والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها، والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها. اهـ. على أن ذلك فضلاً عن تصفية الجو تغذية الحيوانات وعدم ضياع ذلك الجسم سدى بلا فائدة، فلو ترك بلا أكل لتعطلت حكمته، إذ ليس في الملك ما تضيع حكمته البتة، ففيه دفع مضار وجلب منافع. اهـ.

ومن الأول ما جاء في كتاب جواهر العلوم أيضاً، وهذا نصه: ومن عجيب صنائعه كيفيات التناسل التي ليست على نمط واحد، فإن من الحيوانات ما يتم جنينه في داخل جسده ثم يلده كالحيوانات اللبونية، ومنها ما تخرج بيوضها منها ثم يتخلق الجنين فيها مهيئاً له داخلها جميع ما يلزم من الغذاء وذلك كالطير وبعض الحيات. ومن ذلك كيفيات الإلقاح وتغذية الجنين فإنها كيفيات متباينة تؤدي إلى مقصود واحد، فبعض الحيوان لا يتم تلقيح ذكره إلا إذا وصل المني في باطن الأنثى، ولو تعرض للهواء لفسد، كالإنسان وكثير من الحيوان، ومنه ما يلقي منيه على بيض أنثاه بعد خروجه منها فلا يفسده

الهواء، ومنه ما سفاده في وقت معين، ومنه ما لا تعيين لوقته، ومنه ما يعلو أنثاه عند السفاد، ومنه ما يدابرها، ومنه ما يلصق جنبه بجنبها ويحاكها حتى تلقي بيضها وهو يلقي منيه على تلك البيوض فيلقحها وذلك كبعض الأسماك، ومنها ما يغذي صغاره بلبن أعده الخالق الحكيم الرحمن الرحيم في ثدييه أو أثديته التي تكون على عدد أولاده في الغالب، ومنه ما يزق أولاده زقاً كالحمام، ومنه ما يسعى بأولاده ويدلها على أقواتها كالدجاج، ومنه ما يشترك في تربية أولاده الذكر والأنثى، وذلك عندما تكون أولاده غير قادرة على السعي من أول ولادتها، وذلك كالعصافير والحمام والإنسان، لأن انفراد الواحد بالتربية مع سعيه على رزقه أيضاً يكلفه فوق طاقته، ومنه ما تنفرد أنثاه بالتربية، وذلك عندما تكون أولاده قادرة على السعي، وذلك كالدجاج والحجل. فإذا تأمل العاقل هذه العوالم وجدها تسعى لمقصود واحد خاضعة لإرادته متجهة لنظام الكون متعاونة على إكماله، فالعلويات والسفليات مرتبطة ارتباطاً تاماً بقوانين الجذب العام والتثاقل وعقول بني آدم وإدراك الحيوانات وما بينها من المحبة والألفة والشوق. فالجذب العام كمحبة عمومية بين جميع أجزاء العلويات والسفليات، وحب الحيوانات لبعضها وشوقها وروابط جزئية بين أجزاء صغيرة من هذا الكون، فكل ما تراه في الحقيقة إنّما يسعى للنظام التام وهو يظن أنه يسعى لمصلحته الخاصة. انتهى ما أردته من كتابي جواهر العلوم.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾

اعلم أن هذه الآية قد كنت رأيت في المنام منذ نحو ٢٧ سنة حينما كنت أؤلف كتاب جواهر العلوم وأنا مقيم بالجيزة أن قائلاً قرأ هذه الآية أمامي، وألقى في نفسي أن معناها ما تقدم من أن النظام تام في هذه الدنيا، وأن الأحكام الشرعية والقضاء تكون على حسب الظاهر ولم يبق إلا الباطن، فيرجع إلى النظام العام وهو يكون يوم القيامة. ولذلك لما استيقظت من النوم كتبته ثم أدرجته في الكتاب، فأنا اليوم أحمد الله عز وجل إذ حييت على هذه الأرض حتى أتيح لي تفسير القرآن ووصلت إلى نفس الآية، وأقول الآن: إني لما استيقظت من النوم إذ ذاك وفكرت في الآية، لم أكن لأصدق أن الآية كما رأيت في النوم، بل ظننت أنها حصل فيها تغيير، فلما سألت مدرس القرآن بالمدرسة قرأها لي كما رأيت، ونظرت المصحف فوجدتها كما هي طار قلبي فرحاً، وكتبت المعنى في كتابي «جواهر العلوم» وقد كتمته في نفسي، وهاأنا ذا اليوم أكتب لك ما جاء في «جواهر العلوم»، وإن لم أذكر فيه من أين جاء، وهذا نصه:

الفصل السادس عشر:
في الاستدلال على اليوم الآخر وعلى وجود الله بأدلة عقلية قريبة غريبة

ثم قال إبراهيم: قد تكلمنا في مجالسنا السابقة على كثير من دلائل قدرة الله عز وجل، وهي في الحقيقة أدلة عقلية، فهل عندك من دليل غير ما يذكرونه في كتب علم الكلام بحيث يكون مقنعاً للعقول فأنا كثيراً ما أسمع قولهم في كتب التوحيد: إن دليل الآخرة سمعي، أي: إننا نأخذه من الأدلة الشرعية لا من العقل. قالت الفتاة: أنا لا يمكنني أن أقول غير ما سطر في كتب التوحيد. فقال إبراهيم: أنا قد

خطر لي دليل لا يفهمه إلا أولو الألباب والراسخون في العلم . فأشرق وجه الفتاة وقالت : هات ما عندك . فقال : من نظر بعين البصيرة ، فيما أودع في هذا العالم من الحكم والعدل والقوانين السارية في العلويات والسفليات والحيوانات ولغاتها وإدراكاتها وعقولها ، حكم بالبداهة على أنها جارية على نواميس حقة وحساب منتظم دقيق ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، هذه الكواكب والشمس والقمر سابحة في مداراتها على قوانين لا تقبل التغيير والتبديل . ثم لننقل نظرنا إلى السفليات نجدها حذت حذو العلويات في النسق والترتيب والنظام ، فأي حيوان تعدى طوره وأي نبات تجاوز سنته . ثم لننظر العقول البشرية نجدها مفطورة على حب العدل والنظام وحذت حذو ذلك النظام الأعلى ، فلا ترى إنساناً على وجه الأرض إلا واستحسن العدل واستقبح الجور ، ولذلك ترى أرباب القوانين المخترعين لها من نوع الإنسان بل المستنبطين لها في الحقيقة من الشرائع الإلهية يبحثون على بواطن القضايا كظواهرها ، هذه الدول الغربية أمامنا ، كم ينفقون الأموال ويرسلون إلى الجهات المتباعدة من يبحث على الجاني ولو أنفقوا ما أنفقوا ، وكل ذلك لميل العقول إلى العدل ، وأن يجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وما لنا ولأرباب القوانين والسياسة ، فلننظر إلى سيد العائلة فإنه يعاقب على ذنوب أهل منزله ويجازي كلًا بما فعل ، بل أي إنسان ولو من أضعف الناس عقلاً وأقلهم إدراكاً ؛ رأى رجلاً يضرب آخر فإنه لا يتمالك نفسه أن يأخذ بناصر الضعيف ، ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم : ٣٠] . دعنا من الإنسان وانظري الحيوانات ، فإنه مركوز في جبلتها العدل أيضاً ، لما شوهد كثيراً فيها ، بل كثيراً ما علم أنها تعاقب بالقتل على التهمة بالزنا وغير ذلك مما هو مشاهد ، فثبت أن هذه الفطرة منبثة في كل حي على وجه البسيطة ، بل هي من الموازين التي قامت بها السماوات والأرض واستقر بها كل موجود .

ومن المعلوم لكل من اطلع على علم الهيئة والفلك والنبات والحيوان والإنسان وعلوم الأحكام والمنطق وعلوم الأدب كاللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع وغيرها ، أن هذه العلوم كلها قوانين تدلنا على سريان النظام في كل شيء من الموجودات ، وعلى نهجها وضعت قوانين للمجرمين في هذا العالم ، وتجري على يد الإنسان ، ولكنها مهما بالغ العقلاء فيها لا تحكم إلا على الظواهر ، ولا يمكن وصولها إلى الحقائق بوجه ما ، فهي أشبه شيء بالجمال الظاهري ، فإنه يدل في الغالب على الجمال الباطني ، ومن غير الغالب قد تختلف القضية ، فكذلك الأحكام بالقوانين الشرعية أو الوضعية تابعة لأقوال الشهود والقرائن ودلالتها ظاهرية فقط ، وقد قدمنا أن كل شيء في العالم يسير على نهج الحق والصدق والميزان العدل ، فلا بد أن يكون لباطن هذه القضايا حاكم يحكم فيها في وقت آخر حتى يكون ميزانها على حسب الموازين الأخرى الصادقة من العلويات والسفليات ، وأيضاً قد تقرر أنه لا يضيع شيء سدى في هذا العالم كما هو مقرر في العلوم الطبيعية ، فلا تضيع حركة ولا حرارة ولا كهربائية قط ، بل تنقلب الحركة حرارة والكهربائية تكون حرارة ثم ضوءاً ، فهكذا تنقلب هذه الأعمال في الآخرة نعيماً أو عذاباً أليماً ، فتذكروا يا أولي الألباب ، فلم تضيع أفعال العباد والذين لم يؤخذ بناصرهم ، أو الذين أحسنوا في هذه الدنيا .

ومن تأمل فيما قلناه فهم معنى قول الشاعر:

من يزرع الشر يحصد في عواقبه ... ندامة ولحصد الشر إبان

وقول الآخر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

وقول الآخر:

الخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

ألا ترين أن زارع الورد لا يجني الشوك وزارع النخل لا يجني الذرة. وعلى هذا القياس ترين النفوس تتأثر بأقوالها التي تصدر منها حسناً وقبحاً، فمن أكثر من ذكر شيء أحبه، بل خاطر الإنسان يؤثر على أخلاقه شرفاً وضعة. فعلمنا أن هذه القاعدة مطردة في المحسوسات والمعقولات وجميع الموجودات ومن فهم ما قدمنا جزم يقيناً أنه لا بد من يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين حتى يقوم بين الناس بالقسط، لما ثبت أن كل هذا العالم قائم بالعدل، وبقيت أفعال الإنسان لم توزن إلا وزناً ظاهرياً فلا بد من وزن آخر ليكون فصلاً حقاً بميزان عدل لا يخس شعيرة. وكيف ينتقم رئيس الأسرة وسيد العشيرة من المسيء ويحسن إلى المحسن ولا يفعل ذلك رب الأرباب، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[ص: ٢٨]، ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[القلم: ٣٥-٣٦]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون: ١١٥]، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية: ٢١]. ثم إن كل ما صرحت به أو لوحت في هذه المقالة من بحر آية من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾[الشورى: ١٧] قد فسر بالعدل والتسوية كما في الخازن والنسفي، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[الشورى: ١٧]، فليتأمل العقلاء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[الشورى: ١٧] بعد قوله: ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾[الشورى: ١٧]، وليلاحظوا ما ذكرناه في هذه المقالة، يظهر وجه هذا التعقيب العجيب. ثم أعقب ذلك بقوله جل شأنه: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾[الشورى: ١٨] يخاصمون فيها أو يشكون ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[الشورى: ١٨] عن الحق، لعدم فطنتهم وإدراكهم موازين هذا العالم وفطرة حيوانه على الجزاء وعدم تدبرهم ما أنزل في الكتب السماوية المطابقة تمام المطابقة لما يرى في العوالم بالعقل والنظر الصحيح، على أن لنا وجهاً آخر في ذلك وقد عرضته سابقاً على أكابر العقلاء والعلماء فاستحسنوه جداً، وهو أن كل بني آدم على أي دين نراهم يحبون تخليد أسمائهم إما نقشاً على الأحجار أو في الكتب المؤلفة أو على ألسنة الناس، وأيضاً يحبون الخلود وطول الأعمار ولا نرى أحداً يحب الفناء إلا من شذ شذوذاً بيناً، ثم ذلك الشذوذ لا يدوم، وأيضاً نرى جميع أهل الأرض قاطبة يزورون موتاهم ويتصدقون على أرواحهم، وإذا نظرنا إلى هذه الفطر الثلاث المنغرسة في نفوس البشر دلتنا دلالة واضحة على أن لنا بقاء بعد موتنا، إذ جميع فطرنا التي فطرنا عليها صادقة وليس فيها

كاذبة البتة. ولعمري لا يفهم ما قلناه إلا من درس جميع العلوم وعرفها حق معرفتها، ألا يرى شهوة الغذاء والتناسل والغضب وما فينا من حياء وجبن وكبر وشجاعة وغير ذلك، فكل هذه الفطر خلقت فينا لمصالح صحيحة ومنافع عظيمة، وكلها فطر صادقة كما يعرفه أهل العلم، فكذلك هذه الفطرة، فحبنا البقاء وتخليدنا أسماءنا دليل على أن لنا بقاء بعد الموت، وزيارة الأحياء للأموات وعموم هذه العادة في جميع بني آدم دليل على وجود أرواح الأموات، وإلا فما هذا التهافت على المقابر والتصدق على الأموات. ولنا وجه آخر وهو أننا لا نقنع في هذه الدنيا بمال ولا علم مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: «منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال». وكل نفس من النفوس البشرية تستشعر في نفسها حب لذة أعلى من جميع اللذات في العالم المشاهد لها، بدليل أنها لا تقف عند حد محدود، بل كلما ارتفعت زهدت فيما وصلت إليه وأحبت أعلى منه، وما سمعنا بأن أحداً قال غير هذه العبارة: هل من مزيد؟ فهذا لاستشعار النفوس جميعها بأن لها لذة أعلى من هذه، فلا بد أن تكون في عالم آخر الذي يطابق وصفه ما أحبته النفوس وحنت إليه.

وهذه الأدلة كلها لم أرها في كتاب وإنّما هي سوانح، ويقرب من هنا أن كافة بني آدم يميلون إلى عبادة الخالق في كل صقع من أصقاع الأرض، حتى أهل جزائر المحيط الهادي الذين تباعدت ديارهم عن المتمدنين، وإنّما اختلافهم في تعيينه، فمنهم من ظنه شجراً ومنهم من ظنه تمثالاً ومنهم مما لا يحصى كما هو معلوم مستفيض شائع، ولا شك أن هذه الفطرة وحدها كافية للاستدلال على صانع هذا الملك العظيم. فأعجب الفتاة ما قال إبراهيم وقالت: ما سمعت أدلة أوضح وأبين من هذه. اهـ ما جاء من كتابي جواهر العلوم.

فالحمد لله الذي وفقني إلى تأليف هذا التفسير، والشكر له على أني عشت حتى وصلت إلى تفسير هذه الآية، وذكرت ما كان خطر لي منذ ربع قرن فأكثر؛ وما كان ليخطر لي إذ ذاك أني سأكتب هذا أو أنشره بين الناس، فالحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

أذكر في هذا المقام ما اتفق لي أثناء هذا التفسير، إذ ألغى الترك دولة الخلافة، وأقاموا الجمهورية مقامها، وكتب المسلمون في ذلك. وطلب مني بعض أصحابي أن أكتب في هذا الموضوع، فكتبت رسالة في جريدة «المقطم» وقد تقدمت في سورة «النساء».

هذا ولنذكر هنا ما جاء في جريدة «وادي النيل» يوم الخميس ٢٩ ربيع أول سنة ١٣٤٧ هجرية الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٨ في معنى هذه الآية. وإنّما ذكرناه هنا لما فيه من الأخبار لزيادة الفائدة، فقد جاء فيها ما نصه:

الدين والدستور

جاءتنا هذه الرسالة ونحن ننشرها عملاً بحرية النشر، محتفظين برأينا الذي أبديناه من قبل في هذا الموضوع

ثارت مناقشات عنيفة بين الشيخ محمد شاكر والسيد وحيد الدين الأيوبي في مرجع الضمير من قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[آل عمران: ١٥٩] فجعله الأول خاصاً بأولي الرأي المعتد بهم في الإصلاح، وجعله الثاني عاماً لجميع الأفراد ومع كثرة المقالات في أعداد المقطم واتساع نطاقها خرج الفريقان من الميدان على غير نتيجة للقراء.

ولما كان البحث دينياً يجب تمحيصه لخلوص العقيدة انتظرنا العودة إليه من غيرهما فلم يكن، فكان حقاً علينا وعلى جريدة وادي النيل بالأخص ـ لأنها المدافعة عن الدين الإسلامي والشرق ـ أن نفتح هذا الباب مرة أخرى لفحص علله وضمائره، فنقول: إن المشاورة في الأمر هي المشاركة في الآراء للحصول على النتائج النافعة لاقتنائه أو الضارة لاتقائها، ولن تكون كذلك إلا من أهل الحكمة والفقه والتقوى والأمانة، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[النحل: ٤٣].

وروى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ـ أي وزيران ـ بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى». قال في القسطلاني: فيؤخذ من هذا الحديث مشروعية أن يكون عند الحاكم أهل مشورة من أهل التقوى والعلم والأمانة. اهـ.

وقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم خواص أصحابه في غزوة بدر ثلاث مرات ولم يستشرهم كلهم. وفي ثالث مرة قال له زعيم الأنصار سعد بن معاذ: يا رسول الله، كأنك تعرض بنا، ولعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها ألا تنصرك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئت وخذ من أموالنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تابع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من عمان لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك. وقال له المقداد: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك، ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين وإني قد رأيت مصارع القوم». اهـ.

وروى البخاري «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين أذن له المسلمون في عتق سبي هوازن وكانوا جاؤوه مسلمين وطلبوا منه أن يرد عليهم سبيهم وأموالهم: فمن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل. فقال الناس: قد طيبنا. فقال صلى الله عليه وسلم: إني لا أدري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم. فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم فرجعوا ـ أي العرفاء ـ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه أن الناس قد طيبوا وأذنوا له أن يحق السبي». اهـ من الفتح.

وكان هؤلاء العرفاء زعماء المجاهدين وكلمتهم نافذة، ولم يرجع العرفاء لكافة المسلمين في هذا الحكم الديني بل إلى البعض، ويشترط في العريف أن يكون كفؤاً عالماً فطناً وقوراً له رأي بارز لأنه عضو عامل في المملكة كالعضو العامل في الجسد، ولكل عضو من الجسد خاصية يمتاز بها عن غيره.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد هممت أن أبعث إلى الأمم رجالاً يدعونهم إلى الإسلام ويرغبونهم في الدين، فأبعث ابن أبي كعب وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل كما فعل عيسى ابن مريم عليهما السلام. فقالوا: يا رسول الله أفلا تبعث أبا بكر وعمر رضي الله عنهما. فقال صلى الله عليه وسلم: لا بد لي منهما، هما مني بمنزلة السمع والبصر». اهـ. يعني أن يستشيرهما في الأمر وهما خواص من خواصه في الشورى، ولو كانت عامة لاستغنى عنهما بغيرهما.

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله عليكم» رواه مسلم. والمناصحة: هي المشاورة في الأمر، والناصح لا يكون جاهلاً أو مفسداً. وقال صلى الله عليه وسلم: «العرافة حق، ولا بد للناس من عريف والعرفاء في النار» رواه أبو داود. قال في الفتح: قوله: والعرفاء في النار؛ يشعر بأن العرافة على خطر، ومن باشرها غير آمن من الوقوع في المحظور، وترك الإنصاف المفضي إلى الوقوع في المعصية، فلهذا يجب أن يكون من ذوي الأمانة والعلم والتقوى.

ولما طعن سيدنا عمر رضي الله عنه قيل له: استخلف. قال: إن هذا الأمر شورى بين ستة رهط من قريش. وأرسل إليهم وهم: علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله ـ وكان غائباً ـ والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وحينما اجتمعوا لديه ـ ما عدا طلحة ـ قال: يا معشر المهاجرين الأولين، إني نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً، فإن يكن بعدي شقاق ونفاق فهو فيكم، تشاوروا ثلاثة أيام، فإن جاءكم طلحة إلى ذلك وإلا فأعزم عليكم بالله لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم، فإن أشرتم بها إلى طلحة فهو لها أهل، وليصل بكم صهيب هذه الثلاثة أيام التي تتشاورون فيها، فإنه رجل من الموالي لا ينازعكم أمركم، وأحضروا معكم من شيوخ الأنصار، وليس لهم من أمركم شيء، وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس فإن لهما قرابة، وأرجو البركة لكم من حضورهما وليس لهما من الأمر شيء، ويحضر ابني عبد الله مستشاراً وليس له من الأمر شيء.

ثم قال: إن الناس لن يعدوكم أيها الثلاثة ـ يعني عثمان وعلياً وعبد الرحمن ـ ثم قال: فإن كنت يا عثمان في شيء من أمر الناس فاتق الله ولا تحملن بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس، وإن كنت يا علي فاتق الله ولا تحملن بني هاشم على رقاب الناس، وإن كنت يا عبد الرحمن فاتق الله ولا تحملن أقاربك على رقاب الناس، ومن تأمر من غير إمرة فاقتلوه. اهـ. فحصر سيدنا عمر الشورى في ستة رهط فقط، والتمس منهم إحضار بعض من يوثق بآرائهم وتلتمس بركاتهم، مع أن الأمر في الخلافة هو أهم ما يستشار له ويهتم به كافة المسلمين. اهـ.

أمين إبراهيم الأزهري

اللطيفة السابعة: في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾

لقد عرفت مجمل ما قاله العلماء في الآلام التي تصيب الأطفال والبهائم والإنسان. وأزيد الآن أن بعض علماء الإسلام يقول: إن الأطفال والبهائم لا تألم. وهذا القول قال به بعض علماء

أوروبا من الفلاسفة وعملوا تجارب على ذلك . ومنهم فيلسوف ألماني عظيم كان يقطع عضواً من أعضاء الكلبة بلا شفقة ولا رحمة وهي ترضع ولدها ، ولم يلهها قطع رجلها عن إرضاعها ولدها فكان هذا بعض أدلتهم .

ولأذكر لك الآن طرق النوع الإنساني في حال الإنسان . فإن القرآن قد فتح المجال ليرقي العقول . اعلم أن أمم الهند ترى أن الناس بعد الموت يبقون في حال أشبه بما كانوا عليه في الدنيا من الأخلاق ، فإن كانوا أشراراً عاشوا عيشة بطريق التناسخ تكون عقاباً لهم . والأخيار يعيشون في حال أجمل ، حتى إذا خلصوا من المادة رجعوا إلى ربهم .

إليك خلاصة ما أثبته العلامة « جاكوليو » و« ديبوا دي جانسيني » و« هالهدوسيسة » و« برونوف » و« روديه » و« بونسن » وكثير غيرهم . أثبت هؤلاء أن الهنود تركوا تعاليم عجيبة وفلسفة وحكمة . ومما كانوا قد اعتادوه أنهم كانوا يؤرخون موت ملك أو انتخاب « براهماتما » أي : بابا البراهمة ، أن يسطروا على كتاب خاص النقطة التي بلغتها الشمس في منطقة فلك البروج في الدرجة والدقيقة والثانية . يقول مؤلف الكتاب : إن معنى هذا أنهم كانوا يراعون مبادرة نقطة الاعتدال التي تتقدم كل نحو ألفي سنة برجاً واحداً . وفي نحو (٢٥) ألف سنة (١٢) برجاً . ويقول علماء الهند : إنها (٣٦) سنة لا (٢٥) سنة ، فلنرجع إلى ما نحن فيه فنقول :

إن هؤلاء الهنود لهم أربعة أسفار مقدسة عندهم ، يقولون : إن الله واحد ، قيوم بذاته . موجود في كل الكائنات ، لا تصيبه الحواس المادية ، بل الروح وحدها ، وهو المنزه عن كل ما يرى .

وقال كولوكا الهندي : إن المؤمنين الأقدمين مع أنهم ألهوا الطبيعة لم يعتقدوا إلا إلهاً واحداً مبدع الكائنات ، أزلياً غير مادي ، حاضراً في كل مكان ، منزهاً عن كل كدر وهم . وهو الحق بذاته ومنبع كل عدل وحكمة . مدبر الكل ، والمرتب نظام العالم . لا شكل له ولا صورة ولا حد ولا نسبة .

وكان البراهمة يقولون لمن دخل عندهم في الدرجة الثانية هكذا : يا بني إنه لا يوجد إلا إله واحد فقط رب الجميع ، وعلة الكائنات ، والواجب على كل برهمي أن يعبده في الباطن . وهذا سر يجب عليك كتمه عن الغامة والجهال .

ومن تعاليمهم : إن الكائنات نشأت من الله ، وإلى الله سوف تعود بواسطة الترقي والنشوء الدائم ، والنفس عند انفصالها من البدن لا تفقد المادة تماماً وإلا لهلكت في الكون العظيم ، بل يبقى لها جسم مصوغ من النار ، والإنسان شرارة أو شعاع من النار الإلهية تبقى مع جسمها اللطيف البهي ، ثم بعد زمن تتحد بجسد جديد منظور عندما يأتي وقته . اهـ .

فانظر وتعجب كيف وحدوا الله كما نوحد نحن ، وكيف يقولون : إن الميت تكون روحه في جسد ناري بهي جميل . ولعل هذه النفس هي الصالحة وتكون الشقية معذبة بذلك الجسم الناري ، كما أن حرارة الشمس تنفعنا تارة وتؤذينا تارة أخرى . وانظر كيف يقولون : إنه يرجع بعد زمن جسماً منظوراً . وهذا هو البعث عندنا في دين الإسلام إما إلى الجنة وإما إلى نار حسب الأعمال . وكانت لهم عبادة قلبية وأخلاق ذكرها « مانو » المشترع الفيلسوف قبل موسى عليه السلام بآلاف السنين : الصبر

ومقابلة الإساءة بالإحسان، والقناعة، والاستقامة، والطهارة، وكبح جماح الحواس، ومعرفة الكتب المقدسة، ومعرفة الله، والصدق، واجتناب الغضب. فهذه هي الوصايا العشر عندهم، وبها يخرج الإنسان من العذاب بعد الموت.

وكان للهنود نساك ينفردون في الغابات. ويعبدون الله. ويفسرون الكتب الدينية. ويعرفون أسرار الطبيعة. ولهم بقية الآن. وعلى هؤلاء تعلم «خريستا» وهو أول مؤسس دين ظهر في التاريخ سنة ٤٨٠٠ قبل الميلاد المسيحي، فهاك بعض تعاليمه مما يخص ما نحن فيه أو ما يقرب منه. قال: إن الجسد فيه النفس وهو زائل وهي باقية، النفس سرمدية لا وزن لها، ونصيبها بعد الموت يرجع لسر التناسخ إذا انحل الجسد عن الروح، فإن غلبت الحكمة على النفس طارت إلى الأقطار العلوية ورأت الله، وإن كان الهوى متملكاً رجعت إلى الذين هم متعلقون بالأرضيات، والمولود شقياً كان أو سعيداً نتيجة عمل سابق.

وهنا سر أعظم من هذا، وهو أنه من رام بلوغ الكمال فليكسب علم الوحدة التي هي أجلّ من الحكمة، أي: يلزمه أن يتعالى إلى الكائن الأسمى الذي هو فوق النفس المستقر في كل منا، إن في باطنك صديقاً إلهياً لا تعرفه، لأن الله مستقر في باطن كل امرئ، ولكن قلّ من يعرف أن يجده، فمن يضحي رغباته وأعماله للكائن الأزلي الذي منه نشأت مصادر الأشياء كلها وبه تكون العالم، ينال بهذه التضحية الكمال، لأن من يجد في ذاته سعادته وفرحه ونوره فهو واحد مع الله، فاعلموا إذن أن النفس التي وجدت الله تعتق من المولد والموت والشيخوخة والألم وتشرب من ماء الخلود.

ثم جاء قبل التاريخ المسيحي بستمائة سنة «بوذا» المسمى «ساكياموني سودوادانا» ملك «كابيلافاستو»، فلما بلغ العشرين من عمره أخذ يتأمل في حال شعبه، وما دخل في الدين من الطقوس والخرافات، وله وصايا عشر وتعاليم أشبه بما تقدم، ووصاياه هي: لا تقتل. لا تسرق. كن عفيفاً. لا تشهد بالزور. لا تكذب. لا تحلف. تجنب كل كلمة نجسة. كن خالي الغرض. لا تأخذ بالثأر. لا تعتقد اعتقادات باطلة. اهـ.

لعلك تقول: هانحن أولاء اطلعنا على الدرجات الثلاث لدين البراهمة، فما فائدة ذكرها هنا؟ أقول لك: ذكرتها لتنظر في تعاليم الأمر وتفكر في العقائد والأخلاق، انظر إلى عقيدة التناسخ، فإن الدين القديم قبل ظهور «خريستا» لا نص على التناسخ فيه، بل قال: إن الروح لها جسم ناري بهي وتبقى أمداً حتى تلبس جسماً منظوراً متى قضت بذلك شريعة الله، ولم يقل جسماً بعد جسم، فلا تناسخ ولا أجسام. فهذه الشريعة أشبه بشريعة الإسلام إذ جاء فيها: إننا نعذب أو ننعم إلى يوم البعث ويكون لنا أجسام منظورة.

ثم انظر لما جاء خريستا، ماذا فعل؟ تكلم عن التناسخ. أي أن الإنسان بعد الموت إذا كان مذنباً يدخل في جسم أرضي ويعيش مثل ما نعيش نحن. ويعتبر هذا قضاء لذنوب ارتكبها. وكل مصيبة تصيبه تكون لأجل ذنب مضى.

انظر كيف يتوسع صاحب الدين المتأخر في المعنى الذي قاله المتقدم: ثم انظر من جهة أخرى إلى وصايا «خريستا» وإلى وصايا «بوذا»، فوصايا خريستا أرقى لأنها ترجع إلى العلم والأخلاق الباطنة، ووصايا بوذا ظاهرية كالحلف وما أشبهه. فكأن القوم أيام «خريستا» كانوا أرقى، وانظر إلى أمتنا الإسلامية كيف كان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يراعون البواطن من الإخلاص والصدق، وكيف تأخر المسلمون اليوم فلم يعرفوا إلا العبادات الظاهرة، وأكثرهم عن البواطن معرضون فلا يحاسبون عليها.

ثم انظر نظرة إجمالية في قول الهنود: إن الله في باطن كل امرئ. وانظر كيف يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام: ٣]، ويقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد: ٤]، وكيف يقولون: إن الإخلاص لله هو الذي يعتقنا من العذاب. وانظر إلى القرآن كيف كان كله على هذا النمط.

انظر إلى علماء الإسلام رحمهم الله تعالى ووازن بين آرائهم وآراء الهنود لتقف على الحقائق انظر كيف يقول علماء الهنود المتأخرون فيما تقدم: إن المولود يكون على حسب ما كان له في التجسد السابق. إن كان شريراً يكون هنا في ذل، وإن كان صالحاً يكون في حال سعيدة.

وانظر إلى علمائنا رحمهم الله تعالى كيف نظروا الآية التي نحن بصددها وهي: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[الشورى: ٣٠] الخ، فقال قوم منهم: إن الإسلام لا تناسخ فيه، وهم جمهور الأمة، فحصول هذه المصائب ليس بذنب سابق وإنّما هو امتحان وتكليف لا عقوبة، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[الشورى: ٣٠] أي: إن الإصلاح عند إتيانكم بذلك الكسب إنزال هذه المصائب عليكم لأن الدنيا ليست دار جزاء بل هي دار تكليف.

وقال أهل التناسخ من أمة الإسلام: إن هذه الآية تفيد التناسخ، ألا ترى أن الأطفال والبهائم يحصل لهم الألم فلا بد أن يكون لهم وجود سابق، والألم نتيجة ما كانوا عليه سابقاً.

وقال الذين ينفون التناسخ: كلا. فالبهائم والأطفال لا ألم عندها. والقول بالتناسخ فاسد.

وقالت طائفة: دعونا من هذا كله، يقول الله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[الشورى: ٣٠] هذا الخطاب للعقلاء، فأي دخل للبهائم والأطفال.

رأي المؤلف

اعلم أن الأمم من هنود ومسلمين وغيرهم إنّما يكلمون الناس على قدر عقولهم حتى نفس الأرواح كما سيأتي وإلا فالنتيجة واحدة. وإيضاحه أنه إذا فرضنا أن الناس كان لهم وجود سابق وأذنبوا فيه.

فما الذنب إلا من النقص في النفس. ولو كانت كاملة ما أذنبت. فلو قيل نقصها نشأ من الذنب السابق نقول يلزم التسلسل وهو مستحيل. فالأصل هو النقص، والله سبحانه وتعالى يرقي النفوس بالألم كما يرقيها بالعلم والعمل، وغاية الأمر أن علماء الأمم لا يريدون أن يزيدوا على ما ورد في كتبهم، والله أعلم.

آثار هذه الآية في الأمة

عن الحسن رحمه الله قال: دخلنا على عمران بن حصين في الوجع الشديد فقيل له: إنا لنغتمّ من بعض ما نرى. فقال: لا تفعلوا، فوالله إن أحبه إلى الله أحبه إلي، وقرأ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[الشورى: ٣٠]، فهذا بما كسبت يداي، وسيأتيني عفو ربي. اهـ.

ولعلك تقول: وما رأيك في هذا المقام؟ أقول لك: أما رأيي الذي ألقى الله عليه فهو أمر عام واحد لا غير، وهو أن النفس الشريرة تلاقي ألماً، والنفس الفاضلة تلاقي خيراً، وهذا هو المعبر عنه بجهنم والجنة، وجهنم ليست خاصة بالنار، بل ورد فيها الزمهرير، وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم: إنهم يحرقون بالزمهرير كما يحرقون بالنار. وهو عجيب جداً، لأن العلم الطبيعي أثبت هذا وهو أن البرد الشديد يحرق الأجسام كالنار وهكذا فيها الحيات والعقارب. وجميع أنواع العذاب الروحي والجسمي، والجنة بالعكس فيها جميع أنواع اللذات. يقول الله: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾[الزخرف: ٧١]، ويقول: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة: ١٧].

فالمسلم عليه أن يعتقد الاعتقاد العام وهو سهل بسيط أن يفعل الخير بقدر الإمكان ويحترس من الشر ويرتقب رضاء الله.

رأي الأرواح

واعلم أن العلماء الذين يحضرون الأرواح يرونهم مختلفين في هذه المسألة، فمنهم من يقول: هناك تناسخ. ومنهم من يقول: كلا. وهذا إما أنهم حجبوا عن الحقيقة، وإما أنهم عرفوا، ولكن كل يعطي تعاليمه على حسب ما يرى من السامع. ونحن نقول: ما لنا ولهذا كله، لا نهتم بالتفصيل، فلنجد لنخلص من المادة ونرجع إلى الله ونخلص نفوسنا من الطمع والغل والحسد وما أشبه ذلك ونملأ القلب بالمعارف والعلوم. اهـ.

اعتقاد قدماء المصريين

إن اعتقاد قدماء المصريين مشتق من اعتقاد الهنود، وكما رأيت أن «خريستا» صرح بالتناسخ ولم يكن صريحاً في دينهم القديم، لأن الشعب كانت حاله تقضي أن يقال لهم ذلك، ترى قدماء المصريين لما أخذوا هذه العقيدة ألبسوها لباساً آخر، فماذا فعلوا؟ اعتقدوا أن الروح لها جسم، وهذا الجسم اسمه «خات» وبعد الموت يتحول إلى جسم روحي «سعحو» وهذا الجسم يعيش مع الملائكة في السماء.

وبالاختصار الإنسان عندهم: (١) جسم فان. (٢) جسم روحي. (٣) قلب. (٤) ازدواج. (٥) نفس. (٦) ظل. (٧) روح، أي: مادة أثيرية لطيفة مضيئة غير ملموسة. (٨) شكل إلهي. (٩) اسم.

ويقولون: إن الإنسان بعد الموت يأكل مواد لا تتعفن، ويشرب خمراً لا يفسد. وبالجملة فعقيدتهم أشبه بالقرآن من حيث النعيم.

فتوح الرحمن الرحيم، ونور الدين الإسلامي

انظر أيها الذكي تعجب من أمر الأمم ودين الإسلام، انظر واصغ لما أقول، وتعجب من العلم وكيف أضاء الله للمسلمين الدنيا، وأشرقت الأرض بنور ربها.

ألا تتعجب معي فيما أقول لك؟ أقول لك ما فتح الله به الآن فقط. أنا الآن أقرأ ما سطره علماء أوروبا يوم ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٤ ومنه مقالة عن عقيدة قدماء المصريين. انظر كيف جاء فيها أن شريعة التحنيط إنّما جاءت سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد، وانظر إلى ما ذكرته لك، وهو أن « خريستا » جاء قبل المسيح بنحو سنة ٤٨٠٠ وتأمل ما قلته لك، وأن التناسخ لم يكن مصرح به في كتابهم المقدس وصرح به « خريستا »، وانظر إلى قدماء المصريين. فإنهم استعملوا التحنيط خمسة آلاف سنة، أي من سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد إلى سنة خمسمائة بعد الميلاد. أفلا ترى معي أن عقيدة « خريستا » انتقلت إلى مصر في ثلاثمائة سنة، وأنهم فهموها فهماً معكوساً فقالوا: إن الإنسان إذا مات يبقى زمناً طويلاً في السماء منعماً، أو في الجحيم معذباً، وذلك بما غلب على نفسه من صلاح أو طلاح. مثل ما قال البوذية سواء بسواء، ولذلك جعلوا هناك ٤٢ قاضياً، ولهم ميزان يزنون به قلب الميت وأعماله فتغلب الحسنات أو السيئات، ويكون الجزاء على مقتضى تلك الغلبة كما رأيته في تعليم الهنود، وكما جاء في القرآن سواء بسواء.

فكأن العالم كله يفهم شريعة متشابهة من حيث الأصول. ثم انظر كيف يقول الهنود قبل المسيح بأربعة آلاف وثمانمائة سنة: إن الإنسان يرجع بعد أمد إلى الأجسام ويولد ثانياً، ويكون في حال على مقتضى حياته السابقة، ولا يزال يعود مراراً حتى يطهر، وبعد ذلك يرجع إلى الله مع الملأ الأعلى.

وقد قلنا لك: إن هذه جاءت من « خريستا » لا ممن قبله أشبه ببدعة دينية. ثم انظر كيف نقلها المصريون بعد ثلاثمائة سنة محرفة. فقالوا: يرجع الإنسان إلى جسمه الأصلي.

يا عجباً! إن الأمم تأخذ العلوم على مقتضى أخلاقها. قد كان قدماء المصريين يعالجون عظام موتاهم بالقار لأجل حفظها من الفساد؛ فلما سمعوا هذه الفكرة عن الهنود قلبوها إلى عاداتهم وقالوا: يرجع الإنسان لنفس جسمه الأصلي، فأخذوا يحنطون الأجسام خمسة آلاف سنة.

إياك أن يبهرك الفلسفة والعلم والحكمة عند قدماء المصريين، فتقول: لم خرفوا؟ فاعلم أن فلاسفة كل أمة ينشؤون على العقائد التي عندهم، فإذا رأيت الزخرفة والنقش والحكمة، وما أذاعته الجرائد عن قبر الملك « توت عنخ أمون »، وأن فيه مسرجتين من مرمر، لما أوقدوا المصباح فيهما ظهرت صورة الملك والملكة بألوان باهرة، فلما انطفأ المصباح ظهرت المسرجتان بحالهما تماماً لا صورة فيهما، وقد قيل إن هناك (٣٠) صندوقاً مختومة بختم الملك لم تفتح وستفتح فيما بعد، والسائحون من سائر أقطار العالم يفدون على بلادنا لمشاهدة هذه العجائب.

وظهر قبر آخر بجوار الهرم على بعد (٣٠) متراً من سطح الأرض، ويقال: إنه كشف عظيم الأهمية، أقول: إذا سمعت ذلك فلا تدهش لأن الأمم كلها أشبه بعمال عند صاحب العقيدة. فترى الفيلسوف والصانع والأمير والمزارع، كل هؤلاء ينطقون بفكرة واحدة. أعني أن أكبر فيلسوف عندهم

لا يقدر أن يقول: إن هذا خرافة، بل يقدسه كما يقدسه القوم. والمهندس والصانع وأمثالهما، كل هؤلاء يتقنون الصناعات وهم عند الفكرة الدينية أشبه بحاشية الملك، والرعية كلهم يقدسونه ولو كان فاسقاً ويطيعونه.

هكذا عقيدة التناسخ التي ظهرت في الهند وغيرت وجهتها في مصر إلى رجوع النفس إلى جسدها نفسه بقيت أمداً طويلاً حتى جاء دين المسيح ودين الإسلام فغيرت العقيدة.

تعيش الأمم آلاف السنين ولا تتزحزح عن عقائدها. حتى إذا جاء مصلح غيرها، فهاهنا جاء الإسلام ونزل في القرآن أننا بعد الموت نعذب أو ننعم، وأننا نحشر على سابق مقتضى حياتنا، وأن منا من ينظرون ربهم. ومنا من يحجبون عنه وهكذا. فلم يذكر رجوع الجسم للولادة مرة أخرى ولا رجوعه لجسمه ثانياً.

ثم انظر الأمة الإسلامية كيف احتجبت أنظارها الآن عن أسرار الكون وبدائعه، وغاب عنها ذلك وتشبثت بالوقوف على الظواهر، وأن الله اليوم يريد رجوعها إلى أصل دينها، وما أصله إلا النظر في عجائب العلم والحكمة، ودراسة الكون الذي نسكنه حتى نلاقي ربنا ونعرفه ونحبه، ونكون في الدنيا قد قضينا ما علينا لأمتنا وللأمم حولنا، فإنا نحن ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠].

ليكن المسلم خليفة الله، ليكن العالم كله تحت رعايتنا. لنكن خلفاء الله فندرس نظامه ونكفل عباده لأنهم إخواننا، فمن دخل في ديننا فبها، ومن لم يدخل أعناه، وراعيناه وأحطناه، وإن اعتدى أدبناه، هكذا جاء ديننا، ولنرجع إلى أخلاق السلف الصالح من الشفقة والإخلاص ومراعاة أحوال القلوب، وذلك هو الذي يرمي إليه الإسلام، بل هو مستقبل الإسلام والمسلمين.

سؤال ورد على المؤلف

لما وصلت إلى هذا المقام، قال لي أحد الفضلاء: كيف يعقل أن يحنط المصريون موتاهم بمجرد ما سمعوا التناسخ عن «خريستا» بالهند.

قلت له: إن للقوم قصة خيالية لهذا الغرض قد تقدم ذكرها في هذا التفسير، يزعمون أن «أوزيريس» كان محباً للمصريين ولنوع الإنسان كله، وأخذ معه «توت» وسار بجيوشه وفتح الأرض كلها باللطف لا بالحرب، فلما رجع إلى مصر حسده أخوه «سيت» فصنع صندوقاً جميلاً، وصنع وليمة، وقال: من كان هذا الصندوق على قدر جسمه فليأخذه لنفسه، فكان ذلك على قدر «أوزيريس» فأطبق الصندوق عليه خيانة ورموه في النيل، فقامت زوجته إيزيس وجزعت وقصت شعرها وبحثت عن الصندوق فوجدته على شاطئ فينيقية، فأنزلوه في سفينة إلى آخر ما تقدم، وأنها وضعته عند غابة، فعثر عليه «سيت» فقطع أخاه أربع عشر قطعة ودفنها في مواضع كثيرة، ثم جمعتها هي وحنطتها، وهنا بيت القصيد، فكون إيزيس حنطت أوزيريس زوجها هي التي أثارت هذه الثائرة.

ولكن الذي أقول: إن هذه الخرافة لا تكفي في هذا العمل الشاق، فلا بد أن تكون العقيدة هندية لاتفاق التاريخين.

فأما هذه الخرافة فهي لا تستعبد أمة بتمامها. انتهى والله أعلم.

اللطائف العامة للسورة كلها

اللطيفة الأولى: بهجة العلم في الحكم المودعة في

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾

بدائع أسرار التنزيل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في ليلة الجمعة ٣١ أكتوبر سنة ١٩٣٠ استيقظت قبيل الفجر، ولكني لم أستطع أن أقوم بعمل ما من عبادة أو علم لعارض جسمي طارئ عليّ، فخيل لي كأني انسلخت من هذه العوالم المادية، وكأني أنظر إلى المجرات وشموسها، والسدم وأحوالها. ولا جرم أن الخيال لكل امرئ لا يعدو ما عرفه. ونحن نعرف أن مجرتنا التي شمسنا فيها قد عرفت الأمم أن شموسها بحسب ما وصل إليهم تبلغ عشرة آلاف مليون شمس وهذه مجرة واحدة من آلاف الملايين منها. وهكذا خيل لي أيضاً أنها كلها دائرات وحولها سياراتها وأراضيها وأقمارها. وكل شمس لها حركة خاصة، كما أن كل سيار له حركة خاصة حول شمسه، وكل قمر حول الكوكب السيار، فإذا اجتمعت هذه كلها مرة واحدة ولاحظها الإنسان خيل له كما خيل لي أن العالم كله موسيقى فوق ما يتصوره المفكرون، ونغمات بهجات فوق ما يبتهج به المبتهجون.

الله أكبر. هنالك ازددت في الخيال تعمقاً. وتوغلت النفس في صورها. وابتعدت عن العالم المحسوس إلى عالم الخيال المحض، فهنالك خيل لي كأن إنساناً تراءى لي، وجسمه من النور، ولكن له جميع خصائص الإنسان الجسمية، إذ هو يحدق ببصره إلي، فأخذ فكري يجول في أمره، وفي نظراته، وفيما يتفرس من أمري، وأي الأمور يريد أن يحدثني بشأنه. فابتدرني قائلاً: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[المطففين: ٢٦]. فقلت: خبرني ما تريد رحمك الله؟ فقال: أحدثك في أمر نفسك وأمر المسلمين في الأرض، فقد اتبع خيالك علمك، وراح يجول في ساحات واسعات، وباحات صفت فيها الصور، وظهرت فيها الحكم، وبهر النور، هذا الخيال الذي تبدى لك اليوم تابع لما قرأت من كشف الحقائق، ولكن هناك بعد مفارقتك هذا البدن سترى ما هو أعجب وأبدع، نظراً حقيقياً لا خيالياً، وإذا كانت المسرة التي تحس بها نفسك الآن تكاد تكون فوق طاقتها، فذلك لأنها محبوسة في المادة، ولكن إذا انطلقت منها ستحتمل من اللذات ما لا حد له، ويكون ذلك على مقتضى العلم ومقتضى العمل، ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾[الأنعام: ١٣٢].

أنت الآن تتخيل الموسيقى في العالم العام تخيلاً، وهناك سيكون ذلك حقيقة. فقلت: وكيف تقول إن هذا العالم موسيقى، وهل هذا المنظر الذي يخيل لي له مناسبة ما بالسور التي تطبع الآن في التفسير؟ إن الله عز وجل عودني أثناء طبع هذا التفسير أن لا يمر بخاطري فكر قوي إلا كان مناسباً أشد مناسبة لما أنا بصدده، فهل هذا الخيال من هذا القبيل؟ فقال: إي وربي. فقلت: وكيف ذلك؟ قال: إن هذه المناظر سيتجلى بها بعض أسرار ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾ فازداد عجبي وقلت: فلا تتركني يرحمك الله. فقال: كلا لا أتركك فاستبشر وقر عيناً، فإني مرسل من عالم

آخر لأقر عينك في هذا التفسير، ولكنني لم أحضر في خيالك إلا الآن. فقلت: كيف أعرف أن هذه المناظر مفسرات لما ذكرتم. فقال: لأسألك أولاً:

(١) ما صفة الموسيقى عند القدماء؟.

(٢) وما هيئتها عند علماء العصر الحاضر؟.

(٣) ثم ما صفة الموسيقى في العالم كله الذي أنت تتخيله الآن، وهل هذا النظام البديع تابع لعلم عالم حكيم أم هو مصادفة؟.

(٤) ثم ما نتائج هذه النظم كلها من الرحمات؟.

(٥) ومتى أحس العقلاء بالرحمة وعلموها حمدوا مسديها؟.

(٦) وهنالك يتجلى معنى البسملة والرحمة فيها، ويتجلى معنى الحاء والميم والعين والسين والقاف، إذن في المقام ستة فصول، فهأنا ذا سائلك في:

الفصل الأول والثاني:

ما صفة الموسيقي عند القدماء، وما صفتها عند علماء العصر الحاضر

فقلت: يا سبحان الله، أنا لست من علماء الموسيقى حتى تسألني هذا السؤال. قال: نعم. أنت لست من علمائها. ولكن لك إلمام بها إلماماً علمياً، فاذكر ما تعرفه. فقلت: أنا أتذكر أن «فيثاغورس» الفيلسوف سمع مطارق حداد فأطربته رناتها، وسرته مناسبتها، فوزنها فكانت نسبتها هكذا ٦ و٨ و٩ و١٢، فأتى بأوتار أربعة متساويات طولاً وسمكاً، وعلق فيها أثقالاً على هذه النسبة، فكانت مطربة مفرحة تشرح صدور البائسين. هذا كان أول ما خطر له ووضعه. فقال: هذه العبارة بالحرف من كتابك «الموسيقى العربية»، ولكن هناك أمر آخر أقرب من هذا. فقلت: نعم في كتاب «إخوان الصفاء» فإن أوتار العود لها نسب غير هذه، والأوتار عند القدماء أربعة وهي: الزير والمثنى والمثلث والبم، وهي مرتبة من أعلى إلى أسفل، وقد كانوا يظنون أنها مناسبات لكرة الأثير والهواء والماء والأرض بهذا الترتيب، الأعلى مماثل للأعلى والأدنى مماثل للأدنى، وقد قالوا:

إن وتر الزير مركب من (٢٧) طاقة من الحرير، والمثلث يزيد عليه الثلث فهو (٣٦) طاقة، والمثنى يزيد عليه ثلث (٣٦) فهو إذن (٤٨)، والبم يزيد على ما قبله ثلثه وهو (١٦) فيكون (٦٤)، وبهذا انتظمت النغمات وابتهجت النفوس.

قال: هذا هو الذي كنت أريد أن أسمعه منك، هذا في القديم، فهل تذكر نظير ذلك في الموسيقى الحديثة. فقلت: لا أذكر الآن. فقال: عجباً! تتذكر ما في كتابك في الموسيقى وقد مضى على تأليفه سنون ولا تتذكر ما كتبته في سورة «مريم» من الموسيقى الحديثة.

فقلت: نعم أتذكر الآن أنني ذكرته هناك وهو: إدراك الإنسان للأصوات ينحصر في (١٠) دواوين أي أبعاد كلية موسيقية، فإذا ورد على الأذن (١٦) موجة في الثانية، فهذا أقل الأصوات ثم (٣٢) ثم (٦٤) ثم (١٢٨) ثم (٢٥٦) ثم (٥١٢) ثم (١,٠٢٤) ثم (٢,٠٤٨) ثم (٤,٠٩٦) ثم (٨,١٩٢) ثم (١٦,٣٨٤).

ومعنى هذا أن أسماعنا تفرح بنظام الحركات بأي شكل كان، ففي العود العربي القديم تفرح نفوسنا بالنظام المبني على ازدياد الطاقات بالثلث ويكون ذلك منتظماً. وهاهنا تفرح النفس بما تحس من نظام المتوالية الهندسية البديعة. فنفوسنا هي هي قديماً وحديثاً لا تفرح إلا بما هو منظم، وأقرب شيء لها الأصوات التي يعرفها الجهلاء والعلماء، فقال: أحسنت أحسنت، أتمم القول. فقلت: أما نظام الأفلاك وحركاتها وعجائبها ونظام الطبيعة فليس يدركه إلا الأقلون. فقال: هذا هو الذي أريد أن أختبرك فيه.

الفصل الثالث: في النظام العام في العالم

فحدثني إذن: هل النظام العام على مثال ما رأيت الآن في الموسيقى القديمة والحديثة. قلت: نعم. فقال: فاضرب لي أمثالاً. فقلت:

أولاً: إن أبعاد السيارات تتبع نظاماً معلوماً، فإذا أخذنا الأرقام التالية وهي ٣ و٦ و١٢ و٢٤ و٤٨ و٩٦ ثم أضفنا (٤) إلى كل رقم كانت سلسلة متتابعة تفهمنا نسبة مسافات السيارات وأبعادها عن الشمس، وهي عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، فهي على هذا الترتيب في بعدها عن الشمس، أي أنها على مقتضى المتوالية الهندسية. وبعبارة أخرى: هي أشبه بالدواوين المتقدم ذكرها في الموسيقى الحديثة التي يدرسها الفرنجة الآن في قسم من أقسام العلوم الطبيعية، فأما الأقدمون فكانوا يدرسونها في العلوم الرياضية ولكل وجهة صادقة، فالموسيقى ترجع للأصوات أولاً ولحسابه ثانياً، فالقدماء جعلوها في علوم الرياضة لمكان حسابها، والمتأخرون جعلوها في العلوم الطبيعية لأن الصوت أمر طبيعي لأنه حركات في الهواء.

ثانياً: إن الحجر إذا نزل من أعلى الجبل إلى أسفل البئر كان حسابه هكذا: في الثانية الأولى يقطع (١٦) قدماً إنجليزياً، وفي الثانية الثانية نضرب هذا العدد وهو (١٦) في (٣)، وفي الثانية الثالثة نضرب هذا العدد في (٥) وهكذا (٧) و(٩) و(١١) و(١٣) وإلى ما لا يتناهى. وإذا ربعنا الثواني وضربنا المربع في (١٦) يكون الحاصل ما قطعه الحجر جميعه، فإذا مضت ثانيتان ضربنا ٢ في ٢ يساوي ٤ ونضربها في ١٦، فإذا مضت ثلاث ثوان ضربنا ٩ في ١٦ وهكذا، فهذه كلها مضاعفات منظمات كما انتظم ما قبلها. ثم توقفت عن القول برهة. فقال: فكر فيما كتبته في سورة «الرعد» عند قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[الآية: ٨].

ثالثاً: وذلك في أمر الصوت والنور والحرارة والجاذبية، فهذه الأربع تقل بمقدار ما يزيد من البعد عن الجسم الحار والجاذب والمنير والذي منه الصوت، فتذكرت ذلك، وهنالك أمثلة تبين المقصود فلم أشأ أن أكتبها هنا خيفة الإطالة، وهنالك نظام وحساب في سير الأجرام الفلكية أقربه ما تقدم في سورة «يس» وفي سورة «الزمر»، وتجد في سورة «يس» أيضاً موازنة ما بين الشعر والموسيقى وحساب الفلك، كل ذلك تقدم موضحاً.

فهذه النظم في أبعاد الكواكب، وفي سقوط الأحجار، وفي سرعة الأصوات والأنوار الخ تحيط بالمادة، وكلها منظمة أنظمة جميلة حسابية موسيقية، فإذا ترقينا قليلاً رأينا نفس النور على هذا النمط،

أي أنه جار على حساب باعتبار ألوانه السبعة، ذلك أن العين لا تتأثر من تموج الأثير الذي يزيد عدد درجاته في الثانية عن (٧٩٠) مليون مليون، أو ينقص عن ذلك العدد عن (٤٠٠) مليون مليون، فأقل الألوان وأولها الأحمر وأكثرها تموجات وآخرها البنفسجي وبقية الألوان بينهما، إذن حاسة السمع آلة لسماع حركات في الهواء، وحاسة البصر آلة لالتقاط حركات الأثير فتظهر لها بهيئة نور، إن هذه العوالم كلها حسابية موسيقية عجيبة، فما وافقنا سميناه جميلاً لذيذاً، وما لم يوافقنا سميناه قبيحاً مؤلماً، فهذه الحركات في الهواء المحصور ما بين النهايتين الكبرى والصغرى فيما تقدم، وهكذا عددها المحصور ما بين النهايتين في الضوء كلاهما قد أحدث آثاراً في أسماعنا وأبصارنا، والمسألة ترجع إلى نفس الآلة، وهكذا نقول في نعومة الحرير وخشونة الخيش ورائحة الورد والروائح الكريهة وطعم التفاح والحنظل، فهذه منها المكروه ومنها المحبوب، ولا حب ولا كره إلا على مقتضى الملاءمة والمنافرة ولا ملائمة إلا على حسب النظام المحسوب حساباً جارياً على قوانين توافق حواسنا، ولا منافرة إلا على مقتضى اختلاف القوانين المذكورة، فما هذا العالم كله إلا حركات، وغاية الأمر أنها باعتبار الآلات القابلة فينا أصبحت هذه نوراً وهذه صوتاً وهذه رائحة وهذه ذوقاً الخ.

ألا ترى رعاك الله إلى ما قررناه سابقاً أن كل الجوامد وكل السوائل مثلها كمثل الأنوار في أنها حركات وتلك الحركات تمثلت لنا أجساماً وأنواراً، ومن الأجسام سوائل وجوامد وغازات، كل هذا واضح في مواضع كثيرة من هذا التفسير.

فلما سمع ذلك قال: أحسنت كل الإحسان. فلنشرع في الكلام على:

الفصل الرابع، والخامس، والسادس
وهو الكلام على نتائج هذا كله وهي الرحمات
ثم ما يترتب عليها من المحامد
ثم معنى الحاء والميم، والعين والسين والقاف

فقلت: أما هنا فإني أرجو أن تفتح لي الباب حتى أفهم هذا المقام. فقال: انظر انظر بالبصيرة، فنظرت. فقال: ما ترى؟ قلت: أرى المجرات والشموس والسيارات كلها كأنهن حفلات ذات بهجات، وكأن النور انقلب أصواتاً ونغمات، بل هذه العجائب ألذ عند عقلي من أن أسمع نغمات العود والمغاني، فهاهنا جمال وإبداع وحسن وكمال. فقال: من الذي يدبر هذه الكواكب؟ فقلت: نفوس عالية وهي الملائكة. فقال: فإذا سألك أهل الأرض وقالوا لك: ما البرهان؟ فقلت: أقول لهم قد تقدم في سورة «حم السجدة» عند آية: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً ﴾[فصلت: ٣٩] الخ أن النبات على قسمين: قسم يحل المواد في الأرض، وقسم يركبها، فالمحلل للمواد هي الفطر والبكتيريا، وهذه وإن جلب بعضها الأمراض فإن أكثرها لولاه لم نعش يوماً واحداً، لأنها تحضر الأغذية في خبايا الأرض وتجهزها للنبات الذي يقيتنا، بل أزيد على ذلك أن هذه الفطر ـ بضم الفاء والطاء ـ ونحوها تعيش في الأمعاء الغلاظ تتربص الأغذية التي تمر في الجهاز الهضمي وقد عجز عن هضمها أنواع الهاضمات من الينابيع الستة التي في الفم ومن البنكرياس ونحوها، فتتلقاها تلك الفطر التي لا تراها

العيون، فتحلل ما بقي فيكون بذلك تمام أغذيتنا، ولولا هذه لم يكمل غذاؤنا، بل نموت جوعاً وإن كنا آكلين. فإذا كان غذاء النبات وغذاء الحيوان وغذاء الإنسان لا يتم الانتفاع به إلا بهذه المخلوقات التي لا ترى وما كان أحد في الخلق يظن أن ذلك يحتاج لفاعل يفعله؛ فكيف تكون شموس وكواكب وأرضون وأقمار ومجرات تجري ولا مجرى لها؟ فإذا كانت الأمراض كالكوليرا والتيفوس والجدري وإذا كانت الأغذية كل هذه لفعلها أسباب موجودة، فكيف يحتاج أحقر المخلوقات إلى فاعل ولا يحتاج أعظمها إلى فاعل؟ إن ذلك يخالف العقل والمنطق والصواب.

وعليه أقول: إن هناك ملائكة هي التي تدير هذه الكواكب والمجرات والشموس، وبسبب هذا الدوران المختلف حصلت لنفسي مسرات أكثر مما تسرها نغمات الموسيقار، فقال: حدثني، أهؤلاء ليس لهم قائد؟ فقلت: بلى وهو قاهر فوقهم. فقال: إذن أنت فهمت الجواب. فقلت: لم أفهم. فقال: بل فهمت والله، ألا تذكر أن الرحمة في البسملة. قلت: أذكرها، فقال: هذه الكواكب والعوالم هي آثار هذا النظام والحساب، فهي رحمات، والرحمة لا تكون إلا مع علم كما تقدم في آية: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾[غافر: ٧]، فالرحيم لا تتم رحمته إلا إذا كان عالماً بمواضع الحاجات لمن يرحمهم، قلت: إي وربي. قال: الحاء والميم في ﴿ حمٓ ﴾ تذكرة بالرحمة أولاً وتذكرة بالحمد ثانياً، ألا ترى أن مبدأ المخلوقات علم الله، ثم إنه على مقتضى العلم خلقها، ولما أحسسنا بالنعمة وعلمناها حمدناه. فقلت: حسن. قال: هذا هو ملخص الآيات، علم الله فرحمة منه فعلمنا فحمدنا، الرحمة في البسملة والحمد في قوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾[الشورى: ٥]، فالرحمة مبدأ والحمد نهاية، ولا رحمة إلا مع علم، ولا حمد منا نحن إلا مع علم. ثم إن هؤلاء الملائكة المدبرين لهذه الكواكب مسكنهم في السماوات، وهم عارفون بجلال الله، فهم يسبحون «السين»، وبهذا نزل الوحي وهو القرآن «القاف»، وملخص هذا أنك لما تخيلت هذه العوالم:

(١) عرفت الرحمة السابقة والحمد اللاحق، ويشير لهما بـ «الحاء» و«الميم».

(٢) وتفكرت في أن الملائكة في السماوات يعرفون جلال الله، وهم يديرون هذه الكواكب بهذا النظام الموسيقي، وهذا ظهر في قوله: ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾، والتسبيح، لأن كلًّا منهما مبدوء بحرف السين.

(٣) ولاحظت في عقلك أن الله فوق الجميع علماً وقدرة، وهذا في قوله: ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ ﴿ ٱلۡعَلِيُّ ﴾ ﴿ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ كلها مبدوءة بحرف العين.

(٤) وهذا الوحي نزل في القرآن، وهذا حرف «القاف»، وأيضاً هذه العوالم كانت في أزمان سابقة وهي لا تزال كذلك إلى الآن، وهذا في لفظ: من قبلك، «القاف».

ولا جرم أن قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾[الشورى: ٥] أصبح واضحاً مما تقدم، لأن العوالم حركات لا غير كما أثبته أنت في التفسير مراراً، وما الأثير إلا كالخيال في النفوس البشرية، والخيال متى تركه صاحبه طاح وذهب، والأثير أشبه بهذا الخيال لأنه ليس مادة، فهو يكاد يتفطر لأنه في الحقيقة لا شيء، والحركات هي التي تتجلى لكم.

ثم إن الملائكة لهم صفتان: صفة معرفة الله، وصفة تعليم الخلق، وللأولى: ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[الشورى: ٥]، وللثانية: ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴾[الشورى: ٥]، وفي كليهما «السين»، وهذه هي الخصلة التي تجب على كل عالم في الإسلام علم بجلال الله وجماله، ثم أن يكون مفضالاً منبعاً للخير فياضاً نافعاً للناس. هنالك قلت: يا ليت شعري. إذا كانت هذه الحروف لم نفهم منها الآن إلا ملخص الآية من حيث إنها رمز لها فماذا أفادتنا؟ فقال: إنها جمعت العوالم العلوية والسفلية في نظر النفس وأصبحت كأنها هيئة بهجة تشرح الصدور وتعرف جلال الله وجماله. وهذه تأنس بها الأرواح، والإشارة أبلغ من العبارة، وهذه لا تدرك إلا بالذوق، وإنّما الفرق بين هذه المزايا التي جاءت في هذا التفسير وبين المزايا التي فهمها المتقدمون أن مزايا هذه الإشارات هنا تحث على التعقل والتفكر.

فأما ما جاء عن بعض المتقدمين أن هذه الحروف مقتطفات من اسم الله، أو أنها تشير إلى أعداد خاصة كالجمل ـ بتشديد الميم ـ كما زعم اليهود، أو أن تكون إشارة إلى ما في العوالم العلوية من المنازل كما تقدم في سورة «آل عمران»، فإن ما ذكر هنا أقرب منه إلى رقي الأمم الإسلامية، وأي بهجة ونعمة أبهج وأكمل من استحضار صور العلوم كلها، وكأن الله مشرف عليها والنفس تطالع ذلك وهي مغتبطة أي اغتباط، وذلك عند النطق بخمسة حروف جمعت العوالم، ثم فصلت تلك المعاني بعد ذلك في السورة.

منافع الموسيقى العلمية وضرر الموسيقى العملية

فقلت له: لقد طال المقال في نظام الموسيقى العالمي في السماوات والأرض. وإن المطلعين على هذا التفسير ربما يرون أن الموسيقى في الأرض عند العامة والجهلاء كالموسيقى التي أبدعها الله، لأنني وازنت ما بين العود ونظامه والسماوات ونظامها. فقال: حقاً إن هذا يتبادر إلى الذهن. فبين هذا المقام هنا؟ فقلت: لقد ذكرت في أول سورة «الصافات» ما في التعليم العربي في الأمم الإسلامية من النقص الفاضح والجهل المريع من حيث الشعر العربي. ولا جرم أن بين الشعر والموسيقى صلة نسب وإتقان واتصال. إن الأمم الإسلامية منيت بأشعار العرب قبل الإسلام وبعده وفيها الغث والسمين. ولقد سرت هذه الفكرة سريان النار في الهشيم. وظنوا أن هذه الأشعار على علاتها تعرف أسرار القرآن. والحق الذي لا مفر منه أن كل ما أخل بالأخلاق من الأشعار؛ وما كان منه فيه مجون أو غرام؛ فهو لغو بل ضار. لأن ذلك يعلق في النفس من صباها فلا يتركها فيصبح خلقاً فيها، وتلازم الغرام والصبوة في الشباب فعلاً وفي الشيخوخة قولاً وأماني. وإني ليدهشني والله أن أرى هذه الأمة في الأندلس والشرق لا تفرق بين الشعر المحرض على العفاف والشعر المزري بالمروءة، ولم أجد من يحذر من ذلك الخلط، لا في زماننا ولا في الأزمان السابقة، وهكذا أجدهم فعلوا ذلك في الموسيقى وفي الأغاني، فكل هذه أباحها القوم ولا نكير إلا عند الفقهاء، وأسمعهم يروون جميع الأشعار في كتبهم وفي سمرهم وفي مجالسهم، بل أرى الصوفية يرمزون بالغزل إلى الذات العلية، وأجد العلامة الغزالي يبيح السماع بشروط، والعلامة ابن سينا يجعله هو وطائفة من الصوفية مرقياً للنفس بشرائط خاصة كما هو واضح في آخر كتاب «الإشارات».

والحق الذي لا محيص عنه أن أكثر الأشعار وأكثر الأغاني وأنواع الموسيقى ضارات بمجموع هذه الأمة. إن ما يقوله الإمام الغزالي رحمه الله من جوازها بشرائط، وهذه الشرائط ترجع إلى أمر واحد وهو أنها إذا سمعها الإنسان لم تتوجه نفسه إلى محرم بل تتوجه إلى إدراك المعاني وشريف الخصال. أقول: إن ما يقوله حق. ولكن أكثر الناس غير مستعدين لذلك ولا هم يذكرون، فأكثر الأشعار وأكثر الموسيقى ضارة بمجموع هذه الأمة، والقليل منها هو النافع، إذن ليست موازنة الموسيقى في الأرض عند الناس بالموسيقى في السماء عند الله من حيث الحساب تفيدنا أنهما سيان في الكمال. كلا. فهنالك الموسيقى نظام جميع العلوم، وهنا استعمالها أكثره مزر بنوع الإنسان وهكذا الأشعار.

ولقد أنحى «سقراط» في الكتاب العاشر من الجمهورية على طائفة الشعراء، وأخذ يلوم «هوميروس» الشاعر، ويحط من أقدار هذه الطائفة، ويقول: إنهم لا هم في العير ولا في النفير، قوم لا حقائق عندهم ولا علم، وما هم إلا مقلدون للحقائق، وما مثلهم إلا كمثل الرسام الذي رسم لجام الفرس، واللجام صنعه صانع، وهذا الصانع وضعه بالهيئة التي طلبها راكب الفرس، فراكب الفرس هو الذي يطلبه، والصانع يعمل على مقتضى الطلب، ولكن الراسم يقلد الصانع، هكذا الشاعر فما هو إلا راسم للمعقولات، لا متعقل ولا عالم، إذن الشعر خيال والخيال غير الحقيقة.

عجب أن تكون أكثر الشعراء هذه قيمتها، والله يقول: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[الشعراء: ٢٢٤] وهاهنا عجب وألف عجب أن نسمع القرآن يذم الشعر. وقد وافق في ذلك الفلسفة من قبله. وهذا قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾[العنكبوت: ٤٩].

ثم إن المسلمين في الشرق والغرب طاحت دولهم وذهب مجدهم في الدول العباسية والدولة الأندلسية بما تركوا مواهبهم، ولم يكن لهم هم في الأكثر إلا في الشعر، ونسوا المعقول وتركوه للأعاجم. لذلك ذهبت ريحهم وأصبحوا أثراً بعد عين.

إن ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾ جاءت رمزاً لنظام العالم العلوي والسفلي، وهو الموسيقى الجميلة والعلم والحكمة. أما شعر الشعراء في الأرض وغناء المغنين فضرهما أكثر من نفعهما، فليفكر العلماء في الإسلام بعدنا في قوانينهم للشعر النافع وللموسيقى، وليحتاطوا في ذلك، وليفرقوا بين النافع والضار فلا تكون الموسيقى إلا حيث يكون إنعاش النفوس للمعالي والعلوم وأشرف الأخلاق، وكذلك الأشعار.

فأما إذا كان كلاهما لتهييج النزوات فليحرم بتاتاً. إذن هناك فرق بين ما دلت عليه ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾ وبين ما يغري بانحطاط النفوس الإنسانية.

فلما سمع ذلك قال: أجدت ووفيت المقام حقه. وبعد أن سمعت هذه الجملة منه انصرف الخيال من أمامي، ونظرت في نفسي، فوجدت أنني لا أزال في الفراش، وعجبت من نفسي كيف كان حواري مع خيالها النوري تخيلته هي، ثم أخذت أفكر في هذه المعاني فوجدتها معقولة، بل فرحت بها فسطرتها تبصرة وذكرى لي ولأصدقائي قراء هذا التفسير، والحمد لله رب العالمين. كتب صباح يوم الأحد ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م.

إشراق شمس هذه المقالة

في سحر ليلة الاثنين ٣ من شهر نوفمبر سنة ١٩٣٠ استبان لي من فحوى هذه المقالة أن ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ﴾ رسمت للحكماء والعلماء في هذه الأرض أربعة منازل وهي :

(١) انبعاث النفوس من الخلق إلى أنوار الحق .

(٢) ثم ائتناسها بتلك الأنوار .

(٣) ثم يكون الاقتباس بعد الائتناس .

(٤) ثم الإفاضة على الناس من تلك الأنوار .

فالمنزلة الأولى هي الانبعاث ، ولها ﴿حمٓ﴾ ، وذلك أن تشاهد أنفس أهل العلم بهجة هذه الكرات السماوية وتطالع أنوارها وحسابها وأعدادها وعظمتها ، فإذا امتلأت بتلك الأنوار وأشرقت بها أيما إشراق تكون المنزلة الثانية ، وهذه المنزلة الأولى تشير إليها « الحاء » و« الميم » ، لأن تجليات العوالم وظهورها من العدم سر الرحمات .

والرحمة يسبقها العلم ، والعلم به النظام وتقدير الحركات والدرجات . وبإدراك ذلك الجمال ترتقي النفس إلى المقام الأعلى وهو المنزلة الثانية « ع » الائتناس إذ تتجلى للفكر تلك العزة والعظمة والعلو اللاتي أشرقت بها أنوار العين في ﴿عٓسٓقٓ﴾ .

وهنا ارتقت النفس من المقدمة إلى النتيجة ، ومن المخلوق إلى الخالق ، ومن الأثر إلى المؤثر ، ومن الرحمة إلى الرحيم ، ومن الجمال إلى الجميل ، ومن الصنعة إلى الصانع ، وهناك تتجلى أعمال الملائكة الحافين حول العرش ، وهم يشاهدون العوالم كلها ، مطلعين على بدائعها ، منظمين لحركات السماوات ، ولم يتم ذلك إلا بعد إشراق نفوسهم بما استمدوا من علم وما استفادوا من حكمة من العلي العظيم العليم ، وهذه هي المنزلة الثالثة وهي الاقتباس « السين » من ﴿عٓسٓقٓ﴾ .

فإذا كانت المنزلة الأولى ارتقاء من الصنعة إلى الصانع ، والثانية تفكير في أوصافه ومشاهدة أنوار الآثار ، فالثالثة الاقتباس .

ألا ترى أن المؤثرين الذين لم نرهم شاهدنا آثارهم ، وعلى مقدار اختلاف الآثار يكون اختلاف المؤثرين ، وهم الذين سميناهم ملائكة ، ويضرب لهم المثل في نظام العوالم بنظام أعضائنا ، فكما أن في كل عضو قوات خاصة ، هكذا في كل عالم ملائكة مختصون به يديرونه ، وكما أن أعضاءنا تطيع القوات المدبرة لها ، هكذا العوالم المشاهدة تطيع الملائكة المدبرين ، وكما أن الإنسان منا له نفس واحدة ، وهذه النفس لها قوى كثيرة لا نقدر أن نحصيها نحن ، والله يحصيها ، هكذا الله واحد وله ملائكة ينفذون أمره وهم كثيرون ، وكما أننا نحس في أنفسنا بأن هناك في عقولنا قوى مختلفة مثل : المخيلة ، والمفكرة ، والحافظة ، والذاكرة ، وفي أجسامنا قوى أخرى أقل منها درجات من القوة الجاذبة والهاضمة والماسكة والدافعة والغاذية والمنمية والمولدة ، ومثل الغدد المختلفات كغدة الصفراء والبنكرياس وغدد اللعاب اللاتي في الفم وهي ست ، وهكذا مما تقدم إيضاحه في سورة « فاطر » هكذا في العالم :

أولاً: ملائكة سماويون يدبرون العوالم تدبيراً محكماً بنظام متقن، وهم يستمدون ذلك من المقام الأقدس كما تستمد الحافظة والمفكرة ونحوهما من الروح الإنسانية معارفها واختراعها، إذ لولا أرواحنا ما كانت هذه القوى اللائي تحت سيطرتها ولا كانت معارفها ولا أعمالها.

ثانياً: ملائكة أرضيون يدبرون الزرع والشجر والبر والبحر كما نرى الماسكة والهاضمة الخ والغدد المختلفات تفعل في أجسامنا أفعالاً مختلفات وأطواراً متباينات، وهي أقل منزلة من قوى الدماغ، لأن تلك للعلم والتدبير، وهذه للعمل وإحداث الآثار.

وما هذا الذي ذكرته إلا ضرب مثل ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[النحل: ٦٠]، فإذا ضرب الله لنوره مثلاً بالسراج للعموم فما أسهل، وما أبدع، وما أجمل أن نبين لذوي العقول السليمة والحكماء والعلماء في الإسلام قاطبة.

(١) أن نفوسنا وأجسامنا وقوانا توضح هذه الآيات إيضاحاً شافياً، وأن وحدة النفس مثال لوحدة الله تعالى وإن كان الفرق شاسعاً بين المثل والممثل له كالبعد ما بين نور الله ونور السراج.

(٢) وأن قوانا في الدماغ ضرب مثل للملائكة السماوية الحافين حول العرش.

(٣) وأن قوانا الجسمية من البنكرياس والصفراء وأمثالها ضرب مثل للملائكة الأرضيين.

إذن ظهر بضرب المثل معنى قوله: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾[الزمر: ٧٥] في سورة أخرى، وإياك أن تظن أن المشبه كالمشبه به، فقول القائل: وجهه كالقمر، ليس معناه أنه هو نفس القمر أو أنه مثله من كل وجه، فهذا أمر واضح، هكذا هنا، فإذا كانت قوانا الجسمية لا عقول لها مستقلة فالملائكة ليسوا كذلك، فهم ذوو عقول مستقلة بها يدبرون، ولكن لهم صلة بربهم صلة القمر بالشمس يستمد منها.

هذا معنى كونهم حافين من حول العرش فهمناه فهماً إجمالياً، وأما كونهم يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض، فهذا موضع الاقتباس، فإن قوانا المختلفات في الدماغ اللاتي لها وظائف عامة من فكر وحفظ وذكر وهكذا لم تتركها أرواحنا سدى، بل لها صلة بها، ولن تكون أعمالها إلا على مقتضى ما وصلت إليه أرواحنا، فليس حفظ ولا فكر ولا تذكر زيد مشابهاً كل الشبه لهذه الثلاثة عند عمرو، ومعنى هذا أن هذه القوى مستمدات الاستمداد التام من نفوسنا بدليل أنها مناسبة لها لا لغيرها. فهكذا نقول في الملائكة ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[النحل: ٦٠]، إنهم لم يكن لهم عمل إلا على مقتضى علومهم المستمدة من ربهم. ولذلك نجد النتائج منتظمات. فهم إذن عارفون بصفات الجلال وصفات الإكرام، أي الصفات السلبية من أنه مخالف للحوادث، وأنه لا أول له الخ، وبصفات الإكرام وهي صفات المعاني كالقدرة والعلم الخ، والأولى تدخل تحت التسبيح والثانية تدخل تحت الحمد. فقوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[الشورى: ٥]؛ دخل فيها العلم بالجلال والإكرام. وبعبارة أخرى: صفات التنزيه وصفات الإفاضة والخلق والرحمة. ليس من المعقول أن يكون للسمع عالم الأصوات، وللبصر عالم الأضواء، وللذوق عالم الطعوم، وللشم عالم الروائح، وللمس عالم الخشن والناعم الخ، ثم لا يكون للعقل عالم يناسبه وهو عالم كله عقول.

ليس من المعقول أن كل فعل من الأفعال الطبيعية له فاعل من جنسه كما تقدم في النبات وفي الحيوان من أن هناك الفطر والبكتريا التي تحلل المواد الأرضية لغذاء النبات، والمواد التي في الأمعاء الغلاظ لإكمال الهضم كما تقدم قريباً، ثم تكون آراؤنا وأفكارنا لم تستمد من عالم عقلي يشبهها؟ إذن هناك ملائكة وهؤلاء هم الذين يمدوننا على حسب قوانا. وسيأتي إيضاح هذا المقام إيضاحاً تاماً في كتابي المسمى «مرآة الفلسفة» أذكره عند آية: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وهنالك يزول ذلك الإشكال الذي بقي ٢٤ قرناً في أمر العقول والنفوس والمادة وعلاقتها بصانع العالم، وقد وصلت بحمد الله لحل هذا الإشكال المعقد، وسترى هناك مراتب الفلاسفة في العالم، وكيف كان أفلاطون يقول بالمثل الأفلاطونية، وكيف رد عليه تلميذه أرسطاطاليس بأن هذه المثل ليست تحل المشكلة، والصواب عنده أن العلوم مرجعها غير تلك المثل وهي الصورة القائمة بالمادة؛ ولما جاء بعدهم قوم آخرون رأوا الخلاف عسيراً والحل صعباً. توقفت العقول عند هذا الحد. فتركوا الإلهيات واقتصروا على العلوم الأخرى. وسترى أن «سبنسر» الفيلسوف الإنجليزي والأستاذ سنتلانة الفيلسوف التلياني يقولان: إننا بالنسبة لأصول الفلسفة أمثال هذه المسألة لا قدرة لنا على حلها. ونحن بالنسبة لأمثال سقراط ومن معه كالبقة بالنسبة للفيل.

وأنا أعلن أن المسلمين خصوصاً والعالم الإسلامي عموماً أن الله عز وجل قد منّ بالتوفيق في تلك الرسالة، وسترى فيها طريقاً غير طريق هذين الحكيمين خالياً مما ورد عليهما من الإشكال. فقد بينت لك هناك إثبات برهان وجود الملائكة ومعرفة الله بطريقة كطرق الهندسة يفهمها الخاص والعام من أهل العلم. وهناك ثبت عالم الملائكة ثبوتاً هندسياً.

وقد تقدم في السورة السابقة في آية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠] بعض ذلك واضحاً، وتمامه سيأتي في الرسالة المذكورة إن شاء الله تعالى.

وبناء على ذلك نفهم قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨]، فالعلم منه وهو يفيضه على الملائكة، والملائكة يفيضون على الناس. فقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورى: ٥] راجع ذلك لاستمدادهم منه بالبرهان الذي ستراه في سورة «محمد» عليه الصلاة والسلام، والناس يستمدون من الملائكة. فاستغفارهم لمن في الأرض لن يتم لهم إلا لما نالوا من العلم بجلال الله وإكرامه. والناس من الملائكة يستمدون، وهذه هي المنزلة الرابعة من المنازل المتقدمة. فالمنزلة الأولى نظام العوالم. والثانية إدراك صانعه. والثالثة إدراك الملائكة. والرابعة العلماء في الأرض فهم يعرفون العوالم كلها ثم يفيضونها على الناس. ولهذا الإشارة بقوله: ﴿ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [الشورى: ٣]، فالوحي هو القرآن وهذا هو حرف «القاف» وبعبارة أخرى: ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٥] فهم يتبعون الملائكة حذو القذة بالقذة، والملائكة يستمدون من الله. هذا ملخص ﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾، فهي أربعة منازل: هي نظام هذه الدنيا وعقولها وعلومها وهيام القلوب بصانعها، وهل هذه المنازل الأربعة إلا أشبه بما جاء في جمهورية أفلاطون من المغارة والنار.

﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ﴾ ومغارة أفلاطون

اعلم أن ما قررناه من المنازل الأربعة في ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ﴾ هو نفسه الذي قرره أفلاطون في جمهوريته كما تقدم في هذا التفسير. ألم تر أنه تصور جماعة في مغارة وجوههم متجهة إلى مؤخرها، وأمامهم ضوء نار على ذلك المؤخر وهم مسلسلون بحيث لا يرون ما وراءهم من النار التي تضيء وراء سور، وهناك أناس يسيرون وهم يحملون أنواعاً من الحيوان والنبات والنار ترسم تلك الصور في مقابلة وجوه هؤلاء الذين في المغارة. وهؤلاء سموا هذه الصور بأسماء وقالوا إنها هي الحقائق بعينها. ثم إن أحدهم خرج منها وأخذ يتمرن على نور القمر في الماء وكذا النجوم ليلاً ثم يراها بأنفسها، يرى صورة الشمس في الماء، ثم يراها بنفسها. وبعبارة أخرى: إنه أخذ يتدرج في النظر فأدرك أن هذه الصور التي على الحائط ما هي إلا آثار صور الحيوانات الحقيقية، وأن النار نفسها ما هي إلا أثر من آثار الشمس. وبه تعرف الفصول والسنون والشهور والأيام. فإذا جعلنا الشمس بدل النار، وجعلنا سكان الأرض بدل سكان المغارة، وجعلنا النبات والحيوان بدل الصور التي على الحائط تم لنا المقصود وظهر المثل بأوضح معانيه. وعليه تكون الشمس ضربت مثلاً لله، والنبات والحيوان يكونان على مقتضى عالم المثال الذي يقول به أفلاطون، وسكان أهل الأرض كسكان المغارة، فهم جهال، وليس يدرك الحقائق إلا أناس تركوا آراء الجمهور وبحثوا فعرفوا العلوم. ثم إن ذلك الذي خرج من المغارة وعرف الحقائق في مثال أفلاطون رجع ثانياً إلى إخوانه وقاسى الشدائد في تفهمهم كما قاسى المشقات في تمرين عينيه على نظر الأنوار الحقيقية، إذن هنا صعود من المغارة، ثم تعلم، ثم رجوع إلى من فيها وتعليم لهم.

أفليس هذا كله هو عين ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ﴾ ارتقاء عن المادة، معرفة الله والملائكة، ثم رجوع إلى الناس وتعليم لهم على مقتضى ما تتعلم. هذا معنى قوله: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الشورى: ٥]، فالحمد لله على نعمه الوافرة، وآلائه الفاخرة. اهـ.

جوهرة في آية:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾

إن المتعلمين أكثرهم نبذ الكلام على الآخرة والدين، وإن ذلك تقدم في التفسير. وهذه أول مرة قام فيها رجل له همة وله احترام من المتعلمين بهذه الخطبة، وهذه بشارة أزفها بأن الجو في متعلمي الشرق الأدنى أخذ يتغير إلى الأحسن بعد أن كانوا يحتقرون هذه الآراء، وهذا الاحتقار أضاع بلادهم. وهاك نص الخطبة المذكورة:

بأي ميزان تزن الحياة؟

محاضرة الأستاذ توفيق دياب ألقاها في ألف ومائتي مستمع

أخواتي وإخوتي:

ذلك السر الغامض الذي يبدأ بالميلاد وينتهي بالوفاة. ذلك السر الغامض الذي نسميه الحياة، ونرى أنفسنا في غماره متدافعين إلى الأمام أو متراجعين إلى الوراء. ذلك البحر الخضم الذي تلقينا بين أمواجه يوم نولد قوة خفية، حتى إذا سبحنا فيه شوطاً قصر أو طال؛ نزعتنا منه تلك القوة الخفية حين

يحل الأجل، هذه المعركة التي نساق إليها غير مختارين، وننفصل عنها غير مختارين. هذه هي الحياة ما هي؟ وما غايتها؟ ولماذا ولدنا؟ ولماذا نموت؟

ليت أحداً يستطيع الجواب عن هذا السؤال في كلمة أو كلمات. إذن لاستراح الفلاسفة وأصحاب المذاهب المختلفة في كنه الحياة. فقديماً كان، وإلى اليوم مازال، هذا السر الرهيب موضوع البحث الملح ومثار الجدل العنيف بين العلماء والمفكرين، وليس عجباً أن يفكر الفلاسفة في مرمى الحياة، وإنّما العجب ألا يفكر في مرمى الحياة جميع الناس.

نولد أجنة وندرج أطفالاً وننشأ صبية ونراهق فتياناً ونستوي رجالاً ونبلغ الكهولة وتدركنا الشيخوخة إن قدر لنا أن نعمر؛ ثم ماذا؟ ثم تجف الشجرة وتذوي الأزاهير ويتساقط الورق، وما هو إلا نفس أخير نلفظه فإذا نحن رفات. وذلك دون أن نفكر يوماً لماذا ولدنا ولماذا حيينا ولماذا نموت؟ ودون أن نفكر من أين جئنا وإلى أين نعود؟ وهل جئنا من عدم لنعود إلى عدم أو جئنا من وجود لنعود إلى وجود؟

وأنت مع ذلك إذا أخذتك سنة من النوم، ثم استيقظت فوجدت نفسك في غرفة لا عهد لك بها، فلن تستقر على حال من الدهش، حتى تعرف ما هذا المكان ومن ذا جاء بك إليه وكيف جاء بك ولماذا؟ ستطل من نوافذ الغرفة لترى على أية حديقة أو فناء تشرف، ستفتح الباب فإذا كان موصداً عالجته حتى ينفتح أو ينحطم، فإذا خرجت من الغرفة جعلت تنظر يمنة ويسرة في ذهول وحيرة. ثم جعلت تطوف في أرجاء الدار متسائلاً نفسك: أين أنا وما هذه الدار ولمن هي وفي أية مدينة؟ ولن يهدأ لك بال أو يستقر لك حال حتى تلقاك سيدة أشبه ما تكون بالمرضات، فتنبئك بأن هذه الدار ـ عافاك الله ـ مستشفى، وأن إغماءة طارئة غشيتك فخاف عليك والدك فأسرع بك إليه، حتى إذا بشر الطبيب أباك بأن الأمر هين لا خطر فيه؛ آثر لك الإقامة هنا أياماً إلى أن تستعيد صحتك فترجع إلى دارك سليماً معافى.

حينئذ تدرك حقيقة المكان ومن جاء بك إليه وما السبب؟ فإذا عرفت أن الغاية هي استشفاؤك مما بك، لم يزدك علمك بهذه الغاية إلا أخذاً بأسبابها واستيفاءً لشرائطها، حتى يتم لك منها ما أراده والدك وما أصبحت تريده نفسك.

هذا شأننا من الدهش والتساؤل إذا طوحت بنا الطوائح إلى مكان نجهله. فما بالنا تبعثنا إلى هذه الدنيا قوة خفية على غير قصد منا ولا اختيار، ثم تتوفانا مستضعفين على غير قصد منا ولا اختيار نظهر ونختفي على سطح هذا المحيط الهائل، كالفقاقيع تنتفخ وتنفجر في مثل لمح البصر، دون أن يأخذنا دهش يدعونا إلى الحيرة والتساؤل والتفكير.

لماذا بعثتنا القوة الخفية القديرة الجبارة إلى هذه الدنيا؟ ألنقضي في هنائها أو عنائها، في صحتها أو مرضها، في غناها أو فقرها، في عدلها أو ظلمها، في إخائها أو لددها، في رفقها أو جفائها، أو في مزيج من هذا كله ستين أو سبعين عاماً إذا طال بنا العمر. وما ستون أو سبعون عاماً في امتداد الأزل الذي لا أول له، وفي امتداد الأبد الذي لا نهاية له.

وإن العلماء ليحصلون السنين التي سلختها الإنسانية على هذا الكوكب بالملايين لا بالألوف، ويقدرون لها البقاء فيه ملايين أخرى تربو على الإحصاء. فما أنا وما أنت، وما نصيبي وما نصيبك في هذا السرمد الذي تحار فيه الألباب. ذرة ضئيلة من جبل أشم، قطرة هينة من محيط مترام. وإذن فما حياتك وما حياتي وما حياة هذا الجيل كله وما حياة الأمم الحاضرة كلها، حتى نجعل موضوع هذه المحاضرة: بأي ميزان تزن حياتك؟.

إن التاريخ المدون أو المكتوب لا يعدو ستة آلاف من السنين. وهي التي شغلت أقلام المؤرخين وهي التي ظهرت فيها حضارات واختفت حضارات. وارتقت أمم وانحطت أمم، وهي التي وقع فيها من المظالم والحروب، وطغى فيها من الرق والاستعباد، وتقلب فيها من العقائد والأديان، واختلف فيها طرائق الخير والشر، وتعاقب فيها على الجماعات والأفراد من السعادة والشقاء. وأظلم فيها من الضلالات والجهالات، وأضاء فيها من المعارف والعلوم ما تضيق عن الإحاطة به مئات الألوف من المجلدات ومئات الألوف من العقول، وهذا كله تراث ستة آلاف من السنين. وما هي من ماضي الإنسانية المجهولة ومن تاريخها غير المكتوب، وما هي من مستقبل الإنسانية الذي لا تترامى إلى حدوده عين الخيال؛ إلا بمثابة الدقيقة الواحدة من ألوف الأعوام.

إذن أليس من الغرور أن أتكلم عن حياتك وحياتي وعن ميزان حياتك وميزان حياتي. ما حياتك وما حياتي إذا قستها بهذا المقياس المخيف. إنك لو نظرت إليها بالميكروسكوب لعز على الميكروسكوب أن يكشفها لمن ينظر إليها من أفق الأزل القديم والأبد الخالد.

ألا تصدق؟ إذن ألا تعلم أن كوكبك هذا الذي عاش فيه أجدادك من البشر ملايين السنين وسيعيش فيه أحفادك ملايين أخرى لا يحصيها العد، إن لم يصطدم به جرم سماوي آخر فإذا أرضك هباء في مثل قصف الرعد أو خطف البصر. ألا تعلم أن هذه الأرض بماضيها الزاخر ومستقبلها العظيم الباهر إنما هي شظية تطايرت من الشمس كما تتطاير الشرارة من التنور الهائل المستعر، فجالت شرارتك في الفضاء حتى أخذت مدارها من نظامنا الشمسي واستحالت حصاة مستقلة ذات سيادة.

أنا وأنت وهو وهي وهم وهن آحاد في عداد ملايين الأمة المصرية. والأمة المصرية إحدى العشرات الكثيرة من أمم هذا العصر. وأمم هذا العصر حلقة قصيرة من سلسلة ترجع إلى ماض لا يدرك الخيال مبتداه وتمتد إلى مستقبل لا يدرك الخيال منتهاه على هذه الأرض، وهذه الأرض شظية كانت ملتهبة تناثرت من الشمس فدارت من نظام الكون حيث تدور، فماذا عسى تكون حياتي وماذا عسى تكون حياتك، لا سيما وأنت تعلم أن نظامنا الشمسي ليس إلا واحداً من نظم كثيرة تماثله. لو أطلنا التفكير في كنهها وفي تلك القوة الخفية التي تسخرها لقضينا أعوامنا الستين أو السبعين في التفسير، دون أن نزداد في تفهمها إلا ذهولاً وحيرة.

سيداتي وسادتي:

هل تحتملون مني كلمة جريئة؟ إذن تفضلوا فاسمعوها: إذا كانت الحياة هي الأعوام الستون أو السبعون التي نعيشها في هذه الدنيا، من غير أن نكون مرتبطين قبل قدومنا بقوة هي التي بعثتنا لحكمة،

ومن غير أن نكون مرتبطين بعد رحيلنا بقوة هي التي استدعتنا إليها لحكمة، إذا كانت الحياة مصدرها العدم ومصيرها العدم، إذا كان مولدنا في هذه الأرض مصادفة لم تقصدها قوة مريدة مدبرة، وكان موتنا مجرد انتهاء لهذه المصادفة، إذا كان وجودنا مجرد نتيجة آلية عضوية لمجرد تفاعلات آلية عضوية وكان زوالنا نتيجة مادية لأسباب مادية لا أقل ولا أكثر، إذا كانت أيامنا في هذه الدنيا برزخاً تاعساً بين بلقعين: بلقع الماضي قبل أن نولد، وبلقع المستقبل بعد أن نموت، إذا كنا في هذه الدنيا مجرد أحلام زائلة وأشباح حائلة، إذا كان كل هذا العناء وهذا الكدح وهذه الآلام وهذه الأمراض وهذه الخطوب التي نشاهدها أو نحتملها أو نكافحها في سبيل الإنسانية، إذا كانت كل هذه الحضارات وهذه العلوم وهذه الفنون وهذه الآداب التي تسمو إليها الأمم جيلاً بعد جيل، إذا كانت هذه الشرور كلها وهذه الخيرات ليس وراءها إلا مطلب واحد هو أن يعيش كل فرد من الناس خمسين أو ستين عاماً محدودة بحدين: عدم مطلق منذ الأزل، وعدم مطلق إلى الأبد ما عدا هذه الأعوام الخمسين أو الستين، إذا كان الأمر كذلك، فما أحمق الأحياء الذين يؤمنون بهذا العدم من قبل ومن بعد ثم يعيشون. إن الانتحار أولى بهم وأجدر، أما أنا فلو كنت منهم لانتحرت. إن هذه الأعوام الستين التي يعيشها المرء في هذه الدنيا لا تساوي في ذاتها عضة الفقر ولا ذلة الحاجة عاماً واحداً. إنها في ذاتها لا تساوي برحاء المرض الممض نصف عام. إنها في ذاتها لا تساوي احتمال ظلم الظالمين ولا جبروت المتجبرين. إن المرء ليصادف في هذه الأعوام الستين أو السبعين من ضروب الأذى ما لا يحتمله إلا لشعور واحد، هو أن الحياة سر قديم خالد، لا حياة الجماعة فحسب بل حياة كل فرد من أفرادها كبر أو صغر، جلّ في نفوس الناس أو هان.

إذا سألت بعض علماء المادة الذين يرون حياة الفرد مسبوقة بعدم منتهية إلى عدم، إذا سألتهم لماذا يعيشون. قالوا: نعيش طوعاً لغريزتين: غريزة الحرص على بقائنا، وغريزة الحرص على بقاء النوع. أما حرصنا على بقاء أنفسنا فواضح حتى في الطفل يتجنب السقوط من عل ويتجنب النار اللاذعة والحفرة العميقة. وأما حرصنا على بقاء النوع فواضح في الأم تسهر على ذراريها. والأب يعول أبناءه، حتى ولو كانت الأم حيواناً أعجم.

ونحن نفهم هذا التعليل بقوة الغريزة من غير السادة العلماء. فأما وهم من أهل التفكير الذين من شأنهم أن يرجحوا حكم العقل على اندفاع الغرائز، فقد كان الأولى بهم إذا لم يؤمنوا بأن الحياة الفرد اتصالاً وثيقاً بالخلود كان أولى بهم أن يدركوا هذه الأعوام القليلة التي ستسلمهم عما قريب إلى فناء لا وجود لهم بعده.

هذه الأعوام لا تستحق منهم عناء البحث والتنقيب في مظاهر كاذبة وزبارج باطلة، ولا تستحق منهم هذا العكوف على المعامل والآلات والمنظار المكبر والمنظار المصغر والتعليل والتحليل والكدح بالليل والنهار للوصول إلى حقائق مهما تكن في نظرهم جليلة فهي تافهة، ما دامت هذه الخلائق الإنسانية والسادة العلماء في طليعتها كائنات تافهة، تظهر اليوم من ظلام العدم لتنتهي في الغد إلى ظلام العدم.

كان أولى بهم أن يقفوا مبشرين بالفناء، وأن يقولوا للناس: فيم الكد وفيم العناء في سبيل غاية مقفرة مظلمة، إلى العدم العاجل بيدك أنت أيتها الإنسانية مختارة طائعة، فذلك أكرم وأروح للبال من أن يحل بك العدم غير طائعة ولا مختارة.

يقولون: إن حياة الإنسانية شيء وحياة الفرد شيء آخر، حياة الفرد إلى العدم. فأما حياة الإنسانية فإلى البقاء، لذلك يخدمون الإنسانية بالعلم والفن والأدب، ليجيء الجيل اللاحق خيراً من الجيل السابق، ولتجيء الحضارة الآتية أعظم وأروع من الحضارة الماضية، وهذا في الحق سخف عظيم لأن معناه أن جميع الأجيال الماضية وجميع الأجيال الآتية كانت وستكون مجرد عتبات ومدارج، أو مطايا وبراذع، يعلوها في النهاية آخر جيل تتمخض عنه الإنسانية، فإذا استوى الجيل على قمة المجد لم يكن مجده خالداً، بل كان مجده زائلاً كذلك، ولو عمر الإنسان الأخير بفضل العلم ألف سنة.

ثم ينقضي هذا الجيل الأخير بانقضاء صلاح الأرض للحياة، وانتهت الدنيا إلى غايتها، وفنيت حضارة الشمس، وانطفأ ضياؤها، واستحالت البحار جليداً والشجر والنبات هباء أمست الإنسانية عدماً مطلقاً إلى آخر نسمة فيها، ولم يبق للإنسان المسكين حتى ولا الذكرى، إذ من ذا يذكر الإنسان وقد امحى من صفحة هذا الكون آخر إنسان. وامحى لا ليسمو إلى عالم آخر ولكن ليبقى غريقاً في غمرات الفناء، خالداً فيها أبد الآبدين.

هل هذه إذن غاية الإنسانية؟ هل غايتها أن تقضي مئات الملايين من السنين لتنضج جيلاً واحداً هو الجيل الأخير. ثم يكون هذا مصير ذلك الجيل الأخير؟ أتعرف الساحر الذي يخرج علبة من جوف علبة ثم يخرج الثالثة من جوف الثانية والرابعة من جوف الثالثة والخامسة من خوف الرابعة وهكذا حتى تعد عشرات من العلب يخرج بعضها من جوف بعض حتى ينتهي بك إلى علبة لا تكاد تراها لضؤولتها، ثم يوهمك بأن فيها قطرة من سائل هو ماء الحياة. فإذا تناولها المتناول وأسرع بالقطرة إلى فيه ليرزق الخلود خرّ على الأرض فاقد الروح. تلك صورة فكاهية من الحياة الإنسانية كما يفهمها أولئك الماديون.

سيداتي سادتي:

هل تريدون مني كلمة جريئة أخرى؟ هذا الإنسان أكبر وأعظم من الأعوام السبعين أو المائة التي تمتد إليها حياته في الدنيا. لكن هذا الإنسان متناقض عجيب. أتذكرون أيامه الغابرة؟ أيام كان يأوي إلى الكهوف ويأكل الصيد نيئاً. ويضرب في الغابات عارياً. ولا تكاد تميزه من سائر الحيوان. هذا الإنسان ما الذي هداه إلى ما هو اليوم فيه؟ ما الذي صعد به إلى المستوى الذي بلغه في القرن العشرين معجزة القرون؟ في الدنيا حروب وفيها عدوان وفيها آفات وفيها عيوب. ولكنها عيوب الصاعد إلى المثل الأعلى رويداً رويداً، ولا سبيل إلى أن ينجو من تراث الماضي وغرائز الأنانية الأولى كل النجاة في ألف عام، كلا. ولا في عشرة آلاف. قد يشن الحروب ويعتدي على الحقوق. ولكن لطيفة خفية تنزع به إلى السلام والإنصاف بعد النزوع. له اليوم قوانين وشرائع إن طغت عليها يد العدوان يوماً؛ فإن الجماعة كفيلة برد الحق إلى نصابه وإن كره المعتدون. له اليوم علوم قيمة وفنون جميلة وآداب

أفسحت أمام عقله سبحات الهناءة المعنوية. له تعاون على البر والإحسان. يلطف من تعاون الأشقياء على الغدر والإساءة. له أديان مشروعة ومثل من الأخلاق موضوعة. له طائرات في الجو وغائصات في البحر، وله أسباب ممدودة تراها العين أسلاكاً برقية أو تلفونية أو لا تراها، لأنها أسباب من الأثير تحمل الأصوات وتخفى عن النظرات.

وهو مع ذلك متناقض عجيب. ذلك الذي دوخ الأرض وسخر الجو والبحر ونفذ في الصخر وكشف من الأسرار عجائب كانت قبل عشرة أعوام أو عشرين في عداد المعجزات. ذلك الذي يقف وراء المدفع الضخم فيطلقه على البرج المشيد أو القرية العامرة فإذا هي أطلال. ذلك الذي كشف أسرار الأفلاك والكواكب والنجوم. وعرف مزاج بعضها وتأليف مواده وتركيب عناصره وقاس أبعادها وحذق حسابها حتى ليتنبأ لها بحوادثها ومجرياتها قبل أن تقع بمئات الأعوام. ذلك الذي اتخذ من الغاز سموماً. ومن الهواء غذاء ومن حرارة الشمس وهدير الماء قوة مستعملة أو مذخورة. ذلك الذي أضاء الليل بثريات مكهربة، فكأنها شموس وأقمار، ذلك الذي يطوف الآن حول الأرض على متن الهواء قبل أن يطوف أخوه البدوي مناخ قيلته على ظهر البعير. ذلك الذي كشفت له الأشعة مكنون الجسوم واخترقت له حجب الغيب فأصبح يرى ما لم تكن تراه العيون.

ذلك الإنسان تقتله البعوضة وتمرضه نسمة الهواء، وتشرقه جرعة الماء، ويصرفه الهوى عن الجادة ويريد الأمر المستطاع فيصرفه عنه التخاذل! ذلك الإنسان يعدل ويظلم، ويقسو ويرحم ويتخذ العلم للشر ويتخذ العلم للخير، فما هذه القوة وما هذا الضعف؟ وما هذا النور الساطع وما هذا الحلك الدامس. وكيف يجتمعان ولأيهما الغلب آخر الأمر. وهل نستطيع أن نستخلص من بين هذه الأطوار المتنافرة، والمظاهر المتناكرة، حقيقة الحياة وغاية الحياة وميزان الحياة؟ نعم. وأبيك يجب أن نستطيع.

سيداتي وسادتي:

هل تريدون مني كلمة جريئة أخرى؟ نحن تلاميذ القوة العظيمة التي بعثتنا إلى هذه الدنيا يوم ولدنا. والتي تتوفانا يوم يحل الأجل نحن تلاميذها وهي تعلمنا من حيث لا نراها، وقد أودعتنا سراً يسميه الفلاسفة عقلاً. وتسميه الأديان روحاً. وأنا لا يهمني ماذا نسميه، هو قبس من هذه القوة العظيمة وشعاعة من نورها، وليس يولد إنسان إلا وينطوي على هذا القبس أو هذه الشعاعة كامنة! وإنما توقظها تجاريب الحياة من ألم ولذة وحرمان وإحراز ومرض وصحة وإخفاق ونجاح، فالألم يوقظ هذا السر الكمين، ويروضه على النظر كيف ينجو من الألم. واللذة تبعث فيه حب الاستزادة، فحب الحركة في سبيل إحراز تلك اللذة والحرمان يبعث فيه حب التحصيل والإحراز، ولذة الإحراز تدفعه إلى طلب المزيد، والمرض يعلمه التوقي ويعلمه الصبر والجلد، والصحة تشعره الهناء، والإخفاق يغريه بالكدح ومعاودة العلاج، والنجاح يزيده همة وعزيمة. كان هذا منبت الغرائز في الإنسان الأول، ثم رأى ذلك التلميذ الناشئ على كر الأجيال أن في بعض لذاته إيلاماً لإخوته، وأن في بعض سعادته شقاء لسواه، فازدادت فيه الحساسية، فوازن قليلاً بين سعادته وشقاء الآخرين، فانصرف قليلاً قليلاً عن الأنانية المطلقة، ومازج تقديره شيء من العطف على سواه.

السر الدفين يستيقظ، الشعاعة الكمينة ترسل ضوءها خارج نفسها لأول مرة، بذرة الإنصاف والعطف والغيرية تستحيل نبتة مزهرة، التلميذ يتعلم في مدرسة الحياة درس العدالة، فيحاكي المعلم الأعظم الذي بعثه إلى مدرسة الحياة، التلميذ يدرس منهاج الفضائل في مدرسة الدنيا مكرمة بعد مكرمة، ومحمدة بعد محمدة، أليس المعلم الأعظم كريماً حميداً؟ وهذا تلميذه أودع فيه قبسه لينقدح بزمام الحوادث والتجاريب. أهي البسالة والإقدام؟ إن المعلم الأعظم يعلو عن المخاوف فهو القوي المتين! أهو الدأب والكفاح والعزيمة لا تعرف اليأس ولا القنوط. إن المعلم الأعظم شديد المراس يعلو عن الفترة والوهن، أهو البر والإحسان؟ إن المعلم الأعظم هو المحسن البار وهو ينبوع البر والإحسان.

وما من فضيلة ولا مكرمة إلا اشتق أصلها من تلك القوة المهيمنة ومن ذلك المعلم الأعظم. ولكن المعلم الأعظم لا يعلمنا الشجاعة ولا قوة العزيمة ولا البر والإحسان إلا عن طريق الحوادث والتجاريب، فقبل الشجاعة ساد الجبن حتى استيقظت شعاعة المعلم الأعظم في التلميذ فاحتقرت الجبن والجبناء. وقبل الوفاء ساد الغدر، وقبل البر والإحسان سادت القسوة والجفاء.

وفي هذه المدرسة ما زال التلاميذ يدرسون ولن يزالوا، وإلى جانب الأخلاق التي تروضهم عليها حوادث المدرسة ويقظة السر الكمين، يتجه ذلك القبس إلى محاكاة المعلم الأعظم في العلم والقدرة والإرادة، فلا تفتأ الأشعة الأزلية الخالدة التي تصل قلوبنا بعظمته، لا تفتأ تبحث وتنقب في أسرار هذا الوجود، فتستكشف اليوم قانوناً من قوانين الطبيعة وتستكشف غداً جوهراً من جواهرها الخفية، حتى استطاع التلميذ بحركة من أصبعه أن يحيل الغرفة المظلمة نوراً وهاجاً، لأنه عرف سر الكهرباء، فما كان بالأمس معجزة يرتاب في جوازها العقل؛ أصبح اليوم حقيقة مألوفة لا يدهش لها الأطفال. واستطاع التلميذ أن يشافه صاحبه بكلمات تلوكها الألسن وتسمعها الآذان، هذا في جنوب المعمور وذاك في شماله من غير حاجة إلى أسلاك، واستطاع التلميذ أن يشارك الطير في ارتياد الجو فكأن كل محلق في الجو سليمان. وغاص مع الأسماك في مساربها وتتبعها إلى مهاربها.

ذلك أن المعلم الأعظم يريد لتلاميذه أن يحاكوا عظمته في العلم والإرادة والقدرة، كما يريد لهم أن يحاكوه في المحامد والمكارم، أليس المعلم الأعظم قديراً على كل شيء؟ أليس فعالاً لما يريد، أليس يقول للشيء كن فيكون، وهاهو ذا تلميذه، هاهو ذا سره وقبسه في هذه الدنيا، الإنسان قد استطاع أن يسخر الهواء والماء والكهرباء، وكثيراً مما نرى ولا نرى من قوى هذه الطبيعة العذراء.

سيداتي وسادتي:

إذن لا يروعنكم أن تكونوا ذرات صغيرات الأحجام محدودة الأعمار في هذه الدنيا، إذن لا تستهينوا بأنفسكم إذا قستموها بما سبقكم من الأجيال وما يخلفكم منها، حتى إذا رجع الماضي إلى الأزل وامتد إلى الأبد، ولا يهولنكم أن يكون كوكبكم شظية تناثرت من الشمس، فكل واحدة منكن سيداتي، وكل واحد منكم سادتي يحمل بين طواياه سر الوجود، هذه الأرض ستفنى، والشمس التي هي أصل الأرض ستفنى، والنظم الشمسية على اختلافها قد يجعلها المعلم الأعظم مظاهر أخرى لقدرته وصوراً جديدة لإرادته، لكن ذلك القبس الذي هو نفحة من روحه جلت روحه وعلت عن

الأرضين والشموس والأقمار، ذلك القبس الذي يصلكم به صلة أزلية خالدة لا تنفصم، ذلك القبس هو سر الوجود. فبأي ميزان تزن الحياة، أبميزان الطعام والشراب والفقر والغنى والدور والقصور والبذخ والمناعم والوظائف والمناصب، أم بميزان المحامد والمكارم والعلم والإرادة وكبريات الصفات التي تحاكي بها معلمك الأعظم؟ نحن لا نحتقر الطيبات من الرزق ولا نبغض إليكم كسب المال وإنفاقه في سبيله الخيرة، بل نحض على ذلك، ففيه حفز للهمم وعود على النفس وذوي القربى وأهل الخصاصة بالمتاع الحلال. ولكن الأمر كل الأمر الذي أريد أن أذكر نفسي به وأذكركم هو أن كل مرافق الحياة من متاجر ومزارع وصناعات، ومن مطاعم ومشارب ومساكن، هي أدوات ووسائل لا بد منها، ولكنها ليست غاية الغايات، أذكر نفسي بهذه الحقيقة الأولية وأذكر بها حضراتكم، لا غضاً من الوسائل ولا صرفاً لكم عن اتخاذ الأدوات، ولكن لأنك لو أحصيت في زماننا هذا أولئك الأيقاظ الذين لم تصرفهم وسائل الحياة عن غاية الحياة؛ لألفيتهم نزراً يسيراً لا يبلغ عددهم فيما أحسب واحداً في كل ألف. أولئك يزنون الحياة عامة، ويزنون حياتهم خاصة بما تحوي جيوبهم من مال، لا بما تحوي نفوسهم من خصال، وبما يشغلون من مناصب لا بما يخدمون من مبادئ.

سيداتي سادتي:

هذه الأرض مدرسة بعثنا إليها بديع السماوات والأرضين. وهذه حقيقة الحياة، حياة الأفراد وحياة الأمم. وغاية هذه الحياة هي أن نحاكي صفات المعلم الأعظم، نحاكي عظمته في غير صلف، نحاكي رحمته في غير ضعف، نحاكي علمه وقدرته في غير زهو ولا فخار، نحاكي إرادته في غير تجبر ولا غرور.

سيداتي وسادتي:

في هذه المدرسة الربانية الكبرى تلاميذ مختلفة درجاتهم، فمنهم المبرز ومنهم المتخلف. فلا تعجبوا إذن لبعد ما بين الناس من تفاوت في الأخلاق والعزائم والعرفان، لكن حين يعلم الناس أنهم هاهنا تلاميذ وأنهم لم يرسلوا إلى الحياة لعباً ولا لهواً؛ وأن معلمهم هو ينبوع النور والعرفان والفضائل في كل قلب مضيء ورأس عامر بالعلم ونفس خفاقة بالشعر أو ببدائع الفن الجميل؛ حين يعلم كل ذي موهبة وكل ذي فضيلة وكل صاحب اختراع وكل مستكشف لسر من أسرار الطبيعة، أن ملهمه ومرشده هو ذلك القبس المستمد من قوة الله؛ حينئذ يبطل الغرور حياء من الله. وتتضاعف الهمم مرضاة للمعلم الأعظم. ويكون ميزان حياتك هو مبلغ محاكاة لصفات المصدر لكل عظيمة من عظائم الصفات.

هذه هي الخطبة التي ألقاها الأستاذ توفيق دياب ونشرت في الجرائد. كتبتها لأنها تمت إلى الحقائق بسبب. وبيانه أن الناس قسمان:

قسم لا يعرف من الوجود إلا الظواهر. وهذا القسم هو أغلب نوع الإنسان.

وقسم يبحث عن حقائق الوجود. وهذه الخطبة تمت إلى القسم الثاني، لسبب ذلك كتبتها في هذا التفسير.

وهل لك أيها الذكي أن أحدثك حديثاً عجباً: إن هذه الخطبة ذكرتني بجوهرتين:

الجوهرة الأولى أنها تقرب من كلام أفلاطون في جمهوريته في الكتاب الخامس.

الجوهرة الثانية أنها تقترب بعض الاقتراب بما خطر لي وملأ قلبي بهجة وسروراً وانشراحاً صباح يوم السبت ٥ رمضان سنة ١٣٤٩هـ الموافق ٢٤ يناير سنة ١٩٣٠م.

الجوهرة الأولى

في موازنة هذه الخطبة بآراء أفلاطون في جمهوريته

ترجع هذه الخطبة كلها إلى أن كثيراً من الناس لا يفقهون إلا الحياة الحاضرة، وهي في ظاهرها مسبوقة بعدم ويلحقها عدم. فسواء أكان اجتهاد الناس في الدنيا موجهاً لأنفسهم هم، أم كان موجهاً لأبنائهم وأحفادهم، أم كان موجهاً إلى مواطنيهم، أم كان موجهاً لأجيال سيأتون بعد آلاف آلاف السنين، فهذا كله ما هو إلا وبال وسعي لغير فائدة، فالوجود الذي يعقبه الفناء وجود خير منه العدم والفناء.

هذا ملخص الخطبة، وعادة هذا الإنسان المتدين والملحد أنهم لا يفكرون على هذا الأسلوب، وغاية الأمر أن المتدين يقول: أعمل خيراً ليكون لي ثواب، فأتمتع باللذات بعد موتي. أما أمثال هذه الآراء فإن عادة الإنسان في الأرض عدم خطورها بباله خطوراً يبعث على البحث، وإذا خطرت يذرونها بلا بحث، ويكتفون بدياناتهم التي نشؤوا عليها، وهم لا يفهمون منها إلا قشورها، فهاك ما قاله أفلاطون في جمهوريته.

إن هذا الفيلسوف كما تقدم كثيراً في هذا التفسير لا يرى أحداً يصلح لحكم الأمم إلا الفلاسفة ذلك لأنهم وقفوا على الحقائق فصاروا كأنهم خلفاء الله في أرضه، وبهذه الخلافة يقلدونه في صنع ما هو كامل، ويحفظون الأمم كما يحفظ هو الكون كله، وعلى هذا أخذ يصف هؤلاء الفلاسفة، ويدور محورُ كلامه على أمرين اثنين لا ثالث لهما، وهما: إن الموجود إن كان دائماً فالقائم به المتحقق به هو الفيلسوف، وإن كان الموجود غير دائم فالمكتفي به ليس فيلسوفاً، لأن علمه متعلق بما ليس له دوام، فهو يبني أساس عقله وعلمه على ما ليس بثابت، فهو أشبه بمن يبني قصوره على شفا جرف هار، أو على أرض بركانية يثور فيها البركان وقتاً بعد وقت، أو كمثل من يركب الأسد، فهو في جميع أحواله خائف يرتقب الهلاك، وهكذا مصاحب الكاذب الخائن، فهو في جميع أوقاته يترقب غدره وإيقاعه في الهلاك وهكذا.

إن ما هو معدوم يكون تصوره جهلاً، وما هو موجود دائم يكون إدراكه علماً، وما يكون متردداً بين الوجود والعدم يكون إدراكه تصوراً، فهو متردد بين العلم والجهل.

هذا إجمال كلامه، وإن أردت يا صاح إلا الإفصاح؛ فدونك الصور الجميلة والأنغام الشجية والقصور الفخمة والأطعمة اللذيذة والثياب الملونة والأشربة المفرحة والمزارع النضرة والبساتين الجميلة والممالك الواسعة التي يملكها الملوك، و الأرض الواسعة التي يملكها الأفراد، وأمثال ذلك مما يعرفه جمهور الناس وهو شائع بينهم.

هذا كله موجود مشاهد، والناس في الشرق والغرب قديماً وحديثاً لا يرون لهم سعادة ولا عزاً ولا مجداً ولا لذة إلا في التمتع بهذه وأمثالها، فتجد الإنسان مفتوناً بمعشوق جميل ملك قياده كغادة هيفاء، أو بنوع من الشراب يفني فيه أوقات فراغه، أو قصصي يقص عليه أخباراً مسلية، أو جوقة تمثل رواية غرامية، أو السينما «دار الصور المتحركة» التي تعكس صوراً بهجة غريبة.

وبالجملة إن هذه كلها هي التي يفرح بها الناس ويظنون أن هذا وجود حقيقي وهذا خطأ. إن كل هذه مترددات بين الوجود والعدم. فمن وقف نظره عليها خانه عقله وأخطأه جده، فإن هذه كلها لها وقت فيه تتغير ولا تبقى. فالقصور والبساتين والمزارع والغادات الفاتنات والصور المتحركات في السينما إذا أخذناها باعتبارها هي وأنها مقصودة لذاتها؛ وأن هذا الجمال الذي فيها لا نطلب شيئاً وراءه؛ فإن عقولنا إذن تكون في غاية الخطأ. والدليل على ذلك أن حياتنا محدودة. وكذلك وجود كل هذه المشاهدات التي فرحنا بها. إذن وجودها عدم، وأي عقل يفرح بما ليس بدائم. العقل الذي يفرح بما ليس بدائم عقل مخبول. فهذه الصورة الجميلة التي سلبتني لبي وأخذت على مشاعري، وهذه الحديقة الجميلة، وهذا الملك الواسع، وهذه السلطة، سيحصل أحد أمرين: إما أني أضعف عن التمتع بها بموت أو مرض أو غيرهما. وإما أنها هي تزول أو تفارقني أو تأتي عوارض تحول بيني وبينها. فنرى هذه الغادة الجميلة أغرمت بغيري أو ماتت. وهناك ينقلب العشق مرضاً ولهفاً وحزناً. وهكذا يقول أفلاطون: كل هذه الأشياء مترددة بين العدم والوجود، فالفرح بها والاعتداد بوجودها والوقوف عندها عدم عقل وضعف في البصيرة. إذن ماذا يفعل هذا الإنسان المسكين الذي كله لا يعرف إلا هذا؟ فقال: يتخذ هذه الصور الجميلة، وهذه اللذات المختلفة والقصور والدور والممالك والأبهة وسيلة للتوصل بها إلى إدراك أن هناك جمالاً مطلقاً وملكاً كبيراً وعدلاً تاماً ونظاماً دائماً لا يعتريه الفناء، ومعنى ذلك أن الفيلسوف يبحث بالطرق العلمية ويدرس جميع العلوم وجميع هذا الوجود. وتقوده تلك الصور الجميلة والنظم البديعة إلى ما وراءها من جمال دائم وملك واسع، وما هذه إلا صور تشف عما وراءها. ويكون كل ما يصبو إليه الجهال من صور جميلة ومال عند الحكيم مذكراً ووسيلة لترقي عقله إلى جمال أتم وملك أوسع ولذة أكمل مع الدوام؛ يلحظه بعقله ويعيش قرير العين بحيث إذا غاب ذلك الجميل أو غدر أو زال ذلك الملك أو المال؛ فإن نفس الفيلسوف سعيدة. ذلك أن محبوبها لم يغب عنها. فإن محبوبها هو الجمال المطلق. فأما هذه الصور التي ظهرت له فما هي إلا ظواهر مذكرات بما وراءها لا حقائق، فأمثال هؤلاء الفلاسفة هم الذين يجب أن يقوموا بنظام الأمم.

أنا الآن أعتقد أني قدمت لك أيها الذكي فكرة عامة عما يريد أفلاطون في جمهوريته، وهذا القول الوجيز يكفيك الآن. فإذا عرفت هذا فهمت ما قاله مترجم الكتاب في صحيفة ١٢٢ وهذا نصه: الفيلسوف الحقيقي هو المغرم كل الغرام بالحكمة في كل فروعها، وعلينا أن نميز هذا الموقف أدق تمييز بين الفيلسوف الحقيقي وبين المدعي حب الفلسفة تدجيلاً، وتستقر نقطة الفرق بينهما في أن الدجال يكتفي بدرس الموضوعات الجميلة مثلاً، أما الفيلسوف الحقيقي فلا يقف عند هذا الحد؛ بل يتجاوزه إلى إدراك الجمال المطلق ويمكن وصف حال الأول العقلي بأنه تصور، وحال الثاني أنه معرفة

حقيقية أو علم، فهنالك الوجود الحقيقي الذي يتناوله العلم. واللاوجود أو العدم الذي نسبته إلى الجهل نسبة الوجود الحقيقي إلى العلم. ويتوسط بين العلم وبين الجهل التصور. فنستنتج أن التصور تناول الوجود الظاهري. فالذين يدرسون الوجود الحقيقي يدعون محبي الحكمة أو فلاسفة، والذين يدرسون الوجود الظاهري يدعون محبي التصور لا فلاسفة. وفهمت ما جاء في المتن، وأذكر لك بعضه في صحيفة ١٤٨ من الجمهورية، إذ سأل سقراط غلوكون. فلسقراط (س) ولغلوكون (غ) وهاك نصها:

(س) إن الراغب في تذوق كل أنواع المعرفة فيكب على دروسه بسرور ورغبة ولا يكف أن إنساناً كهذه بحق ندعوه فيلسوفاً ألا ندعوه.

(غ) إن وصفك هذا يشمل عدداً عديداً. ويضم طائفة مستهجنة، ويحسبه كل عشاق الطلب فلاسفة لأنهم راغبون في المعرفة. وكذلك المنصبون على سمع القصص هم طبقة خاصة بين الفلاسفة. أعني بهم الذين لا يشهدون محاورة فلسفية ولا غيرها من أنواع المحاورات على أنهم سامعون مواظبون، لا يغيبون عن حفلة ديونيسية في مدينة أو قرية. فكأنهم آجروا آذانهم للسمع لكل جوقة في وقتها، أفنهب لهؤلاء لقب فلاسفة، ولأمثالهم ممن لاذ بأي نوع من الدروس ولأساتذة الفنون الصغرى.

(س) مؤكد لا بل ندعوهم فلاسفة زائفين.

(غ) فمن هم الذين ندعوهم فلاسفة حقيقيين؟.

(س) هم الذين يحبون أن يروا الحقيقة.

(غ) لا يمكن أن تخطئ في هذا ولكن هل تريد أن توضح ما تعنيه.

(س) ليس ذلك سهلاً مع غيرك. أما أنت فتجود علي بالتسليم الذي أنشده.

(غ) وما هو ذلك التسليم؟.

(س) هو فيما يأتي: لما كان الجمال ضد القبح فهما شيئان.

(غ) مؤكد أنهما شيئان.

(س) وإذا كانا شيئين فكل منهما واحد على حدة.

(غ) وهذا أيضاً حق.

(س) ويتمشى هذا الحكم نفسه على العدالة والتعدي، وعلى كل التصورات العمومية، فكل منها شيء واحد، لكنه يظهر متعدداً باعتبار علاقاته المتبادلة بالأشياء والأعمال التي بها يتجلى في كل مكان.

(غ) أنت مصيب.

(س) واستناداً إلى هذا المبدأ أميز بين الذين وصفناهم الآن أنهم عشاق النظر والصناعة ومحبة الفنون ورجال العمل من جهة واحدة، وبين الذين نحن في صددهم، وهم وحدهم نسميهم فلاسفة في الجهة الأخرى.

(غ) أوضح ما تعني.

(س) أعني أن محبي النظر والسمع يعجبون بالجميل من الأصوات والأشكال والألوان والصور، وكل ما دخلت في تركيبه هذه الأشياء من منتوجات الفن، ولكن فهمهم يقصر عن إدراك كنه الجمال واعتناقه.

(غ) نعم. إنه كما تقول.

(س) أوَليس القادرون على التفكر الحر في الجمال المطلق هم قلائل.

(غ) حقاً إنهم قلائل.

(س) فإذا أدرك امرؤ وجود الأشياء الجميلة ولكنه جحد الجمال المطلق وعجز عن اتباع من تقدمه إلى إدراكه، أفحلماً تحسب حياة إنسان كهذا أم يقظة، تأمل أليس الحالم، في يقظة أو في منام، هو الذي يخلط بين الحقائق وبين الصور المنعكسة عنها.

(غ) أعترف أن امرأ كهذا حالم.

(س) وما قولك فيمن غايره، ففهم الجمال المطلق، وامتلك قوة التمييز بين هذا الجوهر وبين الأوساط التي يتجلى بها فلا يخطئ في حسبان المجال جوهراً ولا الجوهر مجالي، أفحلماً تحسب حياة هذا أم يقظة؟.

(غ) يقظة دون شك.

(س) أفلسنا مصيبين إذ ذاك، في تسمية فعل الشخص الثاني العقلي معرفة لأنه أدرك الحقيقة، وفعل سابقه تصوراً لأنه تصور فقط.

(غ) غاية في الصواب.

(س) حسناً، فإذا امتعض من سميناه متصوراً لا عارفاً، وغضب علينا مدعياً أن ما قلنا غير صحيح، فهل لنا من سبيل لتلطيف غضبه وإقناعه برقة ولين، ساترين عنه حقيقة حاله، وهي أنه ليس في حال الصحة.

(غ) ذلك أمر مرغوب فيه.

(س) فانظر فيما يلزم أن تقول له، أتستحسن أن نحادثه مسلمين أنه لو عرف شيئاً لما حسدناه على علمه أقل حسد، بل كنا نسر بأنه كما يدعي، ولكنا نقول له أجب عن هذا السؤال إذا عرف ذو الحجى فهل عرف شيئاً أو لا شيئاً أجب عنه يا غلوكون.

(غ) أجيب أنه عرف شيئاً.

(س) أموجود ذلك الشيء أو لا موجود؟.

(غ) بل موجود، لأنه كيف يمكن غير الموجود أن يعرف.

(س) أفمتثبتون نحن من هذه الحقيقة، في أية صيغة نظرنا فيها، أي أن الموجود حقيقة يعرف معرفة تامة، أما المعدوم فمجهول بتاتاً.

(غ) إنا متثبتون منها كل التثبت.

(س) حسناً. فإذا كان هنالك شيء متردد في الوقت نفسه بين الوجود وبين العدم أفلا يوضع في رتبة متوسطة بين الموجود يقيناً وبين المعدوم بتاتاً.

(غ) يلزم أن يوضع.

(س) فإذا خصت المعرفة بالموجود والجهل بالمعدوم، أفلا يلزم أن نجد حالة متوسطة بين العلم والجهل تختص بما هو متردد بين الوجود والعدم.

(غ) يقيناً.

(س) أنقول أن التصور شيء.

(غ) بلا شك.

(س) أفنحسبه قوة متميزة عن العلم أم نحسبه العلم نفسه.

(غ) هو شيء متميز عن العلم.

(س) فنخص العلم بدائرة نفوذ، والتصور بدائرة أخرى بطبيعة ما في كل منهما من قوة.

(غ) تماماً.

(س) أفليست طبيعة العلم المختص بالموجود هي معرفة كيف وجد أولاً، وإلا فهناك فرق واضح يلزم تحديده.

(غ) وما هو.

(س) إن القوى كمجموع قائم بذاته؛ هي ما نعمل به نحن، وكل أحد ما يمكن عمله، مثلاً: إني أدعو السمع والبصر قوتين. إذا كنت تدرك الفكرة الخاصة التي أروم أن أصورها.

(غ) إني أدركها.

(س) فاسمع ما أراه فيها. لست أرى في القوة شكلاً ولا لوناً. ولا غيرهما من الأعراض التي أراها في مختلف الأشياء. وبها أميز ـ أي بالأعراض ـ بين شيء وشيء، أما في القوة فأعتبر وظيفتها ودائرة نفوذها وبذلك توصلت إلى تسميتها، فأدعو القوى التي من نوع واحد وتعمل عملاً واحداً ولها وظيفة واحدة قوى واحدة، ولكن القوى التي تختلف دوائر نفوذها وتتفرع وظائفها فأدعوها قوى متنوعة. فما قولك؟.

(غ) هكذا بالتمام.

(س) فأخبرني يا صديقي الفاضل في أية رتبة تضع العلم أتحسبه قوة.

(غ) نعم أدعوه قوة، وهو أعظم القوى كافة.

(س) وهل التصور قوة أو ندرجه في سلك آخر.

(غ) لا آخر. لأن ما به نتصور لا يكون إلا تصوراً.

(س) وقد اتفقنا الساعة أن العلم والتصور غيران.

(غ) وهل يجمع العاقل بين الخطأ والصواب.

(س) أحسنت فنتفق في أن التصور شيء غير العلم.

(غ) غيره.

(س) فلكل منهما بطبيعته ميدان نفوذ خاص وتأثير خاص.

(غ) الاستنتاج قاطع.

(س) فميدان نفوذ العلم هو معرفة طبيعة الوجود.

(غ) نعم.

(س) وميدان نفوذ التصور هو الظن.

(غ) نعم.

(س) أفيتناول التصور حتماً وفعلاً مادة العلم. وبعبارة أخرى: هل مادة التصور هي نفس مادة العلم. أو إن ذلك محال.

(غ) إنه محال بناء على ما قررناه، أي أنه إذا سلمنا أن للقوى المتنوعة دوائر نفوذ مختلفة. وأن العلم والتصور قوتان متميزتان. وقد جزمنا بذلك، فهذه المقدمات تجعل توحيد مادة العلم ومادة التصور محالاً.

(غ) طبيعي.

(س) فإذا كان الموجود مادة العلم فمادة التصور هي حتماً شيء آخر غيره.

(غ) يلزم أن يكون غيره.

(س) فهل يتناول التصور المعدوم؟ أو أن تصور المعدوم غير ممكن أصالة. افتكر من يتصور ألا يوجه أفكاره نحو شيء. أفيمكن أن يكون تصور في اللاشيء.

(غ) غير ممكن.

(س) فمن يتصور فقد تصور شيئاً.

(غ) نعم.

(س) ولكن المعدوم لا يدعي شيئاً بل هو لا شيء.

(غ) بالتمام.

(س) وقد التزمنا أن نخص الجهل بالمعدوم والمعرفة بالموجود.

(غ) وبالصواب فعلنا.

(س) فموضوع التصور ليس الموجود ولا المعدوم.

(غ) لا هذا ولا ذاك. فليس التصور معرفة ولا جهلاً.

(س) أفيستقر وراء أحدهما، فيفوق المعرفة يقيناً، ويفوق الجهل إبهاماً.

(غ) يظهر أنه ليس كذلك.

(س) فقل: أتحسب التصور أقل وضوحاً من المعرفة، وأقل خفاء من الجهل.

(غ) نعم وهو متميز عن الاثنين كثيراً.

(س) فهو إذاً بين هذين الطرفين.

(غ) نعم.

(س) فنحسب التصور إذن شيئاً بين الاثنين.

(غ) بالتمام.

(س) أولم نقل الساعة إنه إذا بان لنا شيء أنه موجود وغير موجود في وقت واحد، فيجب وضعه بين الموجود الحقيقي وبين المعدوم المطلق. فلا يكون إذن مادة علم ولا مادة جهل. بل هو مادة قوة ثالثة بين العلم والجهل يجب اكتشافها.

(غ) قلنا ذلك.

(س) وقد اكتشفنا الآن قوة بين الاثنين دعوناها تصوراً.

(غ) واضح أنا اكتشفناها.

(س) بقي أن نكتشف ما يشترك في الموجود والمعدوم. وليس هو أحدهما بكليته، فإذا ظهرت لنا ماهيته دعوناه بحق مادة التصور، ناسبين للطرفين ما هو لهما، وللوسط ما هو له، ألست مصيباً.

(غ) إنك مصيب.

(س) فإذا وضعنا هذه الفروض، فإني أسأل ذلك الرجل المعتبر الذي ينكر وجود شيء كلي، أو أي صورة من صور الجمال المطلق، التي تظل إلى الأبد كما هي غير قابلة التغير، مع أنه يعترف بوجود أشياء عديدة جميلة، ذلك الذي يحب المنظورات، هو لا يحتمل أن يقال له إن الجمال واحد وإن العدالة واحد وهلم جراً، فأقول له: يا سيدي العزيز أيوجد بين كل الأشياء الجميلة شيء واحد لا قبح فيه، وبين كل الأشياء العادلة عادل واحد لا ظلم فيه، وبين كل الأشياء الطاهرة طاهر واحد لا دنس فيه.

(غ) كلا. بل تظهر كلها بلا تخلف، جميلة وقبيحة، عادلة ومعتدية، بارة ودنسة باعتبارين.

(س) وأيضاً. ألا يمكن اعتبار المضاعفات الكثيرة إنصافاً علاوة على أنها مضاعفات.

(غ) تماماً كما أنها أيضاً مضاعفات.

(س) وجرياً على الأسلوب نفسه هل للأشياء التي ندعوها كبيرة وصغيرة وخفيفة وثقيلة حق في أن تدعى كذلك أكثر من أضدادها.

(غ) كلا. بل كل منها يمكن أن يدعى بالاسمين على السواء.

(س) فنكون أقرب إلى الصحة إذا وصفنا كلًّا من هذه الأشياء بأنه قد يكون وقد لا يكون كما وصف.

(غ) إنك تذكرني بأحجية التضاد التي تتلى على موائد الطعام للتسلية ولغز الأولاد عن الخصي الذي رمى الخفاش بما رماه به، هو جاثم على ما هو جاثم عليه، لأن الأشياء المشار إليها فيها الغموض نفسه، فلا يمكن الإنسان أن يميز هل هي موجودة، أو غير موجودة معاً.

(س) أفيمكنك إفادتي ماذا تعمل بها، أو هل عندك رتبة لها أفضل من الرتبة الوسطى بين الموجود والمعدوم، لأنها في مذهبي ليست أخفى من المعدوم لتكون أكثر عدماً منه، ولا أوضح من الموجود فتكون أثبت منه وجوداً.

(غ) إنك مصيب كل الإصابة.

(س) فقد اكتشفنا أن الأفكار الشائعة في الجمهور في العدالة والجمال وأخواتهما هي تائهة بين الوجود المطلق وبين العدم المطلق.

(غ) اكتشفنا.

(س) وقد سلمنا سابقاً أنه إذا ظهر شيء من ذلك دعي تصور لا معرفة. وإن ما يتراوح بين الأمرين يفهم بقوة متوسطة.

(غ) قد سلمنا هذا التسليم.

(س) ولذلك حين تقع عين الناس على شتى الأشياء الجميلة، ولكنهم لا يقدرون أن يروا الجمال بالذات ولا أن يتبعوا من يقودهم إليه. وحين يرون أشياء عديدة عادلة ولا يرون العدالة بالذات. وهكذا في كل مثل، فإنا نقول إن لهم في كل موضوع تصوراً. لا معرفة حقيقية في الأشياء التي يتصورونها.

(غ) الاستنتاج ضروري.

(س) ومن الجهة الأخرى. ماذا يجب أن نقول في أولئك الذين يفكرون في الأشياء على ما هي في ذاتها كائنة دون فناء ولا تغير؟ أفلا نقول: تهم عارفون وليسوا متصورين.

(غ) وهذا أيضاً استنتاج ضروري.

(س) أفلا نقول إن هؤلاء يعجبون بمواضيع المعرفة ويحبونها، وأولئك يعجبون بمواضيع التصور لأننا لم ننس أننا قلنا إنهم يحبون ويطلبون الأصوات والألوان البديعة ونحوها من الأعراض، ولكنهم لم يسمعوا بوجود الجمال المطلق.

(غ) لم ننس.

(س) أفنخطئ إذا سميناهم محبي التصور بدلاً من تسميتهم فلاسفة، أو يستاؤون كثيراً إذا سميناهم كذلك.

(غ) كلا إذا قبلوا رأيي. لأنه من الخطأ أن يسوءنا الحق.

(س) فالذين يحبون الموجود الحقيقي في كل موضوع لا ندعوهم محبي التصور بل فلاسفة.

(غ) نعم. من كل بد.

انتهى الكلام على الجوهرة الأولى.

الجوهرة الثانية:

في ذكر ما خطر بقلبي وملأه جمالاً وبهجة وسروراً صباح يوم السبت ٥ رمضان سنة ١٣٤٩

ذلك أني بينما أنا بين اليقظة والنوم صباحاً إذ تجلت لي هذه الدنيا بهيئة جميلة. وازينت بزينة بهجة بديعة. وخيلت لي الأرضون والسماوات وما بينهما بهيئة غير ما أراها ببصري. وهذه حال يعجز قلمي عن التعبير عنها. فما أسرع خاطري للتفكر فيها. وما أبهج قلبي بمشاهدة مناظرها الخيالية، فهناك هناك خيل لي كأن قائلاً يحدث عقلي ويقول: يا عجباً لهذا الجمال المصون عن الجهال. إيه أيها الإنسان. إيه يا أهل الأرض، واهاً لكم، هذه الشمس وهذا القمر، وهذه النجوم، وهذه الأنوار مراسلات إليكم وأنتم لا تبصرون. لا لا، أنتم أرواح من الطراز الضئيل، يظهر أنكم كنتم في عالم غير هذا، ولم تصلحوا لقيادته ولا لسيادته، فأقصيتم عن المكان الرفيع، وأنزلتم إلى هذا المكان، أصلكم

شريف، أنتم من عالم أعلى، أنتم من نور، أنتم من أصل كريم، أنتم نور الله، ولكنكم ضعفتم عن أن تسيروا على سننه، فكانت هيئتكم كهيئة ما تعافونه من قمامات المنازل، وما تسمدون به الأرض من كل ما لا يصلح لغذائكم ولا انتفاعكم، فأنتم تجعلونه سماداً لزرعكم فيكون الحب والخضر والفاكهة.

إن السماد من مادة النبات والجاهل يحقره، ولكن العالم الدارس يرى المادة واحدة، ولكن السماد تنزلت مرتبته عن الفاكهة، فما هي إلا شهور معدودة فيزول وصفه القديم ويكسب وصفاً شريفاً يؤهله أن تقبله نفوسكم، فنفوسكم شريفة من العالم العلوي، ولما عجزت عن أن تسير على القانون الإلهي أنزلت إلى هذه الأرض ـ وتشير لذلك قصة آدم ـ والقانون الإلهي يرجع إلى أمرين اثنين وهما: حب العلم، وحب الأمم. الله لا حد لعلمه، ولا حد لإنعامه على المخلوقات، ولكن أرواحكم لم تقو على السير على سننه فأرسلت إلى هذه الأرض. ومن درس هذه النفوس البشرية اعتراه العجب منها. ذلك أنه يجد أنها مجبولة على حب ذواتها تريد أن تجعل العالم كله خادماً لها. وجميع السحرة في هذه الأرض وكل رجال السياسة هم والشحاذون على حد سواء، كلهم يريدون أخذ مال الغير بسهولة، أي يريدون أنفسهم لا غير. فالساحر وقارئ العزيمة ورجل السياسة الذي يحكم الأمم لمجرد شهوات أمته لا لرقي تلك الأمم، كل هؤلاء قوم شحاذون أو لصوص أو قطاع طرق، بل كل شيوخ الدين ورجال الصوفية غير الصادقين؛ أي الذين يحبون الشهرة لا غير أو جمع المال؛ فهؤلاء وهؤلاء كلهم شحاذون وقطاع طرق ولصوص.

وبالجملة كل من لا يريد إلا نفسه فإن نفسه لا تزال ضعيفة، لا فرق في ذلك بين الفرد وبين الأمة وبين السوقة والملوك، فهؤلاء جميعاً لم يخرجوا عن أنهم في هيئة أطفال، فشيوخهم وشبانهم وكهولهم كأطفالهم على حد سواء.

خلقت هذه الصفة في الإنسان في حال صباه. وألهم أن يسعى لرزقه ويكد ويكدح، وفي أثناء ذلك قرأ العلوم وعرف الصناعات، كل ذلك لشهوته الخاصة لأن روحه لم تقدر على أكثر من ذلك، ولكن بعض هذا الإنسان في أثناء بحثه تظهر له أنواع الجمال فيتسع نطاق عقله يوماً فيوماً، فيرى شموساً وأقماراً وأراضي ومعارف وأمماً، ويرى دائرة وجدانه تتسع فيرى زوجة وولداً وعشيرة وقرية وأمة، فيحس في نفسه بحب واتصال بهؤلاء، فكلما اتسع وجدانه زاد إحساسه بهؤلاء، فلا يزال الإنسان في استكمال قواه حتى يصبح فيجد نفسه يحب سعادة جميع نوع الإنسان، وأن يكونوا أمة واحدة أو ما يشبه ذلك بقدر الإمكان.

هذا من حيث العمل، أما من حيث العلم فإنه يرى هذه العوالم كلها جنته وسعادته، فيكون مغرماً بالعوالم كلها فهماً وبصيرة لا تمتعاً زائلاً، هنالك تصل هذه الأرواح الأرضية إلى عالم أرقى من هذه الأرض وتقترب من ربها وتكون رياضتها في أرضنا مشابهة بعض المشابهة لما يحصل في القمامات المزدراة في الأرض من انقلابها تفاحاً وموزاً وتمراً.

وهاهنا أخذ يقول وأنا أسمعه: هذه الأرواح الأرضية يحيط بها الجمال وهي لا تعقله، شموس وأقمار وأرضون وأنوار تحيط بهم أفلا يعقلون! هاهنا رحمة لا حد لها، وجمال لا نهاية له، وعناية

تامة تحيط بكم، والدليل على رحمة الله التي لا حد لها وعلمه وعنايته أن نفوسكم مع قصورها وضعفها واقتصارها على لذة نفسها وما ينفعها في حياتها وتغاضيها عن منفعة الآخرين أحيطت بكل جمال وكمال من أنوار الكواكب والأقمار والشموس والهواء والماء والعلماء والنعم، ولما كانت لضعفها لا تقوى على النظر إلى وجه ربها، وهو لشدة رحمته لكم ونعمته عليكم يحب أنكم ترونه لتبتهجوا به، لأنه كريم أراكم صوراً جميلة وبث زينته في كل مكان، وأودع في قلوب الآباء والأمهات رحمة، وفي قلوب الملوك والحكام غيرة على ممالكهم بالمحافظة عليها، وفي قلوب المربين والأساتذة والأمهات والمراضع عطفاً وشفقة على من يقومون هم بتربيته أو تغذيته، وعمم الرحمة في كل حيوان كل ذلك إن هو إلا مظاهر لجماله ولرحمته ولعنايته ولعلمه، أرسلها لهذه الأرواح من وراء حجاب لما عجزت نفوسكم أن تنظر إلى ربها فعلاً، ومن الرحمة العظيمة أن الصور الجميلة لا تبقى على حال واحدة، وهكذا الأمهات والآباء وكل ما تملكون، فهذه كلها تسلب منكم ولا تبقى، فالله يقول لكم: يا أهل الأرض فهمتم عطف الأمهات وعشق الغادات والتمتع باللذات والمناظر السارات. هاأنا ذا أريتكموه ولكن أسلبه منكم رحمة بكم لتفكروا، أهذا المنعم به المسلوب منا هو الذي تقر به عيوننا، أم هناك ما هو دائم ثابت نفرح به بلا انقطاع، فبين الإعطاء والمنع يكون التفكر ولا وصول لكم إلا بهذا.

أنا سلطت بعضكم على بعض وكل يحارب الآخر أفراداً وأمماً. وفي أثناء ذلك تحدث المعرفة، فيعرف الغربي الشرقي والعكس. ذلك لأن نفوسكم خامدة ولا وسيلة لإنعاشها بحسب ضعفها إلا بأن يقال لها حاربي لتغنمي. وهاهي ذه الحروب الصليبية جرت مغنم العلم والمعرفة، وبها عرف الصليبيون علوم المسلمين مع أنهم جاؤوا لإبادتهم. هذه الحرب العظمى وضعت لإشباع الشهوات ولكن أعقبتها منافع عامة ككثرة الكلام في السلام العام وكارتقاء فن الطيران. وبعض ما استعمل للحرب أصبح نعمة في السلم مثل الآلات المهلكات المستخرجات من نفس الأوزوت الذي هو أحد عنصري الهواء، فإن ألمانيا حولتها بعد الحرب إلى سماد. وللحرب فضل في انتشار هذا الاختراع. كل هذا ناتج من قصور هذه الأرواح، فإنها مجبولة على حب النفس وتجهل غيرها، ولكن هذه الأنانية استخدمت وسيلة للمنفعة العامة. هذه أخلاق هذه النفوس. فسياسة الأمم العامة هي بعينها سياسة الله في الأجسام. فالمرء يأكل للذته وإزالة جوعه، ولكن المقصود بقاء حياته، ويقرب الأنثى لمجرد اللذة ولكن الحكمة العامة تريد الولد لدوام نوع الإنسان. فنتيجة هذا كله أن النفوس الأرضية لما ضعفت عن اللحاق بالأرواح الإلهية من حيث عموم العلم وعموم الرحمة وعموم الجمال، تجلى الله لها بالجمال في عوالم تناسبها كالأقمار والشموس، ونسبة جمال هذه العوالم إلى جمال مبدعها كنسبة ضوء أنوار الشمع والبترول إلى ضوء الشمس، ونسبة هذه العوالم إلى كمال مبدعها كنسبة الساعة التي نعرف بها الوقت إلى الشمس العظيمة التي تدور أرضنا حولها وتنظيم الأوقات العامة.

الإنسان مغمور في الجمال وفي الكمال وفي العلم، وهو لضعفه قصير النظر، والله لعطفه وكرمه يأخذ بيده، والإنسانية كلها سائرة إلى هذا الخير في عالمنا وفي عوالم أخرى إلا ما شاء الله. كتب صباح يوم الأحد (٦) رمضان سنة ١٣٤٩هـ الموافق ٢٥ يناير سنة ١٩٣١م.

هذا كله سر من أسرار القرآن
مخبوء في حرفين: حاء، وباء

وما إن كتبت هذا العنوان حتى حضر صديقي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير. فقال: ما هذا العنوان، أتريد أن تقول: إن ما ذكرته أنت وما ذكره الخطيب المصري من أمر النفوس الإنسانية وأن الحياة التي لها نهاية لا تستحق العناية، وهكذا ما ذكر أفلاطون أن كل ما لا بقاء له من الصور والمتاع لا قيمة له، أتقول: إن هذا كله في حرفين اثنين في القرآن وهما «حاء» و«باء»، وإني أخاف أن أحداً ممن يسمعون هذا أو يقرؤوه من المسلمين ـ لا أنا طبعاً ـ يقول: إن هذه مجازفة وإغراق فأي حرفين في القرآن يفيد أن هذه المعاني، وأي «حاء» و«باء» تريد. إن هذا القول أمر عجب.

فقلت: أيها الأخ المفضال ماذا جرى، لعلك اليوم فعلت ما يفعله بعض الناس إذ يسمع: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ﴾[النساء: ٤٣] فيقول الصلاة منهي عنها، أفلا تصبر حتى أخبرك الخبر بعد المبتدأ. فقال: ولكن هذا العنوان نفسه هو الذي حفزني أن أقول هذا القول، لأنه عنوان غريب، وأنا مشفق على التفسير أن يطعن فيه الطاعون. فقلت: هاأنا ذا أشرح لك أيها الذكي ما تريد، أتذكر آية إبراهيم في «الأنعام». قال: نعم. قلت: ماذا قال فيها؟ فقال: إنه أيقن بالله، وهذا الإيقان بسبب أنه ظن أولاً أن الله هو الكوكب، ثم لما أفل قال أنا لا أحب الآفلين، ولما رأى القمر أبهى من النجم قال هو ربي. ولما أفل أظهر الحيرة تعليماً لقومه ورجع إلى ربه، ولما رأى الشمس بازغة فعل كما تقدم، ولما أفلت وجه وجهه لله، هذا هو ملخصها. فقلت له: ألم تعثر في أثناء هذه القصة التي ذكرتها على هذا السر. فقال: وأي سر أهو «الحاء» و«الباء»؟ فقلت: إي وربي. فقال: أي «حاء» و«باء»؟ فقلت: ارجع وفكر في الآيات. فقال: لا أرى شيئاً. فقلت: ألم تعلم أنه نفى الإلهية عن الكوكب وعن القمر وعن الشمس لأنها متحركات، والإله لا يتصف بالحركة لأن ذلك فعل الحادث، ولأنها غابت بعد الظهور، والإله لا يغيب، بل معنا أينما كنا، وما يغيب لا يكون إلهاً، فالألوهية يناقضها الحركة ويناقضها غيوبتها. فقال: هذا حسن ولكنه لم يأت بالفائدة المرجوة وهي بعيدة عما تريد أن تبرهن عليه. فأين «الحاء» و«الباء»؟ فقلت: أنا أتركها لبحثك أنت، لأن العلم إذا جاء عفواً لا يفيد، والرزق كذلك، بل نفس الآية معناها أن معرفة الله إذا جاءت عفواً لا ثبات لها، وإلا لماذا نرى إبراهيم يفكر في الكوكب فالقمر فالشمس! أليس هذا معناه البحث، فأنا أفعل معك ما فعله الله مع إبراهيم، وإذا كان إبراهيم نبياً وعومل هذه المعاملة تعليماً لقومه أفلا أعاملك أنا كذلك؟ فلتبحث أنت عما رمزت لك به. هنالك أخذ يكرر الآية مراراً ويقول: «الحاء» في «حنيفاً»، ولكن أين «الباء»، و«الحاء» في «حاجه»، ولكن أين «الباء»، و«الباء» في «إبراهيم» ولكن أين «الحاء».

ثم رجع ثانياً وقال: أهما مجتمعتان أم مفترقتان؟ فقلت: فكر بعقلك ولا تسألني، وأضاع زمناً ثم قال: نعم ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾[الأنعام: ٧٦]. فقلت: نعم. فقال: أنا والله إلى الآن لا أفهم في ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ معاني تتضمن كلام أفلاطون وكلامك وكلام الخطيب المصري، فإذا تفضلت بشرح هذا المقام كنت لك من الشاكرين، ويشكرك المسلمون بعدنا أجمعون. فقلت: أيها الصديق: إن

إبراهيم لما رأى الكواكب والقمر والشمس كان عند كل واحد منها يقول في نفسه إنه مسخر مقهور لأنه متحرك وهو يغيب ويحضر والإله لا يكون كذلك. قال: نعم. قلت: فكان مقتضى الظاهر أن يقول: أنا لا أعبد الآفلين، لأن المقام مقام عبادة، ألا ترى أنه قال: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾[الأنعام: ٧٦]، ولما رأى أنه لا يستحق الربوبية حصل له شك فيه بل إنكار، فمقتضى الظاهر أن يقول مثلاً: «هذا ليس ربي» لأنه على خلاف صفات الرب، وإذا لم يكن ربي فلا أعبده، فهو قال: ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾[الأنعام: ٧٦]. وعند الإنكار يقول: هو ليس ربي، ويلزم من ذلك أنه لا يعبد، فهو لم يقل هذا ولا ذاك، ولكنه عبر بعبارة عجيبة وهي أنه نفى الحب عمن لا يتصف بصفات الرب، وهذا هو السر، فقوله: «أحب» المنفي بـ«لا» مشتمل على أربعة حروف: الهمز وهي زائدة، و«الحاء» و«الباء» مضاعفة، فرجع الأمر إلى «الحاء» و«الباء». فقال: أنا فهمت الآن ولكن لم أصل للمقصود. فقلت: نعم. سأوضحه.

اعلم أيها الذكي أن العابد إما أن تكون عبادته من أجل الرهبة، وإما أن تكون عبادته من أجل الرغبة، ولم يكن عابد في هذه الأرض يعبد الله إلا لأحد أمرين: إما أنه خائف من الله لئلا يدخله جهنم، وإما أن يعبده لأنه طامع في دخول الجنة، أو لمجرد الحب. فالعبادة إما لخوف وإما لرجاء، فلا عبادة إلا على هذا النمط، وخير الجميع يعبده حباً له وغراماً به وشوقاً إليه وعشقاً له، وهذه العبادة هي المبنية على الحب، ومستحيل أن يحب الإنسان أحداً إلا بعد معرفة أعماله وصفاته فيعشقه. قال: نعم. هذا التفسير كله على هذا النمط. فقلت: فكل عابد في الأرض لا تكون عبادته إلا عن رغبة أو رهبة، وعبادة العابد الذي أحب ربه أحد قسمي الرغبة. فقال: نعم. فقلت: إذن المذكور في الآية من أحد شقي سبب العبادة وهو الحب والعبادة فرع الاعتقاد في الربوبية. فقال: حسن. فقلت: هاهنا وصلنا إلى المقصود. فانظر رعاك الله إلى ما أقول: ألست ترى أن كل ما تقدم من كلامي وكلام أفلاطون وكلام الخطيب المصري راجع إلى أمر واحد وهو أن ما لا بقاء له ولا دوام يجب علينا أن نحقره، وأن هذه الحياة الدنيا القصيرة ليس من المعقول أن تكون لها قيمة عند العقلاء أصلاً إذ لم يكن لها دوام، وهذا هو قول الخطيب المصري المتقدم، واستنتج من هذا أن الحياة تدوم، وإلا كان كل هذا عبثاً ولهواً وجهالة. فقال: بلى. فقلت: ألم تر أن كلام أفلاطون يرجع برهانه إلى أن العقول الصغيرة تقف عند ظواهر الجمال والمال والزينة، وحقر هذا كله وحكم على أكثر عقول الإنسان أنها خاوية جاهلة، إذ تظن أن هذه الصور الجميلة والأغاني وكل ما في هذه الأرض من زينة محل للتمتع ومناط المسرة والسعادة وهي كلها ذاهبة، وكيف يفرحون بما لا ثبات له. ثم أفاد أن ما له ثبات وهو الجمال المطلق الثابت الذي لا تدركه الحواس وإنّما يدركه العقل هو الذي إليه تتجه الهمم والعقول. فقال: بلى والله. فقلت: إذن الحياة التي لا بقاء لها لا يصح أن تحب ولا يعول عليها، وكل ما هو جميل أو نافع ثم هو آفل وذاهب لا ينبغي أن يكون محط الرحال ولا هو مناط الآمال. قال: نعم. قلت: أليس هذا كله معناه أن المحبوب الحقيقي هو الذي يبقى. فقال: بلى. فقلت: إذن ثبت أن العلم والحكمة أثبتا إثباتاً حقيقياً لا تشوبه شائبة أن كل هذه الحياة الدنيا وكل صورها لا ينبغي أن تكون مقصودة لذاتها بل مقصودة لغيرها، وذلك الغير هو الذي يحب وتكون هذه المحبوبات الوقتية مذكرات بالمحبوب

الدائم، وهذا المحبوب الدائم يعبد لحبه هو لا لجنة أو نار. إذن أصبح هذا النوع الإنساني بعد براهين الفلسفة التي خضعت لها جميع حكماء أوروبا والشرق وهي فلسفة سقراط وأفلاطون وما يوافقها من كلام غيرهما، كله إلا قليلاً واهماً في أمر المحبة، فالمحبة التي على غير هذا النمط محبة جاهلة. فقال: نعم. فقلت: إذن قد وصلنا إلى المقصود وهو أن التعبير بقوله: ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾[الأنعام: ٧٦] قد حوى تلك المعاني. فإذا كانت حياة الناس على الأرض ليس لها إلا هذه المدة الوجيزة ثم تنفض فهي حياة لا تستحق الاهتمام، فلا يصح الحرص عليها لأنها لا تستحق الحب، وهذا كلام الخطيب المصري وإذا كان كل ما في هذه الدنيا من المال والولد والصور الجميلة، وما نملك من مال وعقار ومتاع، وما نسمع من الألحان، وما نستلذ به من أنواع المشمومات والمذوقات والملموسات والمسموعات والمنظورات جميعه متغيراً لا بقاء له وما لا بقاء له لا ينبغي للعاقل أن يحبه، بل يحب سببه الدائم الذي يعرف بالعقل لا هو كما يقوله سقراط.

أقول: إذا كان كذلك أفليس هذا هو معنى: ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾[الأنعام: ٧٦] أي أن ما يغيب وما لا يبقى لا يصح حبه، فقال: الله أكبر. الله أكبر. جلّ العلم وجلّت الحكمة. وهنالك اعترته دهشة وقال: والله لم يكن ليخطر لي أن هذه المعاني يحويها القرآن وهذه أسرار غريبة، هذه أوروبا وهذه أمريكا وهذه الأمم حولنا يعظمون سقراط وأفلاطون، ويتخذون الجمهورية نبراساً لهم، ويقرؤون منها أبواباً لتربية الجيوش والأسرات ويقدسونهما، ويقولون: إن الله لم يخلق مثلهما في العالم الإنساني، فهذان المقدسان عندهم المعظمان هما اللذان أتيا بهذه النظرية أي نظرية الحب، وإنه لا ينبغي أن يكون لغير الباقي، وهذه شملت كل ما جاء في الجمهورية، وهانحن أولاء وجدناها في معنى الحب.

ثم أخذ يقول: فليحضر علماء البلاغة قديماً وحديثاً وليقولوا ما شاؤوا، فهذه هي البلاغة، وهذه هي الحكمة وهذا هو العلم. الله الله الله، هذه هي المعجزة التي لا نظير لها.

أيها المسلمون: انظروا فلسفة أفلاطون وسقراط. وملخص الكتاب الخامس من جمهورية أفلاطون دخلت في القرآن بل في حرفين اثنين. يا إخواني أبناء العرب أبناء مصر وشمال أفريقيا وسوريا والعراق والموصل ونجد واليمن، تعالوا انظروا ديننا، انظروا قد حوى جميع علوم الأمم، هانحن أولاء نرى حرفين ابتلعا أعظم الفلسفة.

لتشمروا عن ساعد الجد، ولتدرسوا علوم الشرقيين وعلوم الغربيين، هاها، هاأنا ذا عرفت، عرفت ما يشيع على الألسنة أن القرآن فيه علوم الأولين والآخرين، فذلك من هذا الوادي يكون، فإذا سمع المسلم: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[يونس: ١٠١] علم أن كل العلوم مطلوبة، وإذا بحث وفكر في عجائب العلوم استخرج جزئياتها من بعض الكلمات أو الجمل. اللهم إنا نحمدك على العلم والحكمة. فقلت: الحمد لله الذي أقر عينك، فعرفت أني ما كتبت عنوان المقالة مجازفة أو غلواً أو إغراقاً، فأنا كنت في أول حياتي أشك في كل شيء، فكيف أكتب ما لا أوقن به أو ما ليس مبنياً على برهان.

هنالك ذرفت عيناه بدموع الفرح . وقال : أريد أن تفيض بعض القول في عوالم السماوات وجمالها . فقلت : يا سبحان الله ، إن هذا الكتاب أكثره في عالم السماوات . فقال : ولكن لماذا نسمع الله يقول في آية الكرسي ـ بعد ذكر السماوات والأرض ـ : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[البقرة : ٢٥٥] . فقلت : حسن . اعلم أن هذه من الأسرار التي تجلت للخليل عليه السلام ، وهي تتجلى لبعض النفوس الشريفة الإسلامية ، وذلك أن الإنسان إذا فكر في النجوم واستحضرها في خياله ـ لاسيما إن كان دارساً لعلم الفلك ، وقد درس قبل ذلك العلوم الرياضية التي تعرفه عجائبها ـ تحدث في نفسه روعة وإعجاباً ، ويحس بجمالها ورفعتها وعلوها وعظمتها ، فيقول في نفسه : إن خالقها علي عظيم وجميل أيضاً . فالعلو والعظمة ذكرت في آية الكرسي تذكيراً بما يخطر للمفكرين من العقلاء فضلاً عن الأنبياء . فقال : وهذه أيضاً من أسرار البلاغة التي لم يعلمها أحد قبل هذا الزمان . ثم قال : ولكن هنا أمر يؤسف له . لماذا لا نرى في النوع الإنساني أثراً عظيماً لحب الله المذكور في الآية : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ ﴾[المائدة : ٥٤] ، و﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾[الأنعام : ٧٦] ، فإن مقتضاه أن الإنسان يحب غير الآفل وهو الله ، وهذا الحب قليل أو ضئيل ؟ فقلت : أيها الحبيب . أكثر الناس في هذه الأرض يحبون ربهم ، وهذا الحب غير واضح لهم ، وعلى قدر اكتناه العجائب يزداد الحب ، إن حب الله مغطى بألف غطاء ، فإن الشهوات والآلام والعداوات والأمراض والحسد ، كل ذلك قد غطى على هذا الحب ، ولو ظهرت هذه العجائب للناس لتقطعت قلوبهم من العشق والحب ، كيف لا ونفس الجسم الإنساني لا حد للكمال الذي فيه ، وهذه النفس الإنسانية العجيبة ، هذه التي جعل هذا المخ لها مزرعة تزرع فيه أنواع العلوم والمعارف ، وفي كل منطقة من مناطقه يزرع علم مخصوص من رياضيات وطبيعيات وإلهيات ، حتى إن العلماء عرفوا تلك المناطق ببعض المعرفة اليوم ، وفوق هذا علم النفس الذي جاء بطريق التجربة في عصرنا ، وسترى بعضه في أول سورة « الجاثية » عند آية : ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ ﴾[الآية : ٤] الخ .

فهذا العلم أظهر أن في النفس عجائب لا تزال مخبوءة ، وستعجب مما ستقرؤه هناك ، فهذه العجائب في نفوسنا وفي أجسامنا وفي العوالم حولنا لو أنها كشفت لنا ولم تغط بالمرض والحسد والعداوات والحروب لهلك الناس من عشق مبدع هذه العوالم ، ولكن هذه الأغطية من النعم العجيبة التي أنعم الله بها على الناس حتى يقدروا أن يعيشوا في الأرض ، وإن كانوا معذبين ، فحياة مع هذا العذاب خير من العدم .

إن الله مزج الضار بالنافع رحمة بنا ليصرف عقولنا عن هذا الكنز المخبوء في الدنيا وهو الجمال الباهر حتى تتسع عقولنا ، وإذ ذاك يسلمه لنا في عالم الأرواح . وفي « الفاتحة » تراه يذكر الرحمة ويتبعها بقوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ ، فهنا شدة ولين ، كما تراه جعل في النبات قوة امتصاص الكربون من الجو بمساعدة المادة الملونة في الورق مع ضوء الشمس ، وهذا الكربون يتحد مع الماء فيكون هناك النشاء والسكر ومادة « السيلولوز » التي منها القطن والكتان ، وهذه المادة تجعل في الحويصلات التي يتركب منها النبات غطاء يغلف كل خلية من الخلايا التي يتركب منها النبات ، فجميع الخلايا مغلفة بهذه المادة كما تقدم مراراً ، فهاهنا في النبات مادة الحياة داخل كل خلية ، وكل خلية يحيط بها غلاف يحفظها .

فهذا الغلاف فيه معنى الملك والحفظ، ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾، وداخل الحويصلة مادة وهو معنى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾. فهكذا كل العالم فيه ما يسرنا وفيه ما يؤلمنا، فالمؤلم أشبه بغطاء حافظ لما يسرنا فهذه الشرور مانعات حياتنا من الانحلال، لأننا لو عرفنا جمال هذا الوجود لم تتحمل نفوسنا هذا الجمال فغشي عليها بالمصائب والبلايا والمرض والموت حتى لا تعرف الحقائق دفعة واحدة بل تتلمسها شيئاً فشيئاً بالتعلم والدرس والرياضة والعبادة، فالعجائب أشبه بمادة الحياة في حويصلات النبات وخلاياه، وحوادث الدهر أشبه بما يغلفها من مادة السيليلوز الحافظة للخلية الواحدة، ومن الخلايا كان كل حيوان وكل نبات، فهذا هو السبب في عدم ظهور حب أكثر النوع الإنساني لصانع هذا العالم الحكيم العليم، فقال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى.

كتب يوم الخميس ١٠ رمضان سنة ١٣٤٩هـ و٢٩ يناير سنة ١٩٣١م.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ ﴾

جاء في جريدة الأهرام في يوم ٦ يناير سنة ١٩٣١ ما يأتي:

أشجار يرجع تاريخها إلى قبل ١٥ مليون سنة

اكتشف في غربي كندا بقايا أشجار يظن أنها مما نبت في أمريكا الشمالية قبل خمسة عشر مليون سنة، وقد أحدث اكتشافها ضجة في المقامات الجيولوجية لأنه يعبث بالنظريات الحالية فيما يتعلق بالأزمنة السابقة للأزمنة المعروفة في التاريخ. وهي قد اكتشفت في السنة الماضية في بطن الرمال بجهة « فوردمكموراي » فأرسلت إلى علماء الجيولوجيا الذين في خدمة الحكومة، وهم بعد بحث طويل دقيق يقولون الآن: إن وجودها يعبث بالنظريات المشار إليها، ويؤخذ من التقارير الأولى أنها نبتت ونمت على ما يظهر في العهد الذي كانت فيه طبقة سطح الأرض في دور التكوين.

ويقول الدكتور « بيلاي » وهو عالم كبير معروف: إن هذه الأشجار هي من نوع الأشجار التي كانت تنمو في أرض اليابان. وهذا القول يعزز نظرية القائلين: إن شمالي أمريكا وآسيا كانا في غابر الأزمنة قارة واحدة، وسيقوم العلماء بمباحث جديدة في المكان الذي اكتشفت فيه بقايا تلك الأشجار.

انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ (٣٢) إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ (٣٣) ﴾

اعلم أيدك الله بالعلم أن هذه العوالم كلها آيات الله، ولكن ليس يدرك ذلك إلا أناس امتازوا بأمرين: الصبر والشكر، والصبر أقسام كثيرة، صبر على البأساء وهو الفقر، وعلى الضراء وهو المرض وعلى البأس وهو الحرب، وعلى طلب العلم، وعلى القناعة والاكتفاء باليسير، وعلى الصدق في القول والعمل والعبادة، وجميع أنواع الطاعات، وهذا الصبر يتحد مع الشكر في كثير من مواطنه، والشكر لا يتم إلا بمعرفة النعم، ولا تعرف النعم إلا بالدراسة، وكيف تتم الدراسة إلا بالصبر عليها، فهاهنا صبر وهنا شكر اتحدا عملاً واختلفا تسمية.

فقل لي رعاك الله، أيعرف نعمة الرياح الجريات للسفن وللسحاب كل إنسان وكل حيوان. كلا. فإن كل ذي عينين يدرك الحقائق، وكيف يدرك الإنسان الحقائق إلا بالفهم والعمل، فهاك مسألة جري الرياح هل تعرف إلا بالصبر عليها، ومن ذا يصبر إلا القليل من الناس! هذا بعض السر في قوله تعالى: ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[الشورى: ٣٣].

فانظر رعاك الله إلى الهواء الجوي، ينظر الجاهل إلى الهواء الجوي فيراه يهب تارة ويسكن أخرى فلا يدري من أين جاء، ولكن إذا درس وصبر على الدرس علم أن أسباب الرياح كلها ترجع إلى سببين اثنين، كما قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾[الذاريات: ٤٩-٥٠].

خيالي يوم الأحد ٢٨ إبريل سنة ١٩٢٩م

كأني أسمع رب العزة لما خلق الهواء واليابسة والماء يقول: أيتها اليابسة، ويا أيها الماء، اسمعا، هاأنا ذا أريد أن أخلق نباتاً وحيواناً وإنساناً، وهؤلاء لا حياة لهم إلا بسحب ماطرات، والسحب الماطرات لا بد لها من رياح، والرياح لا تتم إلا بأمرين: حرارة وبرودة، هذان زوجان جعلتهما سبب الرياح، والرياح تحمل السحب وتسير السفن، فقالت اليابسة والماء: نحن لك يا رب مطيعون. فقال: أما أنت أيها الماء فعليك أن تكون بطيء الحرارة بطيء البرودة، وأما أنت أيتها اليابسة فعليك أن تكوني سريعة البرودة سريعة الحرارة، ومتى تم ذلك حصل في الهواء اختلاف كثير فهبت الرياح، وهنالك يدور الهواء عليكما كما يدور الدولاب وكما تدور السواقي وكما تدور الطواحين، إن الساقية تدور بحيل صنعها عبادي:

(١) فيدور الثور، وبدورانه في مدار الساقية.

(٢) يدور «النير» الذي فوق رقبته.

(٣) والنير يجر الحبل.

(٤) والحبل يجر خشبة أخرى متصلة بعمود خشبي.

(٥) والعمود الخشبي يدير آلة خشبية مدورة كبيرة لها أضراس أفقية الوضع.

(٦) وهذه الأضراس تدير آلة مدورة أصغر منها رأسية الوضع.

(٧) وهذه تدير عموداً أفقي الوضع.

(٨) وهذا العمود يدير دائرة خشبية عليها قواديس رأسية الوضع.

(٩) وهذه القواديس تملأ ماء عند نزولها وتفرغه عند طلوعها، وهناك تسقي الزرع.

هذه حيل العباد في إخراج الماء، أما حكمتي أنا في الهواء فإني حركته فوق الكرة الأرضية وجعلته رياحاً بالحرارة والبرودة، إنني لو جعلتك أيها الماء وأيتها اليابسة بطبيعة واحدة في الحرارة والبرودة لم تكن رياح فلا يكون لي خلق، لذلك أمرتكما أن تكونا مختلفتين حرارة وبرودة، وباختلافكما كانت هذه النعم وهذه المخلوقات، إن اختلافكما نعمة، بل هي أصل النعم في الأرض. وهاك إيضاح هذا المقام بالرسم من كتاب «الجغرافيا الرشيدة» فقد جاء فيه ما يأتي:

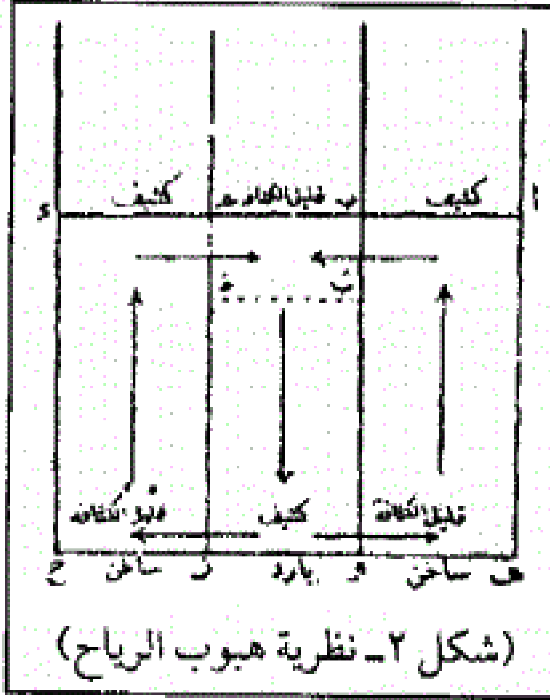
تأثير الحرارة في الضغط الجوي

أول أسباب اختلاف الضغط الجوي توزيع الحرارة على وجه الأرض بدرجات متفاوتة، ففي (شكل ـ١) مسطح وجه الأرض (هـ و ز حـ) مقسم إلى ثلاث مناطق (هـ و) و(و ز) و(ز حـ).

(شكل ١)

ونظراً لسقوط الأشعة العمودية في المنطقة (و ز) تشتد عليها الحرارة فيسخن الهواء الذي فوقها ويتمدد ويصعد في اتجاه السهم إلى الطبقات العالية من الهواء، وهي التي فوق الخط الوهمي (ا ب جـ د)، وبارتفاع هذا الهواء يضغط على الطبقات الفوقية المحصورة بين المستويين (ب جـ) و(بَ جَـ) فتصبح كثيفة ويشتد ضغطها على الأهوية المجاورة لها فوق (ا ب) و(جـ د)، لأن هذه الطبقات ما زالت قليلة الكثافة، ويترتب على ذلك هبوب تيارات هوائية فوقية إلى الجانبين باتجاه السهمين المرسومين في أعلى الشكل.

وفي أثناء ذلك يتخلخل الهواء فوق (و ز) وتقل كثافته، على حين أن الهواء لا يزال على جانبيه في (هـ و) و(ز حـ) كثيفاً، فيترتب على ذلك هبوب تيارات هوائية سطحية في اتجاه السهمين في أسفل الشكل، وباستمرار هبوب هذين التيارين واستمرار تسخين الهواء فوق منطقة (و ز) يستمر طلوع الهواء وهبوب التيارات الفوقية تجاه (ا ب) و(جـ د). ويؤول أمر هذا الهواء إلى السقوط في اتجاه السهمين الجانبين على (هـ و) و(ز حـ) ليسد النقص الحادث من انتقال التيارات السطحية.



(شكل ٢ ـ نظرية هبوب الرياح)

وهاك توضيحاً آخر لهذه المسألة بعينها كما تراه في شكل (٢) الآتي، ففيه رقعة من سطح الأرض (هـ و ز حـ) مقسمة إلى ثلاث مناطق (هـ و) و(و ز) و(ز حـ) والمنطقة (و ز) مشغولة باليابس والمنطقتان (هـ و) و(ز حـ) مشغولتان بالماء.

ونظراً لإقبال فصل البرد قد برد اليابس قبل الماء فبرد الهواء فوق (و ز) وتقلص وتكاثف وهبط سطحه من (ب جـ) إلى (بَ جَ)، على حين أن الهواء لا يزال فوق (هـ و) و(ز حـ) عالياً كما كان، فيترتب على ذلك تياران فوقيان في اتجاه السهمين المرسومين في أعلى الشكل.

وفي أثناء ذلك يزيد الضغط عند (و ز) ويخف عند كل من (هـ و) و(ز حـ) فينشأ عن ذلك تياران سطحيان في اتجاه السهمين المرسومين في أسفل الشكل. انظر (شكل ـ٢).

فيتضح من المثلين السابقين أن التيارات الهوائية السطحية تنتقل من الجهات الشديدة البرودة إلى جميع الجهات المجاورة. وهذه التيارات السطحية هي التي تؤثر تأثيراً مباشراً في المناخ، وهي التي نخصها بالكلام فيما يلي: وينتج من ذلك نظرياً انتقال الرياح من الجهات القطبية إلى خط الاستواء،

فيكون اتجاهها من الشمال إلى الجنوب في نصف الكرة الشمالي ، ومن الجنوب إلى الشمال في نصف الكرة الجنوبي .

نسيم البحر ونسيم البر

كأن الله يقول : أيتها الأرض إذا طلعت الشمس عليك فلتسرعي بقبول الحرارة ، وأنت أيها الماء عليك أن تكون بطيء الحرارة ، فإذا فعلتما ذلك فإن الهواء الذي يكون فوقك أيتها الأرض يكون أسرع سخونة بمجاورتك ، ومتى أسرع إسخانه خف وعلا ، ومتى خف وعلا أسرع الهواء الذي فوق الماء فجرى فوقك ، لأن الأثقل يحل محل الأخف ، فإذا جاء الليل فلتكوني أيتها الأرض سريعة البرودة . ولتكن أنت أيها الماء بطيء البرودة ، فتكون الحرارة فوقك أكثر منها فوقها ، وإذن يجري الهواء من فوق اليابسة إليك كما كان يجري منك إليها نهاراً . فهذا هو المسمى نسيم البحر ونسيم البر ، فإن النسيم يهب من البحر إلى البر نهاراً ومن البر إلى البحر ليلاً ، ولذلك يخرج الصيادون في القوارب وقت الفجر مع نسيم البر وفي الضحى ويعودون مع نسيم البحر إلى الساحل ومعهم السمك ، فهذان النسيمان يلطفان مناخ السواحل ومثلهما .

الرياح الموسمية

وكما يخيل لي خطاب الله للبر والبحر يخيل لي خطابه للقارات والمحيطات . فالقارة بدل البر والمحيط بدل البحر . والصيف كالنهار والشتاء كالليل .

فمثلاً تشتد الحرارة على جبال آسيا الوسطى مثل جبال « همالايا » فتقل كثافة الهواء فوقها . ولكن المحيط الهندي لا يكون مثلها . فتهب الرياح من المحيط المذكور إلى آسيا ، كل ذلك في زمن الصيف . وهذه تسمى الرياح الموسمية . وبسببها يكون الري والخصب في سهول الهندستان ، وهناك يعيش نصف سكان الأرض في الهند والصين واليابان . وذلك بفضل غزارة الأمطار وتولد الأنهار العظيمة ذات الفيضان السنوي .

وتكون هناك سهول « غرينية » خصبة تتوافر فيها المواصلات والري وأسباب العيش والرفاهية وهكذا يحصل في بلاد الحبشة بالرياح الموسمية أيضاً ، إذ ينشأ بسببها في أول الصيف فيضان النيل ، وهكذا ساحل « ناتان » في شرقي أفريقية ، وساحل الولايات المتحدة الجنوبي الشرقي ، إذ تسقط عليهما أمطار صيفية بمثل هذه الرياح ، وهكذا الساحل الشرقي لأستراليا .

فإذا جاء الشتاء تنعكس الحال فتبرد هضبات اليابس ويظل البحر دافئاً ، فتنشأ رياح تنتقل من البر إلى البحر وهي جافة لصدورها من الجاف وهو البر .

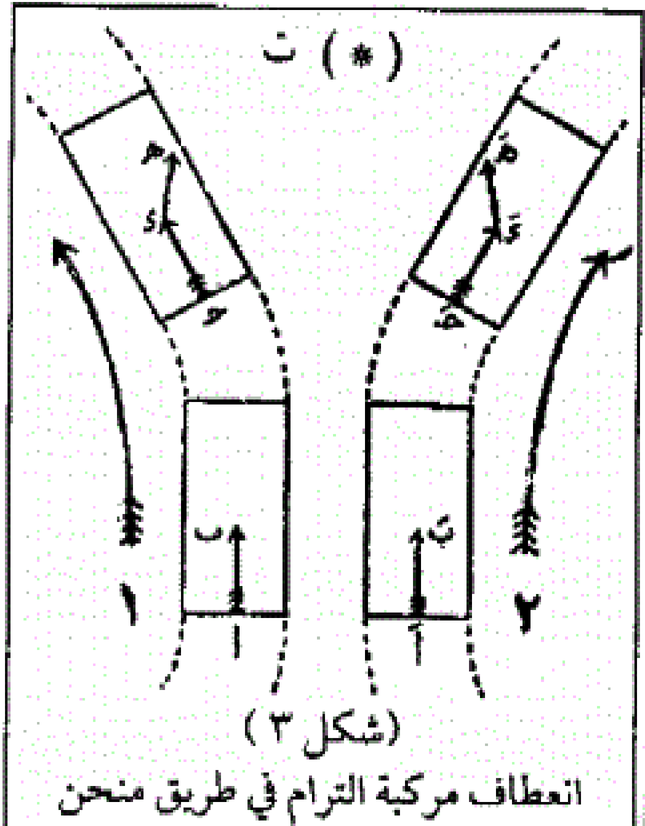
فاعجب أيها الذكي لأمرين اثنين : حرارة وبرودة نشأ عنهما سعادة سائر الناس والحيوان على الأرض . فهذا الهواء فعل الله به ما فعلناه نحن في النواعير والسواقي وآلاتنا ، ولكن هو أدار الهواء بأمرين اثنين : حرارة وبرودة ، وجعل الأمر عدلاً ، نسيم من البر إلى البحر وبالعكس ؛ ورياح موسمية بحيث يكون مداها ستة أشهر ، فهاهنا ليل ونهار لنسيم البر ونسيم البحر ، وهاهنا صيف وشتاء للرياح الموسمية . وهاهنا عاشت الأمم بهذه الرياح . وهذه الرياح مبناها الحرارة والبرودة .

التيارات البحرية

وقبل الدخول في الكلام على تلك التيارات وخطاب الله عز وجل لها أقدم مقدمة من كتاب « الجغرافيا الرشيدة » يتضح بها المقام وهاك بيانها :

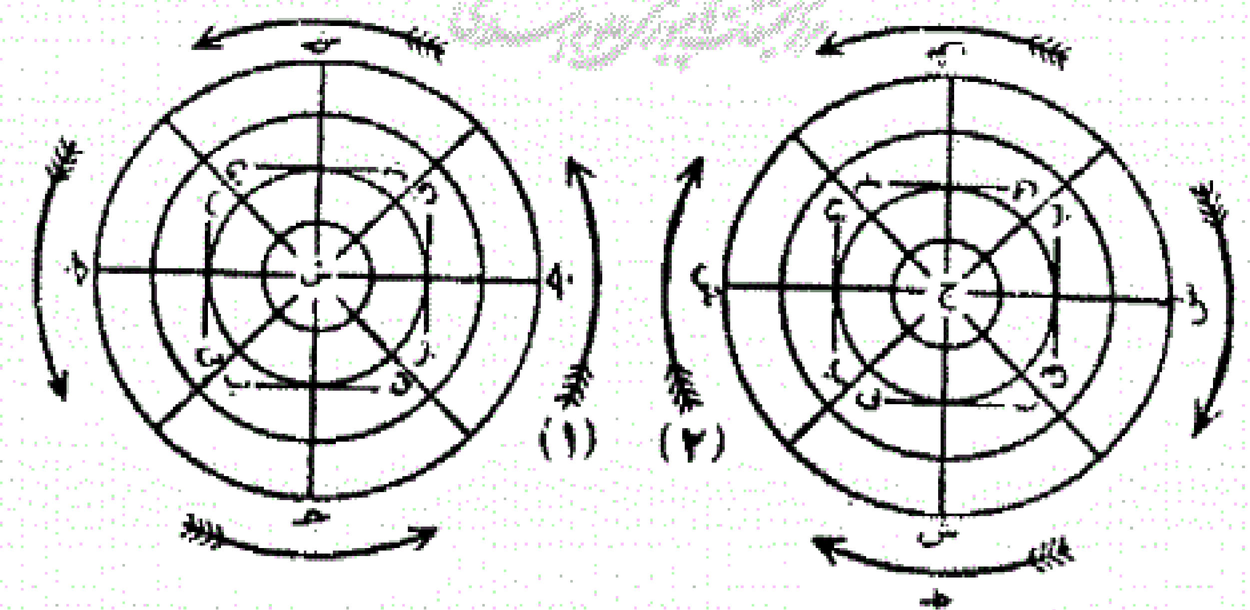
تأثير دورة الأرض على محورها

تنحرف الرياح في أثناء حركة الأرض على محورها عن اتجاهها الأصلي ، ولتوضيح ذلك نضرب المثل الآتي في شكل (٣) :



(شكل ٣)
انعطاف مركبة الترام في طريق منحن

راكب ترام ينظر إلى التمثال أمام الترام وينتقل متجهاً نحوه في العربة في الاتجاه ا ب ، ثم ينعطف الترام يساراً كما هو موضح في القسم الأول من الرسم (١) ، فإذا كان الراكب مصمماً على السير تجاه التمثال فإنه ينحرف نحو اليمين في اتجاه السهمين (جـ د) و(د هـ) ، وبالعكس من ذلك إذا انعطف الترام يميناً كما هو موضح في القسم (٢) من الرسم ، فإن مجموع سيره نحو التمثال يكون في اتجاه السهمين (جَـ دَ) و(دَ هـَ) . ففي كلتا الحالتين يحدث انحراف بعكس انعطاف الترام ، وكذلك الحال على الأرض إذ تنحرف الرياح بسبب الدورة اليومية ففي (شكل ٤) شطران : يمثل الأول منهما نصف الكرة الشمالي ويمثل الثاني النصف الجنوبي .



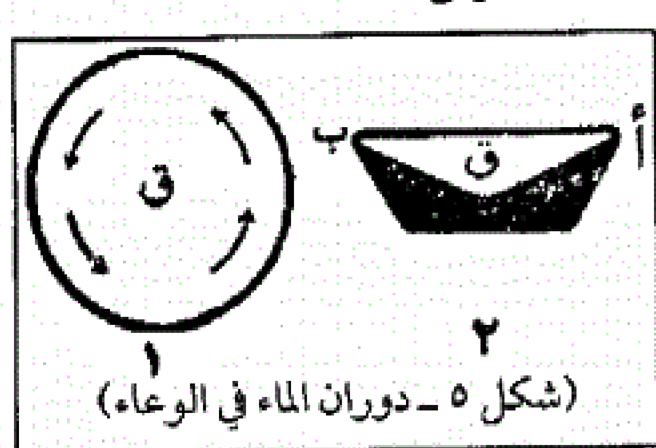
(شكل ٤ ـ دورة الأرض على محورها)

(١) ففي مركز الدائرة في الشطر الأول القطب الشمالي ، وكل اتجاه يبعدنا عنه جنوب وبتعيين الشمال والجنوب يكون الشرق إلى اليمين والغرب إلى اليسار . وبذلك تكون دورة الأرض في اتجاه الأسهم المحيطة بالدائرة .

(٢) وفي مركز الدائرة في الشطر الثاني القطب الجنوبي ، وكل اتجاه يبعدنا عنه شمال ، وبذلك تكون دورة الأرض في اتجاه الأسهم المحيطة بالدائرة .

فإذا وازنت بين شكلي (٣ و٤) تعرف أن الرياح تنحرف إلى اليمين في نصف الكرة الشمالي وتنحرف إلى اليسار في نصف الكرة الجنوبي، وتسمى هذه القاعدة « قانون فرل »، وبمقتضاها تصبح الرياح الشمالية في نصف الكرة الشمالي رياحاً شمالية شرقية، وتصبح الرياح الجنوبية في نصف الكرة الجنوبي جنوبية شرقية.

مناطق الضغط العظيم خلف المدارين



(شكل ٥ ـ دوران الماء في الوعاء)

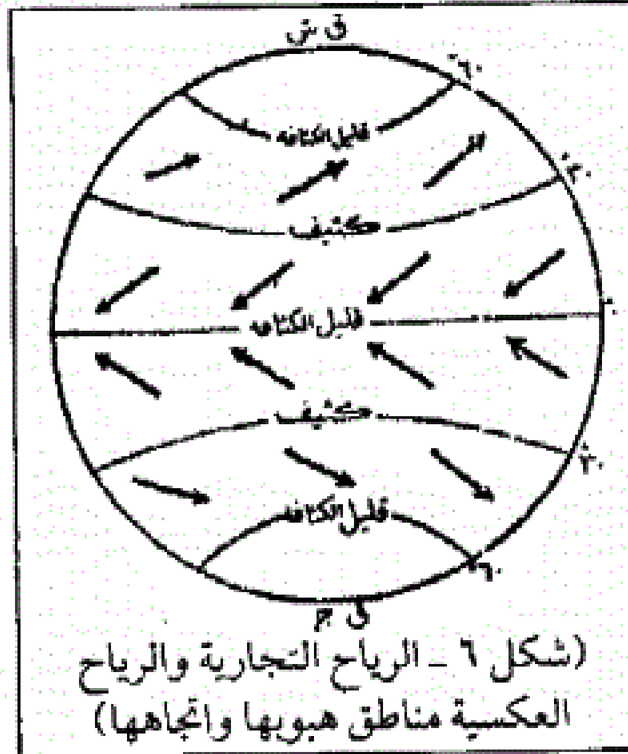
في الشطر الأول من شكل (٥) وعاء فيه ماء فإذا دار الماء في الوعاء حول القطب (ق) باستمرار لا يلبث أن يهبط سطحه في الوسط ويرتفع عند الحافة، فيكون سطح الماء كما ترى في الشطر الثاني من الشكل عند (ا ق ب). وكذلك الهواء على وجه الأرض إذ تزيحه دورة الأرض على محورها بعيداً عن القطب، وتعمل على تكثيفه عند خط الاستواء. ولولا الحرارة عند خط الاستواء لأصبح الهواء عنده كثيفاً جداً، وبالعكس من ذلك مخلخلاً عند القطبين بسبب دورة الأرض على محورها.

لكن هنا عاملان متعاكسان: فالحرارة تعمل على إبعاد منطقة الضغط العظيم عن خط الاستواء ودورة الأرض على محورها تعمل على إبعادها عن القطب. ونتيجة منافسة هذين العاملين وجود منطقتي الضغط العظيم حوالي خط عرض ٣٠° شمالاً و٣٠° جنوباً.

أما خط عرض ٦٠° شمالاً و٦٠° جنوباً فيكون الهواء عنهما قليل الكثافة بسبب فعل الدوران في إبعاد الهواء عن القطبين.

الرياح الدورية على وجه الأرض

ينتج مما تقدم ما تراه في (شكل ٦)، فعند خطي العرض ٣٠° شمالاً و٣٠° جنوباً تزيد كثافة الهواء فتهب الرياح منهمات إلى خط الاستواء وتسمى بالرياح التجارية. وتهب من كل منهما إلى خط عرض ٦٠ الرياح العكسية.



(شكل ٦ ـ الرياح التجارية والرياح العكسية مناطق هبوبها واتجاهها)

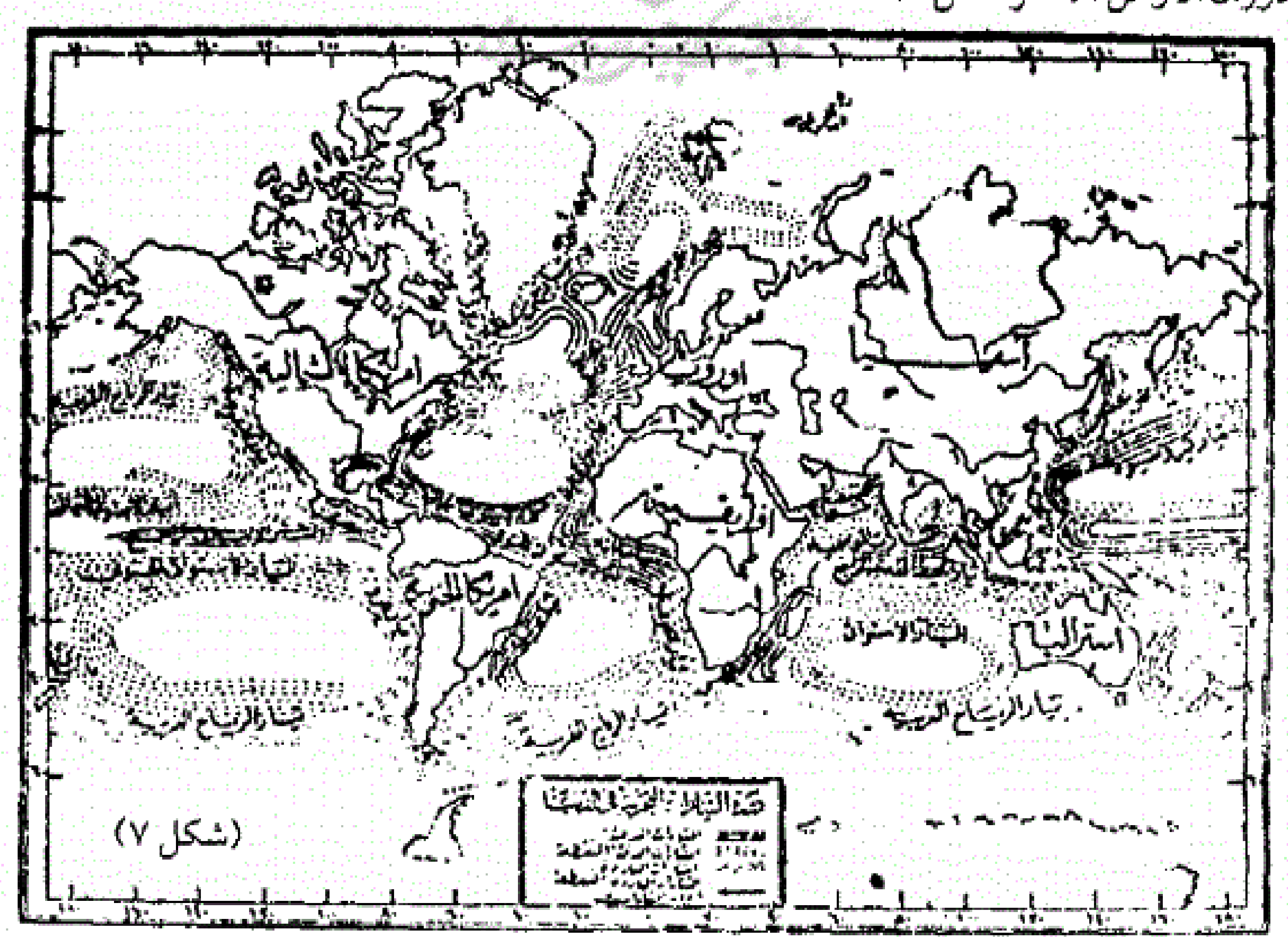
وتنحرف الرياح التجارية نحو الغرب بسبب دورة الأرض على محورها، وبذلك يكون انحرافها إلى اليمين في نصف الكرة الشمالي وإلى اليسار في النصف الجنوبي. وتنحرف العكسية نحو الشرق أيضاً لهذا السبب.

فتهب الرياح التجارية من الشمال الشرقي في نصف الكرة الشمالي، ومن الشرقي في النصف الجنوبي، وتهب الرياح العكسية من الجنوب الغربي في نصف الكرة الشمالي، ومن الشمالي الغربي في النصف الجنوبي. وحول كل من القطبين منطقة ساكنة. وعند خط الاستواء منطقة

سكون يرتفع عندها الهواء بفعل الحرارة إلى الطبقات العليا من الجو، وعند خطي عرض ٣٠° شمالاً و٣٠° جنوباً منطقتان من السكون تسقط عندهما الأهوية من الطبقات العليا. انتهى ما أردته من كتاب «الجغرافيا الرشيدة».

تلخيص ما تقدم

هاهنا آن أن أذكر ما يخيل لي من خطاب الله عز وجل للماء، كأنه عز وجل يقول: أيتها المياه، اسمعي هاأنا ذا جعلت الحرارة من الشمس الساقطة على الأرض سبباً في إثارة الهواء، فباختلاف قبول اليابسة والماء لها أدرت الرياح فكانت نسمات البر وكانت نسمات البحر، فإذا كان الليل هبت النسمات من البر إلى البحر لأن جو اليابسة يكون أبرد وجو البحر يكون أقل برودة، فتجري الرياح من البارد المتقلص وهو البر إلى الحار المتمدد وهو البحر، فإذا كان النهار قلبت الوضع وأجريت الرياح من البحر الذي لم تسرع الحرارة فيه إلى البر الذي أسرعت فيه الحرارة، فهما متعادلان: نسيم من البر إلى البحر ونسيم من البحر إلى البر، ومثله الرياح الموسمية، ثم إني أدرت الكرة الأرضية على محورها من الغرب إلى الشرق؛ والمحور متجه من الجنوب إلى الشمال، وبسبب هذا الدوران يفر الهواء من القطبين إلى ناحية خط الاستواء، لكن خط الاستواء يطرد الهواء بحرارته، فلا محيص للهواء إلا أن يلتجئ إلى نقطة معينة وهي هنا درجة ٣٠ شمالاً ودرجة ثلاثين جنوباً، وهناك منطقة سكون تتجه منها ريحان: ريح تتجه إلى جهة خط الاستواء راجعة وهي المسماة تجارية، وأخرى تتجه إلى ناحية القطبين وتسمى ضدية أو عكسية. ولا بد من انحراف كل من الرياح التجارية والرياح العكسية أو الضدية لأجل تأثير دوران الأرض. (انظر شكل ٧).



(شكل ٧)

فهاهنا يقول الله للرياح التجارية : أيتها الرياح التجارية الجارية في المحيط الأطلسي عليك أن تحركي تيارين : أحدهما في جنوب خط الاستواء ، وثانيهما في شمال خط الاستواء ، يتجهان معاً من سواحل أفريقيا إلى سواحل أمريكا ، فأما التيار الاستوائي الجنوبي فعلى بلاد البرازيل أن تصده ، ومتى صدته ينعطف محاذياً للساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية . وأنت أيتها الرياح العكسية أرجعيه ثانياً إلى مقره الأول فيرجع إلى سواحل أفريقيا ثانياً ، ويتم دورته حول منطقة ساكنة ، وهذا ليفعل التيار الاستوائي الشمالي ، فليتوجه من سواحل أفريقيا إلى خليج المكسيك ، وليسر محاذياً للساحل الشرقي لأمريكا الشمالية ، وأنت أيتها الرياح العكسية وجهيه إلى خليج المكسيك « يسمى تيار الخليج » ، وهناك يجب أن يقطع قطعتين فيكون هناك تيار أوروبا الغربية وتيار آخر للنرويج ، وهكذا ليكن ذلك في المحيط الهادي ، فلتحرك الرياح التجارية تيارين على جانبي خط الاستواء كهذين ، فأما التيار الاستوائي الذي جهة الجنوب فعليه أن يتوجه من سواحل أمريكا إلى سواحل أستراليا ، وأنت أيتها الرياح العكسية رديه ثانياً إلى أمريكا ، وأما التيار الاستوائي الذي جهة الشمال فعليه أن يتجه من أمريكا أيضاً إلى ساحل آسيا عند اليابان وهو التيار الأسود « كوروسيوه » بالرياح التجارية ، وعليك أيتها الرياح العكسية أن ترديه إلى أمريكا ثانياً ، وهكذا لتفعل الرياح التجارية والرياح العكسية حول أستراليا في المحيط الهندي ، فلتحركي أيتها الرياح التجارية تياراً واحداً جنوبي خط الاستواء فقط لأن نصف الكرة الشمالي مشغول بقارة آسيا ، وليسر التيار من ساحل أستراليا إلى سواحل أفريقيا ، وعلى الرياح العكسية أن ترده إلى أستراليا ثانياً .

هذا هو الخطاب الإلهي الذي يخيل إلي كأنه حقيقة ، وكأن الله عز وجل يقول في منافع هذه التيارات : فيا تيار الخليج ، ويا تيار البرازيل في المحيط الأطلسي ، ويا تيار « كوروسيوه » ، ويا تيار شرقي أستراليا في المحيط الهادي ، ويا تيار موزنبيق في شرق أفريقيا في المحيط الهندي .

أنا نقلت بعضكن من الجهات الاستوائية إلى العروض البعيدة عن خط الاستواء لمقصد سام وحكمة بالغة ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الدخان : ٣٨-٣٩] ، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[الروم : ٧] . أنا نقلتك من الجهات الحارة إلى الجهات الباردة لأجل تلطيف كل مناخ تمرين عليه ، إنني بالتيارين اللذين عند غرب أوروبا وعند النرويج أذبت مياه بحر الشمال مع أن بحر البلطيق الذي يساويه في درجات العرض يكون جامداً خمسة أشهر في السنة . والرياح العكسية لحرارتها أثرت في تيار الخليج فأدفأته فوصل إلى سواحل أوروبا دافئاً ، فكان المطر الكثير والدفء العظيم .

ثم كأنه عز وجل خاطب البحار القطبية والبحار المدارية قائلاً : إنك أيتها البحار القطبية لم أسلط عليك حراً كثيراً ، لذلك كان ماؤك محفوظاً ، فلم يكن منك بخار كثير ، بل زدتك ومددتك بكثير الثلج فزادك ماء . وأما البحار المدارية فإن الحرارة ترفع ماءها إلى الجو بهيئة بخار ، فعليك أيتها البحار الشمالية أن ترسلي تيارات مائية إلى الأقطار الاستوائية لأني عدل ، فلما سمعت هذا الخطاب البحار القطبية الشمالية أرسلت من لدنها مدداً وهو تيارات بحرية إلى خط الاستواء .

(١) مثل تيار « لبرادو » الذي يحاذي سواحل « جرينلندة » و« لبرادو » و« نيوفنلد » ثم يقابل تيار الخليج وهو دافئ فيتلاشى فيه .

(٢) وتيار شمالي شرق اليابان الذي يحاذي شبه جزيرة « كمشتكا » وجزيرة « يسو » ، ومتى قابل تيار « كوروسيوه » يتلاشى فيه .

(٣) وهكذا المحيط المتجمد الجنوبي أرسل تياره حول الدنيا من الغرب إلى الشرق دائماً سائراً مع الرياح العكسية الغربية ، ومتى قابل الأطراف الجنوبية لأفريقيا وأستراليا وأمريكا الجنوبية يتفرع منه تيارات في المحيط الأطلسي وفي المحيط الهندي وفي المحيط الهادي ، وهذه كلها تقابلها تيارات دافئة لتخفيها وتعدمها ، فأنت أيتها التيارات الباردة لك آثار حسنة . فإنك تؤثرين في جهات « جويسو » في اليابان ، فتكون أبرد من « جوهنشو » ، وفي مناخ جهات « بيرو » في غرب أمريكا الجنوبية فإن حرارتها تكون ألطف مع قربها من خط الاستواء الموجب لشدة الحرارة ، ولقد جعلتك أيتها التيارات الباردة أشبه بالفعلة والصناع ، إذ ينقلون التراب والحجارة من مكان إلى مكان لإصلاح البقاع والبناء ونحو ذلك ، فأنت تحملين الثلج ومعه صخر ، فمتى وصلت بثلجك وصخرك إلى شواطئ القارات تكون هناك مساحات واسعة مرتفعة عند سواحل « نيوفوندلاند » بالمحيط الأطلسي وعند سواحل الشمالي الشرقي لليابان ، وما هي إلا صخور ذات الثلج الذي كان معها أصبحت هي محال لتربية السمك فيصطاده الناس عند تلك السواحل . إذن أنت أيها التيارات الباردة تحملين برودة معك لتلطيف الحر وتصنعين صنع البنائين والفعلة ، فإنك تبنين أماكن للسمك يصطاده الصيادون .

خطاب الله للناس

وكأني أسمع خطابه للناس إذ يقول : يا بني آدم ، أين عقولكم ، وأين أحلامكم ؟ أليست هذه آياتي ؟ فمن آياتي الرياح في البحر ، ولو أني أسكنت الريح بسبب اتحاد الحرارة على الماء واليابسة لم تكن رياح ولم تكن تيارات .

انظروا يا عبادي ، فمن أين تكون تيارات حارة تنفذ إلى غرب أوروبا وعند النرويج ، فتذيب بحر الشمال لمنفعة عبادي في أرضي ، ومن أين تكون تيارات باردة تذهب إلى « بيرو » في غرب أمريكا الجنوبية فتلطف حرارتها . سياسة أبدعت ، وحكمة نظمت ، وآيات وعجب ! هذه عجائب صنعي ما خلقتها لكم عبثاً . أنتم قلدتم الطيور فطرتم في الجو بطياراتكم ، وقلدتم النمل في الحرب ، والأسود في الافتراس . تفرحون وتمرحون وتقولون : قد امتطينا الطيارات وقتلنا الأمم بالقذائف النارية ، وتظنون أنكم بهذا مفلحون . كلا ، ثم كلا . وعزتي وجلالي إن هذه إلا أساليب الشياطين وأخلاق الحيوان والسباع . فإذا لم يفهم أهل الأرض حكمتي فإني سأهلكهم أجمعين أكتعين أبصعين .

أيها الجهلاء . أيها الغافلون : ألم يأتكم نبأ تيارات الماء المذكورة . ألم تروها تجري من الجهات الباردة إلى الحارة ومن الحارة إلى الباردة لإصلاح أحوال عبادي . فهاهي ذه التيارات القطبية تجري إلى جهات الاستواء لتلطف الحرارة ، والتيارات الاستوائية تتجه إلى الجهات الباردة فتقلل برودتها . ألم يكن هذا درساً لكم ؟ ألم يأن لكم يا أهل الشرق ويا أهل الغرب أن تكون سياستكم كسياستي ؟ هذه

سياستي فمن الذي يقلدها؟ أعوالم السمك أم عوالم الدواب؟ كلا. بل أنتم المقصودون بتقليدها، نعم. أنتم قلدتم في الأمور الشهوية، فطرتم في الجو لتغيروا على غيركم، أو لتسافروا لأغراضكم الخاصة، ولكنكم قط لم تدركوا حكمتي ولم تقلدوني في صنعي. أنا بالحرارة واختلافها أجريت الرياح وأجريت التيارات شرقاً وغرباً، هكذا فلتكن حرارة العلم متأججة في قلوب الناس شرقاً وغرباً، ولتكن منها جاذبية في قلوب الأمم كلها في نظام السياسة والاتحاد؛ كما سرت الجاذبية في التيارات وانتظمت بها تيارات تشبه الأقطاع الناقصة التي تسير فيها الكواكب في السماء، فأصبحت التيارات البحرية من أفريقيا إلى أمريكا ومن أمريكا إلى أستراليا وآسيا وهكذا كلها متجهات إلى تكوين قطع ناقص، تشبهاً بنظام الكواكب في سيرها، لأن كل أم يتبعها ولدها، وكأنها أشارت أن نظام الإنسان في المستقبل سيكون أشبه بنظام هذه التيارات والرياح التي يمد الحار منها البلاد الباردة والبارد منه البلاد الحارة. ألم يأن لكم أيها الناس أن تجعلوا أممكم أمة واحدة، فقويها يواسي ضعيفها وتتلطفون في الهداية والسياسة بحيث يكون المتوحشون في كنف المتعلمين من جيرانهم. ليكن مسلمو أفريقيا نوراً لمتوحشيها، وهكذا ليكن الناس بعضهم لبعض معين ومساعد كما ظهر في التيارات البحرية باردة وحارة.

ومن عجب أن تكون هذه الآية في سورة «الشورى»، فإن لم يكن العالم كله أمة واحدة الشورى أفلا يكون المسلمون وحدهم أمة شورية؟ والحمد لله رب العالمين. كتب صباح يوم الجمعة ٣ مايو سنة ١٩٣١م.

جوهرة في قوله تعالى:

﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾

نظرة راكب السفينة فيما حوله من الماء والأرض

لراكب السفينة نظرات فيما حوله، فتارة ينظر في الرياح واتجاهها واختلافها ونتائجها كما تقدم هنا. وتارة أخرى ينظر في جوهر الماء والبحر والبر وصور المخلوقات البرية والبحرية، فيرى أشكالاً وألواناً وعجائب، وهذا تقرؤه في سورة «الروم الآية ٣٠» في قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ وإنهم مفطورون على البحث في الأشكال والأحوال والحكم على هذه المادة بأشكالها وبيان مساحاتها ونظمها المختلفات.

وإن هذه العقول بقوتها العظيمة لم تحتج في مساحة محيطات الدوائر، ولا في مساحة الدوائر، ولا في مساحة سطح الكرة، ولا في معرفة حجم الكرة، إلا أن تمسح نصف القطر، دلالة على حكمة مبدعها وقدرته وعلمه ونوره الذي ألقاه على هذه النفس فنفذت إلى سويداء الأجسام فاخترقتها وحكمتها وحكمت عليها بنصف القطر وحده، بحيث تربعه تارة وتكعبه أخرى، وتضربه في أعداد معلومة محفوظة، كل ذلك تقرؤه في سورة «الروم»، ولكن المقام الذي يليق أن يوضح هنا أبهج رونقاً وأبهى منظراً وأشرق نوراً وأليق بهذا المقام، لأن ذلك عام في كل ذي شكل في بر أو بحر، أما ما هنا فإنه يختص بالماء والسماء.

الماء والسماء

إن راكب السفينة يرى بعينيه نجوم السماء وأمواج الماء، فهو بين نجوم وماء، فلا جرم يجب أن يقرأ عجائبها، ولتعلم أن هذه العلوم مبينة بالبراهين معروفة بالقوانين، فلا يصدنك عنها قول كثير من المتظاهرين بالعلم: إنها ظنون أو أوهام. كلا. فلا علم إلا وله براهين أقنعت أهله وكل من دخل معهم اعترف بصدق نظرياتهم، فإذا قرأت ما سأقصه عليك فلا يخدعنك عنه خادع، ولا يصدنك عنه مارق يقول لجهله ولحسده: ما هذه إلا ظنون، فلتقرأ ولتدرس ولتعلم أن هذه هو الذي يطلبه الله ودينه ونبيه صلى الله عليه وسلم.

إن العلماء كما بحثوا الأشكال وعرفوا مساحتها أدركوا أيضاً أبعادها، فعرفوا أبعاد الشمس والقمر والكواكب، ووصلوا إلى أن عرفوا أن من أبعاد الكواكب ما وصل إلى مائة مليون سنة، بحيث إن نور تلك الكواكب لم يصل بعد خروجه من كوكبه إلى أرضنا إلا بعد أن قطع في سيره مائة مليون سنة، وهذا واضح في غير هذا المكان من التفسير، وهذه المقادير وإن كانت تقريبية قام عليها البرهان، أي: البرهان الهندسي، بحيث يستعملون في ذلك المثلثات التي لها أحوال خاصة. وعلم الهندسة علم يقيني، غاية الأمر أن المقادير تزيد وتنقص على حسب آلة الرصد لا غير، فلا يصدنك عن ذلك قول القائل: إن علم الفلك علم يخطئ كثيراً، فإن هذا القول صادق في علم أحكام النجوم، وهو العلم الذي يخبر بالحوادث المستقبلة، فهذا العلم يكذبه العقل ويخطئه النقل، أما حساب السنين والشهور وأبعاد الكواكب فذلك قامت عليه البراهين. إذن فلأشرع في الكلام على السماء، ثم أتبعه بالكلام على الماء.

الكلام على السماء

إن راكب السفينة بعد أن يدرس الرياح المتقدمة يخطر بباله ما يرى فوقه من النجوم، وهذه النجوم قد تقدم الكلام عليها في مواطن كثيرة، ولكن الذي أذكره هنا هو الكلام على مدة دورانها في الفلك، كما أذكر في الماء القوانين العلمية التي بها غاص فيه أجسام وعام على سطحه أجسام أخرى، فإن ثقل الأجسام وخفتها يؤثران في صعودها على سطح الماء وسقوطها في قاع البحر، كما أن السيارات تختلف مدة دورانها حول الشمس باختلاف أبعادها وأحجامها وقوتها الطاردة والجاذبة، وسأوضح هذا ليعجب الأذكياء من نجوم باهرات سائرات بقوانين لا تختلف على مدى الأزمان، ومن ماء جميل يستقبل الأجسام في أسفله تارة وفي أعلاه تارة أخرى بقوانين، بحيث يخرج المطلع على هذا بعد فهم هذا الموضوع وقد تحلت نفسه بحلية العلم وابتهجت بزينة الجمال، وعرفت سراً من نبأ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[الحجر: ١٦]، وأدركت قبسة من نور قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[الذاريات: ٤٧]، ومن قوله أيضاً: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ﴾[الرحمن: ٧-٨].

ينظر راكب السفينة في السماء فيجد الكواكب تنقسم قسمين: سيارات وثوابت، فالثوابت هي كل ما تراه في السماء من الكواكب إلا قليلاً، والقليل هي السيارات، والسيارات تسير حول الشمس، فمنها:

(١) عطارد : يدور حول الشمس في (٨٨) يوماً تقريباً، ويبعد عن الشمس (٥٧) مليون كيلومتراً.
(٢) الزهراء : تبعد عن الشمس (١٠٧) مليون كيلومتراً، وأبعادها وأحجامها تقرب مما للأرض عنها.
(٣) المريخ : السيار الذي يلي الزهراء بالنسبة للشمس هو الأرض، وهي معروفة فيما تقدم في أجزاء هذا التفسير، والذي يليها هو المريخ، وبعده المتوسط عن الشمس قدر بعد الأرض عنها مرة ونصف ومقداره (٢٢٥) مليون كيلومتراً تقريباً، والقطر الظاهري من المريخ يساوي (٠,٥٤) من قطر الأرض تقريباً، أعني (٦٨٠٠) كيلومتراً، وحجم المريخ (٠,١٤٧) من حجم الأرض، ودورته السنوية مركبة من (٦٦٩) يوماً نجمياً للمريخ.
(٤) المشتري : هو قدر حجم الأرض (١٣٠٠) مرة وقطره يساوي (١٤٠٠٠٠) مليون، فهو قدر خط الاستواء الأرضي (١١) مرة، وبعده المتوسط عن الشمس يساوي (٧٧٠) مليون كيلومتراً، وسنته (١٢) سنة من السنين الأرضية.
(٥) زحل : البعد المتوسط لزحل عن الشمس هو قدر بعد الأرض عنها تسع مرات ونصف، أعني (١٤٠٠) مليون كيلومتر تقريباً، ويقطع الفلك في (١٠٧٥٩) يوماً أعني (٩) سنة ونصف تقريباً، وحجم زحل قدر حجم الأرض (٧١٨) مرة وقطره الاستوائي هو (٩,٢٩٩).
(٦) أورانوس : مدة دورته حول الشمس (٨٤) سنة تقريباً أو (٣٠٦٨٧,٧) يوماً بالضبط، وبعده عن الشمس (٧٠٨) مليون فرسخ، وحجمه قدر حجم الأرض (٦٩) مرة، وقطر كرته (٤,٢٥) بأخذ قطر الأرض وحده.
(٧) نبتون : بعده المتوسط عن الشمس (١١٠٧٠٠٠) فرسخ، وهو أبعد السيارات، ويتم دورته في (١٢٥) سنة، وقطره (٣,٨٠) بالنسبة لقطر الأرض.

هذه هي السيارات المعروفة التي عرفها الإنسان الآن، اختلفت أحجامها وأبعادها وأضواؤها ومدد دورانها، والمهم في هذا المقام أنها مع هذا الاختلاف قد حفظت أبعادها ومدد دورانها فلم تتغير، فلا فرق بين أرضنا وبين تلك الكواكب في حفظ مدد دورانها.

اللهم أزل الغشاوة عن عقولنا، هذه المعلومات البسيطة التي ذكرتها هنا ليست إلا شيئاً يسيراً جداً مما تقدم في مواضع هذا التفسير، ذكرتها ليتفكر راكب السفينة في عجائب الكواكب، تلك الكواكب التي لا تخطئ في سيرها ولا تتعدى ما رسم لها من مداراتها تذكرة لقوله تعالى : ﴿ إِلَى فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١١-١٢] فهذه سبع سيارات منظمات سوّاهنّ الله عزّ وجلّ ونظمهن وأحكمهن وقال لهن : سرن أيتها السيارات في طرقكن ولا تتعدين ما رسمته لكنّ، سارت هذه السيارات وهي طائعة مختارة ولم تخطئ في المسير ولم تزد ثانية واحدة، وهذا هو السبب في بقاء هذا العالم منظماً آماداً وآماداً. إذن فلننظر في :

عالم الماء

هانحن أولاء نظرنا عوالم السماء فرأيناها منظمة سائرة بحكمة وعلم تامين. فلننظر في عوالم الماء التي تسير السفينة فوقها، فهل نجد لها قوانين تشبه تلك القوانين بحيث نفهم به قوله تعالى :

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت: ١١]. هانحن أولاء عرفنا من هذا المقام ومن غيره كيف كانت عوالم السماء قد أتت لربها طائعة، فهل فعلت مثلها عوالم الأرض وأتت طائعة، نحن لا نعرف ذلك إلا بالدراسة فنقول:

إن في علم الطبيعة تعرف الكثافة والوزن النوعي، يقولون: إن كثافة الجسم هي كتلة وحدة حجومه، وهذه الجملة في ظاهرها غير مفهومة، ولكنها لا بد من ذكرها وفهمها والسير في هذه المباحث حتى نعرف أن عوالم الماء كعوالم السماء لها قوانين وقد أطاعت الله كما أطاعته الكواكب. وكل منهما يحتاج إلى دراسة تامة.

يقولون: إن كتلة السنتيمتر المكعب من الحديد تساوي (٧,٨) من الجرامات. وكتلة السنتيمتر المكعب من الزئبق تساوي (١٣,٦) من الجرامات. وكتلة السنتيمتر المكعب من البلاتين تساوي (٢١,٥) من الجرامات. فكثافة هذه الأجسام هكذا بالترتيب (٧,٨) و(١٣,٦) و(٢١,٥) من الجرامات.

ومعنى هذا أن الحديد والزئبق والبلاتين إذا أخذنا منها مقادير مساوية لحجم السنتيمتر المكعب من الماء فإن أوزانها تزيد عليه بهذه المقادير، فيكون الحديد أثقل منه (٧,٨) والزئبق أثقل منه (١٣,٦) والبلاتين أثقل منه (٢١,٥)، وهذا هو الوزن النوعي، لأن الوزن النوعي لجسم هو النسبة بين حجمين متساويين منه، ومن الماء المقطر وهو في درجة (٤) فوق الصفر من الميزان المئوي «سنتغراد».

وهنا لا بد من ذكر قاعدة «أرشميدس» وهي كل جسم مغمور في سائل يكون مدفوعاً من أسفل إلى أعلى بقوة تساوي وزن مقدار من السائل حجمه يساوي حجم الجسم. وبعبارة أخرى: وزن السائل الذي يحله محله الجسم. وينتج من هذه القاعدة ما يأتي:

إذا طفا جسم على سطح سائل كان وزنه مساوياً وزن السائل الذي يحل محله الجزء المنغمس فيه، ولهذا السبب يطفو الرخام والحديد على سطح الزئبق، ويمكن أن تطفو الأجسام الكثيفة جداً على سطح الماء إذا كانت مشكلة بشكل يمكن معه أن يكون وزن السائل الذي يحل محله الجزء المنغمس فيه مساوياً لوزن الجسم كله، فمثلاً الكرة المعدنية الجوفاء التي حجمها (١٠٠) سنتيمتراً مكعباً ووزنها (٦٠) جراماً لا ينغمس منها في الماء إلا مقدار يحل محل (٦٠) سنتيمتر مكعباً فقط، وفي هذه الحالة يكون وزن الماء مساوياً وزن (٦٠) جراماً وهو وزن الكرة المعدنية، والسفينة التي تزن (٥٠٠٠) طونولاتة لا يمكن أن تطفو فوق الماء إلا إذا زاد حجمها على (٥٠٠٠) متر مكعب حتى يحل الجزء المنغمس منها محل هذا القدر من الماء، ولذلك تطفو السفن التي من الحديد فوق الماء، مع أن كثافة هذا المعدن أعظم كثيراً من كثافة الماء.

ومن العجيب أن العلماء أوجدوا الوزن النوعي للأجسام بطريق الطفو، فيضعون مثلاً من البلوط متوازياً مستطيلاً في وعاء فيه ماء فيطفو فوق سطحه، ويحسبون الجزء الطافي والجزء المنغمس في الماء ويطرحون الطافي من المنغمس، فالباقي يكون هو الوزن النوعي للبلوط وهو أخف من الماء بعكس الحديد والزئبق والبلاتين والذهب فإنها أثقل من الماء.

أليس هذا عجباً! أن الماء يصبح حكماً في معرفة كثافة الأجسام وكتلها المندمجة في أحجامها، فالكتل المندمجة في الأحجام التي تعرف بها كثافة الجسم يظهرها الماء، فإن كانت الأجسام أخف من الماء طفت أو أثقل انغمست، وهنالك درجات معينة لثقل الأجسام وخفتها وقد أظهرها نفس الذي جعله الله ميزاناً يوزن به ثقل الأجسام وخفتها.

هاهنا علمت أيها الذكي لماذا ذكرنا هنا كواكب السماء، ومقادير أبعادها وأحجامها، وعدد حركاتها، فإن أجسام المعادن والخشب وغيرها ثلث؛ وخفت بمقادير معينة عيّنها الماء وأوضحها أيما إيضاح؛ كما تعينت الأبعاد والأحجام في السيارات، ونسبنا أحجامها وسنيها إلى حجم الأرض وسنيها، والنسبة الكوكبية في السيارات لا تتغير، والنسب الوزنية في الأجسام الأرضية ووزنها النوعي لا يتغير، وهذا قوله تعالى: ﴿ قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾[فصلت: ١١]، فهذه هي الطاعة، طاعة الكواكب وطاعة الأجرام الأرضية، بل الطاعتان ترجعان لأمر واحد هو الجاذبية، فالحديد ثقيل وخشب البلوط المتقدم خفيف، فغاص الحديد في الماء وطفا الخشب على الماء، ذلك لأن الحديد أكثف من الخشب، فلذلك انجذب إلى الأرض على مقدار كثافته، فكان أسرع نزولاً إليها، فقلنا هذا ثقيل؛ فلكل من الخفيف والثقيل حركات تخصه نسميها ثقلاً وخفة كما اختلفت حركات الكواكب بالنسبة لاختلاف أوصافها وأحوالها وأبعادها. ولقد بنو على قاعدة «أرشميدس» تطبيقات أخرى وهاك بيانها:

(١) منها أن انغماس السفن في مياه البحار الملحة أقل من انغماسها في مياه الأنهار العذبة.

(٢) ومنها أن السمك يتمكن من الغوص في الماء إذا ضغط حوصلته ويصعد فيه إذا مددها فاتسعت. فبالضغط والتمدد لحوصلة العوم فيه يضمر جسمه فيغوص في الماء أو يكبر فيرتفع، وهذه الحوصلة يراها الإنسان وهو يأكل السمك.

(٣) ومنها أن السفينة إذا مست قرار البحر أو غاصت في رماله، فلنجاتها وإنقاذها تربط في سفينة أخرى عائمة ثقيلة الحمل، ثم يلقى محمولها فترتفع، وترتفع معها السفينة الغائصة الغارقة.

(٤) ومنها أن جثث الغرقى تطفو على سطح الماء بعد أيام لأنها تحللت مادتها فتكونت فيها غازات تصيرها أقل كثافة من الماء فتطفو عليه.

هنالك حضر صاحبي العالم الذي اعتاد أن يسألني في مسائل هذا التفسير، فقال: هاهنا سمعت كلمات ربما تكون غامضة على كثير من قراء هذا التفسير، وأنا رأيت أنك تريد أن تجعله سهلاً لجميع القراء، وذكرت السفينة التي تزن (٥٠٠٠) طونولاتة، وذكرت الجرام، وذكرت السنتيمتر المكعب، فكل هذه ألفاظ تحتاج إلى إيضاح.

فقلت: اعلم أن الله عز وجل كما جعل الماء في الأرض حياة لأجسامنا ونماء لزرعنا وأنعامنا جعله ميزاناً لأعمالنا، والموازين على قسمين: موازين طبيعية وموازين صناعية. فالموازين الصناعية هي التي سألتني عنها. فأما الموازين الطبيعية فهي الوزن النوعي، ومعنى هذا أننا نعرف تراكم المادة في الرصاص أكثر من تراكمها في النحاس، ونعرف تراكمها في النحاس أكثر منه في الحديد، وفي الحديد أكثر منه في الخشب بموازنته بالماء، فالماء هو الذي يحكم بينها. ولقد وجد العلماء ما يأتي:

الأردواز: وزنه النوعي٧, ٢، والبلاتين: وزنه النوعي ٥, ٢١، والحديد: وزنه النوعي ٨٦, ٧، والخارصين: وزنه النوعي ١, ٧، والذهب: وزنه النوعي ٣٢, ١٩، والرخام: وزنه النوعي ٨, ٢، والرصاص: وزنه النوعي ٣٧, ١١، والعاج: وزنه النوعي ٩, ١، والفضة: وزنه النوعي ٠٥, ١، والفلين: وزنه النوعي ٢٦, ٠، والفولاذ: وزنه النوعي ٩, ٧، والقصدير: وزنه النوعي ٢٩, ٧، والكهرمان: وزنه النوعي ١, ١، والليخ: وزنه النوعي ٥٨, ٠، والماس: وزنه النوعي ٥٢, ٣، والنحاس المطروق: وزنه النوعي ٩, ٨، والنيكل: وزنه النوعي ٩, ٨.

هذه أشهر الموازين النوعية، فإذا أتيت بالعاج وعينت منه حجماً خاصاً فإنك تجد وزنه يساوي الحجم الذي يساويه من الماء مرة و٩ من عشرة من ذلك الوزن، وإذا فعلت مثل ذلك في الذهب رأيت كتلة الذهب أثقل من نظيرتها في الماء أي المساوية لها في الحجم ١٩ مرة ونحو ثلث المرة وهكذا.

فهذا هو الماء الذي جعل معياراً للوزن النوعي لهذه المخلوقات، الماء معيار للوزن التوعي، ولماذا كان كذلك؟ ذلك لسر الربوبية، سر خفي، سر يجهله الناس، الناس يركبون السفن وبهم تسير من قطر إلى قطر، ولا يعرفون منها إلا أنهم بها يصلون لأغراضهم، وفاتهم أن حياتهم قصيرة، وأنهم خلقوا في الأرض للدراسة، وأن هذه العقول لم توضع في أدمغتهم إلا للدراسة، يركبون السفن ويغفلون عن السر الذي حفظها، ويغفلون عن قول مجري السفن في البحر: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[الشورى: ٣٢-٣٣]. إذن الآيات على قسمين:

آيات في نفس السفن، وآيات في هبوب الرياح. أما آيات الرياح فقد تقدمت قبل هذا المقام مستوفاة.

وأما آيات السفن فهي التي نحن بصدد الكلام عليها.

العقول النائمة لا تعقل أن في السفن آيات، ولكن العقول المفكرة تدرس السفن وتعقل الوزن النوعي لها، وتدرس قوانين صعودها فوق سطح الماء، وتعرف أن هذا الماء أمره عظيم. إن أمر الماء وبقاءه متناسب الأجزاء محفوظ القوام هو الذي به بقيت السفن وحفظت وجرت، ولو أن أجزاء الماء اختل نظامها لغرقت السفن، كما أن الكواكب التي تقدم وصفها لا بقاء لها في مداراتها إلا بممسك أمسكها فبقيت في مداراتها.

إذن هناك ممسك يمسك الكواكب في مداراتها، ويمسك ذرات الماء فتبقى متلاصقة متماسكة، ويمسك ذرات الحديد والنحاس والذهب فتبقى متماسكة ثابتة، ولولا هذا الممسك لم يستقر قرار لهذه الموجودات.

سبحانك اللهم وبحمدك، أنرت السبل بالعلم، وحفظت هذه الدنيا، وأقمت نظامها، هذا العالم الذي نعيش فيه كله مركب من مادة في غاية الصغر، وأجزاؤها الدقيقة وهي الجواهر الفردة بينها مسافات في غاية الصغر يسمونها المسافات الجزيئية، ولم ير أحد الجوهر الفرد المذكور ولم يقم دليل على وجوده، ولكنهم اقتنعوا به في تعليل الظواهر، ولقد أظهر المنظار المعظم أن آلاف الآلاف من

المخلوقات الحية تعيش في قطرة ماء كما ذكرناه كثيراً في هذا التفسير، وهذا القول يدرس الآن في مدارس الشرق والغرب فلا خلاف فيه ولا منكر له، وهذه الملايين من الأحياء تنمو وتتكاثر هناك، ولا يخلو منها مستنقع، وهي تتغذى بدقائق أصغر منها لا تكاد تدرك لصغرها. ومع ذلك يعتبر الجوهر الفرد أصغر من هذا كله.

إن العلامة الإنجليزي « وليم تمسن » توصل بطريق الحساب إلى ما يأتي: إذا تصورنا قطرة ماء تمددت حتى بلغ حجمها حجم الأرض ما بلغ حجم الجزيء فيها حجم « رملة ». فإذا كانت هذه حال المادة من الصغر والكثرة ومسافاتها الصغيرة بين تلك المواد الدقيقة فليس يحفظها متلاصقة مجتمعة إلا أمر آخر هو الذي يسمى قوة التماسك. يقول علماء الطبيعة: إن كل جزءين من نوع واحد يجذب كل منهما الآخر بقوة تتغير تبعاً لطبيعة مادتهما وتقوى تبعاً لصغر المسافة بينهما، وخاصة التجاذب هذه المسماة قوة التماسك واضحة جداً في الأجسام الصلبة، وأقل وضوحاً في السوائل، ومعدومة في الغازات.

فقوة التماسك المذكورة هي القوة التي بها حفظت دقائق الماء متلاصقة بحال واحدة، وكرات الكواكب في السماء في مداراتها، وهو المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾[فاطر: ٤١].

فبهذا عرفنا بعض آيات الله في السفن الجاريات في البحر كالأعلام، فهي جرت في البحر لأن ذرات الماء الدقيقة جداً ذات المسافات الصغيرة بقيت متماسكة بحال واحدة في جميع الأزمان فعاش الناس آمنين، يسافرون عليها ولا يخافون افتراق هذه الأجزاء فتغرق السفن، لأن الله لا يخلف وعده، ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ ﴾[الروم: ٦]، فالله لا يخلف وعده في حفظ الكواكب في مداراتها وفي سيرها منظمة، ولا في انتظام أجزاء المادة وتلاصقها وبقائها محفوظة كما حفظت الكرات السماوية، فبقي الناس آمنين على انتظام أزمانهم وساعاتهم، وآمنين من الغرق فلا تتفرق أجزاء الماء الملتصقة، إذن هنا قوة حافظة لهذه العوالم كلها، وكذلك الله لا يخلف وعده في حفظ أجزاء الحديد والنحاس والذهب والفضة والخشب، فهو يبقيها بالقوة التي تمسكها فتبقى بوزنها النوعي، فيعيش الناس بها بسلام مطمئنين على ذلك الوزن النوعي وهم سالمون آمنون، كل ذلك سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ ﴾[فاطر: ٤١] الخ. وبهذا تم الكلام على الموازين الطبيعية.

أما الموازين الصناعية التي سألتني عنها، فاعلم أيدك الله أن الماء كما كان بثباته سبباً لمعرفة الوزن النوعي للأجسام صار أيضاً سبباً لمعرفة الموازين الصناعية التي اصطلح عليها الناس أجيالاً وأجيالاً، وذلك أن المتر وهو المقياس الفرنسي المشهور ينقسم إلى مائة جزء كل جزء منها يسمى سنتيمتراً، وهذه المائة إذا ربعت تصير عشرة آلاف، وإذا كعبت تصير ألف ألف من ضرب مائة في مائة، فهذا هو المليون.

فإذا كان لدينا إناء طوله متر وعرضه متر وعمقه متر وملأناه ماء مقطرا درجته أربعة فوق الصفر فإن هذا الإناء يكون قد حوى ألف ألف سنتيمتر مكعب، وكل واحد منها طوله سنتيمتر وعرضه

كذلك وعمقه كذلك، وكل واحد منها سموه جراماً. إذن هو يحتوي على ألف ألف جرام أو ألف كيلو جرام، ولا جرم أن هذه تبلغ فوق (٢٢) قنطاراً، ومعلوم أن الكيلوجرام (٣٢٠) درهماً، وبضرب الألف فيها تبلغ (٣٢٠) ألف درهم، والقنطار (٤٥) كيلو جرام.

إذن القناطير (٢٢) قنطاراً، ويضاف إليها (١٠) كيلو جرامات، وهذه أيضاً (٨٠٠) أقة، وكل ٣٦ أقة قنطار فيكون الباقي بعد (٢٢) قنطاراً (٨) أقات. إذن الطونولاتة تبلغ (٢٢) و(١٠) كيلوجرامات أو (٨) أقات.

إذن الماء بثبات دقائقه وتلاصقها حفظ لنا أوزان الأجسام النوعية، أي التي نسب ثقل أحجامها إلى ثقل حجم الماء المساوي لها في الحجم بحيث يكون مضاعفاً له مرتين أو عشرة أو عشرين أو مساوياً لبعض أجزائه كالثلث والربع كما تقدم. وحفظ لنا موازيننا المعتادة من الجرام ومضاعفاته وما يوازنه من الدرهم والأرطال والقناطير. ذلك كله يدعو إليه فهم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[الشورى: ٣٢-٣٣].

ولقد تبين لك من هذا المقام أن هذه المعاني لا يمكن أن يعقلها إلا من يصبر عليها صبراً مستمراً وإلا فكيف يتسنى للرجل الشهواني الغر الجاهل أن يصبر على ما ذكرناه هنا من عالم الكواكب المناسب للمقام وعالم الماء وعوالم المعادن ونحوها، ويستمر في بحثها ويصبر على دراستها، ولا جرم أنه إذا صبر هذا الصبر أصبح شاكراً لأن الشكر يرجع إلى فهم النعمة، وفهم النعمة لا يعقل إلا بالصبر على دراستها وتعقلها، وكلما كان الصبر على الدراسة أتم كان الشكر أوفر. ولذلك يقول الله: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[الشورى: ٣٣] وكلاهما صيغة مبالغة، فمن بالغ في الصبر كان أكثر شكراً، وعلى مقدار الصبر ودراسة النعمة يكون شكرها، وشكرها أن يحس الإنسان في نفسه بحب لمسدي النعمة، وينطق لسانه بالثناء في المدارس والمجامع والمواعظ، وتنطلق جوارحه بخدمة الأمم التي يعيش الشاكر فيها، فهو كما يعشق مسدي هذه النعم ويحبه لإتقان صنعه وإبداعه يكون مصدر العلم والخيرات لعباده، بل يكون خليفته في الأرض، وذلك بأن يكون مقتدياً بالأنبياء سائراً على نهجهم في الإصلاح وإسعاد الناس، وهذا الشكر هو الذي ورد وجوبه في قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢] فعلى مقدار العلم يكون هذا الشكر.

ولا جرم أننا مأمورون بازدياد الشكر وبازدياد العلم، وهذا وجوب عيني على كل قادر نص عليه علماء الأصول، فقالوا: شكر المنعم واجب. وقد علمت معناه.

أما إسداء النعم للناس بهذه العلوم فهذه فروض كفايات، والأمم الإسلامية اليوم قصرت في ذلك كل التقصير، فأمثال هذه الموازين النوعية الطبيعية، والموازين الاصطلاحية لا بد لها من رجال مختصين بها ويكون عددهم على حسب احتياج الأمم الإسلامية، فلتدرس هذه العلوم جميعها، ولتوزع على جماعات تكفي نظام الأمم الإسلامية وحياتها، هذا تحقيق المقام والحمد لله رب العالمين.

تم هذا الموضوع مساء يوم الأحد ٢٦ مايو سنة ١٩٢٩م.

إيضاح بعض أسرار قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾[الشورى: ٣٢]

إلى قوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[الشورى: ٣٣]

مع قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الشورى: ٣٦]

هاهنا جعل الله السفن الجاريات من آياته، وهذه الآيات لا تظهر إلا لمن صبر وشكر، فأما الصبر فعلى العمل والتنظيم، وأما الشكر فلا يكون إلا بعد فهم النعم، وكيف تفهم إلا بالدراسة، ومن عجب أن آية سورة «فاطر» مثل هذه الآية في ترتيب نظامها، إذ يقول تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[فاطر: ١٢]، فالابتغاء من الفضل إنما يكون بالعمل ولا عمل إلا بصبر، فالابتغاء هناك في مقابلة الصبر هنا والشكر مشترك بينهما، ولقد بينت هناك بعض تعميم السفن من حيث تسهيل النقل مع وصف البحار وأعماقها، وذلك كله موجب للشكر، فإنك ترى هناك أن في البحر عجائب مثل الكاشالوت ذو الأنياب المحددة، والروكال الذي يبلغ طوله (١٢٠) قدماً، ومثل عمق البحر (٢٧٥٠) قامة مع أن النور لا يعد أكثر من (٢٠٠) قامة، فهناك في الظلام حيوانات تعيش بلا نور خارجي، بل إن النور يخرج منها نفسها، فهو تحت أمر السمكة، إذن هناك في (٢٢٥٠) قامة في الظلام أحياء، ومنها ما له نور فسفوري. وفي البحر المرجان يبني جزائر كثيرة كما بنت الأرضة في اليابسة مباني عالية، إذن الأرضة براً والمرجان بحراً فعلا ما عجز عنه الناس، فإن المرجان أحدث في البحر آلافاً من الجزائر عاش فيها الحيوان والنبات، ومن العجائب أن قوة الحصان تجر (٣٠٠٠) رطل في البر بسرعة ثلاثة أقدام في الثانية، وعلى السكة الحديدية (٣٠,٠٠٠) رطل للمسافة نفسها والوقت نفسه، وفي البحر (٢٠,٠٠٠) رطل، إذن الماء أكسبنا تسهيلاً فوق السير المعتاد (٧٠) مرة، هذه سر آية: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[فاطر: ١٢]. إذن المسلمون عليهم أن تكون لهم يد في البحار عظيمة، هذا ملخص ما كتبته هناك.

وأزيد هنا ما جاء في كتاب «الجغرافيا التجارية الاقتصادية» لمؤلفه الأستاذ محمد حمدي بك ناظر مدرسة التجارة العليا. فقد جاء فيه ما يأتي:

الإنسان ومغالبة البحار والمحيطات

في موضوع ترقي الملاحة. ملاحة الأنهار. علاقتها بالسكك الحديدية والقنوات.

ملاحة البحار والمحيطات. مراكب التجارة. الموانئ وأنواعها وأشهر الموانئ التجارية.

الموانئ المصرية. تأثير القنوات الملاحية في تجارة المحيطات. قناة السويس. قناة بناما.

الملاحة غريزية في الإنسان من القدم إذ كان يدفع بنفسه في الأنهار والبحيرات لصيد الأسماك، وكان لا يزال يأوي للسكنى على سطح البحيرات في مساكن يقيمها هنالك أماناً من الأخطار التي يمكن أن تحل به من البر، فكان دائماً في حاجة شديدة إلى أي نوع كان من الزوارق.

ولا يخفى ما للأنهار من أهمية في اجتياز الممالك الغابية أو المستنقعات، كذلك لا يخفى أن قواعد المدنية الأولى كانت راسخة في وديان الأنهار العظمى، وإذا كانت هذه الأنهار سبل التجارة بين

أرجاء البلاد مثل مدينة المصريين القدماء على تلك السلخة الأرضية التي يغمرها النيل بخيره ومثلها بابل وآشور في الوديان السفلى لدجلة والفرات .

ومما نلاحظ في نظام تجارة مثل الممالك سابقة الذكر أن تقوم المملكة بسد حاجاتها بنفسها خصوصاً فيما يتعلق بمواد الغذاء الرئيسية التي هي موضوع التجارة الدولية في العالم في الوقت الحاضر على منوال لم يسبق له مثيل . وإذا كانت قد قامت حركة تجارية بين تلك الأمم القديمة بواسطة الطرق البرية فإنّما كان ذلك في أواخر أدوارها من الرقي ، وكانت قاصرة على المواد الصغيرة الحجم الغالية الثمن من اللذائذ لا الضروريات التي لا مندوحة عنها ، ولم يسمع في عهودها بالاتجار في المواد الأولية والصناعية بكميات طائلة ، لأن طريق البر كانت تستخدم فيها الناس والدواب للنقل ، فكانت الأحمال على قدر طاقة هؤلاء فضلاً عن أن التجارة كانت عرضة في الزمان القديم إلى سطو اللصوص وقطاع الطرق إذا انتقلت إلى مسافات بعيدة براً أو بحراً .

ولقد كان التدرج في بعض الممالك من ملاحة الأنهار إلى ملاحة البحار طبيعياً ، وفي أمم أخرى كانت ملاحة البحار هي الخطوة الأولى لها ، كما بين سكان الجزر في المحيط الهادي أو الأسكيمو في القطب ، فترقي الملاحة إذا ليس أمراً قديماً فحسب بل هو أمر عام في أنحاء الأرض ، ولا يقع طبعاً في الأصقاع الجافة الخالية من الأنهار كما يفهم من حال العرب في بدء مدينتهم ، حتى لقد كان يكره سيدنا عمر البحر ويهابه مع أنه كان يرى فضل النقل بالماء ، إذ أمر بحفر خليج أمير المؤمنين بمصر ، ولا في الأصقاع المحوطة بالبحار الخطرة الطلقة الساحة كما في الجنوب الغربي من أفريقيا .

وترقي صنع الفلك يمكن تقصيه في التاريخ ابتداء من الخشبة الطافية فالبوص المحزوم مما يتسنى له أن يحمل رجلاً وحمله ، ثم الكتل الخشبية المفرغة فالهيكل السبتي المحوط بالجلد ، فالقارب المصنوع من الأخشاب المسمرة ، ثم إلى تهيئته بالدقة وهكذا .

والبوص هو أشهر ما صنع منه الفلك قديماً في الممالك الخالية من الأشجار في مثل أراضي النيل وبحيرات العجم ، وأول ما ظهر من القوارب على شكل الأسبات الملفوفة في الجلود كان في نهر الفرات ثم امتد التقليد والترقي في ذلك تدريجياً .

وفي الأدوار الأولى للرقي التجاري تقتصر المملكة على استخدام أنهارها الملاحية ، وتكون هذه في غاية الأهمية لأهلها ، ولكنهم في أدوارهم الأخيرة يعمدون إلى استعمال السكك الحديدية مع الأنهار التي ربما قد يقل استعمالها بترقي هذه السكك ، ولنضرب لهذه الأدوار أمثلة :

ففي حوض « الأمازون » تجري جميع المواصلات تقريباً بواسطة الأنهار ، والنهر الرئيسي قابل للملاحة بواسطة البواخر الضخمة المحيطية إلى مسافة ٣٠٠ ميل لغاية بلدة « إيكويتوس » ، ثم ما فوق هذه مسافة ٥٠٠ ميل قابل للملاحة بواسطة مراكب أقل حجماً مما تسحب الواحدة أربع عشرة قدماً ، ثم يصادف النهر شلالات كثيرة مثل « بنجودي مانزريكي » وغيره ، وهي من خصائص نهيراته أيضاً لا سيما في كثير من جهاتها العالية وفي أواسطها وأحياناً في أسفلها ، فتجري الملاحة بواسطة الأنهار في كل جهات البرازيل إلا إذا اعترضتها الشلالات ، فيلجؤون إلى نقل البضائع براً ، وليس بالبرازيل

سكك حديدية إلا ما ندر منها على الشواطئ، ولقد شرعوا حديثاً في مد خط على نهر ماديرا من سان أنطون على مقربة من شلالات متوالية.

وحوض «الكونغو» من أحسن ما يمثل ارتباط التجارة النهرية بالسكك الحديدية، إذا تعذر تسيارها بسبب الشلالات تدخل مراكب المحيط من المصب إلى «مانادي» ومن بعدها شلالات هي من خصائص جميع الأنهار العظيمة لأفريقيا حتى في مجاريها الواطئة، وهي التي كانت سبباً مهماً في تباطؤ كشف أفريقيا ورقي تجارتها، لأنه يتعذر سلوك الأنهار إلى الداخل، لذلك توجد سكة حديدية طولها ٢٦٠ ميلاً من مانادي إلى «ليوبولدفيل» على بركة «ستانلي»، فيجتنبون بواسطتها شلالاً عظيماً اسمه «يلالا»، وبعد ذلك يوجد نحو ١٠٠٠ ميل من النهر صالحة للملاحة لغاية شلالات ستانلي، فتوجد سكة حديدية أخرى تبلغ ٣٠٠ ميل لتحاشي هذه الشلالات أيضاً، وهي من «ستانلي فيل» إلى «بونثيير فيل»، ثم يعقب هذه ٣٠٠ ميل من النهر قابلة للملاحة، وبعدها سكة حديدية ثالثة من «نياتجوي» يصلون بها إلى جزء آخر من النهر قابل للملاحة في «لوالايا العليا».

وكذلك هو الحال في وادي النيل، إذ ترى مثل هذه الخصائص من عدم وصول السكة الحديدية فيه إلى حد الكمال، فهي تمتد في حوضه الواطئ من البحر الأبيض المتوسط إلى الشلال الأول على مدى ٧٠٠ ميل تقريباً ثم تنقطع لضيق الوادي، وتبتدئ ثانية من وادي حلفا في حوضه الأعلى إلى السودان المصري الإنجليزي فيبقى النهر الوصلة بين الشلال ووادي حلفا، وهكذا يجب تتبعها لدراسة سيرها مع النهر.

وفي «كولومبيا» بجنوب أمريكا أمثلة كثيرة للسكك الحديدية التي وظيفتها مجرد إيصال بعض المدن الشهيرة على الأنهار بالمدن الواقعة خارجة عنها، ويحسن لذلك دراسة حوض «المغدلينا».

وتزداد فوائد الأنهار بشق الترع والقنوات في أحواضها، والقنوات إما أن تشق وتكون حافظة مستوى واحداً على طول مداها فيتبع في نظام حفرها مستوى سطح الأرض، وإما أن يكون من نظامها تغيير ارتفاع سطح الماء فتجهز بـ«الأهوسة»، وقد تبنى الأهوسة كذلك على الأنهار نفسها إذا كان تيارها سريعاً لا تتيسر معه الملاحة أو إذا اعترضته الشلالات في مثل قناة «سولت سان ماري».

وبما أن مجاري الأنهار والترع تكون عادة متعرجة فقد يصيب جوانبها التلف إذا سارت فيها المراكب بسرعة ودفعت بالمياه يميناً وشمالاً، فضلاً عن أن الأهوسة تكون معطلة قليلاً لتوالي سير المراكب، لما تقتضيه من الانتظار في رفع الماء وخفضه، لذلك ولأسباب أخرى كانت الملاحة بالأنهار والقنوات بطيئة غير مسعفة، ولكنها مع ذلك ذات شأن في نقل الأحمال الثقال كالفحم وغيره من المواد الضخمة نظراً لرخص الحمل على الماء، فيكون ذلك أرجح أحياناً من سرعة القطارات الحديدية. ولما تجمد «السين» في سني الحرب دأبوا على قطع الجليد منه ونسفه بالديناميت ليتسنى استخدامه، مع أنه في سني السلم كان ملهى انزلاق.

ونظام القنوات الملاحية في وسط أوروبا وغربها عجيب جداً ومفيد من الوجهة التجارية الفائدة العظمى، إذ يشتبك جميع الأنهار العظمى بعضها ببعض «الرين والرون والألب والأودر والفيستولا

والطونة والسين واللوار» بقنوات في غاية العظمة والمنفعة، وبين ألمانيا وبلجيكا وهولاندة وفرنسا قنوات ملاحية من الدرجة الأولى في الحركة التجارية، وعليها تمر المحمولات العديدة الضخمة.

ولبعض الأنهار والقنوات في شمال أمريكا أهمية عظمى في التجارة، فالمسيسبي ونهيراته عماد حركة تجارية في طول البلاد وعرضها، وقناة هادسن وإيرى التي تصل نيويورك بالبحيرات العظمى ـ والبحيرات العظمى ـ نفسها، العليا وميشيغان وهورون وإيرى وإنتاريو قطب رحى الحركة التجارية في كندا والولايات المتحدة، وعامل من عوامل رقي التجارة الداخلية لتلك الجهة، ولقد أقيمت الأهوسة تحاشياً لشلال سولت سان ماري وتسمى «سو» بين البحيرة العليا وهورون. ومن وقت ما أخذت هذه القناة الطبيعية في الحركة التجارية إلى الآن بلغت محمولاتها من البضائع آلاف الآلاف بالنسبة لعهد بدئها، ولم يمض عليها إلا نصف قرن. كذلك يوجد بين ميشيغان والمسيسبي قناة تجارية عظمى، وتوجد أخرى بين بحيرة إيرى وإنتاريو تحاشياً لشلال نياغارا، ونهر سان لورانس قابل للملاحة من بعد بحيرة إنتاريو إلى المصب. هذا، ويوجد في كندا قناة ملاحية أخرى من خليج جورجيا في بحيرة هورون إلى بحيرة إنتاريو، وستشق أخرى بين خليج جورجيا المذكور ونهر أتاوة لتقصير المسافة وعدم ضرورة مرور تجارة هاتين الجهتين في البحيرات كما يتضح من الخريطة.

هنالك يحمل قمح كندا في المراكب التجارية من فورت وليام وبورت أرثر على البحيرة العليا، ويحمل قمح الولايات من موانيه ديلوث وشيكاغور إلى بافاب ثم يوزع منها، ويحمل الغفل من الحديد من بعض الموانئ على البحيرة العليا وميشيغان إلى جهة بحيرة إيرى، والحركة التجارية في الفحم عظيمة جداً، وأكبر محمولات المراكب التجارية لهذه البحيرات تبلغ ١٣٠٠٠طن أو أكثر من الفحم والحديد وما ضخم حجمه، ومراكب ظهر الحوت للقمح حمولة الواحدة ١٠٠٠٠ طن.

وأنهار الملاحة العظمى هي التي يتوافر من شروطها أن تصب في المحيطات التجارية العظمى، لأن الممالك القابضة على زمام التجارة واقعة على المحيطات خصوصاً الأطلسي وله ثلث الحركة الخاصة بأنهار العالم التجارية وللهادي سبعها وللهندي ثمنها والباقي للمحيط المتجمد وداخل القارات.

مراكب التجارة

كانت التجارة البحرية ترقى تدريجياً متباطئاً، فلم تظهر مراكب التجارة في أشكالها وأحجامها الضخمة إلا من عهد ليس ببعيد، فقد كانت أقصى حمولة المراكب الرومانية في البحر الأبيض ٥٠٠ طن أو أكثر من ذلك بقليل. وفي عهد الاكتشافات وعبر المحيطات بلغت حمولة بعض المراكب المستخدمة ١٠٠٠ طن. وعبر كولمب الأطلنطي في مركب حمولتها في ٢٣١ طن لا غير.

ولما اكتشف البخار أحدث تغييرات عظيمة جداً في حمولات المراكب، فعبرت أول مركب بخارية المحيط الأطلنطي سنة ١٨١٩، ثم اشتهر بعد ذلك صنع المراكب من الحديد، وفي سنة ١٨٧٥ صنعت من الصلب، وتفوقت هذه الصناعة على الأولى وازداد عدد المراكب البخارية من هذا الحين، حتى تساوت في إنجلترا حمولة الشراعية والبخارية بين سنة ١٨٦٥ ــ ١٨٧٠، وأخذ عدد المراكب البخارية من ذلك الحين يعلو عدد الشراعية، ففي خلال سنة ١٨٧٠-١٨٧٤ زيد سنوياً على الأسطول

التجاري الإنجليزي ٢٤٠ مركباً شراعية، متوسط حمولة الواحدة ٦٥٠ طن، ولكن في خلال سنة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩ لم يزد سنوياً عليه إلا ١٥٠ مركباً فقط، بينما ازداد عدد المراكب البخارية سنوياً من ٥٠٠ ـ ٦٠٠ مركب، ولا يوجد الآن من المراكب الشراعية إلا ربع أسطول العالم.

ولقد أدخل حديثاً في المراكب الشراعية الكبرى آلات بخارية بغرض إخراجها من الميناء أو تسييرها في مناطق السكون، وزاد عدد المراكب التي من هذا النوع، على أنه لا تزال الحاجة إلى المراكب الشراعية ماسة في التجارة في بعض النواحي، فهي تحمل للآن غلال كاليفورنيا ومترات أمريكا الجنوبية ويتجر بها على ساحل الباسيفيك، لأن هذا الساحل لا توجد على مقربة منه مناجم فحم يمكن للمراكب البخارية أن ترسو عليها، ولا يزال جزء عظيم من التجارة بين مصر وسوريا والأناضول والبلقان تحمله المراكب الشراعية وغير هذه الجهات كثير.

وكان للإمبراطورية البريطانية قبل الحرب $\frac{٩}{٢٠}$ من مراكب العالم البخارية، وقسط كبير من هذه النسبة تابع لبريطانيا نفسها، لأن بريطانيا جزيرة في الأطلنطي كثيرة الموانئ البحرية، وهي في حد ذاتها مملكة شهيرة بالصناعة شهرة فائقة وواقعة بين أسواق أوروبا وأمريكا، فهي من كل هذه الوجوه أسعد جهات العالم بصلاحية موقعها للتجارة البحرية، وبريطانيا وإيرلندا كانتا تبنيان ثلثي مراكب العالم، وكان للولايات المتحدة أكثر من $\frac{١}{٨}$ من أسطول العالم التجاري، وكان لألمانيا $\frac{١}{١٠}$ منه وكلتا المملكتين تترقى في الصناعة ترقياً سريعاً. ويهمها أن تملك أساطيل تجارية جرارة، ومن بعدها تأتي النرويج وكان لها تقريباً $\frac{١}{١٢}$ وهي نسبة عظيمة بمراعاة عدد السكان، فهي ليس لها صناعات عظيمة مثل الممالك الأولى، وهي جبلية قفرة ليست غنية بالمزارع الكثيرة ولا بالمعادن الوفيرة، ولكن لها شاطئاً كثير التعرجات تحميه على مداه جزر عدة خالية من الجليد في فصل الشتاء بالرغم من وقوعها على خطوط عرض مرتفعة، وهي غنية بالأسماك. والنرويجيون مشهورون بالملاحة من بدء تاريخهم، يساعدهم على ذلك فيوردانهم والطرق بين الجزر المنثورة على شاطئهم، وعندهم كثير من الموانئ الطبيعية، وهم دائماً على أهبة أن يزجوا بأنفسهم في البحر، فلا غرابة إذا كانت مرتبتهم الرابعة في ملاحة العالم. ويأتي بعد النرويج في حمل تجارة العالم فرنسا وإيطاليا واليابان والأراضي المنحطة.

وفي نحو سنة ١٨٩٠ كانت المراكب التي حمولتها أكثر من ٨٠٠٠ طن قليلة، ولكن سنة ١٩١٠ كان ملك الشركات المختلفة أكثر من ٨٠ مركباً محمول الواحدة منها أكثر من ١٢٠٠٠ طن، والمركب الكبيرة ذات الحمل العظيم من البضائع قد تكلف في الصنع أقل من تكاليف مركبين محمولهما مثلها، ولكن يراعى في الأولى من حيث حجومها الضخمة عمق الموانئ المستخدمة واتساع الأهوسة.

خطاب المؤلف ربه شاكراً له نعمه

قبيل صلاة الفجر يوم الخميس ١٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية، و٥ فبراير سنة ١٩٣١م

رباه في العيون جمالك، وفي القلوب حبك، وفي السماء عظمتك، أريتنا جمالاً في النجوم والشموس والأقمار، وأريتنا جمالاً في الوجوه الحسان في أرضنا، وظهرت عظمتك في الشموس الكبيرة، فشمسنا أكبر من أرضنا نحو مليون وثلث مليون مرة، ونجمة من نجوم الجوزاء بلغت في العظم

مقدار الشمس (٢٥) مليون مرة. رباه أنت جميل، وأنت عظيم، رباه حرنا بين جمالك وعظمتك، نهابك لعظمتك ونحبك لجمالك، أنت جميل، وأنت عظيم، وصفان عجيبان: وصف الجمال ووصف العظمة. بالجمال أسرت قلوب الحكماء فتاهت في حبك، وأشرقت نفوسهم إشراقاً يضاهي إشراق الشموس.

أرسلت ضوء شمسك على الأرض فأعان النبات في تغذيته، والحيوان في هدايته لسبله، وأرسلت الحرارة من لدنك فأثارت الرياح فجرت السفن.

يا رب ذاتك لا نراها لأنا مخلوقون من المادة، والمادة ما هي إلا حركات في الأثير ظهرت لنا بهذه الأشكال، فقلنا: مادة، وما هي إلا كلماتك، والكلمات غير المتكلم، وأخلاق المتكلم والمؤلف تظهر في كلامهما، والعالم كلماتك، وهو تأليفك وتصنيفك، ونحن منعنا من النظر لجمال ذاتك، ولكنك لرحمتك لم تمنعنا من مشاهدة تأليفك وتصنيفك وصنعتك، ومن هذه الصنعة التي فيها كمنت أسرار آثار جمالك وبهائك؛ أنوار الشمس المشرقات على الأرض، وقد صحبتها الحرارة المنبعثة على الأرض المثيرة للرياح الحاملات للسفن.

كلما كان الجمال أدوم كانت نتائجه أغزر وأتم، وكلما كان أقصر مدى وأسرع زوالاً كانت نتائجه أقل عدداً. هذه المشرقات في السماء دام جمالها فكانت نتائجها هذه المواليد من نبات وحيوان وسفن ماخرات في البحار، وهذه الأوانس الحسان من نوع الإنسان قصر أمد الجمال فيهن، إذ يصبحن عجائز إذا بقين في هذه الحياة، لذلك كانت نتائجهن محدودة ضئيلة بنات وبنون.

إن نسبة دوام جمال النجوم والشموس المشرقات إلى سرعة انقضاء جمال الغواني الحسان كنسبة ما أنتجت الشمس على الأرض من نبات وحيوان وإنسان إلى من تلده المرأة من البنات والبنين الضوء والحرارة أرسلتهما الشمس إلى الأرض وبينهما ارتباط واتصال، وبالحرارة جرت السفن في البحار، فسير السفن بعض آثار الشمس الدائمة الجمال بالنسبة لجمال الفتيات، فإذا كانت هذه الحرارة والضوء المنبعثان من ذات الجمال البديع التي استمدت جمالها من جمالك وهي الشمس قد كان من آثارها كل حيوان وكل نبات؛ فهكذا نجد من آثار الحرارة الرياح الجاريات المزجيات للسفن في المحيطات السهلات للحمل بحسب العادة (٧٠) مرة.

فهذه نعم دائمة ما دام الإنسان على وجه الأرض، إنه مادام الإنسان في الدنيا اليوم وغداً وأمس يرى نعماً مترادفة في سير السفن في البحار والأنهار، ويكسب راحة فوق ما اعتاده سبعين ضعفاً كما تقدم. بهذا يعرف الإنسان نعمة ربه وبالتالي يشكره عليها، وأول الشكر بعد المعرفة هو الحب، تجري السفن في البحار فتحملنا لطلب المعاش أو العلم أو الحرب، ونحن غافلون عن منبع الرحمة والجمال. نحن في الأرض نجد ونسعى براً وبحراً، جارين من آسيا إلى أفريقيا إلى أوروبا إلى الشرق إلى الغرب تحت رعايتك أنت، نحن في جوف هذه الكرات الهوائية والأرضية والمائية المغموسات في الأثير أشبه بالجنين في بطن أمه، وأنت تكلؤنا في أحشاء هذه الكرات، والفلك بنا سائرات بحراً والقطرات جاريات براً، والغواصات مخترقات بنا لججاً. والطيارات طائرات بنا في جو السماء ما

يمسكهن إلا لطفك وحنانك ورحمتك. غرست فينا عقولاً وغرائز، وأطلقتنا في هذه الأرض وأبحتها لنا، وقلت لنا: إياكم أن تخرجوا من أقطارها، إياكم أن ترتفعوا إلى كوكب آخر. الكواكب عليكم محرمة، أنتم هنا محبوسون كما يحبس الجنين في بطن أمه، هو حر له أن يروح ويغدو في بطن أمه كما يشاء، لكني حظرت عليه أن يغادره إلا إذا بلغ الكتاب أجله، فهكذا أنتم من شيب وشبان لا تفارقون هذه الأرض إلا في أجل معلوم.

ثم قلت لنا: أنا لم أعط لأحد في هذا العالم حرية غيركم، فلكل حيوان غريزته، ولكل كوكب مداره، ولكل نبات نظامه، أما أنتم فإني متعتكم بنعمة الحرية التي صحبت عقولكم، فها أنتم أولاء يا عبادي (١) أولاً اتخذتم البوص سفناً. (٢) فالكتل الخشبية. (٣) فالهيكل المحوط بالجلد. (٤) فالقارب من الخشب. (٥) ثم ألهمتكم صنع القطار في البر، فأتم لكم أعمالكم التي لم تقم بها سفن البحار لا سيما إذا صدها الشلال في وسط الأنهار.

وهكذا أخذتم تزيدون سفنكم اتساعاً، فبعد أن كانت تحمل (٥٠٠) طن في زمن الرومان ازدادت فصارت تحمل (١٥) ألف طن فضوعف المحمول (٣٠) مرة وتزيد، وذلك بما ألهمتكم أن تصنعوا السفن من الحديد والصلب وتقووها بآلات بخارية، ومن فضلي عليكم أن سفنكم البخارية على قسمين: قسم منها يجري في خطوط معلومة يحمل ركاباً وبضائع، وقسم منها جوال في البحار والمحيطات لفوائد غزيرة لا يلتزم خطاً خاصاً، وقد أعددت أماكن من شواطئ أنهاركم وبحاركم لتكون موانئ، ولا تصنع السفن إلا على مقتضى هذه الموانئ:

فأمثال موانئ «لندن» و«فربول» و«همبرغ» و«أنفرس» و«روتردام» و«فيلادلفيا» موانئ جاءت عند مصب الأنهار، فهي بوقوعها على البحر تصدر منها البضاعة إلى الممالك الأجنبية، وبوقوعها على النهر تصرف البضائع في الداخل والعكس.

وأمثال موانئ نيويورك وسان فرنسيسكو موانئ طبيعية، وهكذا موانئ بلاد النرويج، فهذه كلها اتسع داخلها وضاق مدخلها، والموانئ الطبيعية جعلتها لكم نموذجاً لتتخذوا لكم نظيرها بصناعاتكم، فكما أنكم رأيتم خشباً وورقاً يعوم فوق الماء فعرفتهم بعقولكم أن هذا الماء يحمل السفن فصنعتموها. هكذا هذه الموانئ الطبيعية التي صنعتها لكم فتحت لكم باباً للموانئ الصناعية، فصنعتم بأنفسكم ميناء الإسكندرية وميناء دوفر.

إن الثلج يعوق سفنكم أن تدخل ميناء ريغا على البلطيق المسماة «أوست دفنسك» في فصل الشتاء، وهكذا في الموانئ الواقعة على سان لورانس في كندا «كويبك دمنترال» فهاتان تغلقان من نصف ديسمبر إلى إبريل، فهذه كلها وإن صدكم عنها الثلج شهوراً فإنها موانئ مشهورة ونظامها كنظام الليل والنهار. فكما أنكم بالليل نيام وبالنهار تعملون، هكذا جعلت هذه الموانئ ذات نوبتين: نوبة للسكون، ونوبة للعمل، لأفتح لكم باب النظر والفكر، ولقد ألهمتكم أن وصلتم البحر الأبيض بالأحمر بحفر قناة السويس فزادت حركة التجارة بين الشرق والغرب، وفتحتم الطريق البحري الغربي إلى الهندي بحفر قناة «بناما» ذات القناطر الست المزدوجة التي تقطعها السفن في نحو عشر

ساعات، وتمر فيها (٤٠) مركباً في (٢٤) ساعة، وبهذه القناة سهلت تجارة بريطانيا وألمانيا وفرنسا الخ؛ مع بعض الولايات المتحدة، وكذا مع المكسيك وجواتيالا وزيلاندة وشيلي وبيرو وهكذا.

هذه يا عبادي أعمالي ورحمتي لكم الواسعة، ولكن ليس معنى هذا أن تعيشوا كعيش السمك في البحر، أو الطير في الهواء، أو الهوام في التراب، أو الأنعام فوق الأرض، هـذه كلها لا حرية عندها كحريتكم، بدليل أنها لزمت الخطط التي رسمتها أنا لها، أما أنتم فإني منحتكم الحرية وجعلت الأرض والأنهار والبحار مدارسكم فتعيشون إلى أمد ثم تموتون، وقد ظهرت حريتكم في أعمالكم البرية والبحرية المذكورة وبهرت، فكما ظهرت آثار حريتكم في الأعمال الحيوية في الحياة الدنيا فلتظهر ولتبهر فيما هو أبعد مدى وأشرف منزلة من شرف نفوسكم وإسعادها وترقيتها.

إنني خلقت في أرضكم فلاسفة وأوحيت إلى أنبياء وقلت لهما: أفهموا عبادي أن ما يفنى لا قيمة له ـ كما تقدم في مقال سقراط قريباً في آية: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾[الشورى: ١٧] ـ لا يغرنكم ما تصنعون وما تملكون، ألم تقرؤوا الآية التي هي بعد هذه الآية وهي: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾[القصص: ٦٠]، فهذه السفن الجاريات والمصانع والمتاجر والممالك لا بقاء لها، كلها زينة لكم وجمال ولكنها فانية كما يفنى جمال فتيانكم وفتياتكم.

إذن فليكن حرصكم على الجمال الدائم، والجمال الدائم ملازم للحياة الدائمة التي منها استمدت الشموس طول بقائها وأضاءت أرضكم بأنوارها، إن جمال الإنسان وكل ما أوتي من زينة الحياة الدنيا لا قيمة له بالنسبة لجمال الشموس والأقمار والكواكب ذوات الزينة الدائمة نوعاً ما. وهذه المشرقات لا نسبة بينها وبين الجمال المقدس وهو جمالي، هذه البحار، وهذه السفن، وهذه الممالك، وهذه الأرضون، وهذه الشموس المشرقات، كلهن آثار من رحمتي المصحوبة بعلمي وحبي وقدرتي وجمالي، كل ما هو جميل فهو من آثار جمالي، سيزول العالم وترونني، وهنالك تنسون هذا الجمال بما يسبي عقولكم، فاستعدوا لذلك المقام.

إن الجمال ثلاثة أقسام: قسم أدنى وهو زينة الأرض من جمال الفتيان والفتيات وكل نبات وحيوان ومعدن، وقسم أوسط وهو جمال النجوم والشموس، وجمال أعلى وهو جمال ذاتي. والأول جمال ناري حاد سريع الزوال، والثاني جمال نوري بطيء الزوال، والثالث جمال روحي إلهي لا يعتريه الزوال.

ويتبعه الشوق فهو ناري ونوري وروحي إلهي، فالأول ما اختص بالوجوه الجميلة وزينة الأرض، والثاني ما تعلق بجمال العوالم العلوية وتتبعه الفلسفة، والثالث ما تعلق بجمال مبدع الكائنات، والأدنى الخاص بالجمال الناري صاحبه بعد الموت في جهنم مؤقتاً أو مؤبداً. والأوسط في الجنة والأعلى يرى ربه.

هذا ما خطر لي في معنى آية: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾[الشورى: ٣٢] مع الآية بعدها: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الشورى: ٣٦]. كتب صباح يوم السبت ٧ فبراير سنة ١٩٣١.

اللطيفة الرابعة: مباهج العلم ومناهج الحكمة في ملخص سورة «الشورى»

اللهم إنك أريتنا العجب في مباهج آياتك المصنوعة، كما أريتنا مناهج الحكمة في آياتك المقروءة هما توءمان ورضيعا لبان، وفرسا رهان لا يفترقان. بدأت سورة الشورى بأنك:

(١) أوحيت قرآناً عربياً، وأنت عزيز حكيم.

(٢) وأنك مالك السماوات والأرض، وأنت علي عظيم. فأنت عظيم بما خلقت، علي بما أنعمت، وغالب وحكيم فيما أنزلت. وهذه العوالم خاضعات لك مدبرات بعوالمك الروحية العالية وهو الملأ الأعلى بأمرك، وأنت خلقت هذه العوالم على صراط مستقيم، ونظام محكم بتدبيرك كما قلت في آخر السورة: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الشورى: ٥٣] كما جاء في أول السورة. هذا ما في أول السورة وما في آخرها، فرجع العجز إلى الصدر.

(٣) وشرحت في وسط السورة نتائج السماوات ونتائج الأرض.

(٤) فأبنت لنا أنك لن تبسط لنا الرزق بسطاً تاماً لحكمة بالغة، ذلك أنك حكمت أن تكون حياتنا كلها مبنية على العمل والحركة المباركة كما نرى الشمس والقمر وجميع الذرات متحركات، فلو أن حركاتنا سكنت وأعمالنا وقفت بما تبسط لنا من الرزق لكان الوبال والخبال، فلذلك جعلت الغيث بعد القنوط. واليسر بعد العسر، والرفعة بعد الخفض، كل ذلك تدريب وتعليم وتربية بالحكمة والعزة والعلو والعظمة المذكورات في أول السورة.

(٥) وذكرت لنا ما لدينا من الحيوان الذي بثثته في الأرض، وما حبوتنا من الذرية ذكراناً وإناثاً ومن البحار والرياح والسفن الجاريات في البحار العظيمة. هذا مجمل ما جاء في عالم الخلق في هذه السورة.

أما مجمل ما جاء فيها من آيات الوحي فذلك أنك:

(١) أنزلت قرآناً عربياً.

(٢) وأول من يتعلمه وينذر به أهل مكة ومن حولها.

(٣) وهذا الدين ليس بدعاً بل هو كالأديان السابقة. فما نزل دين إلا للاجتماع، أما الافتراق فإنه آت من الأهواء والأغراض والشهوات وحب التملك والاستعباد والترف.

(٤) وهو صلى الله عليه وسلم مأمور أن يدعو إلى هذا الدين، ويستقيم كما أمر. وأن يعدل بين الناس، والعدل على مقدار ما يظهر له من الحجج والبينات في القضايا. فعليه أن يحكم بالظواهر، والله يتولى السرائر.

(٥) إن الله أنزل الكتب المقروء لنعمل به، ونحكم بأحكامه، ونصب ميزاناً في العوالم العلوية والسفلية، وذلك الميزان توزن به هذه العوالم كلها في الدنيا والآخرة، وبه توزن أيضاً أعمال العباد. فما لم تقم الحجج الظاهرة والبينات أمام القضاء فهناك يكون فصل القضاء فيه يوم القيامة، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[الشورى: ١٧].

(٦) والله كما اتصف بصفة العدل اتصف بصفة اللطف. فليس لطفه بمطمع الظالم في الخروج عن العدل فيجعل كالصالح، بل الظالمون مشفقون مما كسبوا، والآخرون في روضات الجنات. فاللطف إذن لا ينافي العدل.

هذه خلاصة مما جاء في هذه السورة من آيات السماوات والأرض وما بينهما وآيات الوحي. فلأجعل الكلام في بسط هذا المقام على قسمين:

القسم الأول: في نظام السماوات وضوء الشمس وآثاره في النبات والإنسان. واتصال عوالم السماوات بهذا الإنسان، بحيث تدرك أيها الذكي أن هذه العوالم كلها كأنها حيوان واحد أو نبات واحد كما تقدم مفصلاً في مواضع من هذا التفسير.

القسم الثاني: في هذا القرآن المنزل بالحكمة. ولماذا أمر صلى الله عليه وسلم أن ينذر أم القرى ومن حولها، ولماذا ذكرت أم القرى في هذا المقام، مع أن أهل مكة كانوا أشد الناس إنكاراً للوحي وللقرآن. وما الحكمة التي تظهر في هذا الزمان؟ وهناك نذكر تعداد المسلمين الذين حول أم القرى من الأمم والأجناس، ثم نبين الأجر الذي حصر النبي صلى الله عليه وسلم سؤاله فيه، وأي أجر له؟ وأي أجر للمصلين بعده؟ أهو أجر يجر لهم مغنماً دنيوياً أم أمراً أدبياً دائماً تقرّ به نفوسهم ويفرحون به عند ربهم في دنياهم وآخرتهم؟ وبيان قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص: ٨٦] وقوله أيضاً: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[الفرقان: ٥٧] وموازنة هذه المعاني بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[الشورى: ٢٣] في هذه السورة، فلأبدأ بالقسم الأول وشرحه فأقول:

الكلام على السماوات وعجائبها

اللهم إنا نحمدك حمداً جزيلاً، ونشكرك شكراً كثيراً على نعمة العلم وبهجة الحكمة. أريتنا يا ربنا جمالاً تراه عيوننا وحكمة تبصرها نفوسنا في سماواتك وذلك له علاقة بأجسامنا وعقولنا، وزنت حركات الأفلاك، وأنعمت ببيانها في هذا التفسير في مواضع كثيرة، فلك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة.

أرسلت الأضواء لأرضنا بالحكمة وقدرتها بالميزان. فهاهو ذا عطارد يدور حول الشمس في ٨٨ يوماً إلا قليلاً. والزهراء تدور في ٢٢٥ يوماً إلا قليلاً. والأرض في ٣٥٦ يوماً و٢٥٦ من الألف من اليوم. والمريخ في ٦٨٧ يوماً إلا قليلاً. والمشتري في ٤٣٣٢ يوماً ونصف يوم تقريباً. وزحل في ١٠٧٥٩ يوماً وخمس يوم تقريباً. وأورانوس في ٣٠٦٨٧ إلا قليلاً. ونبتون في ٦٠١٢٧ يوماً إلا قليلاً.

هذه هي السيارات المعروفة أبعادها ومنها أرضنا، أنت يا الله نظمتها وفصلت حركتها، وجعلت بين الأرض والقمر والشمس علاقات أخرى غير الحركات المذكورة وتلك هي حوادث المد والجزر، فإن البحر يرتفع وينخفض كل يوم مرتين بل كل ٢٤ ساعة و٥٠ دقيقة عن تسوية متوسطة، فحينما يرتفع البحر يزحف على الشاطئ ويدفع بالثاني مياه الأنهر فترتفع حينئذ في مجاريها وهذا هو المد. ومدة الارتفاع ست ساعات ومتى أخذ البحر نهايته العظمى من الارتفاع يستمر سبع أو ثمان دقائق ثم

يبتدئ في الانخفاض زاحفاً عن الشواطئ التي كان علاها شيئاً فشيئاً وهذا هو الجزر، وبعد الجزر يحصل مد جديد وهكذا.

والمسافة بين المدين ١٢ ساعة و٢٥ دقيقة، ومدة المد تزيد عن مدة الجزر لأن البحر يستعمل زمناً في الصعود أكثر من النزول، والفرق ليس واحداً بالنسبة لجميع الموانئ فمقداره في هافر وبولوني ساعتان و٢٨ دقيقة وفي ميناء بردست ١٧ دقيقة فقط.

تغير أوقات المد والجزر: التأخير اليومي لحادثة المد والجزر هو ٥٠ دقيقة، وهذا المقدار هو مقدار تأخير مرور القمر بمستوى الزوال كل يوم، وحيث إن تأخير ٥٠ دقيقة كل يوم يحدث تأخيراً قدره ٢٤ ساعة بعد ٢٩ يوماً وثلث أعني بعد شهر قمري؛ فيجب حينئذ أن تنقلب أوقات المد والجزر كل نصف شهر قمري من صباح إلى مساء وبالعكس، وبعد شهر قمري كامل يعود المد والجزر إلى الأوقات الأولى بعينها، وحينئذ فهناك ارتباط بين الأوقات التي يحصل فيها المد والجزر وبين أوقات مرور القمر بمستوى الزوال.

تغير الارتفاع: كلما كان ارتفاع المياه في المد كبيراً كان انخفاضها كثيراً في الجزر التالي له، وبأخذ المتوسط بين جزر ومد متتاليين يتحصل على نتيجة ثابتة تقريباً، ولهذه التسوية تنسب الارتفاعات في عمليات الميزانيات، ويسمى مداً كلياً متوسط مدين أحدهما يلي جزراً والآخر يسبقه، والمد الكلي في الوقت الواحد متغير على حسب الموانئ بسبب اختلاف شكل الشواطئ، وفي الميناء الواحدة يتغير على حسب أوجه أشكال القمر، وعلى حسب أبعاد الأرض عن القمر والشمس، وعلى حسب ميل هذين الكوكبين، ففي وقت الاجتماع والاستقبال يصل المد نهايته العظمى والجزر نهايته الصغرى، وأما في وقت التربيعين فيأخذ المد نهايته الصغرى، وليعلم أن أعظم مد لا يحصل في نفس لحظة الاجتماع أو الاستقبال بل بعدها بقدر ٣٦ ساعة، فالمد الثالث الذي يلي الاجتماع والاستقبال هو الذي يكون أكبر مد، وكذلك المد الثالث الذي يلي التربيع الأول الأخير يكون هو أصغر مد، وهذا التأخير ينسب لاحتكاك العناصر السائلة بعضها على بعض وعلى قاع البحر. وينشأ عن هذا الاحتكاك بطء في حركتها، وفي «برست» يصل المد الكلي للاجتماع والاستقبال في المتوسط ارتفاعاً قدره ٦,٢٥ متر، والمد الكلي للتربيعين هو ٣,١٠ متر فقط.

وبعد الأرض عن القمر يحدث تأثيراً على مقدار المد الكلي الذي يزداد باقتراب القمر من الأرض ويتناقص بتباعده عنها، وفي ميناء «برست» تغير البعد المذكور يحدث تغيراً مقداره ١,٧٧ في ارتفاع المد الكلي، وكذلك تغير بعد الشمس عن الأرض يؤثر على مقدار المد الكلي، غير أن ذلك التأثير قليل بالنسبة لتأثير القمر. وكذا ارتفاع المد والجزر يتغير على حسب ميل الشمس والقمر، فحينما يكون القمر قريباً من دائرة المعدل في وقت الاعتدالين يكون المد المقابل للاجتماع والاستقبال هو أكبر مد، وينتج من جميع ما تقدم أن هناك ارتباطاً أصلياً بين حادثة المد والجزر وحركات القمر والشمس. وسنبين أن المد والجزر هما نتيجة تأثير جاذبية القمر والشمس على الأرض، أعني نتيجة من قاعدة الجذب العام. اهـ.

فهذا إجمال الكلام على علاقة الأرض بالشمس من حيث حركاتها حولها مع السيارات الأخرى ومعها ومع القمر باعتبار المد والجزر ، وهذا معناه أن هذا العالم أشبه بالجسم الواحد . انظر المجموعة الشمسية مرسومة في سورة « الأنعام » وفي سورة « سبأ » وآثار الأضواء في الأرض .

إن الأضواء تصل إلى الأرض منتظمة ، فكان الصيف والخريف والشتاء والربيع فماذا رأينا؟ رأينا النباتات موزعات على أيام السنة . وبعبارة أخرى : إن هذه النباتات قد تبعت في زرعها وترتيب أوقاته نظام حركات الأرض حول الشمس . سبحانك اللهم وبحمدك . أنت الحكيم ، أنت العلي ، أنت العظيم ، أنت العزيز . فبالعزة قهرت الأرض فدارت ، وبالحكمة قدرت حركاتها ، وأنت لا تلابس المادة التي غرقنا فيها بل نحن فيها محبوسون . يا ربنا ، وأنت منزه عنها ، فأنت علي وأنت عظيم ، فلك العلو على هذا النظام ، ولك العظمة . اللهم إنا رضينا أن نكون مغمورين في هذه المادة تحت عظمتك وعلوك والأرض تجري بنا حول الشمس بنظام محدود وأوقات لا تتغير ولا تتبدل . وإنّما رضينا بهذا لأنا نعلم رحمتك الواسعة التي غمرتنا بها ، فنحن لما شاهدنا رضينا بكل ما تحكم به فينا في هذه الدنيا وفي الآخرة . فإذن نتوكل عليك . وليس يصح التوكل ولا يتم إلا بأن نسير على نهجك ونكون صالحين مصلحين لعبادك جارين على صراطك الذي نصبته في سماواتك وفي أرضك .

ومن هذا الصراط وهذا الميزان أوقات الزراعة . فلكل فصل من فصول السنة بل لكل شهر شمسي أنواع من الزرع تنبت فيه . اقرأ هذا المقام مفصلاً في أول سورة « الزمر » وهاك بعضه هنا وبقيته هناك .

شهر هاتور : فيه يزرع القمح ويطلع البنفسج والمنثور . وأكثر البقول . ويجمع ما بقي من الباذنجان وما يجري مجراه . ويحمل العنب من قوص . وفي ثانيه يبتدئ حصاد الأرز . وفي خامسه أول تشرين الثاني من شهور السريان . وفيه يبتدئ برد المياه . وفي سادسه أول المطر الوسمي ، وفي سابعه يبتدئ أهل الشام الزرع . وفي ثامنه يبتدئ هبوب الرياح الجنوبية . وفي تاسعه يبتدئ زرع الخشخاش . وفي حادي عشره يبتدئ اختفاء الهوام . وفي ثالث عشره يبتدئ غليان البحر ، وفي رابع عشره تعمى الحيات ، وفي سادس عشره يجمع الزعفران ، وفي ثامن عشره تكثر الوحوش . وفي الثاني والعشرين منه يغلق البحر الملح وتمتنع السفن من السفر فيه لشدة الرياح . وفي الثالث والعشرين منه تبتدئ سخونة بطن الأرض . وفي الرابع والعشرين منه أول اسفيدار ماه من شهور الفرس .

شهر كيهك : فيه تدرك الباقلاء وتزرع الحلبة وأكثر الحبوب ، ويدرك النرجس والبنفسج ، وتتلاحق المحمضات . وفي أوله ابتداء أربعينيات مصر . وفي ثالثه يبتدئ موت الذباب . وفي خامسه أول كانون الأول من شهور السريان . وفي سابعه آخر الليالي البلق وأول الليالي السود . وفي حادي عشره يبتدئ الشجر في رمي أوراقه . وفي ثاني عشره تظهر البراغيث . وفي سابع عشره أول فصل الشتاء ، وهو أول أربعينيات الشام . وفي ثامن عشره يتنفس النهار . وفي الحادي والعشرين منه يكثر الطير الغريب بمصر . وفي الثالث والعشرين منه أول مردوماه من شهور الفرس ، وهو نوروزهم وأول سنتهم . وفي الخامس والعشرين منه يهيج البلغم . وفي السادس والعشرين منه تلقح الإبل . وفي السابع والعشرين منه يكثر شرب الماء في الليل . وفي الثلاثين منه يبتدئ تقليم الكروم .

يا سبحان الله. هذا هو ميزانك الذي شاهدناه في هذه الدنيا أو هذا صراطك المستقيم. رأيناه في الحياة قبل أن نموت. فأنت لم تذر حركة ولا ذرة إلا وزنتها. فأما الحركة ففي علم الفلك. وأما الذرة ففي علم الكيمياء.

لك الحمد اللهم على نعمة العلم. علمتنا يا رب أنك ذو نظام جميل ففهمناه، وعلمتنا أنك لم تقف في الوزن عند العوالم العظيمة كالكواكب السيارة. كلا. بل نراك راعيت هذا الميزان في خلق النبات وأريتنا جذوره مفصلات تفصيلاً بديعاً، بحيث كانت ملائمة كل الملائمة لما خلقت له بحيث تجتذب الجذور من الأرض بأنابيبها الشعرية ما يواتي الثمرات التي خلق ذلك النبات لها والحبوب والخضر وهكذا. فنراك كما قدرت حركات السيارات ولم يكن فيها خطأ هكذا قدرت ووزنت تلك الأنابيب الشعرية والفتحات التي تعسر مشاهدتها، فكانت مناسبات لنتائج النبات من حب وفاكهة وزيت ونشاء وهكذا. وهذه الفتحات لا تجذب من الأرض إلا الملائم لها. ولو أن نباتاً اتسعت فتحاته أو ضاقت عما يلائم ما تجتذبه لم يخرج لنا تمر ولا بر ولا خروع، بل هناك يختلط الحابل بالنابل ويموت الإنسان والحيوان.

اللهم أنت اللطيف بنا ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾[الشورى: ١٩]، فأي لطف أعجب من هذا؟ عجب يا رب دقة الحركات في الشمس، ودقة فتحات الجذور أمران عجيبان. هذه أعظم رحمة لك. ولكننا لا نفطن لها ولا نفكر فيها، ذلك لأن شهواتنا الصغيرة حبست عقولنا فلم تنتبه إلى النظر في دقة هذا الصنع، لأن شهواتنا استحوذت على عقولنا فمنعتها من التغلغل في هذا الجمال.

هذا ولم يقف الأمر عند دقة الحركات ونظام أوقات الزرع على مقتضاها ولا عند نظام الفتحات بل الأمر فوق ذلك. فقد رأيناك أبدعت في خلق الورقات بأن جعلت لكل ورقة حجراً داخلة فيها، ولكل حجرة سقف وحيطان، ووضعت في كل حجرة سائلاً وهذا السائل فيه مادة ذات لون، وهذه المادة باتحادها مع ضوء الشمس ـ الواصل من بعد عظيم يبلغ بسرعة القطار ٣٥٠ سنة، وبسرعة قلة المدفع ١٢ سنة، وبسرعة الضوء ٨ دقائق و١٨ ثانية ـ تكون سبباً في أن النبات يتغذى من الهواء بمادة الكربون «الفحم»، وهذه المادة الكربونية تدخل النبات فتكون منه أنواع الخشب، والتبن، ونحوهما. أليس من العجب أننا نراك تحسب حركات الأرض التي لو اختلت لاختل نظام زرعنا.

يا رب ما أجهلنا أهل الأرض ما أضعت عقولنا يا رباه. أنت ربيتنا بانتظام حركات أرضنا، وبانتظام الزرع، على مقتضى تلك الحركات وبالفتحات الموافقات في الجذور وبالحجرات المقدرات في الأوراق. تلك الحجرات التي قد تبلغ في البوصة ١٢ حجرة و٢٤ وفوق ذلك إلى آلاف وآلاف. هذا في البوصة فما بالنا بالورقة الواحدة، وما بالنا بالورق، وما بالنا بالشجرة كلها، وما بالنا بالحقل كله.

بهذه يا ربنا عشنا في الدنيا، هذه هي الحياة المنظمة ونحن جميعاً في الأرض عالمنا وجاهلنا لا نفكر فيها، وهذه الأوراق مغذيات للنبات. انظر هذا المقام في سورة «يس» وانظر شرحه وصور الورق المذكور. إذن لو أن هذه الورقات لم تكن فيها الفتحات منظمة لم يكن نبات، ثم لم يكن حيوان

ولا إنسان، لأن هذه الفتحات التي تعد بالآلاف المؤلفة عليها قوام حياة النبات وحياة الإنسان، أليس هذا هو قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢]، أليس هذا الذي نذكره في هذا التفسير هو من التفصيل الذي وعد الله به، وإذا فصلت الآيات في نفس الخلق ولكنها لم تفصل في عقولنا فمن أين يأتي اليقين لنا؟ هذا هو اليقين، وهذه هي السعادة، أي السعادة التي أحس بها أنا الآن ويحس بها جميع المغرمين بهذا التفسير وما فيه من عجائب الصنع المفصلات المورثات اليقين.

ثم إننا لم نجد الأمر وقف عند هذا الحد. فإن بين كل ورقة وأخرى حساباً هندسياً ونظاماً متقناً. فترى الأشجار والأوراق عليها متقابلات مثنى وثلاث ورباع وخماس وهكذا. وهذه الورقات قد رسمت شكلاً هندسياً من حيث وضعها. انظر هذه الأشكال في سورة «الحجر» وتعجب مما تقرؤه هناك من ورقتين على الغصن بينها ١٨٠ درجة من الدائرة على الغصن وثلاث ورقات وخمس ورقات قد رسمن شكلين حلزونيين وهذان الشكلان يتممان دائرة منتظمة بديعة عجيبة، وتكون الدوائر التامة متتابعات والأوراق الخمس منظمات، قد اقتسمن تلك الدائرة اقتساما صادقاً بحيث ترى كل ورقة وأختها ٧٢ درجة من الدائرة البالغة ٣٦٠ درجة من ضرب ٥ في ٧٢، وتجد كل ورقة من الخمس موازية لنظيرتها في الدائرة الأخرى، جلّ الله وجلّ العلم وجلت الحكمة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن الدوائر المنظمة في نبات بينهما وبين الدوائر الأخرى في نبات آخر مناسبات عجيبات، حتى إننا بالبحث نجد أن جميع أوراق النبات بينها علاقات حسابية وهندسية كالعلاقات الحسابية والهندسية في نظام النجوم الثوابت والسيارات والأرض.

وهذا النظام كله نتائجه هو ما يأكله الحيوان والإنسان مما ذكرناه قريباً في السورة السابقة. فإنك تجد هناك الجدول المبين لأنواع النشاء والمادة الآزوتية والمادة الدهنية. وهذه الأنواع الثلاثة لم تتم إلا بنظام الأوراق والجذور والأضواء والأيام التابعات حركات الأرض حول الشمس، وينتهي الأمر بالجهاز الهضمي الذي شاهدت صوره في سورة «فاطر» وفي سورة «فصلت» قبل هذه السورة، فهناك تجد الحساب مفصلاً والنظام متصلاً، وأن القوى والعصارات المختلفات الموضوعات في جهازنا الهضمي موزعات على تلك الأنواع الثلاثة الناجمات من نظام النبات المنتظم الأوراق، الجاري على سنن الأضواء في وصولها إلى الأرض. أليس هذا معناه أن هذه العوالم كلها أشبه بجسم واحد. وبعبارة أخرى: أليس هذا معنى أننا على هذه الأرض ملزومون أن ندرس الكواكب والأرضين والأضواء وحسابها والنبات وحسابه وشرح أجسامنا وتشريحها ثم نفوسنا.

خطابي للمسلمين

يا معاشر المسلمين، الحق أحق أن يتبع. نحن نعيش في الأرض عالة على الأمم في هذه القرون المتأخرة. يا معاشر المسلمين أكتب كتابي هذا، وقريباً أفارق هذه الأرض. وأصعد إلى الله وأبرأ من الكتمان وأقول: يا رب، قد اجتهدت أن أبلغ المسلمين ما عرفته من صنعك وما فهمته من كتابك، وما علي إلا أن أبين، وفوق ذلك أقول: إنكم ستبلغون شأواً عظيماً في سعادة الحياة وسعادة الممات، إنكم

ستدرسون كل ما ترونه في السماوات والأرض، وهناك تفهمون لماذا يكرر ذكر العوالم العلوية والسفلية في كثير من آي القرآن. وبهذا تم الكلام على القسم الأول في نظام السماوات والأرض.

القسم الثاني: هذا القرآن المنزل

ولماذا أمر صلى الله عليه وسلم أن ينذر أم القرى ومن حولها

ولماذا ذكرت أم القرى في هذا المقام

لنجعل هذا القسم في فصلين: الفصل الأول: في أن القرآن عربي. الفصل الثاني: في ذكر أم القرى ومن حولها.

الفصل الأول: في أن القرآن عربي

فأقول: قد تقدم الكلام عليه في سورة «فصلت» وهي السورة السابقة. وسيأتي للكلام بقية في سورة «الزخرف».

الفصل الثاني: في تبيان تخصيص أم القرى ومن حولها

اعلم أيها الذكي أن الله عز وجل قبيل نزول القرآن قد كان نظم أمتين وهما فارس والروم، وهاتان الدولتان قد اقتسمتا الأقطار المحيطة بجزيرة العرب قبيل النبوة. فكان للروم البلاد الجنوبية، قد ملكوها نحو ٦٠٠ سنة، وللفرس البلاد الشمالية، كان لهم عليها بعض السلطان نحو نيف وثلاثمائة سنة، ولم يبق إلا مكة والبلاد المجاورة لها بنجوة من نفوذ هاتين الأمتين.

وأنت عليم أيها الذكي بما كان لهذه الأمة العربية بسبب القرآن من السطوة والنفوذ، وكيف أزالت ملك هاتين الدولتين. ثم كيف بقيت قروناً، ثم كيف تولاها الخور والضعف حتى أصبحت أمم أوروبا على أبواب مكة، والمسلمون في مكة وحول مكة الآن بعد ١٣٤٩ سنة قد بلغ تعدادهم ما بينته في كتابي المسمى «القرآن والعلوم العصرية».

وقبل أن أذكر ما كتبته في ذلك الكتاب وما خاطبت المسلمين به أذكرك أيها الذكي بما تقدم في أول سورة «العنكبوت» من الرسائل التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وأمراء العجم. وبعد أن تقرأ ذلك أكمل القول بحادثتين تاريخيتين لم يذكرا هناك: الحادثة الأولى: هي التي وردت في «أيلة» أيام النبوة. الحادثة الثانية: هي التي جاء ذكرها في قبائل البجة الذين كانوا يسكنون مصر، وإنّما نذكر هاتين الحادثتين هنا لأنا في مقام إنذار أم القرى ومن حولها بالقرآن العربي، وهذا الإنذار تبعه رقي أم القرى وما حولها حتى تعدى العرب حدود آسيا وأفريقيا واحتلوا ربوع أوروبا، ولما بلغوا العلم لتلك الأمم ورفعوا شأن الإنسانية رجعوا ثانياً إلى ما يشبه حالهم الأولى. فإذا ذكرنا الحادثتين فإنّما نريد بهما كيف كانوا يعاهدون الأمم، وكيف يحافظون على النفوس والأرواح، وهم إنّما خلقوا في جزيرة قاحلة لا علم فيها ولا حضارة ولا مدنية، وأن هذه السيرة سترجع لهذه الأمم كما ابتدأت.

الحادثة الأولى: هي حادثة العقبة

إن الإنسان يصعد إليها بمنحدر من مسافة طويلة من الغرب حتى يصل إلى قمتها، فإذا أردت أن تنزل إلى الجهة الشرقية صرت نازلاً صاعداً وصاعداً نازلاً في أرض حجرية تارة، وأخرى رملية ناعمة

وأخرى خشنة أو زلطية إلى أن تمر في مضيق لا يسع إلا جملاً جملاً، ويسمى قطع لاظ، وطريق هذا القطع حلزوني تقريباً أصلحه ابن طولون، ثم محمد بن قلاوون، ثم عباس باشا الأول، ومع ذلك فإن المسافر فيه لا بد أن ينزل عن دابته ويسير على قدميه حتى يقطع العقبة في ست ساعات نزولاً وضعفها صعوداً، ومن دون هذه العقبة قرية العقبة ويسمونها « أيلة » وهي بلدة قديمة جداً، وكانت عامرة من زمن مديد، وكانت في مدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ميناء كبيرة للمراكب التي كانت تفد إلى الشام من اليمن والهند وفارس، وانقطع بها طريق البر من اليمن إلى بطرة ولما مات سليمان رجعت الطريق الأولى إلى ما كانت عليه في نقل التجارة براً، وكان فيها أسواق كبيرة، بل كانت مركزاً للتجارة بين مصر وبلاد العرب وفارس والعراق. ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة أتاه ابن رؤبة صاحبها وصالحه وأعطاه الجزية، فكتب له عليه الصلاة والسلام عهداً هذه صورته: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسوله لتحية ابن رؤبة وأهل أيلة أساقفتهم وسائرهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقاً يريدون من بر أو بحر. هذا كتاب جهنم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي سنة ٥٧٦ هـ كان الإفرنج قد استولوا عليها في الحروب الصليبية، فصار إليها من مصر صلاح الدين الأيوبي، وأخذ معه مراكب مفصلة على الجمال، حتى إذا وافى مياهها أصلح مراكبه وأنزلها في البحر، وحاصر المدينة براً وبحراً، وحتى أخذها عنوة وطرد الإفرنج منها، وهي الآن قرية صغيرة في أيدي عرب الحويطات، وفيها قلعة بناها السلطان مراد الرابع فيها بعض الجنود لحراستها، وعدد سكانها لا يزيد عن مائة نفس، وفي هذه القرية نخيل وأشجار، وماؤها حلو؛ ويزرع في أرضها الخضراوات، وبين العقبة ومعان نحو مائتي كيلو متر شرقاً، والطريق فيها صعبة، وتخترق جبال السراة التي يكسوها الجليد طول الشتاء؛ وبينها وبين بيت المقدس شمالاً بغرب نحو (٣٠٠) كيلو متر في صحراء قليلة المياه طريقها وعر، وبينها وبين السويس نحو (٣٠٠) كيلو متر. وبهذا تم الكلام على الحادثة الأولى.

الحادثة الثانية: في قبائل البجة

جاء في كتاب « الرحلة الحجازية » لمؤلفة الأستاذ محمد بك لبيب البتنوني تحت العنوان التالي ما نصه:

الطريق القديم والحديث من مصر إلى الحرمين

كانت مصر ولا تزال طريق المسلمين إلى حج بيت الله الحرام، وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام في نصف الكرة الأرضية، باعتبار أن مكة المكرمة هي قلب العالم أو النقطة المركزية التي تنبعث منها أنصاف أقطار إلى محيط جميع دائرة الأقطار، فالأندلسي الذي كان يسكن في غرب أوروبا، والمغربي الذي في غرب أفريقيا وما دونه من مسلمي البربر فالسنغال وبلاد التكرور والسودان الغربي والشرقي كانوا إذا قصدوا الحج إلى بيت الله الحرام سافروا من بلادهم إلى مصر بحراً أو براً، وكذلك كان

يقصدها كثير من أهالي الشام والترك والقوقاز وجزائر البحر الأبيض المتوسط ، ويجتمع الكل بالقاهرة قبل شهر رمضان ، ثم يسيرون منها إلى قوص براً أو النيل ٦٤٠ كيلو متراً في نحو عشرين يوماً ، ثم تسافر قوافلهم منها في صحراء عيذاب مدة ١٥ يوماً يقطعون فيها نحو ١٢٠ كيلو متراً إلى القصير على البحر الأحمر ، وكانت من قديم ميناء مصر الشرقية ، أي أنها كانت من مصر بالأمس مكان ميناء السويس الآن ، وكانت هذه القرية في أيدي عرب البجاة الذين كانوا يتولون نقل الحجاج على إبلهم في صحراء عيذاب .

وقبائل البجاة أو البجة يقال إنهم من البربر ، وكانوا يسكنون في صحراء مصر الشرقية من سواكن إلى قرية يقال لها الحزية في صحراء قوص ، وهذه الصحراء عامرة بمعادن الزمرد والذهب والفضة والحديد وفيها مغائر وآبار قديمة لاستخراجها . وهي طبعاً من عهد قدماء المصريين ، وبعضها من عمل المغفور له محمد علي باشا والي مصر ، وكانت العرب تستخرج منها المعادن ، وخصوصاً التبر في القرن الأول والثاني للهجرة ، وذلك باتفاق مع ملك البجة الذي كان مقره أسوان ، وكان ينال المسلمين منه ومن قومه أذى كبير ، فأرسل المأمون إليه عبد الله بن الجهم فكانت له معهم وقائع ، ثم وادعهم وكتب بينه وبين كنون رئيسهم كتاباً نذكر لك طرفاً منه لتعرف مقدار التسامح الإسلامي مع أهل الذمة ، وكيف أنه كان لا يفرق بينهم وبين المسلمين في المعاملة : هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الأمير أبي إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله ، في شهر ربيع الأول سنة ستة عشرة ومائتين لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان .

إنك سألتني وطلبت إلي أن أؤمنك وأهل بلدك من البجة وأعقد لك ولهم أماناً علي وعلى جميع المسلمين ، فأجبتك إلى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أماناً ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا ، وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكاً للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى ، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين إلا أن تكون في بلدك ملكاً على ما أنت عليه في البجة وعلى أن تؤدي إليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة ، وذلك مائة من الإبل أوثلاثمائة دينار وازنه داخلة في بيت المال ، والخيار في ذلك لأمير المؤمنين ولولاته ، وليس لك أن تخرم شيئاً عليك من الخراج ، وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكر به ، أو قتل أحداً من المسلمين حراً أو عبداً ، فقد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله ، وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم ، وعلى أن أحداً منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال أو دل على عورة من عورات المسلمين أو أثر لغيرتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه ، وعلى أن أحداً منكم إن قتل أحداً من المسلمين عمداً أو سهواً أو خطأ حراً أو عبداً أو أحداً من أهل ذمة المسلمين ، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم ببلد البجة أو ببلاد الإسلام ، أو ببلاد النوبة أو في شيء من البلدان ، براً أو بحراً ، فعليه في قتل المسلم عشر ديات ، وفي قتل العبد المسلم عشر قيم ، وفي قتل الذمي عشر ديات من

دياتهم، وفي كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه، وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجراً أو مقيماً أو مجتازاً أو حاجاً فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم، ولا تؤووا أحداً من آبقي المسلمين، فإن أتاكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين، وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك، وعلى أنكم إن نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهرون سلاحاً، ولا تدخلون المدائن والقرى بحال، ولا تمنعوا أحداً من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها براً ولا بحراً، ولا تخيفوا السبيل، ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة، ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمي مالاً، وعلى أن لا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولاً وعرضاً، فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة الخ. وباقي الكتاب لا يخرج عن هذا المعنى. وبهذا تم الكلام على الحادثة الثانية.

تعداد المسلمين في بلاد الإسلام

أذكر في هذا المقام ما جاء في كتابي «القرآن والعلوم العصرية» من تعداد المسلمين في بلاد الإسلام والخطاب الذي وجهته لهم، فقد جاء في صحيفة ١٥ وما بعدها تحت العنوان التالي ما نصه:

المسلمون كثير عددهم

أيها المسلمون: ما أكثر عددكم على وجه الأرض

إن منكم في بلاد الهند الصيني والصين: .... ٧٠ مليوناً

وفي الهند وما جاورها: .... ٧٥ مليوناً

وفي ماليزيا والأقيانوسية: .... ٥٠ مليوناً

وفي ولاية الحجاز واليمن بأقسامها المستقلة وغير المستقلة وعسير وعدن والنواحي التسع وعمان ومسقط والبحرين وحضرموت ونجد والكويت والربع الخالي وعنزة وشمر الخ: .... ١١ مليون

وفي سوريا وفلسطين والعراق العربي والعراق العجمي: .... ٦,٥ مليون

وفي مصر والسودان المصري: .... ١٨ مليوناً

وفي طرابلس وتونس والجزائر ومراكش: .... ١٨ مليوناً

وفي الصحراء الكبرى والسودان الفرنسي: .... ٢٠ مليوناً

وفي السنغال وما يتصل به والسودان الأوسط ووادي باكومي وما حواليها: .... ٥ ملايين

وفي جمهورية ليبريا: .... ٠,٥ مليون

الجميع: .... ٢٧٤ مليوناً

وفي السودان الإنجليزي والنيجر وما حولهما: .... ٨ مليون

وفي مستعمرات الكمرون الألمانية والكونغو والكاب وموزنبيق ومدغشقر وشرق أفريقية الألماني وزنجبار وشرق أفريقية الإنجليزي وأوغندة والحبشة وأرتريا وما يتصل بها: .... ١٠,٥ مليون

والأتراك في روملِّلي وجهات الأناضول والبلقان والولايات العثمانية التي معظمها
من غير المسلمين: .... ١٥ مليوناً
وفي ولاية روسيا الأوروبية، ومنها التتر الذين هم أهم قسم من الأتراك وفي قفقاسية
وآسيا الوسطى وفرغانة وسيبريا وخيوة وبخارى: .... ٣٥ مليون
والترك في الشمال والشمال الغربي من بلاد الصين: .... ٢٥ مليون
وفي بلاد أفغانستان وفي بلاد إيران والعجم: .... ١٠ ملايين
فيكون جميع المسلمين في أقطار الأرض: .... ٣٧٧,٥ مليوناً

والمتأمل في هذا يجد عشرين مليوناً مكررة. وإذن نقول: إن المسلمين ٣٥٠ مليوناً تقريباً، فسألتكم بالله أيها المسلمون كيف يغلب هذا العدد الكبير والجم الغفير، وكيف يصادرون في حريتهم ويذلون في عقر دارهم ويسامون سوء العذاب. كل ذلك من الجهل والتفرق وعدم الاتحاد، وقد آن أوان أن أشرح طرق الاتحاد عسى أن يكون فيه ذكرى لإخواني المسلمين.

طرق الاتحاد

كيف يتحد المسلمون

أيها المسلمون هذا المجموع الكبير العظيم الممتد من بكين في الصين إلى رأس الرجاء الصالح، ومن طنجة إلى المحيط الهندي. هذا المجموع جسم له رأس وأعضاء، وقد ذكرنا الحديث الشريف إذ جعل المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، هذا بعينه ما يحصل الآن في أطراف المعمورة، فإن المسلم الإفريقي يتألم لما يصيب أخاه الصيني ويسره ما يسره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. ولا جرم أن الأخ الأرشد واجب عليه وقاية الأصغر، والمحافظة عليه وتربيته وترقيته، فعلى العقلاء والعلماء والأمراء والأغنياء من العرب والفرس والترك والهنود والصينيين أن يكونوا جماعة تتخذ لها مركزاً خاصاً ولعلها الآن موجودة.

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شبه الأمة كلها بالجسم، فلننهج منهجه عليه الصلاة والسلام، ولننسج على منواله مبينين بالعقل صحة ما تواخينا والطريق التي ارتضينا، فنقول:

إن في الجسم رأساً هو مركز الحواس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس، ومنه تصدر جميع الأعصاب الحساسة، وإليه ترد بما نقلت من أخبار السمع والبصر الخ، فالرأس هو القائم بأعمال الجسم المنظم لحركاته، فلو تخلى الرأس عن الجسم لأصبح جثة هامدة لا تغني ولا تسمن.

هكذا العلماء في هذه الأمة والأغنياء والأمراء والعقلاء المفكرون المستبصرون، هم المسؤولون في الدنيا والآخرة، وهم وحدهم الذين يقفون بين يدي الله تعالى يسألهم عز وجل عن إهمالهم أمر هذه الأمة ويسأل الله عز وجل المفكر والعالم والأمير والغني ويقول لهم أنتم رأس هذه الأمة وقوتها فماذا فعلتم؟ تركتم هذا المجموع يئن تحت نير العبودية والذلة، وهذه الطوائف الإسلامية من أقصى الأرض إلى أقصاها جعلتها أمانة عندكم فكيف تشاغلتم عنها حتى أصبحوا أذلاء وأنتم شاركتموهم في ذلهم وقاسمتموهم ضعفهم وانكسارهم.

ألم أنزل عليكم في كتابي: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ٢٨٦] . فهاأنا ذا لا أكلف الزارع المسكين ولا الجمال ولا البدال هذا الأمر، أولئكم عيالكم وإخوتكم الصغار، وإنّما أكلف أرباب العقل ورجال الحكمة وأهل المال أولئك هم المسؤولون، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[الصافات: ٢٤] .

ألم أنزل في كتابي على نبيكم: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[المائدة: ٦٣] ومعنى هذا أن الله يوبخ علماء أهل الكتاب من الأحبار والرهبان على عدم نهيهم الأمة عن قولها الكذب الذي يأثم به الإنسان وعن أكلها السحت أي الحرام ثم بالغ في ذمهم فقال: ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[المائدة: ٦٣] مبتدئاً بلام القسم، وهذا مبالغة في التوبيخ. أفلا تعلمون أني قصصت عليكم ذلك لتعتبروا وتتذكروا أيها المسلمون، ألم يقل لكم نبيي محمد صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما ابن آدم من عند ربه يوم القيامة حتى يسأل عن خمس: عن شبابه فيم أفناه وعن عمره فيم أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم».

ألم يكن في هذا الحديث دلالة على أن العالم والغني شريكان في المسؤولية كلاهما مسؤول، العالم مسؤول والغني مسؤول، وفي حديث البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير، ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس». والمراد بالحسد الغبطة وهي تمني مثل ما عند الغير، فإلى الأغنياء وإلى العلماء والمستبصرين من الأمة أوجه قولي، فلقد اتضح أنهم المسؤولون يوم لا ينفع مال ولا بنون، فأقول:

لتكن منكم جماعة خاصة تكون بمنزلة الرأس، ولتتخذ لها مكاناً، وليكن لها فروع تمتد إلى أقاصي المعمورة أشبه بالأعصاب بالجسم، ولتكن أعمال تلك الجمعية مقسمة إلى قسمين:

القسم الأول: يأمر بنشر الأخلاق والعبادات والعلوم والصناعات في سائر أقطار الإسلام وينشر الكتب والرسائل ويعلن في الجرائد ويوعز إلى أهل البلاد بإذاعة ذلك كله مع المحافظة التامة على العوائد الإسلامية، وليحببوا إلى الناس أن يعرفوا ما ذرأ الله في الأرض وما أبدع في السماء وما أفاد من صناعة وما بث من حكمة حتى يضارعوا أوروبا ويفوقوها اقتصادياً ومادياً.

والقسم الثاني: يكون قصارى أمره ومنتهى رأيه أن يدرس أعمال أوروبا مع الأمم الإسلامية في أقطار العالم، وينشر ذلك في جميع الأقطار الإسلامية، ليعرفوا إخوانهم النابهين من الترك والفرس والعرب والصين والهند وتلك الأمم القديمة الشرف العظيمة القدر، ومتى انتشر ذلك في الأقطار الإسلامية عرف المسلمون إذ ذاك للجاهل جهله وللفاضل فضله، وإذ ذاك يقرؤون: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[الشورى: ٤٠] ، فيقاطعون الدولة المسيئة في التجارة سواء أكانوا في الصين أم في أفريقيا أم في تركيا. ذلك شأن هذه الطائفة، ولعلكم تقولون من أين عرفت أن هذه الجمعية بها يتحد المسلمون وهل هذا دواء شاف؟.

أقول: عرفت من نفس القرآن، فانظروا الآية المتقدمة، الحاضة على الاجتماع، وهي: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[آل عمران: ١٠٣]

هذه الآية أمرت المسلمين بالاجتماع وعدم التفرق، ولكنها لم تبين كيف السبيل إلى ذلك، ولذلك أردفها بآية أخرى لبيان ذلك فقال: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[آل عمران: ١٠٤] وهذا هو الفريق الأول الذي ينشر العلوم والمعارف والصناعات ويحض على العبادات الدينية، ثم قال: ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[آل عمران: ١٠٤]، وهذا هو القسم الثاني، فالنهي عن المنكر هذا يشمل الذنوب الخاصة بين المسلمين والكفر والمعاصي والمظالم الواقعة عليهم في مشارق الأرض ومغاربها، فأولئك هم الذين يجمعون تلك المظالم ويوصلونها إلى الجمعية الكبرى، وهي بسبب هذا القسم وبعمله تنشر أخبار تلك المنكرات في أقطار الأرض حتى يفر المسلمون من هذه المظالم ويقاطعوا تجارة الأمة الظالمة، وإذن يحق لهم وعد الله إذ قال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[النور: ٥٥]. هذه الآية ذكرناها مرة أخرى في الكتاب وأعدناها هنا بعد أن بينا طريق الاتحاد بين المسلمين، تلك الطريق التي هدانا الله لاستخراجها من الكتاب العزيز، لا سبيل إلى إسعاد المسلمين بغيرها ولا سبيل لراحتهم وتمكينهم في الأرض واستخلافهم فيها وتبديل خوفهم أمناً إلا بهذه السبيل وحدها، فليفكر المسلمون ما شاؤوا، فهم والله لا ينجون من شر الفرنجة إلا بهذه السبيل وحدها، ولنقرأ الآية على وجهها فنقول: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[آل عمران: ١٠٤-١٠٥]. فانظروا يا معاشر المسلمين كيف قال: ﴿ وَلْتَكُن ﴾، فاللام لام الأمر للوجوب، فالمسلمون في أنحاء المعمورة، أي: الأغنياء والعلماء منهم، آثمون مذنبون إن لم يقوموا بهذا الأمر.

وبعد أن بين القسمين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر قال: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ إشارة إلى ما ينالون في الدنيا من الطمأنينة والسعادة والثناء الحسن عليهم من الأمة الإسلامية وفي الآخرة من علو الدرجات ومنتهى السعادات والقصور والحور والولدان، فهذا قوله: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

ولما كانت الآية مبينة كيف يكون اتحاد المسلمين، وسهلت الطريق وأبانت حقيقتها الناصعة أردفها بالإنذار فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[آل عمران: ١٠٥]، وهذا إنذار من الله للمسلمين إذا أغفلوا أمر هذه الجمعية المركزية ذات الفروع، إذ قال: احذروا أن تكونوا متفرقين كالأمم السابقة التي بينت لها السبيل ومهدت لها الطرق فتفرقوا طرائق، ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[المؤمنون: ٥٣]، لأنهم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم الآيات البينات الواضحات. ولقد أبنت لكم يا معشر المسلمين كيف تكونون متحدين، وعلمتكم طرق الاتحاد وعدم التفرق، فإذا خالفتم وغفلتم بعد هذا البيان كنتم كأولئك الذين عرفوا الطرق فتركوها فتفرقوا، فكان لهم من ذلك عذاب عظيم في الدنيا بالذلة وفي الآخرة بجهنم، أما من ساروا على طريق الاتحاد فأولئك هم الفائزون.

فصل: في أن الكعبة المشرفة أيام الحج دار ندوة

وعلى هاتين الطائفتين المصلحتين في الإسلام المرسلتين من الجمعية الكبرى التي أشار الله لها في كتابه العزيز أن يجتمعوا كل سنة عند البيت الحرام بمكة شرفها الله، فإن للحج أكبر نصيب في هداية المسلمين النازحين إليه من أطراف البلاد، ولقد علم الله قبل أن يخلق الإسلام والمسلمين حاجتهم إلى بيت يحجونه ويكون مثابة لهم، أي: مرجعاً وأمناً، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[البقرة: ١٢٥]، وقال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[المائدة: ٩٧]. فانظروا وتعجبوا كيف ختم الآية بقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[المائدة: ٩٧]، وقد زاد على ذلك فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[المائدة: ٩٧].

فتأملوا كيف جعل أن علمنا بأن الكعبة قيام للناس يورثنا علم أنه يعلم ما في السماوات وما في الأرض بل يعلم كل شيء، ذلك لأن الأمر اتضح في هذه الأيام أن المسلمين ينتفعون سياسياً برجوعهم إلى هذا المكان وجعله دار ندوة كل عام يتشاورون فيه ويتباحثون وهم في مأمن في ذلك الوادي السحيق فضلاً عن فريضة الحج. إن ذلك أمر لم يكن في علم أحد من الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومن ذا الذي يعلم الغيب إذ ذاك فيقول إن الكعبة ستكون مرجعاً للمسلمين يعرف بعضهم بعضاً ويقضون في الأمور السياسية العامة، ويتعارفون ويتحدون، ويكون من وراء ذلك سؤددهم وعزهم ومجدهم وخروجهم من تحت نير ذل العبودية، لا جرم أن الذي عرف ذلك هو الله الذي فرض الحج ورسم البيت وعرف مستقبل المسلمين وما يؤول إليه أمرهم فهو يعلم ما في السماوات وما في الأرض الخ؛ إلا أن لكل شيء سبباً، فلا يكون الحب بلا زرع ولا الثمر بلا شجر ولا النيل بلا مطر ولا الري بدون سقي، هكذا لن يكون اتحاد المسلمين إلا بالطرق التي رسمناها والبينات التي أوضحناها، والله هو الولي الحميد. وبهذا تم الكلام على القسمين: قسم السماوات والأرض، وقسم إنزال القرآن باللغة العربية وإنذار أم القرى ومن حولها. وأختم هذا المقال بخطاب أوجهه لجميع المسلمين فأقول:

أيها المسلمون، قد شرحت لكم نظام العوالم إجمالاً، ولا جرم أن أولها عالم المجرة الذي يدور مرة واحدة في (٣٠٠) مليون سنة، وهناك دوران الكواكب السيارة في أوقاتها المعينة والأرض ثم النبات وأوراقه وثمراته، واتصال هذا كله بأجسامنا ثم نفوسنا، ثم بعد ذلك شرحت اتصال الأمم الإسلامية على الأرض في مكة وما حولها، وهذه أمة العرب جمعها الإسلام، وجمعتها اللغة العربية، وجمعها تقارب الأوطان، فهي إذا لم تبادر بالاجتماع والاتحاد فهي لا محالة معاقبة على تفريطها، وبينها وبين الفرس والترك علاقات الدين والجوار، فليكن اتحاد بين هذه الأمم وعلاقات متينة وهكذا سيكون، إذن فليعمم التعليم الآن في بلاد العرب وبلاد الإسلام، ثم لتدرس العوالم كلها، وتدرس الكرة الأرضية من حيث الجغرافية، وليدرس التاريخ دراسة تامة، وليخصص لكل علم طائفة، ولتقرؤوا علوم كل الأمم، ثم ليكن منكم حكماء وعلماء بكل علم وبكل فرع.

هناك هناك أيها المسلمون تكونون شهداء كما أن الرسول شهيد عليكم، وهناك فقط تتبوؤون مركزكم في الأرض، هناك أنتم تعلمون أمم الشرق وأمم الغرب كيف يكون الإسلام، وكيف تكون السعادة المستقبلة، ولأختم هذا المقال بإيضاح أجر المصلحين وأجره صلى الله عليه وسلم فوق ما تقدم في التفسير اللفظي، فأقول مستعيناً بالله:

لا مخلصاً في هذه الأرض، عارفاً بصانع العالم، دارساً لنظام هذه الدنيا، إلا وله قلب متقد حرارة وصدقاً، وإخلاصاً وبهجة ونوراً وحباً لرقي هذه الإنسانية المسكينة المضطربة المعذبة. هذه حال الدارسين العارفين في جميع أمم الأرض، فإذا كانت هذه حال الدارسين المفكرين فكيف تكون حال الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، إن للأنبياء سعادة في نفوسهم يحسون بها، ولقد ضرب الله لنا مثلهم المحسوس بالأم ترضع ولدها والأب الشفيق، فالأب والأم يربيان ولدهما لا يبغيان جزاء ولا شكوراً، بل هما يجعلان حياتهما وقفاً على تنمية هذا الطفل. فإذا كانت هذه حال العامة في الأمم بالنسبة لأبنائهم فكيف بالأنبياء بالنسبة لأممهم. إن للأنبياء لحباً علوياً لربهم، وهذا الحب يقودهم إلى كل قول وفعل جميلين، وصدورهم منشرحة لما يصنعون. ثم إن الصالحين من أممهم يقول الله لهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾[مريم: ٩٦]، فهذا الود الذي يلقى في قلوب الناس لهم ود الله ولهم نتيجة مرتبة على الأعمال الصالحة، إن الأجر لا يسأله إلا الرجل المتكلف، أما الأنبياء فليسوا متكلفين، ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴾[ص: ٨٦-٨٨].

الذي لا تكلف عنده يكون عمله قريباً من السليقة، فنفس العمل محبوب ومن نتائجه المودة، والأنبياء لا يسألون أجراً على التبليغ، والله برأ رسوله من ذلك، وغاية ما يحبه الأنبياء ويكرمون به أن يكون أتباعهم مقربين إلى ربهم. وبعبارة أخرى: إن الذي يسرهم هو ارتقاء أممهم في الصلاح والتقوى فلو كان هناك أجر لم يزد على ذلك، ومعلوم أن هذا ليس أجراً وإنّما هو نجاح رسالتهم وتمام أمرهم ورغبتهم في إسعاد الناس، وهذا قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾[الفرقان: ٥٧].

إذاً قرة عينه صلى الله عليه وسلم أن يرى أتباعه يتقربون إلى الله تعالى ويطلبون الزلفى لديه بالإيمان والطاعة، فصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود فعله، وهو ليس بأجر، وإنّما هو حب للإسعاد العام للناس، وهذا المعنى هو الذي جاء في الآية في هذه السورة على قول من أقوال العلماء غير الجمهور: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[الشورى: ٢٣] أي: إلا أن تودوا الله ورسوله في التقرب له تعالى بالطاعات والأعمال الصالحات، وهذا المعنى لا ينافي المعنى المشهور. إن المعنى المشهور داخل في هذا بطريق التبع لأن المودة للأشراف مقربة لله كجميع الأعمال الصالحات، وهذا المعنى العام هو الذي يطابق آية الفرقان المتقدمة: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾[الفرقان: ٥٧].

تحقيق لمقام الود وتبيان عام لمودة الأنبياء والمصلحين

اعلم أنه لا سعادة في دنيا ولا في أخرى أجلّ من سعادة الحب والود، إن الله هو الغفور الودود، فإذا وجدنا بعض الكتاب في عصرنا في صحيفة «الضياء» يوم ١٩ يناير سنة ١٩٣١م؛ يصف الحب الخاص والود المحدود بأوصاف منطبقة على ما نشاهده في أحوال الناس من التضحية والإيثار والفرح بكل ما يبتهج به المحبوب؛ فما بالك بالحب العام الذي يسع العوالم كلها، فانظر كيف ضرب مثلاً:

(١) لسعادة المحب بما يبدو من محبوبه وقد شبه ذلك بانعكاس نور الشمس على القمر.

(٢) وبالكاتب الفكاهي الذي يلتمس سعادته من السامعين لكتابته.

(٣) وبالمرء يجد لحديثه سامعاً جديداً.

(٤) وبالرجل يجد امرأته تحبه.

(٥) وبالرجل أتى بالمشمش لأطفاله الفقراء فسعادته بفرحهم.

(٦) والعاشق مع من عشق في الفقر وقد أكل المحبوب العنب والمحب فرح به.

وهاك نص المقال المذكور:

خواطر في الحياة

انحصار المرء في ذاته وتقييد شعوره فكره بنفسه من دواعي الألم والشقاء، وأما سعادته وغبطته فهي في الخروج بمعونة الخيال عن دائرة نفسه وحدودها. والسعادة وإن كان ينبوعها كائناً في نفوسنا إلا أننا لا نتعرفها ولا نتذوقها إلا إذا انعكست علينا من شيء خارج عن أنفسنا، كنور الشمس المنعكس عن صفحة القمر، وهذا العنصر الأجنبي يمتزج بالسعادة يكسبها في شعورنا حلاوة وغرابة مثل ما تفعل عناصر القمر بنور الشمس. انظر إلى الكاتب الفكاهي مؤلف الكوميديا، إنه يجهز ملحه وطرائفه في الخلوة، فهل يتذوق حلاوتها إذ ذاك؟ كلا. إنّما يذوق لذاتها ويجني ثمراتها من بريق السرور في أعين الجماهير الشاهدة تمثيلها، ومن هتاف الطرب في أصواتهم المتصاعدة. ألا ترى إلى الحديث المملول من طول الإعادة كيف يخلع ملالته ويكتسي رونقاً ورواء إذا صادف سامعاً جديداً، وأنت قد تكون مثرياً من المحامد والمناقب حامل الجم من المحاسن والمزايا، ولكنك لا تشعر بهذه تمام الشعور ولا تغتبط بها حق الاغتباط ولا ترقص طرباً لها وجذلاً حتى ترى لألاءها منعكساً عليك من وجه غادة ألوف، وتبصر جمالها يتألق في ألحاظها الضاحكة. ففي هذه الظرف ولا في غيره تحس السعادة حقاً وتعرف حلاوة مذاقها، والرجل الفقير يعود إلى داره بقرطاس المشمش أو البرتقال، فإذا دخل على أولاده فأيقظهم فاستووا جالسين على فرشهم الرثة المهلهلة وتناولوا منه الفاكهة يلتهمونها التهاماً والعصير يتحلب من أفواههم المنهومة الظمئة، والفرح يتوقد في عيونهم الفرحة المحرومة المتشوقة عاد لشدة الفرح والجذل كأنه ملك حدائق يافا وبساتين دمشق وحماة، فهل يجدن مثل هذه اللذة في أكلة برتقالة؟ وأنت إذا كنت مع حبيبة لك في قفار وفياف وقد آذاك السغب والصدى ثم رزقت عنقوداً من العنب فأي الخطتين أحب إليك؟ أن تقسمه على السواء بينكما أو تؤثرها به ـ إلا عنبة واحدة تطفئ بها نار ظمئك ـ وتظل ترنو إليها وهي تلتقطه حبة حبة كما تفعل العصفورة بالقرطم، وفي هذا المنظر

الجميل والمشهد البديع ما يشبعك ويرويك ويملأ بطنك ويكظ أضلاعك، وأي طعام ـ عمرك الله ـ أشبع من الجمال وأروى، وأي شراب أمتع من الحب وأشهى؟ والحق لا سعادة في الدنيا إلا ما كان مزاجها الحب، وما الحب إلا استكشافنا أنفسنا في خلاننا وأصفيائنا، وسرورنا بهذا الاستكشاف، والإنسان منفرداً عن الجماعة لا يستطيع أن يدرك السعادة، كالذي يعيش بعيداً عن المرآة لا يستطيع أن يعرف صورة وجهه.

قيمة المرء ما يحسنه وآثاره عنوان ما يكمن فيه من الفضل، وهي السراج الذي به نستطيع أن نسبر غور شخصيته ونقيس أعماقها وأبعادها، ولا جدال في أن كل امرئ يخرج إلى الدنيا منطوياً على قدر معلوم من القوة أو الكفاية لا يزال متناسباً مع مقدار إنتاجه. وكذلك نرى أن كل كلمة أو فعلة تصدر عن امرئ تكون مطبوعة بطابع شخصيته، بل تكون حلقة في سلسلة حياته، ولقد كذب من حسب الإنسان متناقضاً متبايناً إنّما هو متجانس متناسق متشابه الأقوال متماثل الأفعال. وما صدق من قال عن رجال الأدب إنهم عقلاء أذكياء على الورق. أما في ميدان الحياة فحمقى أغبياء، يغرقون في شبر من الماء، هذا كذب وبهتان. ولا يعقل أن ترى الرجل الواحد فيلسوفاً على مكتبه وحماراً في الشارع. ولا أن يكون فرداً بعينه أعرج في الطرقات ثم أبرع رقاص في الحفلات الساهرة. أجل إنه على قدر قوة المرء وبحسب حذقه ومهارته في استخدام هذه القوة تكون قيمة عمله. كما أنه على قدر قوة الدفع يكون مرمى قذيفة المدفع، وعلى قدر قوة البأس وامتداد الأنفاس تكون سرعة العداء والمشاء، وإذا رأيت شعراً خالياً من حسن النسق والانسجام فاعلم أن ذلك لاختلال النسق وقلة الانسجام في روح الشاعر. وكذلك إذا عثرت على الكلمة أو الفعلة لرجل ما دلتك عليه وساقتك إليه كما يرجع بك شعاع الشمس إلى الشمس.

معظم الناس لا شخصية لهم، أولئك لا وزن لهم ولا قيمة، وأهميتهم في كثرة عددهم، ومن أجلهم يشتغل العدادون وكتاب الإحصاء، ومنهم تتألف الجماعات والجماهير والأغلبيات الساحقات وهم الذين يجمعون الأموال ويؤدون العادي المعروف من أعمال هذه الدنيا، ولن تكون لهم قيمة إلا تحت إشراف القادة الزعماء، فهم كالعجينة يشكلها الصانع الحاذق كما يشاء، ويشيد بهم البناء كما يشيد باللبنات، وهم في الجملة يكونون الرأي العام، وإن كنا نعرف أن الرأي العام في كل عصر وجيل إنّما هو زبدة أفكار ستة أو سبعة من الرجال يتوسدون صفائح قبورهم في طمأنينة وسلام، والجماهير تحتفظ بأفكار أولئك الموتى كما يحتفظ هواء الجو بحرارة الشمس ونورها بعد الغروب. ولا مشاحة في أن الشخصية البارزة أو التفرد أو قوة الخلق أو الرجولة الشاذة المتينة أو ما شئت أن تسمي تلك الميزة التي اصطلحنا على تلقينها « العبقرية » هي أفضل هبات الطبيعة للإنسان وأجزل آلاتها، وليس مقدم الرجل القوي إلى هذه الدنيا إلا حسن البشارة بسعادة المستقبل، فهو نبوءة خير، وبشرى فلاح، مثله في ذلك كالريح تهب الآن هاهنا ولكن الموجة التي هي من فعلها وأثر هبوبها لن تلبث بعد ركودها أن تفيض وتطغى على الساحل القصي الواقع على مسافة ألف ميل. إن الرجل الشاذ ليعد نعمة عظيمة في مثل دنيانا هذه السخيفة السمجة الاعتيادية، وكفى أرباب الشذوذ والانحراف وأهل المجون والهزل

وذوي الخلاعة والتهتك فخاراً أنهم يذهبون من وحشة الحياة الاجتماعية وينفون من سأمتها ومللها بتنويعهم من تماثل هيئتها وصورتها وبتكسيرهم من استواء أديمها الجامد الميت، وجدير بالإنسان أن يصبح معروفاً بين الملأ بشيء خلاف اسمه ولقبه .

وهذه الثمرة الشخصية والطابع الذاتي أو « الماركة » الذاتية تكون في عالم التأليف جليلة القيمة، من حيث إن عظمة المؤلف لا تتوقف على ما يشرك فيه غيره، بل على ما ينفرد فيه بنفسه ويستأثر به وحده، والرجل العظيم هو المبتكر الذي يصنع الشيء لأول مرة، لقد كان استكشاف القارة الأمريكية من أصعب المشاق، فلما استكشفت أصبحت الرحلة إليها من أسهل الأمور، وتلك الميزة الخاصة المنفردة التي تمتاز بها القطعة الفنية من شعر أو نثر أو نقش أو غناء هي الأساس الذي يقوم فوقه الحكم النهائي عليها وتسجل كلمة التاريخ، وعلى أية حال فالعمل الفني المشتمل على هذه الميزة الخاصة الفردية يكون حائزاً لعناصر الخلود .

انظر إلى الطبيعة تنبعث الحياة من جميع أنحائها وأرجائها، وتجيش الحياة في جميع جزئياتها وذراتها وكأنها بلورة صافية شفافة تتجلى من ورائها الروح الأبدية السرمدية في مليون شكل وهيئة، ويلوح من دونها السر المقدس الإلهي، الظاهر الخفي في آلاف الآلاف من الصيغ والألوان، والنغم والألحان، والصور والأشباح، والأجراس والنبرات، والروائح والنفحات، وكل شيء في الطبيعة تنبجس منه الحياة وتتفجر، حتى الصخر الأصم إن هو في كنهه وحقيقته إلا حياة تجسمت وروح تجسدت، كتلة من الروح الكلي وثوب تنسجه الحضرة القدسية الإلهية، في تلك اللحظة انعدمت المادة في نظري وتلاشت . والواقع أنه لا مادة في الكون للعين الشاعرية الملائكية، الثاقبة الجلية . وكما أن الريح الجوالة على البحر تستل من كل موجة جزءاً خفياً فتحمل منه إلى أهل الساحل روح المحيط الأثيرية، فكذلك النسيم الخطار على العشب والكلأ، والشجر والنجم والدوح، والنهر والجدول والغدير يسرق من الزمان، صيفاً كان أم خريفاً، جزئياته وذراته، إذ يستلب من الأفنان والأغصان والورق والأكمام والأزهار، ومن سائر النبت والأغراس ذرات ضوء الشمس فيحملها إلينا ويمزجها مع الأنفاس بنفوسنا، وكذلك يروح تيار الهواء بعد انغماسه في كؤوس الأنوار والأزهار تحت موسيقى النحل والأطيار، تدب فيه الروح وتجيش الحياة، فما هو بالجماد، ولكنه كائن حي يترنم بذكر الله ويسبح بحمد المانح الوهاب .

في هذا الوادي المقدس أمام ذلك المشهد الرائع بين أكناف الطبيعة البديعة وقفت أحتسي كأس الخلود وقد تفتح صدري وانفسح جناني لأبعد أغوار الخريف وأسحق أعماقه، حتى وسع قلبي ما امتد أمامي من ذاك المنظر الفتان إلى الأفق المديد القصي . إلى أدنى حشرة في الثرى، إلى أسمى طائر في الجو . وكذلك بهرني مشهد الطبيعة الرائع، وسحرني وملك علي مشاعري، فاندفعت على ضفاف النهر تجذبني وشائج الأغصان ولفائف الأفنان وتحدو بي أعجميات الألحان، على عذبات الأيك والبان، وذوات الأطواق على منابر الأوراق، وأحس حميا الحياة تتدفق من ضياء الشمس ومن نسمات الشمال في كياني ووجداني، وكأن العشب والكلأ المنبسط أمامي بلا نهاية . والدوح الباسق

المنتشر القوي ومطارب البلابل والقماري، كأن هذه كلها تنصب في روحي، وتمتزج بأجزاء نفسي. وتلك الأزهار التي تلقت لثمات الصباح على الآلاف المؤلفة من وجناتها، رأيتني أشاطرها حياتها وسرورها وفرحها.

وأبصرت الجمال ينبثق من كل ورقة وزهرة، والحسن ينسكب من كل موجة وقطرة، وعجائب صنع الله تتجلى في كل هباءة وذرة، ووجه الأرض صحيفة كتبت عليها سورة الجلال، ولوحة نقشت فيها صورة الفتنة والجمال.

ولتعلمن ـ علمت الخير ـ أن الساعات التي تظل فيها الروح مستغرقة في الجمال لهي وحدها الساعات التي تعيشها والجديرة أن تحسب من العمر. وكل برهة تقضيها بين الجميل والجليل والرائع والبديع إنّما هي فرصة تختلس من الدهر، وغنيمة تنتهب من مخالب الزمن، هذه الساعات التي تستغرق الروح وتفعمها جمالاً هي الخليقة حقاً بأن يقال إنها لم تذهب ضياعاً ولم تطح جباراً، هذه هي الحياة المحضة الصريحة وكل ما عداها خدع وأضاليل وأكاذيب وأباطيل.

بين أرجاء هذا المشهد الرائع الذي كله روح تجيش وحياة تتفزز، محال أن يذكر الإنسان الموت وتمر بباله فكرة الفناء، وكيف يأتي له الجمع بين الضدين والنقيضين، صورة الحياة في أكمل معانيها وأنصع مجاليها وصورة الموت، لقد جعلت أقول لنفسي وأنا أنظر إلى الطبيعة كأنها عروس قد تبرجت لزفاف وتزينت وأرنو إلى الوادي العشيب تهتز ونغمة وريا:

ورياض من مخايل الأرض فيها خيلاء الفتاة في الأبراد

لقد جعلت أقول في نفسي وأنا أتأمل ذلك المنظر الحي المتألق الخفاق: ولكأن الموت لم يهتد قط إلى هذه البقعة البهجة ولم يدر السبيل إليها. وأكبر ظني أن عالمنا الأرضي قد كان هكذا قبل هبوط آدم وحواء على أديمه النقي بذنوبهما وخطاياهما وذريتهما الباغية الطاغية المجرمة أثيمة بشرورها ومصائبها ونكباتها وحاشيتها وبطانتها من الأبالسة والشياطين على رأسهم إبليس، وزبانيتها من العلل والأمراض والأوبئة على رأسها الجلاد الأكبر عزرائيل.

أجل، لقد كانت هذه البقعة البديعة قبل ظهور ألأم صنوف الحيوان أعني الإنسان؛ وتالله إن الناظر إلى هذا الوادي الأنيق لا يكاد يتصور أن رسول المنية قد جاس قط خلاله، وخاض ظلاله، ولا أن الأرض الطويلة العريضة تحتوي قبراً واحداً أو تنطوي على رمة، ولا أن الكون بأسره قد تصعدت قط فيه زمرة أو تحيرت عبرة، أو علت أنة، أو دوت رنة، أو قام فيه حداد، ولبس سواد، أو شقت جيوب وأبراد.

الحب وحده هو الذي يشفي غلة النفس الصادية ويشبع نهمة الروح الجائعة. الحب وحده هو الدواء وهو السعادة وهو البغية والغاية والمراد، وليس في سواه من ملذات الحياة ما يسد مسده أو يقوم مقامه، وماذا ترى في مسرات العيش يغني غناءه.

اللهو، اللهو لا يشبع روح ذي الروح السامية، ولا يطرب نفس ذي النفس الشريفة العفة العالية، ولا ترتضيه أذهان ذوي الأذهان الثاقبة النيرة، إذن فماذا يقوم مقام الحب، السوامر والحفلات

والأندية؟ هذا كتاب سرعان ما تقرؤه وتحفظه حتى تمله وتسأمه. العلم أو الفن هذا أو ذاك لا يمكنه أن يملأ من عواطفنا إلا جزءاً معيناً.

القراءة أو الثقافة، هذه لا ترد لهفة ولا تبرد غليلاً، ولكن هنالك شيئاً واحداً هو الكفيل أن يخلع على الحياة ذلك النور الذي لم يشاهد قط في أرض ولا سماء، ولم ير قط فوق بر ولا بحر، وذلك هو الحب. الحب أبعد غاية من أن يقاس، وأعمق من أن يسبر، وأكثر من أن يحصى ويحصر، وأعمق الحب وأشده ما تغاضى عن معايب المحبوب ومعايره مهما عظمت.

والصداقة تحتاج إلى أن تدعم على أساس من الاحترام المتبادل. ولكن الحب لا يحتاج إلى أي أساس أو سد أو دعامة، الحب يكتفي بنفسه وحدها ويعيش على نفسه دون سواها.

وشرارة الحب تقدح من نظرة أو لمسة أو همسة. أما الاحترام فليس في طاقته أن يوجد الحب، كما أن قلة الاحترام لا تستطيع أن تمحو الحب. ولا جرم أن العاشق ليظل وهذه الملايين التي تملأ الأرض أموات في عينه ولم يبق حياً على ظهر الأرض إلا عينان مشرقتان تنظران في روحه وتحرقانها فتتركانها رماداً، أتفهم ما أقول؟. كلا. إذن أنت لا تفهم الحب، أتقول الاحترام أساس للحب؟

تزعم أيها القارئ أنك لن تحب المرأة إلا إذا كان لها من الصفات ما يستدعي احترامك. كأن الحب قرش في جيبك لن تخرجه إلا لمن أعجبك من الشحاذين وراقتك طباعه؟ إن كان هذا رأيك فأنت أجهل الناس بالحب، وأولى لك إن فتح موضوعه أن تسكت أو تنسحب. والواقع أن العاشق لا يحيا إلا بروح معشوقته، ولا يجد في العالم إلا شخصية واحدة، هي وحدها المحبوبة وهي الجميلة وهي الضرورية وهي البغية والغرض والأمنية، شخصية واحدة من بين الملايين التي تملأ الدنيا، وهذه الشخصية مهما هفت وأخطأت ومهما جنت وأجرمت ومهما أسفت وسفلت، ومهما لقيت من تحقير الناس وإصغارهم وسخريتهم وازدرائهم؛ لتبقين في عين عاشقها كما هي لا تيؤثر فيها ذاك شعرة ولا ينقصها مثقال ذرة، هذا لا يستطيع أن يغير الحب، بل كلما زيد الأذى على تلك الشخصية وضوعف البلاء تبين لعاشقها أنها أحوج ما تكون إلى الحب، ومن ثم ما نراه كثيراً من العشاق من مكافأة خيانة حبائبهم بالأمانة وغدرهن بالوفاء، ما أعجب الحب وما أعجب حاله! نرى مليون وجه، ونسمع مليون صوت، ونلقى مليون أنثى حاليات الثغور باللآلئ والعيون باللألاء، ولكنهن لا يمسسن أرواحنا، ولا يحركن شعورنا، ثم نصادف من بينهن واحدة فإذا هي تحمل لنا الحياة أو الممات في يدها، وتلعب بهما كما يلعب الطفل بلعبه، يا للعجب! بماذا تمتاز هذه الواحدة عن تلك الملايين؟ بلا شيء، وما هي أفضل ولا أجمل ولا أنبل ولا أكمل ممن شاهدنا قبلها، ومع ذلك تجدنا نرى الدنيا من غيرها صحراء مجدبة. انتهى. وفي هذا المقام الجميل بعض المعاني السقيمة الساقطة.

هاأنا ذا أيها الذكي كتبت المقالة جميعها وفيها وصف الحب، وهذا الحب هو الحب الأدنى الذي لا يعرف الشبان إلا إياه وقيمته ضئيلة، ولقد ذكرت في هذا التفسير كثيراً أن الحب ثلاثة أقسام: أدنى، وأوسط، وأعلى، فما ذكر هنا هو الأدنى لأنه معروف، والأوسط عشق العلوم، والأعلى حب الله تعالى وعشقه، وهذا لا يتصوره كثير من الناس، وقليل جداً من النوع الإنساني من يفهم حب الله

تعالى الذي يشير له أكثر القرآن، وترى الحمد بالفاتحة يشير له، إذ الحمد والمدح لا يكونان إلا بعد نعمة عرفها الحامد، وهذه المعرفة أولا تحدث في قلب الحامد حبا للمنعم، فينطلق لسانه بالثناء وأعماله للخدمة، والخدمة هنا بالجوارح للأمم الأرضية الذين هم تحت رعاية المحبوب الممدوح، ولا جرم أن الله عز وجل منبع كل جمال وعلم ورحمة وشجاعة، فحصر الكاتب الحب في المرأة راجع إلى الطبقة المعروفة، والحكماء يرتقون طبقات ويفرحون فرحا لا حد له بمحبوبهم، ويذكرهم بذلك المحبوب كل شمس وقمر ونجم ونهر وبحر وشجر وحجر وحبيب متبسم، وتصبح حياة هذه الطائفة سعادة دائمة، ولا يحس بسعادتهم أحد إلا هم أنفسهم، ولا قدرة لهم على التعبير عنها.

هذا هو الود الذي ورد في القرآن أنه للصالحين، فهؤلاء هذه حالهم وهذا هو نموذج الود المذكور في قوله تعالى في آيتنا هنا: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[الشورى: ٢٣]، أي: إذا كان لي أجر فهل هو إلا أن تودوا الله ورسوله بالتقرب بالطاعات.

فهذا هو التفسير الذي تؤيده آية الفرقان كما تقدم، هذا هو الذي جاش بخاطري ووافق تفسير بعض علماء الإسلام، وفسر بمنطوق آية الفرقان. وذلك ليلة الخميس ثالث يوم من رمضان الأغر سنة ١٣٤٩هـ بعد منتصف الليل.

يا معاشر المسلمين، كفى غفلا وجهلا، لم ينزل هذا الدين إلا لإنعاش الأمم وإيقاظها وإحداث حركة فكرية جدية، أما إذا ظن المترفون المنعمون وهم على فرشهم أن الأنبياء يبتغون من النبوة أن يقال في أبنائهم ما قاله النصارى في المسيح، فيقول الباطنية في كرام آل البيت إنهم آلهة، كما تقدم في سورة «الكهف» عند آية: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[الآية: ٥١]، وعند آية إبراهيم في آخر سورة «إبراهيم» وهكذا، فذلك جهالة تؤدي إلى بطالة. إكرام آل البيت مطلوب مرغوب، ولكن مما لا سبيل إلى قبوله أن يتخذ ذلك ذريعة إلى أن تناط أمور المسلمين بمن لا وسيلة عنده إلا النسب. كلا ثم كلا. ديننا يراعي الكفاءة للأعمال، إن نبينا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء فلا يوسد عملا إلا إلى أهله.

أيها المسلمون، أيها الأذكياء. لا سعادة إلا بالحب، والحب الدائم حب الحي الذي لا يموت، وهذا دونه خرط القتاد لأكثر نوع الإنسان. ولن يصل إليه إلا الأقلون. انتهى ليلة الخميس ٣ رمضان سنة ١٣٤٩هـ.

جمال الحكمة والبهجة في هذا المقال

يا الله أنت أريتنا جمال وضعك، وحسن صنعك، وآنستنا بنور وجهك، وأشرقت علينا بهجات نورك وأنوار شموسك وأقمارك.

رأينا يا ربنا علاقات تامة بين أرضك وشمسك، مدا وجزرا، وكذلك مع قمرك. ورأينا الحركات منتظمات. ورأينا أجسامنا وتربيتنا منوطين بالحرارة والضوء الساريين في النبات الموصل لنا الصحة والقوة من عالمك الأعلى. وهانحن أولاء رأينا علاقتنا بالأمم حولنا كعلاقتنا بالشمس والقمر وكل معدن ونبات وحيوان.

نظام خلق الإنسان

هانحن أولاء يا ربنا فهمنا وضعك، وشرح صدورنا فعلك، وقد بهرنا ما رأينا في خلق أجسامنا. يا ربنا هانحن أولاء نرى أجسامنا مصنوعة بشكل يخالف كل حيوان في بر أو بحر أو هواء. إن هذا الجسم كتاب مفتوح، هو رق منشور، هو حكمة، هو علم. هو رمز. ومتى ملكنا هذا الرمز عشنا في الأرض سعداء. ربنا رأيناك جعلت الحيوانات مقسمة أقساماً: فمنها الفقرية، ومنها الحلقية، ومنها المفصلية، ومنها الرخوة، ومنها النباتية.

(١) إن الحيوانات النباتية هي التي نراها تعيش في البحار كأنها نبات، إذن فيها حياة كحياتنا، ولكنها لم تعط قوة كقوتنا وعقولاً كعقولنا. انظر صورتها في آخر سورة «الحج»، فبعضها ذات خمسة أشعة منتظمة جميلة، وهي عند آية الذباب.

(٢) والحيوانات الرخوة مثل المحار والصدف الذي فيه اللؤلؤ، وأم الخلول ـ وقد شرح بعضها في سورة «مريم» في أولها شرحاً وافياً فانظره. فهذه مع ما قبلها لما قابلنا صنعك فيها بصنعك في أجسامنا دهشنا أشد الدهش من إتقان وإحكام فينا وارتقاء مرتفع عن تلك المخلوقات اللاصقات بالأرض المحبوسات في البحار. ولم تعط يدين بهما تصنع ما تشاء كما نصنع نحن من جميل الأعمال.

(٣) ولم تكن الحيوانات المفصلية مثل العنكبوت والعقرب والسرطان ونحو أم أربعة وأربعين رجلاً، وذوات مائة الأرجل، وأمهات ذوات ألف رجل المتقدم ذكرها في سورة «النور» بمتمتعات بقوة الإنسان وعقله ويديه القويتين المفصلتين تفصيلاً بديعاً تصنع أعمالاً لا قبل للعنكبوت بها ولا السرطان، فأولهما أعطي حرفة النسيج وهو يعيش في البر، والثاني يعيش في البحر مقيداً بقيود خاصة. فأنى له بقوة الإنسان.

(٤) وهل الحيوانات الحلقية ومنها دود السبانخ، ودود العلق، وحيوان البلهارسيا، والأنكلستوما والدود الكلوي إلا عاجزات عجز ما قبلها من المفصلية. فكل منها لاصقات بالأرض لا حول لها ولا قوة إلا غرائز بها تعيش ثم تفنى من الوجود.

(٥) وليست جميع الحيوانات الفقرية التي شاركت الإنسان في فقراته ولها هياكل عظيمة ويعضها له دم أحمر كدمه إلا أقل من الإنسان تفصيلاً في أشكالها، ونظاماً في أفعالها.

وهل السمك في البحار قامت شوكاته التي يقوم بها مقام يدي الإنسان في شيء اللهم إلا أنها تعينه على السباحة، وإن شارك السمك الإنسان في الفقرات والهيكل العظمي، وهل السلاحف بدرقاتها والورل والثعابين بسمومها بجانب الإنسان إلا عواطل من القوى الشريفة والأعمال المنيفة، ولعمرك ما يغني جناح الدجاج والطاووس والحجل والبط وأبي قردان والنعامة والبلبل والببغاء والنسر والحدأة والعقاب فتيلاً ولا قطميراً، وهل لذلك الجناح إلا أنه يحمل الطير في جو السماء، وهل للجناح إلا عمل واحد هو حمل الطائر ليصل إلى أعماله، وفرق عظيم بين الأجنحة وأيدي الإنسان القائمات بأعمال غير محصورات، وما القيطس العائش في البحار الذي يستخرج منه

الإنسان الزيت، ولا الدلفين الذي ينفع الإنسان بحفظه من الغرق، ولا الكشلو الذي يستخرج منه الناس العنبر السنجابي، ولا الحيوانات المجترة المشروحة في سورة «النحل» بصور لبعضها، ولا ذوات الظلف الواحد كالفرس، ولا ذوات الأرجل المشقوقة مثل الخنزير وجاموس البحر، ولا ذوات الخرطوم كالفيل، ولا الحيوانات الثديية آكلة الحشرات مثل القنفذ والفأر الغيطي، ولا الحيوانات آكلات اللحوم كالأسود والنمور، ولا القردة، لها ما للإنسان من قوة اليدين والعقل العظيم.

يا ربنا هانحن أولاء نظرنا فوجدنا اليدين اللتين وهبتهما لنا أعطتانا ما لم يعط الأسد في عرينه ولا القيطس في مائه، ولا النسر في جوه، ولا الفيل بقوته، ولا الفرس بسرعته.

نظرنا هذه المخلوقات فألفيناها مقيدات مقلدات لما غرست فيها من الغريزة، وأحطتها في الطبيعة كلهن مقيدات ناقصات. فهن أقل من هذا الإنسان قوة معنوية وقوة مادية.

رباه. نحن بنظرنا في هذا الوجود ألفيناك وضعتنا في مركز هام عجيب. فإن نظرنا للشموس والأقمار وعالم النبات والحيوان والبحار والهواء وجدناها كلها كأنها جسم واحد ونحن في داخله ولنا به اتصال عجيب، بل يكاد كل جسم من أجسامنا يكون أشبه بعضو في الجسم العام في السماوات والأرض. وإن نظرنا إلى ما فيه الحياة مثلنا من كل حيوان وجدناك قيدتهن جميعاً، فقيدت ذا الظلف وذا الجناح وصاحب نصف الجناح، وقيدت الزاحف والماشي وكل ما في هواء أو على الأرض أو في لجج البحار، فكلهن مقيدات. ولم يفلك من هذا العقال إلا هذا الإنسان، فإن أيدينا وعقولنا تفعل ما لا يقدر عليه الجناح، ولا يسمو له الخرطوم في الفيل ولا القوة الأسدية، والافتراس النمري.

إذن أنت يا الله فضلتنا بعقول وبيدين فضلاً عن سواهما. إذن أنت يا ربنا جعلت أجسامنا مفصلات تفصيلاً كأنها كتاب نقرؤه، وهذا الكتاب مفصل أبدع تفصيل. إذن يا رب أنت أنعمت علينا بما وهبتنا من الحرية العقلية، وباليدين اللتين بهما نقدر على الاختراع والإحكام والتدبير وإدارة كل عمل في أرضنا من زراعة صناعة وتجارة وعلم وإبداع واختراع. كل ذلك ابتكرته عقولنا وصنعته أيدينا. إذن هذا الكتاب الذي قرأناه في أنفسنا وتفصيلها وفي الحيوانات حولنا وفي العوالم العلوية والسفلية يوجب علينا أن نكون خلفاء لك في أرضك، ولن تتحقق هذه الخلافة إلا بالعلم والعمل، وأنا الآن يا رب أكتب هذا القول للمسلمين. تلك الأمة التي برزت في الوجود منذ (١٣) قرناً وغيرت معالم الكرة الأرضية. وبسببها ظهرت أمم وأمم في الشرق والغرب.

فأنا أكتب هذا لهم وللأمم. وأسألك يا بر يا رحيم أن يقوم فيهم مجددون يقومون للنوع الإنساني بما قام به أسلافهم كل بحسب زمانه، وأخاطبهم قائلاً: أيتها الأمم الإسلامية، ويا أيتها الأمم العربية، طال نومكم، ألم تسمعوا قول ربكم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[آل عمران: ١١٠]. فأين خيريتكم الآن، ألستم لما نمتم عن وظيفتكم تولى بعضها غيركم من الأمم، أنتم خلفاء الله بنص الآية وبما يفهم من تفصيل الجسم الإنساني، أتريدون أن تكونوا في الأمم أشبه بالعناكب والذباب، وهم يكونون أشبه بالإنسان، أتريدون أن تتجاهلوا ما لكم من العقول والأيدي فيجعل بعضنا نفسه كذي الجناح أو ذي الحافر «حاشا لله أن يكون ذلك».

وهل يرضى أبناء العرب الذين هم أصل هذه الأمم الإسلامية أن يكونوا في مؤخر الأمم ويتنزلوا عن مجدهم الرفيع وشرفهم الكبير، ويذروا عقولهم بلا تفكير وأيديهم بلا عمل، ويجهلوا ما عرفت الأمم حولهم من العلوم والصناعات؟ لا لا. يا أمة الإسلام، هاأنا ذا وصلت لكم القول ليعلم المفكرون منكم قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[الشورى: ٧]، والله كما فصل القرآن فصل آيات هذا الوجود. ومن هذا التفصيل تفصيل جسم الإنسان. فهو مفصل تفصيلاً عجيباً. فهاهو ذا القرآن، وهاهو ذا جسم الإنسان يقضيان بحرمان الجاهلين الكاسلين الذين يذرون مواهب العقول وابتداع الأيدي عجائب الصناعات وابتكارها غرائب المنافع في الدنيا والدين. كتب في ٣ رمضان سنة ١٣٤٩هـ و٢٢ يناير سنة ١٩٣١.

نظرتي أمس «٣ رمضان أيضاً» في بلدة البركة

امرأة تطحن على رحاها

يا سبحان الله! مررت على هذه البلدة كعادتي لأنها في طريقي إلى مزرعتنا بتلك الجهة قرب القاهرة، فما رأيت المرأة تدير رحاها تطحن بها براً تصنعه لأهل منزلها ـ وقد كان هذا الموضوع أي موضوع السماوات والأرض، وانتظام هذا المجموع واتصاله بجسم الإنسان وأمم الأرض مرتسماً في ذهني محصراً في عقلي لا أقدر على التملص منه ـ حتى كانت هذه الرحى إتماماً للموضوع وشرحاً وتطبيقاً على ذلك كله.

الله أكبر، دارت الأرض حول نفسها فكان الليل والنهار، الأرض دائرة في يد صانعها، مجذوبة حول الشمس، فكانت لها نتائج لا عدد لها ولا حصر. وبدورانها كان الصيف والشتاء والخريف والربيع، وهناك ما لا حصر له من المخلوقات، فهي رحى كبيرة. إن رحى المرأة التي رأيتها أمس مدورة والأرض كرة. إن رحى المرأة دائرة بيد المرأة والأرض دائرة بيد الصانع الحكيم. ولكن فرق ما بين الدورتين، فدورة الأولى لغذاء بيت واحد. ودورة الثانية لغذاء أمم وأمم.

إيه أيها المسلمون. كلما كانت الأمم في صناعتها أقرب إلى صنع ربها كانت أسعد بالاً وأنعم حالاً، وكلما ابتعدت عن صنعه كانت أقل وأذل؛ أفلا ترون الآلات الطاحنة ذوات العجلات المنظمات الدائرات دوران هذه الرحى عملتها أيدي أناس مثلكم فقامت مقام آلاف رحى كرحى المرأة التي رأيتها في بلدة البركة.

أفلا ترون الآلات الخابزات والحارثات والجاريات في البر والبحر، فقد عملتها أيدي كأيديكم بإرشاد عقول كعقولكم فأغنت أمماً وأمماً.

كلما كانت صناعة الأمم أقرب إلى البساطة كانت الأمم أقرب إلى التفرق، فيكون الانحلال ثم الفناء، وكانت بالنسبة للأمم ذات الصناعات العظيمة أشبه بالحيوانات الرخوة بالنسبة للإنسان، وكلما كانت صناعاتها أقرب إلى صنع الصانع الحكيم مبدع الكون كانت أقرب إلى الاجتماع والاتحاد والكمال في الإنسانية، والإنسان اليوم سائر إلى هذه الحال شاء الجهال من المسلمين أم أبوا، وسيكون هذا النوع الإنساني أشبه بأمة واحدة تعمل لغاية واحدة ومنفعة للجميع، وتكون سعادة الإنسانية بتلك

الأيدي والعقول فوق ما هو عليه الآن آلاف آلاف مرة، وتكون نسبة سعادتهم اليوم إلى سعادتهم في المستقبل كنسبة الحيوانات المفصلية والحلقية كالعلق والعقرب إلى نوع الإنسان، أو كنسبة هذه الرحى التي تديرها المرأة التي شاهدتها في بلدة البركة وغيرها إلى آلة بخارية عظيمة تطحن لآلاف من الأسرات في القرى والأمصار. هذا، وإني أحمدك اللهم على نعمة التوفيق والعرفان والحكمة والتبيان، كتب يوم الجمعة ٤ رمضان سنة ١٣٤٩هـ، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الرابعة، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[الشورى: ٥١]

حضر أخي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير، فقال: لقد جاء ذكر الشيخ الدباغ ذلك الأمي في آية: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣] الخ. ولكن للقول هناك بقية. ولقد أذكرني بها هذه الآية لأن البشر ليس لهم أن يكلمهم الله إلا بالوحي أو من وراء حجاب أو إرسال رسول الخ.

فيا ليت شعري. أأمثال هذا الأمي من هؤلاء حتى يأتي لنا بعلوم عجيبة بعضها نعقله وبعضها لا ندركه. فقلت: أيها الأخ. الشيخ الدباغ وأمثال الشيخ الدباغ لا نأخذ العلم عنهم، وإنّما هؤلاء مذكرون لنا بالوحي.

فإذا سمعنا من هؤلاء حكماً لم ندركها نحن وبحثنا فوجدناها موافقة للوحي المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم قبلناه، وإن رأينا ما يخالفه نبذناه. فلنا عقول ولنا دين. ولكن ليس معنى ذلك أننا نترك هذه الينابيع النابعة من فيض الله كما لا ندع الينابيع الظاهرة من الأرض بلا عمل منا. إن المسلم في مستقبل الزمان غير المسلم الماضي في القرون المتأخرة. إنه إنسان غير جامد. إنسان فيه حقيقية الإنسانية، لا يدع نعمة تصل إليه ولا حكمة يسمعها إلا بحث فيها. فإذا كان الماء النابع من العيون لا ينبغي للمسلم ترك الاستفادة منه؛ هكذا لا يليق به أن يذر حكماً تصدر على لسان إنسان بدون أن ينقدها ويفكر فيها. بل فوق ذلك يعلم أن الله هو نفسه الذي ساقها إليه اختباراً له لينظر أيشكر بقبولها وبحثها والاستفادة منها أم يفكر بتركها واحتقارها فيقول لا لا أنا لم أقرأ نص هذا القول في الدين. بل أقول فوق ذلك كل قول يسمعه المسلم من أي عالم في أقطار الأرض في جميع العلوم الرياضية والطبيعية والسياسية والتاريخية إنّما هو نعمة من الله ساقها إليه فنبذها، إنّما هو نبذ للنعمة المرسلة من الله إليه.

وعليه أقول: إن المسلمين بعد انتشار هذا التفسير ـ وقد انتشر فعلاً ـ سيكونون نوراً للأمم لا يذرون قوة في الأرض وما عليها×ولا حكمة صادرة من رجل فتح عليه وهو لم يتعلم كالشيخ الدباغ. ولا علماً جد فيه عالم صيني أو ياباني أو ألماني أو فرنسي الخ بعقله ونصبه وآلاته الرصدية أو الكيمائية أو غيرها؛ لا سارعوا إليها ودرسوها ومحصوها. واصطفوا ما هو نافع. وتركوا ما هو ضار.

هذا هو الحق الذي لا محيص عنه. أليس هذا هو قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر: ١٧-١٨].

فالآية عامة وتخصيصها لا معنى له. والأرض أرض الله والناس عباده. وإذا انتفعنا بماء الأرض الذي هو من صنع الله وفيضه فإن الانتفاع بما تنتجه العقول أولى، لأن العقول أفضل من المواد، والماء مادة والعلم ينتج من العقول. إذن ترك ذلك كله أو بعضه جهالة وقلة دين وعقل.

لك الحمد اللهم على نعمك، ولك الشكر، ولك الفضل العظيم علينا وعلى الناس أجمعين. أنت الذي خلقت الإنسان وجعلت جسمه في هذه الأرض محوطاً بالخير والشر، وحجبته عن المعارف والعلوم بما سلطت عليه من شهوة وغضب، فأخذت الأمم يموج بعضها في بعض، ويلعن بعضهم بعضاً، فجعلتهم معذبين في صورة منعمين، وجهلاء في صورة علماء، وأريتهم بصيصاً من العلم، وبصيصاً من الجمال، وهيأت أرواحهم لقبوله بدرجات مختلفات بحيث لا يتفق اثنان من الناس في درجة واحدة، فهم في معارفهم مختلفون اختلافهم في ألوانهم ولغاتهم، واختلافهم في خطوط أيديهم التي ظهر سرها فيما تقدم في السورة السابقة؛ واختلاف استعدادهم الفطري:

(١) فهانحن أولاء نجد القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد فهمه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون فنشروه في الكرة الأرضية، وكان لهم فيه فهم غير ما نفهم، وآراء غير ما نعرف، والدليل على ذلك نتائج أعمالهم في الأمم التي حكموها، والممالك التي أحكموها، والمظالم التي منعوها، وأنواع العدل التي سلكوها، والسعادات التي نشروها.

(٢) ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وبغوا في الأرض الفساد وقطعوا الأرحام فحق عليهم قول الله: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾[محمد: ٢٢]، فلذلك استرد الله منهم ممالكه وأورثها قوماً آخرين قروناً وقروناً وهم يتدلون في حضيض الجهالة والمذلة. وكلما نبغ نابغ ذموه وحقروه، وكلما ظهر عالم ازدروه، واكتفوا من العلم بقشوره، ومن القرآن بلفظه، ومن العبادة بظاهرها، ومن الدين باسمه، واستحلوا الجهل واستعذبوه، واستبشعوا العلم ونبذوه، لذلك حرقوا كتب الإمام الغزالي في بعض بلاد الغرب في القرن الخامس، وذموا ابن رشد وكفروه أيام دولة الموحدين، فلم تقم في أمم العرب خصوصاً وأمم الإسلام عموماً للعلم قائمة بعد ذلك، كما ذكرته سابقاً في هذا التفسير في مواضع كثيرة وأوضحته أيما إيضاح.

ولما تم ذلك قيض الله للخلف قوماً آخرين ليسوا علماء كالذين نعهدهم، بل خلقهم على شاكلة تلك الأمم لم يتعلموا علماً ولم يحفظوا ديناً ولم يقرؤوا القرآن، وأنطقهم بعلوم فوق طاقة الإنسان، وإنّما فعل ذلك رحمة بهم؛ ذلك لأن رحمة الله عامة؛ فإننا نراه لم يذر حشرة ولا طيراً ولا حيواناً ذرياً لا تراه العيون إلا أحاطه بالنعم وملأه بالحكم، وأنت أيها الذكي تعرف ذلك من العجائب المتقدمة في هذا التفسير. فإن العلوم التي ملأ الله بها أرضنا والمسلمون كانوا محرومين منها وقد كتبت ثمراتها في هذا التفسير، تملأ القلب روعة وحباً لله تعالى، وإيقاناً بأنه لم يذر ذرة إلا ملأها بالحكم، ولا حيواناً دقيقاً أو عظيماً إلا أحاطه برحمته، فهو كذلك سبحانه أحاط آباءنا الذين جهلوا القرآن وكرهوا

العلوم برحمته ، ولم يذرهم يتخبطون في دياجير الظلام بلا مرشدين ، بل بث فيما بينهم هؤلاء الأقوام وهم أرباب القلوب والصالحون ، وكانوا كلما أوغلوا في الجهل زادهم الله من هذه الطائفة ، ومن هؤلاء من ذكرته سابقاً في هذا التفسير وهو الشيخ الدباغ الذي ظهر في بلاد مراكش منذ نحو قرنين اثنين ، فإنه كان في القرن الثاني عشر الهجري ، فهل لك أيها الذكي أن أحدثك عما جرى بيني وبين بعض علماء مراكش في عصرنا الحاضر في أمر هذا الشيخ ، وذلك أن هذا التفسير أثناء طبعه أخذ أفاضل العلماء في مدينة فاس وغيرها يقرؤونه لتلاميذهم ، فأنا حمدت الله عز وجل وزدت إيقاناً بما سيكون لهذه الأمة من السعادة والفضل العظيم .

والحديث الذي جرى بيني وبين هذا العالم الفاضل هو ما يأتي : قال : إنا لما اطلعنا على تفسير الجواهر انشرحت صدورنا وازدادت مسرتنا ، ووالله لقد سرت روح هذا التفسير أثناء طبعه في البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وأصبح العلماء والطلاب والعامة الذين يتعلمون منهم يفكرون في منافع أرضهم ومعادن جبالهم ومصادر أنهارهم ومواردها ، وفي الصناعات والعلوم على اختلاف درجاتها ، وقد انفتحت بصائرهم وانشرحت صدورهم بسبب ما يلقيه العلماء من الحكمة التي أودعها الله في هذه الدنيا ، فأصبحوا يرون حكم الله في الحجر والشجر والنهر والبحر والجبل ، مع أن تفسير القرآن كان العلماء يحرمونه قديماً على التلاميذ باعتبار أنه فوق طاقة المخلوقات ، وهذا القول سمعته من كثير من علماء تلك البلاد .

ثم قال : والله لقد أحسنت وأجدت وشرحت الصدر ، وهذا موافق لأقوال أكابر علماء الإسلام الذين لا يعولون في أقوال أهل الكشف إلا على ما وافق الدين ، وأنت صرحت بذلك ؛ إذن هذا يشجعني أن أسأل في بعض كلام الشيخ الدباغ وما مقصوده حتى نستفيد منه ، فقلت : سل ما بدا لك . فقال : إن الشيخ عبد العزيز الدباغ ذلك الرجل الأمي قد أتى في تفسير الحروف التي في أول السور بأمور عجيبة جداً تفوق طاقة الإنسان ، ولما اطلعنا على تفسير الجواهر وجدنا بصيصاً من نور كلامه فيه ، وبقية معناه فوق متناول العقول في زماننا ، فأريد منك إيضاح هذا المقام حتى أبثه بين إخواني العلماء إذا رجعنا إلى تلك الأقطار . فقلت : إذا تفضلت بإيضاح السؤال فإني أرجو من الله أن أوفق للإجابة . فقال : إنه يقول في معنى : ﴿ صٓ ﴾ إنها تشير إلى الفراغ الذي يتلون على ما تقتضيه أفعال كل ذات من الذوات . فتراه على كافر عذاباً ، وعلى مؤمن إلى جنبه رحمة من الرحمات ، وعلى كافر آخر واقف إلى جنب هذا المؤمن عذاباً ، ولكن لا من جنس العذاب الذي للكافر الأول بل من جنس آخر ، وعلى مؤمن آخر واقف إلى جنب هذا المؤمن رحمة ولكن لا من جنس الرحمة التي للمؤمن الأول بل من جنس آخر اقتضته أفعاله ، وهكذا حتى على جميع من في المحشر ، ولا تجد فيه حيزاً يشبه حيزاً أبداً مع أنه فراغ واحد في رأي العين ، وعلى ما تقتضيه طبيعة الدنيا . والمفتوح عليه يرى هذا عيناً ، فيرى زيداً في فراغه على ما كتب له ، ويرى عمراً في فراغه على ما كتب له ، وكأنهم الآن واقفون فيه بين يدي الله عز وجل ، فلهذا قلنا : لو علم الناس ما أريد بـ ﴿ صٓ ﴾ وما أشير به ؛ ما اجترأ واحد على مخالفة أمر الله عز وجل ، فإنه لو فتح للناس على مكانتهم في ذلك الفراغ لاغتبط المطيع ولمات

المخالف أسى، ولا يخفى أنه يكون في ذلك الفراغ الكفار والمؤمنون والأنبياء والملائكة والجن والشياطين، وقد أشار إلى الكفار في صدر السورة بذكر طوائف منهم، وإلى الأنبياء بذكر طوائف منهم، وإلى المؤمنين بذكرهم خلال ذكر الأنبياء، وإلى الملائكة بذكر الملأ الأعلى آخر السورة، وإلى الجن والشياطين بالإشارة إليهم في آخر السورة وذكر أحوالهم في الدنيا وإن لم تكن لهم في المحشر، لأنها هي السبب في اختلاف أحوالهم في ذلك الفراغ الذي يحشرون فيه، وبقيت أسرار أخر تتعلق بما في السورة لا يحل إفشاؤها، والله تعالى أعلم.

ثم أخذ بعد ذلك يتكلم على معنى: ﴿كهيعص﴾[مريم: ١] وغيرها فلا أطيل به؛ ثم قال: وقد رأيت نفس هذا الشيخ لما سأله الشيخ أحمد بن المبارك في سبب كون تكبير العيد سبعاً في الركعة الأولى وستاً في الثانية أجابه مسرعاً قائلاً: إن التكبيرة الأولى يشاهد فيها العبد المكبر ولا سيما سيد الوجود صلى الله عليه وسلم المكونات التي في الأرض الأولى والتي في السماء الأولى ويشاهد المكون سبحانه تعالى، والتكبيرة الثانية ويشاهد فيها المكونات التي في الأرض الثانية والتي في السماء الثانية، ويشاهد المكون سبحانه وتعالى لأنها أفعاله تبارك وتعالى، والتكبيرة الثالثة يشاهد فيها المكونات التي في الأرض الثالثة والتي في السماء الثالثة ويشاهد المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى، والتكبيرة الرابعة يشاهد فيها المكونات التي في الأرض الرابعة والتي في السماء الرابعة ويشاهد المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى، والتكبيرة الخامسة يشاهد فيها المكونات التي في الأرض الخامسة والتي في السماء الخامسة ويشاهد المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى، والتكبيرة السادسة يشاهد فيها المكونات التي في الأرض السادسة والتي في السماء السادسة ويشاهد المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى، والتكبيرة السابعة يشاهد فيها المكونات التي في الأرض السابعة والتي في السماء السابعة ويشاهد المكون سبحانه لأنها أفعاله تبارك وتعالى. هذا في الركعة الأولى.

وأما الركعة الثانية فإن التكبيرات الأولى منها يشاهد فيها ما خلق في اليوم الأول وهو يوم الأحد ويشاهد المكون سبحانه وتعالى، والتكبيرة الثانية يشاهد فيها ما خلق في اليوم الثاني وهو يوم الاثنين ويشاهد المكون سبحانه، والتكبيرة الثالثة يشاهد فيها ما خلق في اليوم الثالث وهو يوم الثلاثاء ويشاهد المكون سبحانه، والتكبيرة الرابعة يشاهد فيها ما خلق في اليوم الرابع وهو يوم الأربعاء ويشاهد المكون سبحانه وتعالى، والتكبيرة الخامسة يشاهد فيها ما خلق في اليوم الخامس وهو يوم الخميس ويشاهد المكون سبحانه وتعالى، والتكبيرة السادسة يشاهد فيها ما خلق في اليوم السادس وهو يوم الجمعة ويشاهد المكون سبحانه وتعالى. فقلت: وهذه المخلوقات في هذه الأيام الستة هي التي في السماوات السبع وفي الأرضين السبع. فقال رضي الله عنه: يشاهد عند رؤيته إلى الأيام أصول المخلوقات التي كانت في بدء الخلق، وأما عند نظره إلى السماوات والأرضين فيشاهد المخلوقات الموجودات على ظهرهما. فقلت: فتكبير العيد سبعاً وستاً شرع في حق كل مكلف وأين كل مكلف من هذه المشاهدة؟ فقال رضي الله عنه: من فتح الله عليه فلا كلام فيه، ومن لم يفتح عليه فينبغي له أن يستعمل هذه المشاهدة ويستحضرها ولو على سبيل الإجمال، والله تعالى جواد كريم، فإن استحضر

العبد ما ذكرت في هذا العيد وفي العيد الذي بعده وهكذا وفرح بربه ودام على ذلك فإن الله تعالى لا يخيبه ولا تخرج روحه من جسده حتى يريه تعالى المشاهدات تفصيلاً، لأن الله على كل شيء قدير، والبعد والانقطاع إنّما حصل من ناحية العبد لا من ناحية الرب سبحانه وتعالى، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩].

ثم لما أجابه عن ذلك سأله عن سر التكبير ثلاثاً إثر خمس عشرة فريضة من ظهر يوم النحر إلى صبح اليوم الرابع. فقال: التكبيرة الأولى يستحضر فيها ويشاهد تصوير الذات نطفة ثم علقة ثم مضغة، والتكبيرة الثانية يستحضر فيها ويشاهد تمام التصوير وكماله وحسن خلقه ونفخ الروح فيه وصيرورته خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين، والتكبيرة الثالثة يستحضر فيها ويشاهد فساد الصورة ورجوعها تراباً حين تكون في القبر، فإن هذه الأمور الثلاثة من عجائب قدرته تبارك وتعالى، ومن غرائب ما أبدعه في مصنوعاته سبحانه وتعالى لا إله إلا هو، وهذا التكبير لا يختص عند الصوفية بما ذكره الفقهاء بل يستعملونه دبر كل صلاة ولكن قبل السلام منها. قال رضي الله عنه: والمفتوح عليه يشاهد هذه الأحوال عياناً ويراها جهاراً، فيشاهد من باهر قدرته تعالى ما لا يكيف، وكم من عجائب الله تعالى في مخلوقاته، فإذا حصل للمفتوح عليه ما أوجب تغييره أو قبضه أو نحو ذلك نظر إليها فيحصل له من التوحيد والاعتبار ومحو ما نزل به ما لا يكيف، فيغير المفتوح عليه يدفعه بالرؤية والعيان «كذا». قال رضي الله عنه: وعلى وجه الأرض عجائب لو شاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا إلى دليل، من تلك العجائب ما إذا شاهده العبد علم بوحدانية الله تعالى من غير دليل وتكفيه مشاهدة ذلك الأمر، ومنها ما إذا شاهده العبد علم بوجود الجنة، ولا يحتاج إلى إقامة الدليل على وجودها، ومنها ما إذا شاهده العبد علم بوجود جهنم ولا يحتاج إلى دليل، إلى غير ذلك من عجاب مخلوقات الله تعالى والله أعلم. انتهى من «كتاب الإبريز».

هذا هو الذي أسألك عنه. ثم قال: ولست أقول إنك تجيبني من ذلك المقام الواسع، فإنه فوق طاقة أهل الأرض، ولكني أسألك لتجيبني بما يفتح الله به عليك أنت مما يناسب زماننا الذي خلقنا نحن فيه. فقلت: اعلم أيها الأخ الفاضل أن الله عز وجل خلق أرباب القلوب وجعل بعضهم كالشيخ الدباغ من الطبقة التي لم تتعلم، والسبب في ذلك رحمته بالعباد، فإن المسلمين لما كرهوا العلوم وحرموها وطردوا أهل العلم فذهبوا إلى أوربا وهو سبحانه وعد، ووعده حق إذ قال: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ﴾[الأعراف: ١٥٦]، فلم يشأ أن يذرهم بلا علم لأن الإنسان هو الحيوان الناطق. فقال لهم: يا عبادي أنتم كرهتم المفكرين والعقلاء الذين يجتهدون بعقولهم، فأنا أرسلت لكم من ينطقون بالعلم بلا كلفة، ولكني عدل ولم أخلقكم في الأرض ليكون علمكم بلا مشقة، إن العلم الذي يعطى للإنسان بلا مشقة لا فضل فيه له، وكل ما كسبه الإنسان بنصبه وتعبه كان كمالاً له، وكل ما أعطي له بلا مشقة ولا نصب كان أشبه بالمال الذي يرثه الولد عن أبيه، فهو لا يعرف له قيمة ولا وزناً.

فهؤلاء الصالحون بثهم الله فيهم، فمنهم الصادقون وهم قليل جداً، وأكثرهم يعيشون متمتعين بالراحة على نفقة هؤلاء الجهلاء، وقد جعلوا الدين شبكة يصطادون بها حطام الدنيا، وهم هم الذين

يساعدون الفرنجة في إذلال الشعوب، ومثلهم بعض أمراء الإسلام، فهاهنا ثلاث طوائف: بعض رجال العلم والتصوف وبعض الأمراء والمستعمرون، فهؤلاء هم الذين يحبون أن يبقى المسلمون في الذل والجهل ليعيشوا معاً على حسابهم ومن كد أيديهم، وهذه الطوائف الثلاث كالعنكبوت تصطاد الذباب بالشبكات، فالذباب هم جهال المسلمين، والعنكبوت الصائد هم المستعمرون وبعض أمراء الإسلام وأكثر رجال التصوف وأهل العلم الذين يعملون لإرضاء المستعمرين.

فإذا خلق الله أمثال الشيخ عبد العزيز الدباغ وأنطقه بالحكمة التي فوق متناول عقول أهل الأرض فذلك لحكم:

أولاً: أن هذا الشيخ لم يقرأ مثلهم، وليس فيلسوفاً ولا حكيماً حتى يكفروه، فهذا به يأتنسون وهذه رحمة بهم.

ثانياً: هو ينطق بالعلوم المدهشة التي يقف أكبر حكيم أمامها حائراً لعلوها، وهذا يجعل أولئك الجهلاء مصدقين بالدين الإسلامي، فيكون أرباب القلوب إذ ذاك أشبه بأوتاد وجبال، فكما أن الأوتاد تحفظ الخيام من أن تزعزعها الرياح، والجبال تحفظ الأرض من أن تميد، هكذا أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الخواص ومن على شاكلتهم بثهم الله في الأرض كما بث الجبال الرواسي، فثبتوا قلوب آبائنا علماء وجهلاء وثبتت العقائد، وآمن الناس واستماتوا في الدين استماتة حفظته من الضياع حتى سلموه إلينا.

ولا دين يبقى في الأرض بلا دعاة، وهذه النصرانية لولا جمعيات المبشرين ـ الذين يملكون من المال مئات الملايين ويجمعونه من سائر الأقطار، وبهم زلزلوا عقائد بعض المسلمين ـ لم يبق لها وجود، والدين الإسلامي لا جمعيات له والله يريد بقاءه كما وعد، فخلق هؤلاء الذين هم أرباب القلوب فنطقوا بالحكمة التي تجري على ألسنتهم كما ينطق المنوّمون ـ بالفتح ـ تنويماً مغناطيسياً، وهؤلاء وهؤلاء يشاهدون عوالم لم نشاهدها نحن في أجسامنا هذه، غاية الأمر أن أرباب القلوب من المسلمين وصلوا لذلك بأنوار بصائرهم، والمنوَّمون ـ بالفتح ـ وصلوا لذلك بطرق صناعية، والأولون أرقى منهم، والعوالم كلها في يد الله وهو الذي فعل ذلك رحمة بآبائنا، فحفظ هذا الدين ثم وصل إلينا فنظرنا فيه وفرحنا بنعمة الله.

حكم أرباب القلوب
كالشيخ عبد العزيز الدباغ وتفسير الجواهر

كلاهما من مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] الخ، وقوله أيضاً في السورة السابقة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

فقال الأستاذ: إن في الأمر لغموضاً فأرجو إيضاحه حتى أفهمه. فقلت له: ماذا قال الشيخ عبد العزيز الدباغ؟ ألم يقل: إن كون تكبير الركعة الأولى في العيد سبعاً وفي الثانية ستاً يرجع إلى مشاهدة عجائب السماوات السبع والأرضين السبع في كل تكبيرة سماء وأرض من تلك الأرضين والسماوات؟

قال: بلى. قلت: ألم يرجع هو رحمه الله تكبيرات الركعة الثانية الست إلى مشاهدة المخلوقات التي خلقت فوق الأرض في كل يوم عالم من العوالم كالذي تقدم في علم طبقات الأرض إجمالاً موضحاً بالصور الفوتوغرافية في السورة السابقة؟ قال: بلى والله. قلت: رجع كلامه في تكبير الركعتين إلى عجائب السماوات والأرضين في الركعة الأولى وإلى ما كان عليهما في مبدأ الخلق في الثانية، ولما كانت الأمم تعرف السبع والست وأن الأولى سماوات وأرضون والثانية أيام أنزل هو التكبيرات على ذلك بإلهام من الله تعالى.

ومعلوم أن عوالم الأثير الذي لا وزن له قد قرر علماء عصرنا أنه عالم أثقل من الذهب والحديد بما لا حد له كما تقدم في أول سورة «الصافات» وإن لم يكن مادة، وإذا كان الذهب أثقل من مقدار حجمه من الماء نحو ١٩ مرة؛ فإن المليم الواحد من هذا الجو أثقل من ألف طن كما تقدم في أول سورة «الصافات» ثقلاً مادياً فاقرأه هناك مفصلاً. فالسماوات السبع والأرضون السبع اقتصر عليها لأن الناس لم يسمعوا إلا بها، ولكن من زماننا ظهر أن المجرة فيها عشرة آلاف مليون أرض، وكم في الكون من ملايين المجرات، إذن هذا ما هو إلا قول على مقدار ما يفهم السامعون.

ثم قلت: انظر زادك الله علماً، وشرح صدورنا وصدور العلماء في الإسلام لإنقاذ هذه الأمة المسكينة من الجهالة؛ أفلست تراه لما سئل في التكبير ثلاثاً إثر خمس عشرة فريضة من ظهر يوم النحر إلى صبح اليوم الرابع، قسم أطوار خلق الإنسان إلى ثلاثة أقسام: فجعل أطوار النطفة والعلقة والمضغة قسماً، ثم تمام التصوير والحسن والجمال والكمال وانتشار الروح فيه وحياته قسماً، وهلاكه وفساد صورته ورجوعه تراباً قسماً، وجعل كل قسم لتكبيرة من التكبيرات الثلاث. قال: بلى. قلت: ثم إنه لما أتم ذلك أتى بالمقصود الحقيقي، وأبان أن ذلك ليس هو كل شيء وإنّما هو ضرب أمثال. فقال: إن المفتوح عليه يشاهد من باهر قدرته تعالى ما لا يكيف، وكم من عجائب لله تعالى في مخلوقاته، فإذا حصل للمفتوح عليه ما أوجب تغييره أو قبضه أو نحو ذلك نظر إليها فيحصل له من التوحيد والاعتبار ومحو ما نزل به ما لا يكيف.

ثم قال: وعلى وجه الأرض عجائب لو شاهدها أرباب الأدلة والبراهين ما احتاجوا إلى دليل من تلك العجائب الخ.

أفلا تعجب معي من هذا المقال! أليس هذا هو عين ما قلته في هذا التفسير مراراً: إن العبادات يقصد بها فتح باب العلوم.

ومن أعجب العجب أن يقول في التكبير: إنه يقصد به التفكر في السماوات والأرض وما خلق عليها. وهذا هو تفسير قول المصلي: ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد الخ، وعين أذكاره في ركوعه وسجوده، إذ يذكر السمع والبصر الخ. إذن هذا سر أظهره الله في أيامنا هذه، بل ألا تعجب من أنك أنت سألت هذا السؤال أيها الذكي. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: إن هذا المقال كله تفسير لآية: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، فأما الآفاق فهو ما ذكره الشيخ الدباغ من السماوات والأرض في تكبيرات العيد، وأما الأنفس فهو ما

ذكره رحمه الله في تكبيرات أيام التشريق في (١٥) فريضة، إذن هذا كله تفسير لآية: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [فصلت: ٥٣] الخ في السورة السابقة.

وإنّما أبرزه الله على ألسنة هؤلاء الذين يخلقون في زمن اضمحلال العلم وشيوع الجهل ليكون ذخيرة للمسلمين يقرؤونه وهم معجبون فيؤمنون كما تقدم، ولكنهم لطردهم العلماء وفرحهم بالجهل يعكف الصالحون منهم على العبادة ويذرون عقولهم تتخبط في ديجور الظلام.

إذا ما لم تكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصي

ويكتفون بأنوار الصلاح مع حرمانهم من أنوار العلوم. وغاية الأمر أن أناساً منهم يفتح عليهم وهؤلاء قليل نفعهم للأمة، ونحن جئنا في الأرض ليكون بيننا رابطة ودية، ولن تتم تلك الرابطة بيننا إلا بأن نعرف العلوم التي بثها الله في أرضنا بعقولنا، وهذا هو مقصود القرآن، أما الفتوح فأمر آخر يختص بالإنسان نفسه، والسعادة الحقيقية في إسعاد الأمة، ولا سعادة لها إلا بتعميم التعليم، ولن يكون ذلك إلا بالعقل والفهم والجري على سنة الله في أرضنا. إذن أرباب القلوب:

(١) نفعوا القدماء بالإيمان بسبب مشاهدتهم، ولكن هؤلاء الأتباع لا علم عندهم وعقولهم تقف عند حد خاص، لأنهم يرون جميع علماء الإسلام جهلاء، فالفقه والأصول ونحوهما كلها لا فائدة منها وهكذا التفسير، إذ تفسير هذه الطائفة فوق طاقة المفسرين.

(٢) ونفعوا الذين في زماننا وهم قراء أمثال هذا التفسير. ذلك أن قراءه في أقطار الإسلام سيكونون جميعاً على مشرب واحد، لأنهم يحبون معرفة العوالم العلوية والسفلية، ويرون حكم الله في كل ما جلّ ودق، ويفرحون فرحاً لا حد له، ويرقون رقياً لا أعرف أنا منتهاه الآن، فيكون الشافعي والحنفي والحنبلي والزيدي والمالكي والجعفري وكل شيعي على سنن واحد في حب ربهم وحب الأمة الإسلامية وحب العلوم، ويرون هذا الخلاف البسيط في عدد الركعات أو التكبيرات أو نحو ذلك أمراً سهلاً، ويتجلى لهم الجمال في كل هذه الدنيا ويزدرون تلك العداوات في القرون المتأخرة الناشئة من الجهل بنظام الله تعالى في العوالم كلها. فهؤلاء سيذيعون ما في هذا التفسير من العلوم بين أمم الإسلام قاطبة. وهناك يقابلهم طوائف من العباد والنساك وتلاميذ صغار مشايخ الطرق، فيقولون لهم: إن هذه العلوم التي في هذا التفسير ما هي إلا بدعة ولم ترد على المتقدمين، فيقولون لهم: أرأيتم أن أعظم أمرها أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الخواص فماذا تصنعون؟ فهنالك يخضعون ويكون ما تقدم من كلام الشيخ الدباغ حجة عليهم. متى سمعوه يقرون بأنهم جهلاء وأنهم يجب عليهم أن يتعلموا، وغاية الأمر أن الأغبياء منهم يقولون: هذا أمر لا يصح إلا بالفتح، فيرد عليهم بما تقدم في سورة «الحج» بما نقلته أنا في هذا التفسير عنه نفسه، وهو أن الفتح ليس مقصوداً بل الحجاب لأكثر الناس خير منه. فقال الأستاذ: حقيقة أنا قرأت هذا في تلك السورة منقولاً عنه.

فقلت: إذن ملخص كلام الشيخ الدباغ تفسير لهذه الآية، وهو مقدمة جعلها الله مخزونة في الكتب حتى ظهر تفسير الجواهر وأمثاله في زماننا فوافق شرحه طبقته، ذلك ليأنس بهذا الكتاب جميع أفراد الأمة وأكثرهم أتباع مشايخ الصوفية، وهؤلاء متى عرفوا أن ذلك أهم مقصود الصوفية فرحوا به

وأحبوه وتعلموا العلوم بعقولهم . وإذن لا يكون هناك تعطيل لعقول المسلمين كما كان في القرون المتأخرة ، إذن لم يبق إلا أن أذكر معنى ﴿ صٓ ﴾ في كلام الشيخ الدباغ .

ثم إن ما قاله في معنى ﴿ صٓ ﴾ وغيرها فكله على هذا النمط ، فهو للأمم الإسلامية الجاهلة في القرون المتأخرة إيمان وثبات عقيدة وللأمم الإسلامية المستقبلة المستنيرة بصائر ونور ، إذ يعرفون أن كلامهم هو إجمال لعلوم الأنفس والآفاق ، وأمثال هذا التفسير تفصيل يدركه العقل ، وترى الأمم الإسلامية المستقبلة والحاضرة التي قرأت هذا الكتاب وهو « تفسير الجواهر » أن هذا ليس بدعاً ، بل أرباب القلوب قد ألمعوا إلى ما فيه وأتوا برموز وإشارات . فهم في المسلمين أشبه بحروف أول السور في القرآن . فكما أن حروف أول السور مفاتيح لعلوم تلك السور ، وقد فتح الله في هذا التفسير في معاني هذه الحروف بما أراده على مقدار طاقة المؤلف وطاقة الأمم الإسلامية . هكذا جاء أولئك الصالحون وكأنهم رموز وكلامهم رموز قد حفظها المسلمون ولم يدركوا مقصودهم ، فجاء أهل عصرنا وقرؤوا أمثال « كتاب الجواهر » فأدركوا التفصيل ، وهذا معناه أن تتصل الأمة سلفها وخلفها ، فالسلف الأول وهم الصحابة والتابعون ومن بعدهم بالشريعة والعلوم الإسلامية وخلفهم الجهلاء في القرون المتأخرة بالرموز والإشارات وكلام أرباب القلوب والمسلمون بعدنا بالعلم والحكمة وظهورهم في الأمم المستقبلة وسعادتهم أولاً وإسعادهم لأهل الأرض ثانياً ، وكل ذلك مع حبهم لربهم وخدمتهم للإنسانية العامة .

ولا جرم أن المعاني التي ذكرها الشيخ الدباغ في معنى ﴿ صٓ ﴾ لم تخرج عن آيات الله في الأنفس وإذا رأيناه في التكبير وراء الصلوات أيام التشريق الثلاثة من أول ظهور يوم النحر يرجعها هو إلى أحوال الأنفس من حيث حياتها الجسمية في الرحم وفي الدنيا وفي حال الموت وجعلها من العجائب والغرائب . فهاهو ذا معنى : ﴿ صٓ ﴾ ، يقول : إنها تشير إلى الخلاء الخ .

ومعنى هذا أننا نحن في الأرض اليوم متفقون بحسب الظاهر في الحيوانية والناطقية . وأننا نأكل ونشرب ونلبس . والحقيقة أننا الآن أشبه بقوم في أحلام ، فإذا رأيت جماعة في مجلس وهم يتحدثون فظاهرهم واحد ، ولكن الحقيقة أن أحدهم بين جنبيه نار ، والآخر بين جنبيه نار أخرى ، وثالث في قلبه مسرة ، ورابع في قلبه مسرة أخرى وهكذا ، فهم إذن أشبه بالنائمين ، فهذا يحلم حلماً مفزعاً والآخر بجانبه يرى أنه لابس تاج ملك ، أو أن عروساً تزف إليه . فإذا تشابه النائمان أجساماً واختلفا نفوساً من حيث المسرة والمساءة ، فهكذا هؤلاء الجالسون المتشابهون في مجلس واحد ، أكثرهم في نصب وتعب وشقاء في الحياة الدنيا والآخرة ، ولا شقاء هناك إلا من الشقاء هنا ، لأن من يملك قنطاراً من الذهب في غاية الحزن لأنه لا يملك قنطارين ، وهذا ظاهر واضح . إذن هذه الحياة أشبه بنار جهنم ، ولكن الناس لا يعلمون أنهم في تلك النار الجهنمية ، فهي وإن لم تكن ناراً ظاهرة فهي عذاب شديد ونحن لا نحس به ولا نظن أنه عذاب . هذا معنى كلامه . ومثل ما قلنا في الشقاوة نقول في السعادة . فالسعيد أقوام تخلت نفوسهم عن الطمع والحسد والغل ، وهؤلاء يعيشون بيننا ولكن الناس حولهم لا يعرفون سعادتهم وصفاءهم وهم بين ظهرانينا ، إذن هذه الأنفس فيها عذابها الآن ونعيمها الآن . وينبوع العذاب والنعيم

هذه الأنفس الإنسانية في الأرض، والله هو المتجلي على الجميع. وكأن الناس اليوم واقفون أمام ربهم والله سبحانه يعذب ويرحم كل نفس بما أودعه فيها، والوقوف يوم القيامة تابع للوقوف في الدنيا.

هذا معنى كلامه، وقد جعل جميع ما في السورة راجعاً إلى هذا الأصل كما تقدم. فهذه المعاني التي يقولها الشيخ الدباغ راجعة كما قلت لك الآن إلى عجائب الأنفس، كما إن عجائب تقلب الإنسان في أطواره راجعة إلى عجائب جسم الإنسان.

إذن معنى ﴿ صٓ ﴾ الذي ذكره مؤيد لما ذكرناه من أن هؤلاء القوم وإن كانت علومهم ليست من المستوى الذي نسير عليه في أمثال هذا التفسير بل ترجع إلى مقام آخر؛ فإنها ترجع إلى عجائب الأنفس والآفاق، وإذن سؤالك أيها الذكي جمعت فيه ما يتناول الآفاق في السماوات والأرض وما يتناول الأجسام الإنسانية وعجائب النفوس الإنسانية.

وبهذا ظهر أن الأمة الإسلامية متحدة المشارب سائرة على نمط واحد أولها وآخرها. فقال: ما شاء الله كان. لقد شرحت صدري وأبنت الحقيقة وتجلت. فلله الحمد والمنة. وله الشكر على هذه النعمة. ولكن عندي سؤال واحد، فهل تأذن لي به؟ فقلت: سل ما بدا لك. فقال: لقد سمعت في أثناء الإجابة على ما سألتك عنه تقول: إن هؤلاء الصالحين وأرباب العقول يخلقون في أيام اضمحلال العلم وشيوع الجهل، فكيف يكون ذلك؟ فقلت: إن الله عز وجل قال: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾[نوح: ١٧]، ولا جرم أن الإنسان نبات مقلوب. فرأسه في الهواء والنبات رأسه في الطين، ويداه ورجلاه كفروع الشجرة وأغصانها، وصدره وظهره كجذع الشجرة، ولذلك يسمونه في علم التشريح الجذع. قال: نعم فهمت. هذا واضح. فقلت: إن النبات على قسمين: نبات يخرج بلا زرع زارع ولا حرث حارث كما نرى في الغابات والأودية والبرك والمستنقعات والأنهار وفوق الجبال. ولقد مر عليك في هذا التفسير أنواع المرجان التي تظهر بهيئة نبات وإن كانت حيوانات كثيرة اجتمعت بصورة نبات. وبالجملة هذه الأرض ينبت فيها نبات نافع بلا زارع له، وتخرج منه ثمار بهجة بهية نافعة. فإذا سكن تلك الأرض الإنسان فإنه يزيل تلك الغابات ويبيد الحشائش ويقتلعها، فينتفع بالخشب والأعشاب، ثم يستعمل الأرض لما يزرعه هو على حسب حاجته فلا يخضع للطبيعة بل شرفه هو أن يخضعها هو بعقله الذي هو أشرف من الطبيعة.

هذا هو المثل الذي أردت ضربه، فلننظر إلى المسلمين فإنهم لما تركوا عقولهم ومواهبهم كانت نفوسهم أشبه بالأرض التي ظهرت فيها أنواع الطحلب والحشائش والشوك والحسك والأشجار المثمرة وغير المثمرة، فأما الطحلب والشوك والحسك فهم أولئك الدجالون من الشيوخ الذين يجتمع الناس حولهم وهم لا علم عندهم ولا دين، وما أكثرهم في بلاد الإسلام، وعلامتهم أنهم يأخذون المال إما من الحكومات الأجنبية المستعمرة وإما من أهل البلاد ثمناً لولايتهم وصلاحهم.

وأما الأشجار المثمرة ونحوها فنظيرها في المسلمين أمثال الشيخ الدباغ والشيخ الخواص، وهؤلاء قليل. فإذا ما ازدهرت البلاد الإسلامية بالعلم وعمرت العقول بالحكمة وترعرعت العلوم وارتقت، فهنالك تقل هذه الطوائف إذ لا حاجة إليها، كما يقل الحسك والشوك والأعشاب الضارة

بالزرع والبرك والمستنقعات الضارات بنوع الإنسان إذا انتظمت البلاد وعم الأمن وحفظت الأنهار والقنوات، هنالك يحل زرع الزارعين من الناس محل مزارع الطبيعة، وترى النخل والزيتون والرمان والعنب والقمح بدل الشوك والحسك والحشائش الضارة. هذا هو المثل الذي ضربه الله في أرضه لهؤلاء الصالحين بقسميهم، فإنه إذا ارتقى التعليم في بلاد الإسلام يقل هذا الفريق صادقهم وكاذبهم. فقال: لقد تم ما أردت أن أعرفه وانشرح صدري. فقلت: الحمد لله رب العالمين. كتب ليلة الجمعة ٧ نوفمبر سنة ١٩٣٠م.

جمال العلم وبهجة الحكمة

هاهنا قال صديقي: هل تأذن لي أن أسألك سؤالين يلذ لي وللمسلمين الإجابة عليهما، فهذا المقام وإن طال فإن القول فيه جميل والحكمة بهجة والسعادة ترفرف بأجنحتها على هذه الأمة الإسلامية بإظهار هذه الحكم التي كانت خافية على العقول ولم تكن إلا رموزاً، والدين يسر والقرآن شفاء، والله يقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[القيامة: ١٩]، ويقول: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[البقرة: ٧٣]، ويقول: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فصلت: ٥٣]، وإذا كان تبيان أن القرآن حق لا يكون إلا باليقين، فأذن أن أطلب منك الإجابة على السؤالين الآتيين، فما طلبت إلا اليقين الذي وعد الله أن ينشره في المسلمين، وقد صدق الله وعده في زماننا وجاء اليقين لا سيما في هذا التفسير، فلعلي بعد هذا البيان أحظى بأن تأذن لي بإيراد هذين السؤالين. فقلت: حباً وكرامة. فقال:

أولاً: إن ما أوردتموه في تفسير كلام الشيخ الدباغ من حيث إن العجائب الكونية وأنواع الجمال تعرف الناس أن هناك جنة وأن هناك ناراً يحتاج إلى إيضاح أوفى وعلم أوسع، فلقد ذكرتم أمثال الذباب والقاذورات وأمثال الصقور والرمم وأمثال البهائم والمزارع من حيث اختلاف الأغذية باختلاف المغتذيات. وفي المقام طول. والاستنتاج يعوزه العقول الممتازة. فنحن في حاجة إلى برهان يسهل على كل قراء هذا التفسير.

ثانياً: إن الكلام في العفونات والرطوبات وما يقابلها من الشهوات يعوزها زيادة إيضاح وبيان أتم من حيث الحكمة، بحيث يكون بانضمامه إلى ما تقدم كافياً وافياً لإشباع هذه النفوس المشرئبة للحكمة في بلاد الإسلام.

فقلت: نعم. أبين هنا عجباً آخر وهو اختلاف النبات ورقاً وزهراً وثمراً. إن في اختلاف النبات ثماراً وروائح وطعوماً وجمالاً وصغراً وكبراً لعبراً تفتح لها باب المعقولات على مصراعيه. ألم تر أن معلوماتنا وعلومنا وعقولنا وعواطفنا تتربى في معاهد ومدارس مخلوقات في داخل أجسامنا. وتلك المدارس والمعاهد الداخلات في نفوسنا تشبه من وجه المصانع والمعامل التي وزعت على قناتنا الهضمية واختلفت باختلاف مناطقها. ففي الفم ترى ستة أنهر جعلت لهضم المواد النشوية، وهناك ترى غدة البنكرياس وغدة الصفراء وعصارات المعدة والأمعاء وحركات القبض والبسط لأعضاء الهضم، فهذه في هذه الأغذية المادية التي يتعاطاها الإنسان التي يمكنك أيها الذكي الرجوع إلى دراستها كرة أخرى في

سورة « فاطر » عند قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [الآية : ١١] الخ ، وترى أشكالها مرسومة تسر قلبك بالتعقل وروحك بالفهم وجليسك بالأنس . فهذه هي التي شبهنا بها المدارس والمعاهد الموزعات في مناطق عقولنا المرسومات في مخنا ، فهذه إذا وردت لها علوم إما بواسطة الحواس كالبصر والشم والذوق ، وإما بواسطة كلام محمول في الهواء داخل في الصماخ ، دال على نفس تلك المعاني المنقولة بتلك الحواس مباشرة ، فإن تلك المعاهد التي شبهناها بمناطق القناة الهضمية تتلقاها ، وكل معهد من معاهد المخ يعمل في تلك المعاني عمله ، فمعمل يجمع تلك المعلومات جمعاً كأنه مخزن الرسوم وهو الحس المشترك ، ومعمل للتحليل والتركيب كالمعامل الكيميائية في المدارس وهي القوة المخيلة ، ومعمل لإصدار الأحكام وهي القوة المفكرة ، ومعمل جعل لمجرد الحفظ وهناك آخر جعل للتذكير وهي الذاكرة .

وهناك معمل جعل لإبراز آثار ما كمن في تلك المعاهد كلها بهيئة ظاهرة غير خافية ، فهو يصور ما تحويه تلك المعاهد كلها ، ويظهر للعالم الخارجي بحيث يستبين للناس أن وراء هذا المعهد معاهد جمعت صوراً لكل ما هو ظاهر للناس في أقطار الأرض ، وهذا المعهد الأخير هو اللسان ، فهو يعبر عن تلك القوى كلها ويبرزها بهيئة حروف ، فهو يعبر عن كل ما في خزانة الخيال والحس المشترك والقوة المفكرة إلى آخره ، فهذه هي المعاهد أو المعامل التي في نفوسنا الموزعات على مناطق أدمغتنا المطابقات للعوالم الخارجية المشابهة كل المشابهة لمعامل المناطق الهضمية المشروحة سابقاً .

إذا صح هذا فنقول : إذن هنا تربية للمعلومات في نفوسنا تربية حقيقية ، كما ربينا الغذاء في القناة الهضمية فخرجت ثمرة الغذاء بعد الهضم على مقتضى القناة الهضمية من ضعف وقوة وإجادة وإهمال ، وأي فرق بين نتيجة الغذاء من حيث الصحة والمرض ، والقوة والضعف ، والجمال والقبح ، والذكاء والبلادة ، التي تربت جميعها على هيئة الغذاء الذي ربيناه وهذبناه بآلاتنا في معاملنا الموزعات على مناطق قناتنا الهضمية وبين علومنا ومعارفنا التي ربيناها في مناطق مخنا وترعرعت وشبت وبلغت أشدها وصارت فتية قوية .

كل ذلك بما لنا من معاهد قائمة في مناطق أدمغتنا ، فمنها معهد لجمعها ، ومعهد لتحليلها وتركيبها ، ومعهد لاصطفاء ما هو أجمل ، ومعهد هو خزانة لما ينبغي بقاؤه ، ومعهد هو دار لذكرى ما نحن في حاجة إليه ، ومعهد لنشر ما في الخارج ، إن في الدماغ لأماكن لعلوم اللغات ومناطق للعلوم الرياضية وأخرى للطبيعية وهكذا ، ولو أن منطقة من هذه أصابها العطب ، وحل بها الوصب ، ونزلت بها الكوارث ، وانتابها الخطوب ، لتعطلت تلك المنافع المترتبة عليها ورسب في الامتحان تلاميذ معاهدها ، فلا ترى ذلك الإنسان يحسن أن يعد الآحاد فضلاً عن العشرات ، فضلاً عن الطرح والقسمة والضرب إذا اضمحلت مناطق العلوم الرياضية من الدماغ ، كما تكون الأمة الأمية لا علم لها بالحساب إذا لم يكن فيها علماء به ، وعلى هذا فقس ، فالنتيجة أن المعارف تربى في نفوسنا تربية منتظمة ، ونتائجها تكون على مقتضى مناطق تربيتنا لها في عقولنا ، كما كانت نتائج الأغذية تابعة لمناطق القناة الهضمية سواء بسواء .

هذا، ولا جرم أن هذا عين ما يكون في النبات. فزهره وورقه وأثماره تابعات لتلك المعامل الكامنة في باطنه، فللنبات معامل في داخله تتربى فيها جراثيم الأزهار والأنوار والأوراق والثمار، وتكون الثمار الناتجات تابعات لمزاج ذلك النبات في الداخل، فيكون حلواً ومراً وعفصاً وحريفاً ومسهلاً وقابضاً ومغذياً ومنعشاً ورديئاً وحسناً وذا رائحة جميلة ورائحة غير جميلة وساماً وشافياً ومسكناً ومخدراً، وهكذا من الصفات والأحوال المختلفات، إذن عندنا ثلاثة أنواع من المناطق: النوع الأول: القناة الهضمية في كل حيوان. النوع الثاني: المناطق التي في النبات، ولا جرم أن هذين النوعين من واد واحد، لأن النبات والحيوان في هذا المعنى متشابهان، لأن في كل منهما مناطق هضم، واختلفت ظواهرها واتحدت وجهتها. النوع الثالث: مناطق الفهم في الدماغ اللاتي فيها تربى العلوم، وهذه تحذو حذو القسمين الأوليين في أن النتائج لا تعدو المقدمات، وهاهنا آن أن نظهر نتيجة هذا كله فنقول:

المعارف والآراء والعواطف التي رزقها الإنسان في هذه الحياة تكون نتائجها تابعات لما أدته مصانع عقله ومعامل ذهنه، كما تعمل قناته الهضمية وكما يكون ثمر النبات. أليس هذا هو البرهان اليقيني على الجنة والنار؟ وما هي الجنة؟ وما هي النار؟ ألم نقدم أنهما يرجعان لكل محبوب ولكل مكروه مهما كانت هيئته، ألم تر أن ثمرات النبات تختلف سموماً وأغذية. قال صاحبي: بلى. قلت: وحلاوة وحموضة. قال: بلى وربي. قلت: وأحدهما محبوب والثاني مكروه. قال: بلى. قلت: فأحدهما يمثل الجنة وثانيهما يمثل النار. ومعنى هذا أن جهاد النبات في معامله الداخلية أنتج ما هو محبوب لنا وما هو مكروه على حسب المصانع التي تربت فيها الثمرات، هكذا جهاد الإنسان في معامله الداخلة أنتج ما هو محبوب له ومكروه على حسب تلك المصانع إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وإذا كانت علومنا ومعارفنا ما هي إلا نتائج معاملنا الداخلية ما دمنا في هذا الجسم، وإذا نبذناه وألقيناه شاهدنا النتائج عالقة بأرواحنا ظاهرة في نفوسنا، نراها رأي العين، فهذا نظير ما إذا درسنا القمح وذريناه وغربلناه فألفيناه حباً لا تبن معه ولا طين. ويكون الحب نتيجة لذلك الزرع شرفاً وضعة كما أن عواطفنا وعلومنا نتائج مصانعنا شرفاً وضعة وصحة ومرضاً.

وإذا كان لكل نبات ثمرات لها مصالح تتبعها، فمن الجهل والغباوة أن نقول إن هذا الإنسان وعقله وعواطفه التي رباها في نفسه لا نتيجة لها، أليس من الغفلة أن نعرف أن الإنسان والحيوان والنبات كلها أجسام نامية؟ ثم إننا نعلم علم اليقين أن لثمرات النبات نتائج تختلف باختلاف مزاجه وننكر ذلك في نوع آخر من أنواع الناميات وهو الإنسان. وإذا كان حب النبات يبقى متميزاً بعد تمام تربيته وهلاك زرعه فكيف لا يبقى نظيره في الإنسان بعد فناء جسمه، فإذا رأينا حباً اختلف غذاء ودواء وسماً بعد تحليل ما تربى فيه وهلاكه؛ هكذا نحكم بأن هناك علوماً ومعارف وعواطف وأخلاقاً تبقى بعد فناء الجسم وتفرق عناصره وتبدده في العراء.

أفلا يكفيك هذا أيها الذكي في شرح ما قاله الشيخ الدباغ بقدر الإمكان، في أن العجائب في هذه الدنيا تعرفنا الجنة والنار، فقال: والله لا أقدر أن أقول كفتني في هذا فحسب، ولكني أقول إنها كفتني وحدها في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[القيامة: ١٩]، وفي قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي

ﭐلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣]، ولو لم يكن بيان سوى ما قلتموه الآن لكفى. ولقد تجلت لنفسي الآن معان في هذا المقام، ذلك أن هذا الذي ذكرتموه هو عينه تفسير لآية: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾[فصلت: ٤٧]، فهذه الآية أثناء شرحك المسهب الجزل كانت ترد على خاطري وأراه شرحاً لها. فقلت: هذا إلهام ألقاه الله على قلبك وأنا أقرك عليه، لأن ذكر خروج الثمرات من الأكمام بعد ذكر علم الساعة أشبه بذكر الدليل بعد المدلول أو الحجة بعد الدعوى. فقال: إذن أرجو الإجابة على السؤال الثاني. فقلت: اعلم أن الحكمة عامة في المقام المتقدم والذي سنذكره، فكما أن نتائج الزروع وحبوبها مختلفات اختلاف أصولها بحيث لا يستوي الشجر المر مذاقته والشجر الحلو طعم ثمرته كالحنظل والنخل، ولم نر من العقلاء من نفر من هذا النظام، بل جميع نوع الإنسان مقر بفضله معترف بكماله فرح ببهجته، لا فرق بين جاهلهم وعالمهم، ونابغهم وخاملهم، فكل هؤلاء وهؤلاء يرون أن نتائج الزروع والأشجار كمال من حيث المتناقضات، فمنها المغذي والسهل والمخدر والمنعش والسام والمهلك الخ.

فإذا صح ذلك فيما نراه، فهكذا يسوغ فيما لا نراه من نتائج العقول الإنسانية، فإذا تجردت أرواحنا وآنست نفوساً اختلفت أوصافها اختلاف ثمر الزرع، فكان منها من هو أحق بأن يكون مع الملأ الأعلى، ومن هو أحرى بأن يكون مع الشياطين في جهنم تبعاً لخواص نفوسهم وأمزجة عواطفهم، فإنها تأنس بذلك الاختلاف، ولا تفرق بينه وبين اختلاف الحنظل والتمر من حيث إنه نظام حسن.

أقول: فإذا صح هذا في نتائج الزروع والعقول به مطمئنة في ثمرات النبات في الدنيا وفي ثمرات النفوس في الآخرة، هكذا فلنقل في شهوات النفوس وأخلاقها الغضبية: إن هذه القوى الكامنة في نفوسنا اللاصقة بها المهيجة للأعمال الحيوانية والبهيمية والسبعية إذا تجردت الروح من الجسم بعد الموت وجب هناك أن لا تكون معطلة، وإذا كنا نشاهد العفونات والجراثيم التي تجلل وجه بعض الأرض، وكذلك الرمم الملقاة فيها لم تعطل، بل كان لها من المخلوقات الحية ما قام بأكلها فتغذى بها رحمة:

(١) بالأحياء من الحيوانات لئلا يهلكها الهواء الفاسد.

(٢) ورحمة بالحشرات لأنها تتغذى به.

(٣) وإظهاراً للحكمة القائلة: إنه لا معطل في الوجود.

فهذه العفونات وهذه الرمم بعد أن كانت مصدر الوباء أو معطلة لا فائدة منها أصبحت رحمة للحشرات التي تأكلها، فهكذا تحكم على خصال الشر الشهوية الباقية في نفوس الناس بعد الموت، ومثلها خصال الشر الغضبية كالبغي والسرقة ونحوهما، فهذه تعيش بها تلك النفوس التي أشربت حبها، فهي على وزان نظائرها من قاذورات الأرض تعيش بها أرواح ألفتها بعد الموت كما عاشت بنظائرها في الأرض أشباح لازمتها، فيحصل هنا:

(١) أنه لا معطل في الوجود.

(٢) وأن الشر يشتق منه الخير.

وما الخير هنا إلا بقاء تلك النفوس بسبب بقاء تلك الشهوات ممثلة في أفكارها، ولو أزيلت تلك الأفكار الناقصة من تلك الأرواح لم يكن وجود، ولا وجود لروح إلا بما يقوتها من الآراء والعواطف كما لا تعيش الأجسام إلا بما يقوتها من أغذيتها، وهذه ليس لديها من الآراء الشريفة ما به تعيش، وليس لديها إلا تلك الآراء الرديئة التي اعتادتها في الحياة الدنيا. فبهذه الآراء تعيش تلك النفوس ولا مقر لها إلا في جهنم، فهم معذبون بتلك الحال، فهاهنا رحمة عامة: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وهاهنا أيضاً عذاب، فالعذاب هنا رافقته الحكمة والرحمة، فحياتها في نفسها رحمة.

(١) بدليل أننا إذا قلنا لتلك النفوس في جهنم: أترضين بالموت؟ فإنها تقول: لا.

(٢) وهي حكمة لأنها أنتجت من شرور النفوس حياة لها كما يعيش الدود في القاذورات والفيران في المراحيض.

(٣) وذلك من عجائب النظام العام المفيد أنه لا معطل في الوجود.

فكما أن الله لم يعطل القاذورات في الأرض ولا الرمم بل اشتق من شرها خيراً، هكذا لم يعطل الشهوات المغروسات في النفوس، بل جعلها غذاء لها بعد الموت، لأنها لا تعيش بغيرها كما لا يعيش الذباب بغير القاذورات.

هذه هي الحكمة البديعة، والآية الطريفة، والحكمة العالية. اللهم إنا نحمدك حمداً جزيلاً ونشكرك شكراً كثيراً. لقد أريتنا ونحن في هذه الدنيا محبوسون ممنوعون من الاطلاع على الحقائق. إن في مزارعنا وحيواننا من العلم ما به نعرف أن هناك ناراً وأن هناك جنة، وأن تلك النيران وتلك الجنان لوازم لما زاولته تلك الأرواح في هذه الحياة من الأعمال مع حكم أخرى شرحناها، وعجائب كبرى بيناها. فالحمد لك في الأولى والآخرة، ولك الشكر والفضل العظيم. كتب بعد صلاة يوم الجمعة ١٤ نوفمبر سنة ١٩٣٠م، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الخامسة من اللطائف العامة، والحمد لله رب العالمين.

فذلكة: في قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨]

آثار القرآن لا سيما سورة «الشورى» في أمم الأرض

أولاً انظر أيها الذكي ما تقدم في سورة «البقرة الآية ٢٨٦» عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾، لترى النظام العام في العلوم الواجبة على أمة الإسلام، وفي سورة «النساء» عند الآية ٥٨: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾، فهذه الآية ونحوها من آيات الشهادة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [النساء: ١٣٥] الخ، وهكذا فيها ذكر الخلافة الإسلامية والعدل، وكيف كان قائماً، وكيف عدل قوم وظلم آخرون، وهكذا في سورة «المائدة» ذكر العلوم الواجبة أيضاً. وفي سورة «التوبة الآية ٣٤» بيان أن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ الخ؛ كان إيقاظاً للمسلمين أن يكونوا سبباً في إظهار أحكام الإسلام للأمم ليقوم العدل في بلادهم.

وهناك ترى شهادة سيدة أوروبية أسلمت تقول: إن فولتير وروسو اللذين كانا سبب الثورة الفرنسية لم يتعلما ما كتبناه إلا من آراء ابن رشد وعلماء الإسلام وهناك تقرأ مظالم رجال الدين المسيحي في أوروبا واضحة مهينة للشعوب، وفي سورة « النحل الآية ٩٠ » تقرأ نظام الدولة في آية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾، وفي سورة « الإسراء الآية ٥١ » تقرأ في أوائلها كيف حاد بعض ملوك الدول الإسلامية في الأندلس ونحوها عن جادة الصراط السوي فذلوا، وفي سورة « الكهف » تقرأ عند آية: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ كيف ظهرت في الإسلام طوائف حرمت انتشار التعليم، وكيف ظهر قوم من الفرس آلمهم ظهور مجد العرب بالإسلام، فكادوا للمسلمين كيداً عظيماً وكيف حرم حسن بن الصباح على أتباعه حرية الفكر والتعليم، وكيف كان كثير من رجال الصوفية يفعلون فعل ابن الصباح، وأوروبا اليوم تنهج مع المسلمين هذا المنهج عينه، وتقرأ في سورة « النمل » بمناسبة آية: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾[الآية: ٣٤] الخ، مع آية: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾[النمل: ٥٢]؛ فذلكة عن ظلم الأمم المتأخرة الإسلامية، وكيف كان ذلك سبباً لهلاكهم وتقرأ في سورة « القصص عند الآية ٥ »: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كيف هلك الظالمون ونصر الضعفاء. وفي سورة « سبأ » عند آية المحاورة بين الضعفاء والذين استكبروا قصة « محمد بن تومرت المهدي »، وكيف أقام ملكاً ولكن لم يدم أكثر من مائة سنة، وبيان منافع الذين ادعوا المهدوية وضررهم، وهناك تبيان القول الفصل في هذا المقام وإظهار الحقائق لأمم الإسلام بعدنا حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم، وهكذا في سورة « المؤمن » نماذج علمية وعملية تتخلل السورة، وقبلها في سورة « الزمر عند الآية ٩ »: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الخ، نماذج التربية التي أثبتها الأستاذ « كانت » الألماني في كتابه، وبيان أن الأمراء والملوك وحدهم لا يرقن الشعوب، بل يجب على المفكرين أن يجدوا في ذلك كما حصل في ألمانيا.

فإذا اطلعت على ذلك أو أكثر، فانظر الآن في أمر أمم الأرض نظرة إجمالية، فإنك لا تجد الشورى ظهرت في أمم الأرض إلا بعد ظهور الإسلام، فانظر أولاً في أمر الأمم الإنجليزية، فهؤلاء كانوا أول من فكر في التخلص من ظلم ملوكهم، وتبعتهم فرنسا ثم بقية الأمم، وامتدت الحركة إلى أهل آسيا وأمريكا، وزلزلت الأرض زلزالها، ومادت عروش، وهلكت جيوش، وقامت جمهوريات وجاءت الحرب العظمى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨م وظهر هذا التفسير ليوقظ الله المسلمين من سباتهم به وبأمثاله.

فانظر ماذا جرى أولاً في إنكلترا، تلك الأمة التي لم تكن في أول أمرها إلا أقواماً من الجنس « الكلتى » من سكان مقاطعة « برطنية » شمالي غربي فرنسا، جاؤوا إلى الجزيرة المواجهة لهم وسموها « بريطانيا » باسم بلادهم الأصلية، ومنها انتقلوا إلى « إيرلندة »، وبقي هؤلاء القوم أصحاب الشأن في تلك البلاد إلى أن دخلوا في الإمبراطورية الرومانية بعد حروب طويلة بها خضعوا خضوعاً تاماً حتى اضمحلت الدولة الرومانية وتركت البلاد لأهلها، هنالك أغارت عليهم قبائل الإنجليز والسكسون والجوت، وهم كانوا في شمالي ألمانيا، وكان ذلك في أثناء القرنين الخامس والسادس

المسيحي، أي قبيل ظهور الدين الإسلامي بقليل، فتغلب الفاتحون على أهل البلاد وسموها «أنجلند» أي أرض الإنجليز، فصارت هنالك ممالك متنافرة.

وفي سنة ١٠٦٦م أغار على بلادهم «دوق نورمنديه» وهزمهم في موقعة هاستنجس، وتوج ملكاً على إنكلترا، وهنالك امتزج النورمنديون بالسكان الأصليين فكان هذا الشعب الإنجليزي الحديث الذي يعتبر من ابتداء الفتح «النورمندي»، وظهر إذ ذام للملوك إنكلترا شأن في فرنسا بطريق المصاهرة، ثم كانت حرب المائة سنة التي تمت سنة ١٤٥٣ وبه خرجت إنكلترا من فرنسا، وفي مدة النورمنديين المذكورين ظهر الدستور الإنجليزي الذي سقنا الكلام هنا لأجله، ولم يكن ذلك إلا بآثار الإسلام كما تقدم، ووليم الفاتح المتقدم ذكره وإن دخل البلاد فاتحاً قد خضد من شوكته بعض قوانين للنظام الإقطاعي الذي كان عاماً في أوروبا إذ ذاك.

ولما حكم «هنري الثاني» في القرن الثالث عشر المسيحي نشأ النظام المعروف بنظام المحلفين، وهو أشبه بمبدأ لرقي الشورى في البلاد. ولما تولى جون ابنه قاوم الأشراف ورجال الكنيسة الملك المذكور وحاربوه فاحترم حقوقهم، وهكذا أخذ البرلمان يقوى ويشتد وقتاً بعد وقت، وأخذ يراقب المالية ويحاسب الملوك.

وفي عهد أسرة «لنكستر» زاد نفوذ البرلمان إلى أن ضعف الملك، وقامت حرب سميت «حرب الوردتين في ١٤٥٥ ـ ١٤٨٥» إشارة إلى الوردة الحمراء التي كانت شارة بيت «لنكستر» والوردة البيضاء التي كانت شارة بيت «يورك» فمات أكثر الأشراف وانتصرت أسرة لنكستر، وتوج هنري تيودور «دوق تشمند» ملكاً على إنكلترا باسم «هنري السابع» وبقيت هذه الأسرة من سنة ١٤٨٥ إلى سنة ١٦٠٣، وفي أثناء هذه المدة ظهرت حركة إحياء العلوم وذلك في زمن «هنري الثامن» في القرن السادس عشر الذي أخذ يقطع العلائق الدينية مع رومة، وفي هذا القرن ظهر الإصلاح الديني، هناك أخذ «الدوق سمرست» الذي لقب نفسه «حامي المملكة» إذ كان رئيساً لمجلس الوصاية على «إدورد السادس» يهدم التماثيل والصور من الكنائس، وألغى الصلاة اللاتينية، وأخذوا يصلون بالإنجليزية، وصودرت الأديرة وأملاكها، وكل ذلك أتباع لمذهب «لوثر» وهو المذهب «البروتستنتي» ذلك المذهب الإصلاحي الذي امتد إلى أوروبا من آثار دين الإسلام كما تقدم.

وارتقى البرلمان والشورى في أيام اليصابات، تلك الملكة التي كسر جيشها جيش الإسبان وقهرهم، وفي أيامها ظهر «شكسبير روبتسون» و«فرنسيس بيكون».

وقامت بعدها أسرة «استيورت» ومنها شارل الأول سنة ١٦٢٥ إلى سنة ١٦٤٩، وثار البرلمان عليه ففر منهم إلى الشمال، وأخذ يحاربهم بجنود وهم قابلوه بالمثل، ثم أخضعوه وحبسوه، واتهم البرلمان الملك بالخيانة وحاكمه، وأعدموه سنة ١٦٤٩، وكان المطاع في البرلمان أقوى رجل فيهم وهو «أولفركرمول» وأصبحت إنكلترا جمهورية، وهذه هي الحادثة الأولى في العالم الجديد التي بها عرف الناس أن الملوك لا حق لهم في اضطهاد الشعوب، وأن الشورى هي الحق والعدل. وهذا صدى صوت هذا الدين الحنيف، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

اللهم إنك أنت تخفض وترفع ، أنت رفعت العرب الأولين بالشورى ، ولما قصروا فيها بعثتها إلى أوروبا فانتهت الحال بقتل « شارل الأول » ملكهم أي ملك الإنجليز ، كل ذلك سر سورة « الشورى ».

وبقيت البلاد جمهورية من سنة ١٦٤٩ إلى سنة ١٦٦٠ ، ثم عينوا شارل الثاني سنة ١٦٦٠ إلى سنة ١٦٨٥ فرجعت ملوكية ، ولكنهم قيدوها إلى الآن . وجيمس الثاني من سنة ١٦٨٥ إلى سنة ١٦٨٨ ولكن البرلمان كان يكره هذا الملك فعزله وولى « مارية » وزوجها « وليم » ، وفر جيمس إلى فرنسا ، وهاهنا لم يسفك دم وساد البرلمان في إنكلترا إلى الآن . وبعد ذلك أصدر البرلمان قانون الحقوق ، وهذا القانون بنيت عليه الحرية الإنجليزية وذلك سنة ١٦٨٩ ، وأعلنوا فيه أن حق الملك في العرش مستمد من إرادة الشعب الممثل في البرلمان ، وأن البرلمان له حق نقل التاج حسب المصلحة ، وبهذا قضوا قضاء مبرماً على فكرة الحق المقدس للملك ، وبهذا منع الملك من التدخل في السلطة القضائية ، ومن جمع الجيوش وقت السلم ، ومن جمع الضرائب بدون إذن البرلمان ، هذا كله سر هذه السورة « الشورى ».

فرنسا بعد إنكلترا

قلنا إن سبب الثورة الفرنسية إنّما هو ما كتبه فلتير وروسو ، وقلنا إن هذا كما قلنا في سورة « التوبة » إنّما كان بسبب ما قرؤوه في كتب المسلمين لا سيما كتب ابن رشد . وأنضج الفكرة عند الفرنسيين ما سبقهم به الإنجليز من قتل ملكهم « شارل الأول » وطرد ملك آخر وهو جيمس ، كل ذلك على مرأى ومسمع من فرنسا جارتهم ، فكانت الثورة الفرنسية أشد وأنكى ، فهي على قاعدة : إن كل مجتمع سياسي له حق الدفاع عن نفسه ، فهو يقاوم كل مجتمع يريده بسوء . وهذا الحق إنّما يستمده من نفسه لا من حاكمه ، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى : ٣٨] .

ولقد بدأت حركة الدين فالسياسة في الشعب الفرنسي في النهضة الأوروبية الحديثة التي بها نالوا الحرية الدينية وتبعتها الحرية السياسية ، وأشهر الكتاب « فلتير » المتقدم ذكره و« روسو » . أما فلتير فكان من سنة ١٦٩٤ إلى سنة ١٧٧٨ فتهكم بأسلوبه العجيب بنظام عصره السياسي والديني منادياً بإبادة القديم الذي لا يصلح ، وحارب الكنيسة وامتياز الأشراف وسوء تصرف الملوك وفساد القوانين الجنائية ، فجاء « جان جاك روسو » من سنة ١٧١٢ إلى سنة ١٧٧٨ وهو متشبع بروح فلتير ، فألف لهم كتاب « العقد الاجتماعي » الذي أبان فيه طريق الانتخاب ، وأن تنيب الأمة عنها رجالاً منها يتولون شؤونها ، وهذا معناه : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى : ٣٨] . وأساس نظريتهم أن الشعب هو صاحب السلطة الحقيقية ، وأن الحكومة منه تستمد قوتها وسلطتها ، والتشريع يجب أن يكون بيد الشعب ، وآراء « روسو » صارت كأنها إنجيل وكتاب مقدس تسير على مقتضاه زعماء الثورة الفرنسية . وهكذا كتب « روسو » في التربية والموسيقى . وهو يميل للرجوع للحال الطبيعية .

وجاء بعده الفيلسوف « منتسكيو » فكتب موضحاً الدستور الإنجليزي ومزاياه ، ففتح أذهان الشعب الفرنسي وعرف مزايا الحرية التي يتمتع بها الإنجليز ، ثم فصل السلطات الثلاث بعضها من بعض ، وهي التشريعية والتنفيذية والقضائية . فالأولى بيد البرلمان . والثانية بيد الوزراء . والثالثة بيد

القضاة. وهؤلاء مستقلون عن السلطتين السابقتين. فعرفوا بذلك فساد حكومتهم، إذ كانت هذه السلطات في يد فرد واحد وهو الملك. وظهرت حركة إصلاح أخرى في الاقتصاد.

فقام أمثال «كسناي» و«ترجوت» وأمثالهما ينقدون طريقة توزيع الضرائب في فرنسا وإرهاق الشعب بها، فكسدت التجارة وبارت الصناعة وماتت روح الاختراع ووقعت المجاعات المحلية. وقد كانت فرنسا ثلاث طبقات: الأشراف. ورجال الدين. والشعب. وكانت الحكومة تخص الطبقتين الأوليين بامتيازات لا نصيب للشعب فيها. فكانوا يعفونهم من ضريبة الخراج ومن المكوس، وكان كل شريف من الأشراف له حق أخذ جزء من محصول الفلاح وإلزامه بطحن غلته في طاحونة وعصر نبيذه في معصرته بأجر عظيم، وله حق الصيد في حقول الفلاحين وإن لحق الضرر بزرعه، ووظائف الحكومة خاصة بالأشراف فهم السفراء والقواد والضباط في الجيش، وللكنيسة خمس أرض الدولة ولا تدفع عنها ضرائب، ويجمعون الأعشار من الشعب، وأكثر ما يجمعونه يدخل جيوب الأساقفة ورؤساء الأديرة. أما الشعب وهو الطبقة الثالثة فكان (٢٥) مليوناً، والطبقتان الممتازتان كانتا (١٧٥) ألفاً.

إن الملك يتصرف كما يشاء ويهوى لا قيد له، فيحبس من يشاء ويطلق سراح من يشاء ويقتل ويعطي ويمنع، وكان معه برلمان صوري.

ولقد كانت فرنسا عند موت لويس الخامس عشر في سنة ١٧٧٤ على شفا جرف هار من الإفلاس بسبب ما خسرته من المال والمستعمرات في الحروب التي أدخلهم فيها لويس المذكور، فلما تقلد الحكم لويس السادس عشر أراد تخليص فرنسا من الضيق المالي، ولكن حاشيته لم تساعده على ذلك مخالفين رأي العالم الاقتصادي «ترجوت» الذي أشار بتقليل تلك الحاشية الملكية التي تأخذ كثيراً من مال الدولة. ولما نشر «نكار» العالم الاقتصادي الذي حل محل «ترجوت» تقريراً عن حال المالية المرتبكة بسبب القروض التي اقترضتها الحكومة لمساعدة الولايات المتحدة للتخلص من حكم إنكلترا، وبسبب ما يصرفه الملك على نفسه وعلى حاشيته عزل الملك «نكار» وولى «كالون» مكانه فقال للملك: يجب أن يرغم الأشراف ورجال الدين على دفع الضرائب، وأن تلغى الجمارك الداخلية فلم يقبل ذلك منه رجال الدولة، فعزله الملك وتولى هو تقرير الضرائب بنفسه، فلم يوافق البرلمان على تلك الضرائب، وأكرهوا الملك على عقد الجمعية العمومية سنة ١٧٨٩، فرفض النواب من الطبقتين الممتازتين أن يجتمعوا معهم، وقد كان لكل طبقة (٢٠٠) نائب فصاروا جميعاً (٦٠٠) نائب وأربعمائة من الأشراف، ورجال الدين هم الذين استكبروا أن يجتمعوا مع هؤلاء العامة، اللهم إلا بعض أفراد تسللوا لواذاً وحضروا مع نواب الشعب في مكان آخر غير قاعة الاجتماع وهو ملعب «التنس»، وهناك أعلنوا أنهم هم «الجمعية الوطنية».

ولما اجتمع جميع النواب لسماع خطبة العرش، وانصرف بعض الأشراف ورجال الدين؛ شدد أمين الملك في طلب انصراف نواب الشعب، فقال له «ميرابو» وهو أقوى النواب: نحن هنا بأمر الأمة ولن نفارق مكاننا إلا بأطراف الأسنة. وهنالك أمر الملك أن تكون الجمعية الوطنية مشكلة من الجميع

بحيث يجتمعون معاً، ولكن العامة أوجسوا شراً من الملك بإشاعات تخيلوها، فانقضوا على حصن الباستيل وهدموه وأطلقوا المسجونين فيه، وكان ذلك في (١٤) يوليه وقد أصبح ذلك عيداً تاريخياً، وهذا اليوم هو أحسن أعياد فرنسا. وازداد الجوع في فرنسا، فدخل الشعب لا سيما النساء في شهر أكتوبر على قصر « فرساس » يطلبون الخبز من الملك، ولولا الحرس لدخلوا على الملك والملكة، فانتقل الملك إلى باريس، وهكذا الجمعية الوطنية أيضاً. وأصلحت الجمعية الوطنية القوانين، ونظمت كل شيء. وأزالت كل ظلم.

ولكن العامة بعد ذلك تطرفوا وتغالوا وفقدوا رشدهم. فهرب الملك. فكشفوا أمره عند بلدة « فارن » في يونيه سنة ١٧٩١، فقاده العامة إلى باريس ووافق على النظام الجديد الذي أسسته الجمعية الوطنية وأعلنت انحلالها. ولكن في أثناء ذلك هاجر الأشراف خارج فرنسا واتفقوا مع النمسا وبروسيا على محاربة الثورة الفرنسية وإرجاع حقوق الملك إليه. ودعا الإمبراطور « ليوبولد الثاني » وهو أخو الملكة ملوك أوروبا لإخماد هذه الثورة. وهذا الإمبراطور وملك بروسيا أصدرا منشوراً للملوك فحواه: إنهما مستعدان أن يكسرا ثورة فرنسا مع من ينضم إليهما.

وقهرت الأمة الملك على أن يعلن الحرب على النمسا، ولكن جيوش فرنسا تقهقرت أمام المغيرين فاتهموا الملك بالخيانة، وكلما قربت بروسيا من فرنسا ازداد غضب الفرنسيين على الملك، هنالك أعلن القائد البروسي: أن كل من مس شعرة من رأس الملك يقتل. فزاد ظنهم السوء به، فهجموا عليه، فهرب إلى الجمعية الوطنية سنة ١٧٩٢ والحرس قاوموا، ولكن الملك أمرهم أن يسلموا وهنالك كثرت المذابح، ذلك أنهم قد اتهموا كثيراً بالخيانة كما اتهموا الملك، وقتلوا نحو (١٥٠٠) نفس، وفي هذه الفترة أصلحوا الجيش فقاوم البروسيين وأعلنوا الجمهورية في ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢ وألغوا الملكية، وأخطر العامة المؤتمر أن يحاكم الملك بتهمة الخيانة، فحاكموه وأثبتوها وحكموا عليه بالقتل، ونفذ الحكم في ٢١ يناير سنة ١٧٩٣م، وهذه الجمهورية لم تطل إذ تولى العرش نابليون سنة ١٨٠٤ وجعل نفسه إمبراطوراً.

خطاب المؤلف لله عز وجل

اللهم أنت الحكيم العليم العدل، آنسنا عدلك ونظامك في نجومك وشموسك وأقمارك، نظام بديع، لا يخس شعيرة، حركات منتظمات، وعجائب واضحات، اتحدت أضواء الشمس السبعة وهي الأحمر والأصفر والأزرق والبنفسجي والبرتقالي والنيلي، اتحدت فكان اللون الأبيض، وباتحادها سعدنا في الحياة، وشاهدنا سبلنا، وتغذى نباتنا بمواد الكربون الطائر في الهواء. انظره مشروحاً مرسوماً في سورة « يس ». وهذه الألوان التي ظهرت بها أفانين الألوان في الأزهار والأشجار وبدائع الجمال في عوالمنا الأرضية، انتظمت النجوم في سيرها واتحدت بأنها لا خلل في حسابها، فماذا كان؟ ظهرت بها سعادتنا على الأرض، أما في البر فمعلوم، وأما في البحر فإن ربان السفينة العظيمة لن يفتأ ليلاً ونهاراً وهو فوق متن الماء ينظر الكواكب السيارة ويحسب حساباً دقيقاً معقداً لا يعرفه سواه، ولو أنه توانى لحظة لضل الطريق ولم يعرف أين هو، فوق سطح البحر نجوم منظمة وأحوال كاملة، هذا عملك،

وأنت على صراط مستقيم، لقد خلقتنا في وسط هذا النظام الجميل العجيب، وأعطيتنا عقولاً وقلت لنا: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى: ٣٨]. فيا رباه هاهو ذا نوع الإنسان آخذ في التقليد لنظامك. نظامك العجيب البديع، نظامك الذي لا خلل فيه، هذه هي النجوم رأيناها في أماكنها دائرات منظمات لا تصادم، لا تهافت، لا خلل.

أما نظام أممنا وجماعاتنا فهو جاهل غير مبني على التجارب المتعاقبة، لأننا لا غريزة لنا نتبعها كغريزة النحل وغريزة النمل وغريزة الأرضة، غرائز صافيات كاملات بها عاشت تلك الجمهوريات بغاية النظام، أما جماعاتنا وجمهورياتنا فإنك جعلتها مبنية على تجاربنا نحن، فهاهو ذا القرآن يأمرنا بالشورى، فقام بها أسلافنا ثم تركها آباؤنا وأجدادنا فتولاها قوم آخرون وكان رائدهم التجارب، إنك أردت بذلك أن تكون سعادتنا ورقينا مبنيين على جدنا واجتهادنا، وأنت تعين المجتهدين في أي أمر كان ديني أو دنيوي، وهاهي ذه فرنسا وإنكلترا لهما مجالس شورية «البرلمانات» وهكذا أمريكا وبقية أوروبا، وقد لحق بهؤلاء أهل الصين والفرس والترك.

اللهم إن عبادك لا يزالون ضعافاً، فإن فرنسا التي أعلنت الحرية في بلادها وهدمت حصن الباستيل وقتلت لويس السادس عشر وإنكلترا التي قتلت «شارل الأول» لأجل ظلمهما هاهما معاً قد انقضا على بلاد الإسلام، ونرى فرنسا تريد تغيير دين البربر في مراكش وتذل المسلمين في شمال أفريقيا، وإنكلترا تعبث بحقوق مصر وبعض بلاد العرب.

اللهم إن الإنسان لظلوم كفار، قتل الإنسان ما أكفره إنه كان ظلوماً جهولاً، إن الأمم حلت محل ملوكها المقتولين في ظلمهم، فهم يفعلون مع الأمم في الظلم ما فعله معهم ملوكهم، وقد جهلوا أن هذه الأمم المظلومة ستفعل معهم ما فعلوه هم مع ملوكهم عاجلاً وآجلاً.

اللهم إنك أنت حكيم. إن النوع الإنساني قد جبل على أنه لا يعرف قيمة شيء إلا إذا تعب في تحصيله، فهذه الأمم الشرقية سلطت أنت عليها دول الغرب لإذلالها، ليكون ذلك باعثاً لهم أن يتخلصوا بقوتهم هم، ويخرجوا من قبضة الظالمين، كما تخلصت تلك الأمم من ظلم ملوكهم الذين جعل الله ظلمهم وسيلة لجهاد شعوبهم وارتقائها ونيل حريتها.

خطاب المؤلف لأمم الإسلام وأمرائهم

يا أمم الإسلام اسمعوا. هاهو ذا كتاب الله ينادي بالشورى. وهاهم أسلافكم كانوا قدوة الأمم. وهاهو ذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومني». وهاهو أحد آبائكم يقول له: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بحد سيوفنا. فهل فعلت إنكلترا وفرنسا مع «شارل الأول» ومع «لويس السادس عشر» غير ذلك. عمر بن الخطاب الذي كان يلبس ثوباً مرقعاً بضع عشرة رقعة بعضها من ليف. عمر بن الخطاب الذي منع ابنته من أن تضمخ إزارها بالروائح العطرية من بيت المال. هذا هو الذي فهم الدين وعرفه. وفهم معنى الشورى، فدانت له المشارق والمغارب هو والخلفاء الراشدون. وأنتم يا أصدقائي قراء هذا التفسير لا تتوانوا في إرشاد هذه الأمة، فوالله إني لأعتقد في نفسي بأن أي خاطر يخطر لي فلا أكتبه للمسلمين يجر على جسمي وعلى

عقلي أذى كبيراً في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر. إياكم أن تتوانوا في بث فكرة الإصلاح العام الذي في هذا التفسير وفي غيره الذي يكون على شاكلته.

على كل منكم أن يكون أمة بنفسه لا يتكل على غيره. إن المصلي منا يقول في افتتاح الصلاة: وأنا أول المسلمين. فلتكن أول مسلمي قريتك في أمثال هذا الإصلاح وإعلانه، أو مصلحي أمتك. إن الإنسانية آخذة في الارتقاء والاتحاد على منوال ما فعله الله في السماوات والأرض. وذلك لا يتم إلا بالجهاد، وليس الجهاد خادماً بقتل الأعداء. بل محاربة العدو جهاد أصغر. أما الجهاد الأكبر فهو ما ترونه في أمثال هذا التفسير فإنه نشر هذه الآراء يصلح جميع مرافق الحياة ومنها نظام الجيوش الذي لا يتم إلا بإصلاح جميع أحوال المملكة، وإن مداد العلماء أفضل من دم الشهداء، والعلم أعظم النعم في الإسلام، ليأخذ المسلمون عموماً وأبناء العرب خصوصاً مكانتهم العلمية، وليقودوا هذه الأمم المتخبطة الآن في ديجور الحياة، ولتكونن وجهة المسلمين اليوم أنهم يكونون أقوى من جميع الأمم، ليقودوهم إلى معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، وذلك بالسلام العام، وهل يعم السلام إلا إذا ساويتم الأمم في جميع أعمالها.

وأنتم يا أمراء الإسلام اسمعوا مني نصيحة أنا ملزم أن أعلنها. من كان من بيت الملك منكم فليفكر في إمبراطور اليابان جد الإمبراطور الحالي، ذلك الذي لما عرف أن أوروبا تحاول إذلال مملكته تنزل عن تلك العظمة التي جعلته هو وآباءه لا يرى الشعب لأنهم فوق الناس، بل هم من نسل الآلهة «في خرافاتهم»، فسار في الطرق وقال للناس: هاأنا ذا الإمبراطور، أنا مثلكم وأعلن التعليم العام، فعلم الشعب وارتقت بلاده، وهو وأبناؤه لا يزالون ملوكاً بعظمتهم وملكهم، والشعب هو الذي يتولى إدارة الشؤون، ولهم كما للملك الإنجليز حقوق لا تضر الشعب، والشعب راض بهذه الحقوق.

هذا هو ما أوصيكم به، إن جهل الشعوب كان غير ضار بالملوك قديماً، أما الآن فإن الأمم بالمرصاد، فهي لا تذر أمة ضعيفة إلا استعبدتها، وهذا هو العدل الإلهي، فإذا كان قوم يعطلون نعم الله التي خلقها لعباده، وهناك قوم يقدرون على استخراجها، فمن عدل الله في نظامه أن يرسل الآخرين ليسيطروا على هؤلاء الجهال الذين لم يستخرجوا نعمة لمنفعة عباده بصناعة أو زراعة أو تجارة. هذا قولي وأستغفر الله لي ولكم. كتب قبل فجر وفي ضحى يوم الاثنين ٢١ فبراير سنة ١٩٣١م.

موازنة بين سيرة عمر وجمهورية سقراط
وتطبيق نظام الأمم العربية والتركية والفرنجية عليها

أيها المسلمون، قد ظهر الحق وانفلق عمود الصباح. أيها المسلمون، بهذا يفهم النوع الإنساني معنى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. أيها المسلمون، عمر وأمثال عمر هم الذين فهموا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ومعنى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

عمر رضي الله عنه رحيم بالعبد والحر والذمي والمسلم. قرأت في بعض كتب الزيدية المطبوعة حديثاً عن آل البيت: «أنه صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً وامرأة في السبي منكسي الرأس ذليلين،

فسأل عنهما، فقيل: إننا بعنا ابنهما لأجل طعام السبي، فأمر برده إليهما». وقد تقدم في سورة «النحل عند الآية ٩٠»: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الخ آراء «سقراط» في الحكومة، وأنه رتبها خمسة أقسام، وأن كل نام فإنه يذبل، ونظام الحكومات والأفراد كنظام كل ما له حياة، فهو شاب فكهل فشيخ فهرم وهكذا.

وهاأنا ذا أوضحه هنا بعض الإيضاح، وأعجب والله كل العجب من سياسة عمر رضي الله عنه ومن فراسته. الحكومة خمسة أقسام: أرستقراطية، وتيموكراسية، واليغاركية، وديموقراطية، واستبدادية. ومعلوم أن الأمة كالفرد ثلاث طبقات: طبقة الفلاسفة وأولي العلم، وطبقة الجند، وطبقة بقية الشعب.

وهو يقول: إن هؤلاء الحكماء هم الذين يحكمون القسمين الأخيرين، كما أن قوة العقل في الإنسان تحكم قوة الغضب المقابلة للجند في الأمة وتحكم قوة الشهوة المقابلة لبقية الرعية. ثم إن كل قسم من الثلاثة في الأمة وفي الفرد يجب أن يقوم بعمله، فالجند تطيع الحكام، والعامة يطيعون القسمين كما تطيع قوة الغضب عقولنا، والشهوة تطيع العقل وقوة الغضب، ولا معنى للعدل إلا هذا. فهذا معنى الحكمة والشجاعة والعفة والعدل.

فإذا تولى حكم الأمة الحكماء فهذا معنى «أروستقراطية»، وإذا مضى الجيل الأول فترت همة الجيل الثاني عن الفلسفة والعلم، واكتفوا بقوة الجند، وحكموا الأمة بمجرد القوة التي لا تصحبها الحكمة المستمدة من الله تعالى، فهنالك تسمى الحكومة «تيموكراسية» والثانية أقل من الأولى درجة، ولكن إذا تمادى الجند في الحكم رأوا أنفسهم هم والأمراء الذين لا علم عندهم ولا حكمة مغرمين بالمال، إذ يقتسمون مال الطائفة الثالثة، وهنالك يتنزل الأبناء عن منزلة آبائهم، وتكون الحكومة إذ ذاك «اليغاركية» وهي حكومة الثورة. فالحكمة في الأولى تنزلت إلى حماسة في الثانية، وهذه تنزلت إلى مطامع الشهوة وجمع المال، وهنالك تزيد غلات فريق الحكام، ويصبح الناس طبقتين اثنتين لا غير: أغنياء يملكون أكثر ما في الدولة وهم قليل جداً، وفقراء وهم جميع الشعب، فلا مناص من قيام الشعب على طبقة الحكام وإذلالهم والاستحواذ على أموال الدولة، وهذه تسمى «ديموقراطية» وهي دولة التهتك والخلاعة وعدم الحياء والصيانة، فيصبح الأمر في يد العامة والجهلاء، ولا يحترم الابن أبويه ولا المحكوم الحاكم وهكذا، ونظير هذا في الفرد الواحد التهتك والخلاعة وعدم الحياء والمجاهرة بكل موبقة وعدم الاكتراث بالعار والشنار، والأمة إذا وصلت لهذه الدرجة فلا بد من ظهور واحد فيها يستبد بها ويذلها ويقهرها، وهذه هي الحكومة الخامسة وهي الاستبدادية، وخير هذه الخمس أولها وشرها آخرها، والثلاثة التي بينهما مرتبات ترتيباً تنازلياً.

هاهنا فلننظر، أليس ما قاله أفلاطون في الجمهورية ــ التي ألقاها الله على قلبه وعلى قلب سقراط أستاذه قبل ظهور النبوة المحمدية بمدة تزيد على تسعة قرون ــ أصبح نموذجاً لنا نفهم به قيمة الحكومات ونمتحنها ونبحث فيها بجد.

سبحانك اللهم وبحمدك، علمت قلة علومنا، وعلمت سند العلم بيننا، فأطلعتنا على آراء سقراط ففهمنا أنها أشبه بمقدمة لهذا الدين الحنيف.

أقول هذا وأنا موقن به، إن عقلاء أمم الأرض وحكمائهم في عصرنا وبعده كلهم يقدسون سقراط وأفلاطون من حيث التفكر، ومتى عرفوا أن هناك تلاؤماً وتوافقاً بين المدينة التي اختطها عمر رضي الله عنه وبين ما رسمه هذا الفيلسوف أيقنوا بمعنى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠].

إن الذي يأمر جنده أن لا يأخذوا أرضاً ليزرعوها من فلاحي الأمة التي دخلوها ويقول أنتم أيها الجند عليكم حفظ البلاد ولكم أرزاقكم على بيت المال وكفاكم ما تأخذون منه، ويقول: أنتم إذا ملكتم الأرض تنازعتم وفشلتم وتذلون عباد الله ويذلون ملككم، ولما خالف بعض رجاله هذه الأوامر بمصر أرسله عمرو ابن العاص إلى عمر فهابه هيبة شديدة كما تقدم، ولما أظهر التوبة عفا عنه.

أقول: إن الذي يفعل هذا في ذلك الزمان الذي كان الفرس والروم فيه قد انتهوا في الحكم إلى الدرجة الخامسة وهي الاستبدادية وهي أدنى الدرجات، ثم نراه يحكم الناس بالطريقة التي مدحها «سقراط» في الجمهورية، وهي أن الجند لا يجوز لهم أن يكون لهم ملك لئلا يميلوا إلى جمع المال، وكفاهم رزقهم الذي يفرض لهم من الخراج الذي تدفعه الرعية.

أقول: إن الذي يفعل هذا كله وهو لم يقرأ تلك الجمهورية ولا غيرها بل هو في أمة كلهم أميون وليس عنده من العلم إلا أعماله صلى الله عليه وسلم والقرآن الذي جاء فيه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وجاء فيه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾[النحل: ٩٠].

أقول: أمثال هذا إنّما جعله الله نموذجاً لأمم الأرض قاطبة في الشرق والغرب. والإنسانية العامة لا بد يوماً ما صائرة إليه، إن الله عز وجل أبقى جمهورية أفلاطون في الأمم وهي مترجمة لجميع اللغات، وفيها هذه المراتب ولم يظهر لا على يد أفلاطون، ولا على يد أستاذه سقراط، ولا على يد دولة اليونان ولا الرومان حكومة تكون مثلاً أعلى لأمم الأرض، وإنّما ظهرت في (٣٠) سنة وهي مدة الخلافة وبقيت في التواريخ، وهذا مصداق حديث: «الخلافة بعدي ثلاثون»، وإذن تفهم معنى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، فهذه هي الرحمة العامة.

أليس من العجب أن الأمم الإسلامية بعد عصر الخلافة اعتراها ما اعترى الزرع وكل حي من أنه آيل للتفرق والانحلال، ألم تحصل هذه المراتب الخمسة التي رتبها «سقراط» في الحكومات وقال إنها أمور طبيعية لا يمكن اجتنابها ولا تلافيها، ورأينا أبناء العظماء بعد تلك الخلافة وبعد الصحابة الذين كانوا مجتهدين قد نزلوا إلى الحكومة «التيموكراسية»، ونرى ذلك في أوائل حكم بني أمية وبني العباس، وهي حكومة الجند لا حكومة العلماء الذين يسيرون بالحق التام. ألم نر أن بعض أواخر دولة بني أمية قد تنزلوا عن أخلاق آبائهم إلى درجة «الأوليغاركية» كما تنزل ملوك بني العباس بعد المأمون والمعتصم ونحوهما إلى تلك الدرجة، وعكفوا على المغاني والشرب واللذات، هكذا نرى الفرس الذين استعان بهم بنو العباس لكسر شوكة العرب قد تغلغلوا في الدولة الإسلامية، وأخذ الملك يرجع القهقرى، وأذلوا الرعية كما أذلوا الملوك وهكذا الأتراك. أليس ذلك قريباً من المرتبة الرابعة وهي «الديموقراطية»، وهي التي يثور فيها المحكومون على الحاكمين ولا يبقى للحكومة هيبة، ثم ظهر في

الأمة مستبدون من القواد فحكموا الأمة بيد من حديد . ويمثل الديمقراطية أيضاً قيام طائفة الانكشارية في الترك على ملوك بني عثمان ، وكم سمل الجند أعين الخلفاء العباسيين كما فعل أمثالهم من الانكشارية مع ملوك بني عثمان ، ولنعجب مما تقدم قبل هذا من أمر ملوك فرنسا أيام لويس السادس عشر ومن قبل لويس ، وكيف رأيت فيما تقدم هنا أن الأشراف ورجال الدين ما كانوا يدفعون الضرائب ، وكانت الرعية أذلة للطائفتين . أليست هذه هي الحكومة الثالثة وهي « الأوليغاركية » وهي حكومة الثورة وجمع المال ، وهي أدنى من الحكومة الأرستقراطية ومن الحكومة التيموكراسية ، أي حكومة الفلاسفة وحكومة الجند . انظر كيف اضطربت الأمة كلها على بكرة أبيها وقامت فقتلت (١٥٠٠) من محبي الملك وقتلوه على مرأى ومسمع من أوروبا كلها والملوك كلهم بالمرصاد . وقد اتحد الروس وأهل بروسيا على قتال فرنسا ، أليست هذه هي الحكومة الديمقراطية التي هي أسفل وأدنى منزلة من الثلاثة قبلها ، وهي الحكومة التي تكون بيد الأمة كلها . ثم انظر بعد ذلك ، ألست ترى أن نابليون ذلك الضابط الصغير لما ضرب الثائرين بالمدافع خضعت الأمة ، إذ أمسكها بيد من حديد ، أليست هذه هي الطبقة الخامسة وهي أدنى الحكومة باعتبار عمومها ، لأنها هي حكومة المستبد وإن كان نابليون له مزايا لطفت الاستبداد .

اللهم إني أحمدك وأشكرك على نعمة العلم ونعمة الحكمة ، اللهم إن العلم الذي لا تطبق عليه أحوال الأمم لا يفيد الفائدة التامة المرجوة .

اللهم إني أحمدك إذ كشفت لي حقيقة أمتنا الإسلامية . وعرفتني طرق إصلاحها ، وكيف غشت الجهالة على أقوام وأقوام من أسلافنا ، فابتدعوا أحاديث ، واختلقوا لها أسانيد ، وجعلوا حكم الأمم منشؤه الأنساب في حد ذاتها . كلا والله . كذب والله .

اللهم إنك شرحت صدري للعلم وأنا أكتبه لأمتنا الإسلامية ، فأنا أحمدك حمداً كثيراً وأشكرك أحمدك أن وفقتني ، وجعلت لي أصدقاء في جميع أقطار الإسلام ، وهم هم الذين سيبطلون الباطل ويحقون الحق ، أنت يا رب أردت ذلك ، هم سيشرحون هذه المسائل العلمية ويبينونها للناس ، هم الذين سيدرسون علوم الأمم وعلوم الإسلام وعلوم النبوة ـ التي نحن معاشر المسلمين أكثر الأمم جهلاً بحقائقها ـ وذلك بما انتشر بيننا من الدعايات لأهل الأنساب بحيث يرث الابن أباه في حكم الأمة وإن كان جاهلاً غبياً ، عاكفاً على الخمر والمغاني ، فيهلك وتهلك أمته معاً ، لا سيما في زماننا .

هذا ، وقد يتخذ أمثال هذا الأمير الدول الأوروبية وسيلة لاستعباد الأمم الإسلامية ويذلونها باسمه ، وليعلم الملوك والأمراء الإسلاميون أني لست أقول أعطوا الملك لغير أبنائكم ، فإن ذلك ليس في الإمكان ، ولكني أقول : يجب أن يتعلم الشعب كله ، لأن الملك وحده لا يقوم مقام الأمة ، وإذا كان ولي العهد صالحاً للملك فهو أحق من غيره ، ولكن لنا على يقين من أن الأعقاب يكونون على منوال الآباء ، بدليل ما تقدم من حوادث التاريخ ومن نفس طبيعة النوع الإنساني .

فلينظر علماء الإسلام الذين يقرؤون هذا التفسير وملوك وأمراء الإسلام ، فإذا أنسوا من بيت الإمارة والملك علماً وكمالاً وسياسة وحكمة فهم أولى بالحكم ، ولكن لما كان عالمنا الذي نعيش فيه

يسير على طريقة تنازلية بحيث يكون كل جيل أضعف مما قبله وهكذا؛ وجب لأجل الاحتراس أن يجعل الأمر بيد مجلس الأمة، وهؤلاء الملوك ينفذون ما يقرره المجلس، وللملك مزايا خاصة تقرر بينهم وبينه، فهنالك يحصل الغرض المطلوب، فالأمة كلها تجد في التحصيل وتحسن بالتبعة الملقاة على عاتقها، ويخف الحمل عن الملك وأعوانه، ويبقى الأمير أو الملك موضع الإعزاز والإعظام والإجلال وذلك كما في بلاد اليابان وبلاد الإنجليز، حتى إذا كان أحد الأبناء منحرفاً عن الجادة فإن الأمة والوزراء هم المسؤولون وكفى.

وقد ذكرت هذا من قبل وأكرره في كل مناسبة، هذه طريقة سهلة، فإذا لم توفق أمة من أمم الإسلام إلى ذلك فلتجعل الإمارة بالانتخاب والشورى كما فعل سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، وكما تفعل الولايات المتحدة، ومتى انتظمت إمارات الإسلام وجب على الأمراء أن يجتمعوا وينتخبوا واحد منهم يكون خليفة للمسلمين كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويكون انتخابه لمدة معينة نحو خمس سنين، وذلك خيفة أن تتغير أطواره فتحصل الفتنة. هذا ما فتح الله به في معنى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى:٣٨].

أما أن نسمع أن أمم الإسلام تتخذ رجلاً لأجل نسبه وتقول إنه إله أو الإله حل فيه؛ ويجعل له أعواناً يشيدون باسمه، أو تتخذ آخر لأجل صلاحه، وقد اجتمع حوله تلاميذه فجعلوه فوق جميع الأولياء والصالحين وذكروا له كرامات؛ ثم يحكم الناس بهذه الوسيلة، فيقولون هو المهدي ـ اقرأ ما في أول سورة «الحج» من الكلام على المهدي ـ أو نحو ذلك، فهذه أشبه بأمواج في بحر السياسة تموج فيه ثم تضمحل عند الشاطئ، اقرأ ذلك في أخبار المهدي محمد بن تومرت في سورة «سبأ» وفي سورة «الكهف» عند آية: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[الآية:٥١]. اللهم إني كتبت ما فتحت به علي اليوم، ولك الحمد على نعمة العلم.

إن الرجال الذين اشتهروا بالصلاح وهم حريصون على المال لهم منافع ومضار، وضرهم أكثر من نفعهم، أما الذين وصفناهم وقررناهم فهم الذين يجب أن يتولوا الملك، لأن نفعهم أكثر من ضرهم.

ولأختم هذا المقام بحديث دار بيني وبين أحد مشايخ الطرق بمصر. ذلك أني كنت أسكن بجهة طولون عند قلعة الكبش، وكان بيتي بالقرب من شيخ طريقة معظم في بلاد الصعيد، وهذا الشيخ له مريدون وأكثرهم من البرابرة، وكان إذا نزل الصعيد وعلم مريدوه قابله ٥٠٠ خيال احتراماً له، واتخذوا يوم حلوله عيداً لهم، وهنالك يكسو الرجل زوجته وأبناءه وبناته، ويكون الفرح والهناء بمقدم الشيخ، والبلاد التي يعظمه أهلها تقل فيها السرقات. وقد شرح ذلك شرحاً بيناً فقال: أنا إذا قدمت القرية يحضر زيد فيقول لي: يا أستاذي أنا أخطأت لا تغضب علي. فيقول له: من كان معك؟ فيقص القصص إنه هو وفلان وفلان سرقوا بقرة أو نقبوا حائطاً أو قتلوا رجلاً. فهنالك يقطب الشيخ وجهه وقد حفظ أسماء الشركاء. فمتى حضر أحدهم يأمر الشيخ بعدم دخوله عليه. فهنالك يزيد الاعتقاد في الشيخ.

فهذه هي منافع هؤلاء الشيوخ . فأما مضارهم فإن هذا النفع لا قيمة له ، لأنه لم يكن من نفس الفرد بل إنه خائف من الشيخ ، والشيخ لا ينال هذا إلا بجهل أتباعه . وأمة هذا شأنها تكون عالة على المجتمع الإنساني . ويعض هؤلاء الشيوخ يمثلون عجل السامري . وهذا العجل يجب أن يحرق ويذرى في الهواء كما فعل موسى ، فإن التقوى المبنية على الرعب من نفس الشيخ تقوى لا بقاء لها ، وهذا هو الانتكاس وضياع الأمم ، بل لا بد من الإرشاد والتعليم .

وهذه المسألة الجزئية تفسر لنا الطريق التي سنها الحسن بن الصباح في قلعة الموت ، هي مذكورة في سورة « الكهف » ، فلا يظهر لأتباعه ، وقد حرم عليهم دراسة العلوم ، وحكمهم بمثل هذه الطريقة ، ثم انقرضت تلك الدولة . فمهما كانت نية القائم بالأمر من الإصلاح فهي مخالفة لدين الإسلام وضارة بالأمم وفساد للمجموع .

وهاك حديثاً آخر حدثه لي هذا الشيخ وأنا معه في منزله ، وأتباعه يذكرون الله والمنشد يغني . قال : إن أحد أتباعي بالصعيد ـ وكان أعمى ـ أخذ يجد في العبادة والذكر على حسب طريقتي ، فأخذ الناس يذكرون له كرامات ، وسمع هو بذلك فأخذ يتظاهر بما يدل على ذلك ، حتى أشاعوا بأنه ارتقى فوق مرتبتي أنا ، وأنه نال فوق ما نلت ، فلما نزلت ببلدتهم وكان الجمع محتشداً وهو بينهم ؛ وقفوا جميعاً ، أما هو فإنه بقي جالساً ليحقق قولهم ، وأنه أعلى من شيخه في الولاية ، فسلمت عليهم جميعاً . ولما لم يقم لم أسلم عليه ، مع أنه لو كان غيره من الناس لضربوه وأهانوه ، ولكنهم احترموه لأنه أصبح أعلى في مقام الولاية مني ، فأوعزت سراً إلى أحد أتباعي أن يسرق حذاءه . فلما أخذنا ننتقل من ذلك المكان وقام معي هذا الجمع المحتشد لم يجد حذاءه . وظهر للناس بأنه لا علم له بمن سرق نعله .

إذن هو ليس بولي فتركوه فمشي حافياً ، ثم أتى ليذكر مع الذاكرين فأخرجه أتباعي بأمري ، فشكاهم إلي ، فقلت له : إن الولاية لي أنا فكيف تتكبر علي بها ، وأخذ يوبخه على فعلته ثم عفا عنه ، فرجع فرداً من الأفراد والتلاميذ المعتادين .

وإنّما ذكرت هذا لأنه معهود في أكثر ديار الإسلام ، والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ٢٤ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية و١٢ يناير سنة ١٩٣١ .

بيان العدل العام في السماوات والأرض

وأن الشورى مفتاح العدل ، وأن العدل والجمال يرجعان لأمر واحد فيكون جمالاً في المحسوسات أو موسيقى ، وغريزة في الحيوان ، وعدلاً عند الإنسان .

ثم ذكر أنباء الشورى في زمن النبوة والخلافة وبقاء الملك ، ثم بيان تركها وذهاب الملك ، وتبيان أن المسلمين بسبب ما ذاقوا من حلاوة الشورى في زمان أبي بكر وعمر قتلوا عثمان غيلة لما ظنوا أنه يفضل بني أمية ولم يلم بهم من الظلم عشر معشار ما ألم بالإنجليز حين قتلوا « شارل الأول » في القرن السابع عشر ، ولا ما ألم بالفرنسيين إذ قتلوا « لويس السادس عشر » في القرن الثامن عشر ، ولا بالألمان إذ ثاروا على أمرائهم في القرن التاسع عشر .

بعد ما كتبت ما تقدم من أمر الشورى في بلاد فرنسا وإنكلترا تطبيقاً على آية: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى: ٣٨]؛ وبيان أن هذه الثورة السياسية في الأقطار الأوروبية لم تكن لديهم إلا من آثار النهضة الإسلامية الأولى؛ جاشت النفس بخواطر في أمر الشورى في مدة الخلافة الإسلامية وهي ٣٠ سنة، وكيف كانت إذ ذاك، وأن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي بيّن الشريعة للناس. فالصلاة والصيام والحج لولا فعله صلى الله عليه وسلم وفعل أصحابه ما عرفنا شيئاً منها، فآية الشورى آية مجملة، والإجمال لا يغني عن التفصيل. والله يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[النحل: ٤٤]. ونحن إذا اكتفينا في تفسير هذه الآية بما تقدم نكون قد خالفنا منهج الحق، وهذا الكتاب اليوم بين يدي المسلمين، فحق علي أن أذكر جملة صالحة توضح أمر الشورى في عصر النبوة وفي عصر الخلافة، حتى يعرف الناس السبب في هذا الملك العظيم الذي امتد شرقاً وغرباً، ولماذا أزال الله ذلك الملك ومزق أبناء الذين قاموا بهذا الأمر تدريجاً بعد العصور الأولى، وأقدم قبل ذلك مقدمة في النظام العام في السماوات والأرض. فأقول:

اعلم أن العدل والجمال يرجعان معاً إلى النظام العام، فكل ما كان منظماً فهو مرغوب فيه محبوب، وما فقد النظام فهو منفور منه، إن النظام حليف الدوام، والاختلال يتبعه التفرق والانحلال إن من اطلع على هذا التفسير أو أكثر فإنه يوقن أن نظام الكواكب والشموس والأقمار نظام تام عجيب لا خلل فيه، فكانت نتائجه لا حصر لها، إن التناسب وحسن النظام إذا فارق الأجسام الحيوانية والنباتية لم تكن لها حياة، وإذا لم يكن تناسب بين الخدين والعينين والمنخرين والفم في الوجه فقد الجمال، فالجمال يتبع التناسب والقبح يلازم عدم التناسب، هكذا كل عضو من أعضاء الإنسان والحيوان، وكل غصن أو ورقة من نبات لها نسب خاصة، وبغير تلك النسب لا تكون حياة للنبات ولا للحيوان.

تقدم في هذا التفسير في غير ما موضع أن شبر الإنسان مقياس لأعضائه، فهو ثمانية أشبار بشبره، ربعها من الركبتين إلى القدمين، وربعها من الركبتين إلى الحقوين، وربعها من حقويه إلى رأس فؤاده، وربعها من رأس فؤاده إلى مفرق رأسه، وإذا مد يديه يمنة ويسرة كان امتدادهما نحو (٨) أشبار أيضاً، وإذا مد يديه إلى فوق رأسه فإنه يجد أن المسافة من السرة إلى أطراف أصابعه (٥) أشبار كالمسافة التي بين السرة والقدمين. أنا لا أطيل في هذا لأنه تقدم، ولكنه تذكير بجمال الوضع في العالم المشاهد والكمال فيه، وهذا في المشاهد المحسوس بحاسة البصر، ومثله المحسوس بحاسة السمع، كما تقدم كثيراً في غير ما موضع، فإن الموسيقى القديمة المبنية على نسب «البم والمثنى والمثلث والزير» والموسيقى الحديثة المبنية على قاعدة المتوالية الهندسية ١٦ ــ ٣٢ ــ ٦٤ وهكذا؛ لم تخرج عما تحبه النفوس من النظام والجمال.

الله أكبر. اللهم إنك أنت الجميل الحكيم العليم. أنت الذي أحكمت ملكك، ونظمت خلقك، عجبنا يا رب من إبداعك. أنت واحد ونظامك واحد، ولكن اختلفت مظاهره. أنت سريع الحساب، فإن كان ذلك الحساب في المشاهدات بحاسة البصر كبهجة الأشجار وجمال الأزهار والزروع، وجمال الوجوه، سميناه جمالاً ـ وإن هو إلا تناسب بين الألوان والأغصان والأوراق والأعضاء بحساب لا

خطأ فيه البتة كحساب سير الكواكب، انظر بعضه في سورة «الحجر» عند آية: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[الآية: ١٩]، فهناك تعرف أيها الذكي لم فرح الناس بالأشجار وعدوها جميلة، وهناك تشاهد رسم الأوراق والهندسة في الدوائر التي تكونت على الأغصان وأكثر أهل العلم عنها غافلون - وإن كان في المسموعات سميناه موسيقى واستلذت النفس به، وإن كان ذلك الإتقان في جماعة الحيوان كما تقدم في جمهورية النحل وجمهورية النمل وجمهورية الأرضة المذكورات المصورات في سورة «النحل» و«النمل» و«سبأ» سميناه غريزة، وإن كان ذلك الإتقان في سياسة الإنسان العامة وحفظ الجماعة سميناه عدلاً.

عجباً يا ربنا، أينما قلبنا الطرف وأدرنا وجوهنا يميناً ويساراً وفوق وتحت لا نجد إلا نظاماً واحداً، وهذا النظام له مظاهر مختلفات، فهو جمال ونغمات وغريزة وعدل، وأقرب المخلوقات إلينا الحيوانات التي نظمت ممالكها نظاماً أدهشنا، عجز الإنسان والله عجزاً ظاهراً أن يجاري النمل في جمهوريته، أو يساوي النحل في مملكته، أو يجاري الأرضة العمياء التي تحكم مئات الألوف من تلك الحشرات التي هي عمياء مثلها، فهذه يا رباه حكومات منظمات على منوال ما نظمت أنت من جمال وجوهنا وبدائع أشجارها وأزهارها والأثمار.

نعم. الإنسان لم يقدر أن يجاري هذه الحشرات ولا غيرها، فإن عدل يوماً ظلم سنين، وإن علم شيئاً جهل أشياء، أنت أعطيته الحرية، ووهبته معها عقلاً، وقلت له: دونك التجربة، ولم تذره ونفسه، بل أرسلت له أنبياء فعلموه، وخلقت قوماً حكماء ففهموه، ومع ذلك لا تزال الشقوة تحيط به، والذل يغشاه، وآخر من أرسلته من الأنبياء نبينا صلى الله عليه وسلم، وجاء في وحيك: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى: ٣٨]. فهانحن أولاء نبحث في سيرته صلى الله عليه وسلم وسيرة الخلفاء الخاصة بالشورى، فنجد أنه روي أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة، فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه، ودعا عبد الله بن أبي ابن سلول ولم يدعه من قبل، فاستشاره فقال عبد الله بن أبي ابن سلول: كثر الأنصار يا رسول الله، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوا قاتلتهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وكان صلى الله عليه وسلم أميل إلى هذا الرأي. وقال بعض أصحابه: اخرج بنا إلى هذه الأكيلب لئلا يروا أنا جبنا عنهم وضعفنا وخفناهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني قد رأيت في منامي بقراً فأولتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً فأولتها هزيمة، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة. فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم»، فقال رجال فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا. وبالغوا حتى دخل ولبس لأمته. فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم، وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت. فقال: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل». اهـ. اقرأ بقية الكلام على هذا المقام في سورة «آل عمران» في المجلد الثاني من هذا التفسير.

إذن هانحن أولاء رأيناه صلى الله عليه وسلم كان يميل إلى أن يبقى في المدينة لأنها تأويل الدرع الحصينة التي رآها في المنام. ولكن لما أشاروا عليه لبس لأمته ولم يرجع عما أشاروا به، وإن كانوا هم ندموا على مبالغتهم في طلب الخروج للقاء. وهكذا نجد عمر رضي الله عنه هو من خلفائه يجد في العدل والعفة. ولا يبرم أمراً إلا بمشورة أصحابه، حتى ما يختص بأمر نفسه، وما يقوم بأمر معاشه.

أولاً: ذلك أنه جمع الناس بالمدينة حين انتهى إليه فتح القادسية ودمشق، فقال: إني كنت امرأ تاجراً وقد شغلتموني بأمركم هذا، فماذا ترون أنه يحل لي من هذا المال؟ فأكثر القوم وعلي رضي الله عنه ساكت، فقال: يا علي ما تقول؟ قال: ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الأمر غيره، فقال: القول ما قال علي بن أبي طالب.

وأخرجا عن أسلم قال: قام رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ما يحل لك من هذا المال؟ فقال: ما أصلحني وأصلح عيالي بالمعروف وحلة للشتاء وحلة للصيف وراحلة عمر للحج والعمرة ودابة لحوائجه وجهاده.

وروى الطبري أن هذا العطاء الذي رضيه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه، واشتدت به الحاجة، فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وتشاوروا في زيادة يزيدونها لعمر في رزقه من بيت المال، فهابوا مقابلته فأتوا بنته حفصة وأمروها أن تخبره بالخبر وترى رأيه فيه ولا تذكر له أسماءهم، فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه وقال لها: من هؤلاء؟ قالت: لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك. فقال: لو علمت من هم لسؤت وجوههم، أنت بيني وبينهم، أنشدك بالله ما أفضل ما اقتني رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس ــ وكانت زوجته ــ قالت: ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع. قال: فأي الطعام ناله عندك أرفع؟ قالت: خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكة فجعلناها هشة دسمة، فأكل منها وتطعم استطابة لها، قال: فأي مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ؟ قالت: كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه. قال: يا حفصة فأبلغيهم عني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية، وإني قدرت فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجية، وإنّما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضى الأول وقد تزود زاداً فبلغ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه، ثم اتبعه الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما.

هكذا كان شأن عمر رضي الله عنه في العفة والقناعة والرضا بالكفاف مما يسد الجوع ويستر العري. وروي في المناقب عن الحسن قال: خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة. وفي المناقب أيضاً عن أبي عثمان الهندي قال: رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة إحداهن بأدم « جلد » أحمر. وفيها عن قتادة أن عمر بن الخطاب أبطأ على الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر إليهم في احتباسه وقال: إنّما حبسني غسل ثوبي هذا ولم يكن لي ثوب غيره.

وفيها عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب لعمر: يا أمير المؤمنين لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك هذا، وأكلت طعاماً هو ألين وأطيب من طعامك، فقد وسع الله من الرزق وأكثر من الخير. فقال: إني سأخاصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من العيش، فما زال يذكرها حتى أبكاها.

ثانياً: جاء في «كنز العمال» عن النعمان بن بشير أن عمر بن الخطاب قال في مجلس وحوله المهاجرون والأنصار: أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ما كنتم فاعلين؟ فسكتوا، فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً، فقال بشير بن سعد: لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح ـ وهو السهم المعوج قبل أن يراش وينصل ـ فقال عمر: أنتم إذن أنتم إذن «استحساناً لقولهم». وفي المناقب عن عبد الجبار بن عبد الواحد التنوخي قال: قال عمر رضي الله عنه وهو على المنبر: أنشدكم الله لا يعلم رجل مني عيباً إلا عابه. فقال رجل: نعم يا أمير المؤمنين، تديل بين البردين وتجمع بين الأدمين، ولا يسع ذاك الناس، فما أدال بين بردين ولا جمع بين أدمين حتى لقي الله. وقوله: تديل بين البردين، أي: يلبس قميصاً ويخليه ويلبس غيره. وذكر بعض المؤرخين أنه خطب يوماً فقال: أيها الناس من رأى منكم اعوجاجاً في فليقومه. فقام رجل فقال: والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا، فقال عمر: الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه.

ثالثاً: قال الأحنف بن قيس: كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال: يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعدني على فلان، فإنه قد ظلمني، فرفع عمر الدرة فخفق بها رأسه، فقال: تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم، حتى إذا أشغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه أعدني أعدني. قال: فانصرف الرجل وهو يتذمر. قال «أي عمر» على الرجل «أي ردوه علي»، فألقى إليه المخفقة. وقال: امتثل «أي اقتص بمثل الضربة». فقال: لا والله ولكن أدعها لله ولك، قال: ليس هكذا، إما أن تدعها لله إرادة ما عنده أو تدعها لي، فاعلم ذلك. قال: أدعها لله. قال «أي الأحنف»: فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه، فصلى ركعتين وجلس فقال «يخاطب نفسه»: يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب الناس، فجاءك رجل يستعديك فضربته، ما تقول لربك غداً إذا أتيته؟ قال: فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض.

رابعاً: من إنصافه للرعية، ما روي أنه أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم، قال: عذت معاذاً. قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم ابنه عليه فقدم، فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب. فجعل يضربه بالسوط، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين. ثم قال للمصري: ضعه على صلعة عمرو. قال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه. فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني «يعني» المصري.

خامساً: ومن معاملته لأهل الذمة وشفقته عليهم ما جاء في نفس هذا الكتاب، وهذا نصه: ومن جميل سياسته اهتمامه بأهل الذمة الذين دخلوا في عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين، ووصاياه للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب ظلمهم وأذاهم، وبلغ اهتمامه بهم أن كان إذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شيء عنهم يستدعي ذوي أمانة من المسلمين الذين أقاموا في بلادهم ويسألهم عن أحوالهم، ويستقصي سيرة العمال معهم، ومن ذلك ما رواه الطبري في تاريخه أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أمير البصرة أن يبعث له جماعة من ذوي الرأي والبصيرة، فأرسل إليه وفداً فيهم الأحنف بن قيس، فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلماً أو حيفاً، فأجابوه بالسلب، ولم يطمئن لقولهم حتى استوثق من الأحنف وكان يثق بصدقه، ثم صرفهم.

ومن أجمل ما يؤثر عنه من الرفق بأهل الذمة ما جاء في «كنز العمال» أن عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد فقال: ما أنصفناك، كنا نأخذ منك الجزية في شيبتك ثم ضيعناك في كبرك، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه.

سادساً: ومن حسن سياسته تقدمه إلى قواده بأن لا يمسكوا الجند في الغزو أكثر من أربعة أشهر، وسببه أنه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراء بابها تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقني أن لا خليل ألاعبه

فلولا حذار الله لا شيء مثله لزحزح من هذا السرير جوانبه

فكتب عمر إلى عماله أن لا يغيب أحد بالغزو. ونعم الرأي.

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك، فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن حكيم بن عمير قال: كتب عمر بن الخطاب: ألا يجلدن أمير جيش ولا سرية أحداً الحد حتى يطلع الدرب لئلا تحمله حمية الشيطان أن يلحق بالكفار.

ومن سياسته أنه كان يحبس عن العمل كثيراً من كبار الصحابة، فمنهم من كان لا يستعمله خوفاً على دينه من أن يدنسه بالولاية، فقد أخرج ابن سعد عن عمران بن عبد الله قال: قال أبيّ بن كعب لعمر بن الخطاب: ما لك لا تستعملني؟ قال: أكره أن تدنس دينك.

ومنهم من لا يستعمله خشية أن يحمله على رقاب الناس، أو خشية أن تحدثه نفسه بالإمارة إذا بعد عن مراقبته، وهؤلاء هم بنو هاشم، لما كان يتفرسه فيهم من التطلع إلى الإمارة. ففي «مروج الذهب» للمسعودي عن عبد الله بن عباس أن عمر أرسل إليه فقال: يا ابن عباس: إن عامل حمص هلك وكان من أهل الخير، وأهل الخير قليل، وقد رجوت أن تكون منهم، وفي نفسي منك شيء لم أره منك وأعياني ذلك فما رأيك في العمل؟ قال: لن أعمل حتى تخبرني بالذي في نفسك. قال: وما تريد إلى ذلك؟ قال: أريده فإن كان شيء أخافه على نفسي خشيت منه عليها الذي خشيت، وإن كنت بريئاً من مثله علمت أني لست من أهله فقبلت عملك هنالك، فإني قلما رأيت أو ظننت شيئاً إلا عاينته. فقال: يا ابن عباس إنني خشيت أن يأتي علي الذي هو آت وأنت في عملك، فتقول هلم إلينا ولا هلم إليكم دون غيركم، إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم. قال «أي ابن

عباس »: والله قد رأيت من ذلك، فلِمَ تراه فعل ذلك؟ قال « أي عمر »: والله ما أدري أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم، أم خشي أن تبايعوا بمنزلكم منه فيقع العقاب، ولا بد من عتاب فقد قرعت لك فما رأيك؟ قال « أي ابن عباس »: أراني لا أعمل لك. قال: ولم؟ قال: إن عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قذى في عينك. قال: فأشر علي. قال: إني أرى أن تستعمل صحيحاً منك صحيحاً لك.

سابعاً: جاء في « كنز العمال » عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث عماله شرط عليهم أن لا تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً، ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس، إن فعلتم شيئاً من ذلك فقد حلت بكم العقوبة. ثم يشيعهم، فإذا أراد أن يرجع قال: إني لم أسلطكم على دماء المسلمين ولا على أعشارهم ولا على أبشارهم ولا على أعراضهم ولا على أموالهم، ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة، وتقسموا فيهم فيئهم وتحكموا بينهم بالعدل، فإن أشكل عليكم شيء فارفعوه إلي، ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها، ولا تجمروها فتفتنوها، ولا تعتلوا عليها فتحرموها، جودوا القرآن. وفي رواية: وأقلوا من الرواية.

وكان إذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمروءة عزله في الحال. ففي « المناقب » لأبي الفرج ابن الجوزي عن ابن سعد قال: كان عمر بن الخطاب استعمل النعمان بن نضلة على ميسان، وكان يقول الشعر فقال:

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها بميسان يسقى في زجاج وحنتم

في أبيات يقول في ختامها:

لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ عمر قوله قال: نعم والله إنه ليسوؤني، من لقيه فليخبره أني قد عزلته، فقدم عليه رجل من قومه فأخبره بعزله، فقدم على عمر فقال: والله ما أحب شيئاً مما قلت، ولكن كنت امرأ شاعراً وجدت فضلاً من قول فقلت فيه الشعر. فقال عمر: والله لا تعمل لي عمل ما بقيت. وفي رواية عن عثمان الخزامي عن أبيه قال: لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب إلى النعمان بن نضلة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١-٣] أما بعد فقد بلغني قولك:

لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادمنا بالجوسق المتهدم

وأيم الله إنه ليسوؤني، وعزله.

ومن عجيب سياسته مع العمال أنه كان يحصي أموالهم قبل العمل، وما زاد بعده يصادرهم على كله أو بعضه. ومن هذا ما رواه الطبري أن عمر استعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة، فقدم المدينة بمال، فقال له: ما هذا يا عتبة؟ قال: مال خرجت به معي واتّجرت فيه، قال: وما لك تخرج المال معك في هذا الوجه؟ فصيره في بيت المال.

وروي أن خالداً لما أدرب هو وعياض إلى بلاد الروم انتجعه من العراق رجال منهم الأشعث ابن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم، فبلغ ذلك عمر، فكتب إلى أبي عبيدة أن يحصي مال خالد

ويصادره على النصف، فدعاه وتلا عليه أمر أمير المؤمنين، وصادر على نصف ماله، حتى الخفين أخذ منهما واحداً وترك له الآخر.

ثامناً: شاطر عمر سعد بن أبي وقاص على ماله، وشاطر أبا هريرة، ولما أبى أن يشاطره ضربه، وصادر غيرهم أيضاً ورد أموالهم لبيت المال.

تاسعاً: وأخرج عن حبيب بن أبي وائل قال: قال عمر بن الخطاب: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين.

عاشراً: ومن أخباره في التأديب التي تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة عقوبته لغلاظ القلوب ما جاء في «كنز العمال» عن أبي عثمان النهدي قال: استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من بني أسد على عمل؛ فجاء يأخذ عهده؛ فأتى عمر ببعض ولده فقبله، فقال الأسدي: أتقبل هذا يا أمير المؤمنين؟ والله ما قبلت ولداً قط. قال عمر: فأنت والله بالناس أقل رحمة، هات عهدنا فلا تعمل لي عملاً أبداً.

حادي عشر: تظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى أنه ضربه وتعدى عليه، فقال: اللهم إني لا أحل لهم أعشارهم ولا أبشارهم «أموالهم وأجسامهم»، كل من ظلمه أميره فلا أمير عليه دوني، ثم أقاده منه، أي أخذ له القود.

وقال المغيرة بن شعبة وذكر عمر فقال: كان والله له فضل يمنعه أن يخدع، وعقل يمنعه أن ينخدع.

في «كنز العمال» عن طاوس أن عمر قال: أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أقضيت ما علي؟ قالوا: نعم. قال: لا حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا.

وفيه عن عمر قال: الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، فإذا رفع الإمام رفعوا. أخرجه ابن سعد.

ثاني عشر: حكاية عمر مع جبلة بن الأيهم ملك غسان. فإنه لما أسلم ووفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب، وبينما هو يطوف يوماً وطئ على إزاره أعرابي من بني فزارة، فضربه على وجهه، فشكاه الأعرابي إلى أمير المؤمنين، فاستدعى عمر جبلة وقال له: إما أن ترضيه وإما أن يضربك كما ضربته. فكبر ذلك على جبلة وقال: ألا تفرقون بين الملك والسوقة؟ قال: لا، قد جمع بينكما الإسلام، فاستمهله إلى الغد، ثم أخذ قومه وفر بهم ليلاً، ولحق بالإمبراطور هرقل بالقسطنطينية، فأرسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع.

ثالث عشر: ما ذكره الطبري في تاريخه عند الخبر عن إرسال الجيوش إلى نهاوند في أخبار سنة ٢١، قال: ونزل بسعد، أي: ابن أبي وقاص، أقوام وألبوا عليه، فيما بين تراسل القوم واجتماعهم إلى نهاوند، ولم يشغلهم ما دهم المسلمين من ذلك وكان ممن نهض الجراح بن سنان الأسدي في نفر، فقال عمر: إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد، وأيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا ـ يعني الفرس ـ بكم، فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للأعاجم، والأعاجم في الاجتماع، وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال

الذين يقتص آثار من شكى زمان عمر، فقدم محمد على سعد ليطوف به على أهل الكوفة، والبعوث تضرب على أهل الأمصار إلى نهاوند، فطوف به على مساجد أهل الكوفة لا يتعرض للمسألة عنه في السر، وليست المسألة في السر من شأنهم إذ ذاك. وكان لا يقف على مسجد فيسألهم عن سعد إلا قالوا: لا نعلم إلا خيراً ولا نشتهي به بدلاً، ولا نقول فيه ولا نعين عليه، إلا من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه، فإنهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءاً، إلى أن قال الطبري: وخرج محمد به ـ أي بسعد ـ وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه، فأخبره الخبر، فسأله عمر عن أوجه الشكوى فأنكرها، ولم يسعهم إثباتها، فردهم عمر وخشي إذا بقي سعداً على الكوفة أن يكون بينهم وبينه أمر، فعزله احتياطاً، وسأله: من خليفتك على الكوفة؟ فقال له: عبد الله بن عبد الله بن عتبان فأقره.

ومنه تعلم كيف كان رضي الله عنه مراقباً لعماله، كثير التحقيق عن أخبارهم، لا يتعجل في أمرهم إذا جاءته شكاية على أحدهم، بل يتثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته، فإن ثبت عليه شيء مما يدعيه الشاكي عزله.

رابع عشر: كان رضي الله عنه لا يحب أن يفرق بين عماله في المعاملة بين الحر والعبد ولا بين القوي والضعيف. أخرج ابن جرير الطبري عن الأسود بن يزيد قال: كان الوفد إذا قدموا على عمر رضي الله عنه سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً، فيقول: هل يعود مرضاكم؟ فيقولون: نعم. فيقول: هل يعود العبد؟ فيقولون: نعم. فيقول: كيف صنيعه بالضعيف وهل يجلس على بابه؟ فإن قالوا: لا، عزله.

خامس عشر: لما وفد عليه الأحنف بن قيس وسأله عن حال الذمة في ولاية البصرة وصرفه؛ كتب معه كتاباً إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة يوصيه فيه بأهل الذمة. هذه صورة عن تاريخ الطبري:

أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي، فإنكم إنّما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم، فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً.

وبلغه مرة أن حرقوصاً عامله على الأهواز نزل جبل الأهواز والناس يختلفون إليه، والجبل كؤود يشق على من رامه، فكتب إليه ما صورته نقلاً عن تاريخ الطبري في حوادث سنة ١٧: أما بعد: بلغني أنك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيه إلا على مشقة، فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على معاهد، وقم في أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصفى لك الدنيا، ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك وتذهب آخرتك.

سادس عشر: وأخرج عن أبي فراس قال: خطب عمر بن الخطاب فقال: يا أيها الناس إني والله ما أرسل عمالاً إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ـ وفي رواية: ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل ـ فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه، فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه. قال: إي والذي

نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه. ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم.

وعن أبي رواحة قال: كتب عمر بن الخطاب إلى العمال: اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم، إياكم والرشا والحكم بالهوى، وأن تأخذوا الناس عند الغضب، فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار.

وروى الطبري أن عمر كان يقول في عماله: اللهم إني لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم، من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني. ومع كل هذا التشديد على العمال فإنه رضي الله عنه كان دائماً قلقاً على الرعية خائفاً من أن يجار عليهم بأمر لا يصله خبره، لهذا عزم قبيل قتله أن يسافر ويطوف على العمال جميعهم ليبحث عن أمور الرعية ويقضي حاجاتهم. فقد أخرج الطبري عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني، أما عمالهم فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إلي، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله ونعم الحول.

سابع عشر: كان من عماله سليمان الفارسي، وكان عامله على المدائن، وكان على جانب من الزهد والتقى والصلاح عظيم، فكان يلبس الصوف ويركب الحمار ببرذعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير، فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقاص: يا أبا عبد الله أذكرك الله عند همك إذا هممت، وعند لسانك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت، فجعل سنان يبكي، فقال له: يا أبا عبد الله ما يبكيك؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون»، وأرى هذه الأساودة ـ جمع سواد وهو المال الكثير ـ حولي، فنظروا فلم يجدوا في البيت إلا إدواة وركوة ومطهرة.

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح، وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي، فعذل على ذلك وقيل له: إنك بالشام وأمير المؤمنين وحولنا الأعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك، فقال: ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان عامله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم، فشكاه أهل حمص إليه وسألوه عزله، فقال عمر: اللهم لا تفل فراستي فيهم، ماذا تشكون منه؟ قالوا: لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار، ولا يجيب أحد بليل، وله يوم في الشهر لا يخرج إلينا، فقال عمر: علي به، فلما جمع بينه وبينهم، فقال: ما تنقمون منه. قالوا: لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار، فقال: ما تقول يا سعيد؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنه ليس لأهلي خادم، فأعجن عجيني ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي ثم أتوضأ وأخرج إليهم، قال: وماذا تنقمون منه؟ قالوا: لا يجيب بليل، قال: قد كنت أكره أن أذكر هذا، إني جعلت الليل كله لربي، وجعلت النهار لهم، قال: وماذا تنقمون منه؟ قالوا له: يوم في الشهر لا يخرج إلينا.

قال : نعم ليس لي خادم ، فأغسل ثوبي ثم أجففه فأمسي ، فقال عمر : الحمد لله الذي لم يقل فراستي فيكم يا أهل حمص ، فاستوصوا بواليكم خيراً . ثم إن عمر بعث إليه بألف دينار وقال : استعن بها ، فقالت له امرأته : قد أغنانا الله عن خدمتك ، فقال لها : ألا ندفعها إلى من يأتينا وأحوج ما كنا إليه . قالت : بلى . فصرها صرراً ثم دفعها إلى من يثق به ، وقال : انطلق بهذه إلى فلان ، وبهذه إلى يتيم بني فلان ومسكين آل فلان ، حتى بقي منها شيء يسير فدفعه إلى امرأته ، وقال : أنفقي هذه ، ثم عاد إلى خدمته ، فقالت له امرأته : ألا تبعث بذلك المال فتشتري لنا منه خادماً ، فقال : سيأتيك أحوج ما تكونين إليه . انتهى من كتاب « أشهر مشاهير الإسلام » .

هانحن أولاء اللهم شاهدنا جميل صنعك وبديع إتقانك في عوالمك المشاهدة والمسموعة ، والتي أوحيت بها للحيوانات وما علمت به الإنسان . وهانحن أولاء نقرأ آثار سورة « الشورى » في آخر الأديان المنزلات إلى الأرض . كل جمال في كوكب أو زهر أو وجوه حسان في نوع الإنسان . وكل نظام في جماعة الحيوان أو عدل على يد نبي أو خليفة أو صالح داخل تحت آية : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٥٢-٥٣] .

أما صراطك الذي في السماوات والأرض فهذا التفسير قد ألم بصور كثيرة منه . وأما الصراط المستقيم الذي يدعو إليه رسولك ، فبعضه ما جاء في هيئة الشورى المقدمة أيام النبوة والخلافة .

اللهم إن هذه الأعمال الشريفة ، والمعاني المنيفة ، لم يبق عند كثير من أمم الإسلام إلا أخبارها اللهم إني بينت بإعانتك وأنت العليم الحكيم ، فاشرح صدور المسلمين لتلك الأعمال الشريفة ، ليرجعوا مجدهم ويقوموا بنظام أممهم ويساعدوا الأمم على النظام العام .

هاهم أولاء المسلمون بعد ٣٠ سنة وهي التي كانت فيها الخلافة أخذوا يرجعون القهقرى تدريجاً ، فما كاد عثمان رضي الله عنه يقتل حتى قرعت القارعة ، واشتد الخصام والنزاع على الخلافة نعم . كان ذلك باجتهاد من أصحاب نبيك صلى الله عليه وسلم ، فأما بعد ذلك فإن الأمر كله راجع للملك وحده ، وأخذ بنو أمية وبنو العباس يتنافسون على الخلافة ، وأدخل الآخرون الفرس معهم لإذلال العرب ، فذهبت ريحهم على مر الأيام ، ولا زالت الأمة تتقهقر بالتدريج حتى يومنا هذا .

لا ملاذ ولا ملجأ للمسلمين إلا أن يرجعوا لنفس النبوة ونفس الخلافة فيدرسوهما درساً تاماً مفصلاً . هانحن أولاء لم نجد في أممنا الإسلامية حولنا ولا في أمم أوروبا حكومات تشاكل حكومات الخلفاء الراشدين .

تبين من كلام عمر مع ابن عباس أنه يضن بالمسلمين أن يكونوا تحت إمرة من يتولى الخلافة بحق النسب ، خفية أن تترك الشورى ويحل النسب محلها ، وذلك الذي خاف منه عمر رضي الله عنه قد حصل عند الأمويين وعند العباسيين ، فالنسب صار أصلاً للخلافة ، وعمر يقول : كلا . إنما يكون بالشورى . شاطر عمر بعض العمال في أموالهم ، وكره من آخر كما تقدم ما أعطى من المال للناس ، وذم ذلك سواء أكان من ماله هو أم من مال الأمة ، وعده على الأول إسرافاً ، وعلى الثاني خيانة . فهاهو ذا تاريخ ملوك الإسلام قديماً وحديثاً ، إنهم جميعاً إلا قليلاً منهم مسرفون في مال الأمة إسرافاً

فاحشاً، وكان الشعراء لا يعيشون إلا من عطاء الأمراء والملوك، وكل هذا مال الأمة ولا نكير عليهم ولا رقيب.

قتل المسلمون عثمان رضي الله عنه بما ظنوا من ميله لقومه بني أمية، وبما اتهم به مروان بن الحكم من تزوير كتاب فيه إراقة دم لمسلم، وهذه لا تبلغ معشار عشر ما ابتليت به أمم الفرنسيين والإنجليز والألمان، فعصوا ملوكهم، فلقد علمت كيف ظلم الإنجليز ملوكهم ظلماً فاحشاً، وكيف ظلم رجال الكنيسة والأشراف الأمة الفرنسية، فكان لا يدفع الضرائب إلا الطبقة الثالثة، وهي أيضاً لا حق لها في أن تمنع الطائفتين الغالبتين عن إفساد الزرع بصيد الأشراف فيه كما تقدم.

أيها المسلمون، هاهو ا كتاب الله، وهاهي ذه سنة رسوله والخلفاء من بعده، فوالله لا حجة لكم بعد هذا، قامت حجة الله على أمراء المسلمين وعلى العلماء وعلى العامة، أما العلماء فبنشر الفكرة بحيث تصبح كالعقيدة الجوهرية في الإسلام، فوالله إن خطاب المسلم لربه في الصلاة إذ يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾؛ يتضمن ما تقدم من الخلفاء، إذن هذا الصراط وهو العدل والشورى، وهو ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الشورى: ٥٣] المذكورين في أول هذه السورة: ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ﴾[الشورى: ١-٢] إلى قوله: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[الشورى: ٤] الخ. عدل الخلفاء الراشدون لإشراق نور النبوة عليهم، ولكن ذلك النور أخذ إشراقه يتضاءل على من بعدهم، وخير لعلماء الإسلام وملوك الإسلام أن يدرسوا مع السيرة النبوية والخلافة نظام العالم أيضاً. كالذي نشرناه في هذا التفسير، فذلك مفتاح لمعرفة نور النبوة في مستقبل الزمان.

وأما الملوك فعليهم الاجتهاد في اتباع سيرة الخلفاء، وأما العامة فعليهم الانقياد للوالي النافع ونبذ الظالم، وذلك لا يكون إلا بتعميم التعليم، وأنتم يا أمم الأرض المحيطين بالإسلام، هاهو ذا نظام الإسلام والأرض الذي أبدعه الله، وهو الذي ألهم الحشرات ـ وكل حيوان يعيش بهيئة جمهورية ـ كيف تنظم الجماعات وتعطي كل ذي حق حقه، فأنتم محاسبون جميعاً على ما ترون من هذا النظام، أنتم جميعاً بعد الموت سترون النقص في نفوسكم، وهذا النقص نفسه عذاب لكم، ولا بد لكم من قطع عقبات في عوالم أخرى حتى تصلوا إلى تمام النظام، وذلك بأمرين: علم تام بهذه الكائنات، وإخلاص تام للجماعات، بحيث تصبح نفس الإنسان في المساعدة لأخواتها بعد التروي والتفكر أشبه بما طبعت عليه النحل في جماعتها والنمل في قريتها، وهناك يكون الوصول إلى الله والنظر إلى وجهه الكريم، وتكون السعادة التامة، أما قبل ذلك فلا. هذا ما عن لي اليوم كتبته في تاريخه، والحمد لله رب العالمين. الأربعاء ١١ فبراير سنة ١٩٣١م ـ ٢٣ رمضان سنة ١٣٤٩هـ.

عدل عمر وإنصافه

جاء في «كنز العمال» في كتاب «أشهر مشاهير الإسلام» ما نصه: كان بين عمر وبين أبي كعب خصومة، فقال عمر: اجعل بيني وبينك رجلاً، فجعلا زيد بن ثابت فأتياه، فقال عمر: أتيناك لتحكم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم، فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال: هاهنا يا أمير

المؤمنين، فقال له عمر: هذا أول جور جرت في حكمك، ولكن أجلس مع خصمي، فجلس بين يديه، فادعى أبي وأنكر عمر، فقال زيد لأبي: اعف لأمير المؤمنين من اليمين، وما كنت لأسألها لأحد غيره. فحلف عمر، ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء. وفيه عن عبد الله بن حكيم قال: قال عمر بن الخطاب: إنه لا حلم أحب إلى الله تعالى من حلم إمام ورفقه ولا جهل أبغض إلى الله تعالى من جهل إمام وخرقه. اهـ.

جمال الحكمة والعلم

في آية: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى: ٣٨]

وآية: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[الشورى: ٢٣]

اللهم إنك أنت الحكيم العليم، أنت الرب الشهيد، يا الله، ما أجمل صنعك في السماوت والأرض، وما أبدع نظامك في العقول الإنسانية، حارت الأمم الإسلامية يا ربنا في دين الإسلام، هذا الدين الذي أنزلته منذ ١٣ قرناً ونصفاً. المسلمون يرون هذه السورة أنك تحبب إليهم الشورى. ثم هم يجدون الأمم الإسلامية أكثر حكوماتها جاهلة غافلة، فيقرؤون سيرة عمر فيعلمون إلى أي حد وصل العمل بهذا الدين أيام سني الخلافة، فيفكرون في السير على منواله.

ويرون في هذه السورة: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[الشورى: ٢٣]، ويرون المفسرين مختلفين في تفسيرها كما قدمناه. ويجدون آية أخرى تؤيد أن القربى هي التقرب لله كما قدمناه، إذ يقول: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾[الفرقان: ٥٧] والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ولكنهم يجدون تفسير الجمهور وهو أن المراد بالقربى قرابة النبي صلى الله عليه وسلم هو المشهور بين الناس، ثم يرون لآل البيت مقابر جعلت محل الإعظام والإجلال. وأخذ الناس يقدمون لها في بعض أقطار الإسلام النذور، يريدون بذلك قضاء الحوائج، وفوق ذلك يرون كثيراً من العلماء في الإسلام يقرؤون ذلك، فهم في شدة الحيرة من ذلك. فهذه الحيرة أقضت مضاجعهم وفرقت وحدتهم، ولكن رحمتك التي وسعت كل شيء تداركت الأمة بمثل ما جاء هنا في محاورة ابن عباس مع عمر في سبب عدم إسناد العمل إلى آل البيت، وقول الثاني للأول كما تقدم: « إني خشيت أن يأتي علي الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلم إلي ولا هلم إليكم دون غيركم، إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم »، ثم أشار عمر إلى أن سبب ذلك خشية أن يبايع الناس آل البيت بمنزلتهم فيقع العقاب، ولا بد من عتاب. ثم قال: فقد قرعت لك فما رأيك؟ إلى آخر ما تقدم.

اللهم إنك أنت الحكم العدل، وأنت الرحيم. ظهر السر الذي كان مخبوءاً، ظهر في ثنايا الكتب المتروكة. أنت أمرت بالشورى ولكن الناس يتأثرون بذوي البيوتات والمجد والشرف، ولا يراعون العلم والقوة، وكثيراً ما ولوا طفلاً صغيراً لمنزلة والده الراحل إلى ربه، فإذا صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك ولاية بعض بني هاشم خيفة أن يبايعوا الناس بمنزلتهم، وإذا صح أن عمر فعل ذلك أيضاً وقد ظهر صدق فراسته إذ تقلد ابن عباس ولاية لعلي رضي الله عنه، وأخذ ما في بيت المال لنفسه،

فأحزن أمير المؤمنين علياً بذلك فضلاً عما يلقاه من معاداة معاوية بالشام. أقول: إذا صح هذا فقد ظهر الحق واستبان السبيل.

اللهم لا حجة للمسلمين في مخالفة الحقائق، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فهاهنا أمران:

أولاً: الإمارة لا يجوز أن تكون إلا بالكفاءة، وهذه يعرفها أهل الحل والعقد، والعبرة بالأغلبية.

ثانياً: إكرام آل البيت رضي الله عنهم، إن هذا الإكرام لا يختلف فيه اثنان من المسلمين، ولكن هذا الإكرام ليس معناه: أولاً: أن نولي أحدهم ولاية وفي الأمة من هو أجدر منه، ونضيع المسلمين ونطمع فيهم الكفار بهذا السبب.

ولعمري لأن تحفظ بلاد الإسلام من عدوان الأعداء وآل البيت محترمون فيها خير من أن يأخذها العدو فيعم الذل آل البيت وغيرهم. ثانياً: أن تنذر لهم النذور فنقول: إن شفي مريضي أو جاء غائبي فإني أضع في صندوق السيدة زينب رضي الله عنها أو في صندوق سيدنا الحسين رضي الله عنه كذا كذا من النقود، فإن هذا من أوضاع الجاهلين من أمم الإسلام.

اللهم إن قراء هذا التفسير المغرمين به لا يعوزهم إيضاح هذا المقام، ولكن سأنقل لهم ما جاء من أقوال الشيخ الدباغ لأنه من كبار الأولياء والصالحين، وبقوله يحتجون على كل من ادعى الولاية من المسلمين، أولئك الذين يقولون: إن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر. فهذه خديعة كاذبة خاطئة، فانظر ما قاله وهذا نصه:

قال ابن المبارك: وسألته رضي الله عنه: لم كان الناس يستغيثون بذكر الصالحين دون الله عز وجل؟ فترى الواحد إذا جهد في يمينه يقول: وحق سيدي فلان كسيدي عبد القادر الجيلاني أو سيدي يعزى أو سيدي أبي العباس السبتي وغيرهم نفعنا الله بهم. وإذا أراد أن يحلف أحداً ويؤكد عليه في يمينه يقول: احلف لي بسيدي فلان، وإذا أصابه ضر وأراد أن يسأل كالسعاة الذين يتكففون الناس صرح باسم سيدي فلان، وهم في ذلك كلهم منقطعون عن الله عز وجل، وإذا قيل لهم توسلوا بالله أو احلفوا به أو نحو ذلك لا يقع ذلك الكلام منهم موقعاً، فما السبب في ذلك؟ فقال رضي الله عنه: أهل الديوان من أولياء الله فعلوا ذلك عمداً لقوة الظلام في الذوات وكثرة المنقطعين عن الله عز وجل، فصارت ذواتهم خبيثة، وأولياء الله تعالى يحبون الذين يذكرون سيدهم وخالقهم سبحانه أن تكون ذاته طاهرة، لأنه تعالى يجيب من دعاه إذا انقطع إليه باطناً وقت الدعاء، وإجابته تكون بأحد أمرين: إما أن يعطيه ما سأل، وإما أن يبين له سر القدر في المنع إذا منعه، وهذا لا يكون إلا للأولياء، ولا يكون للبعداء المحجوبين، فلو توجهت الذات الظلمانية إليه تعالى بجميع عروقها وبكل جواهرها وسألته أمراً ومنعها ولم يطلعها على سر القدر في المنع؛ لربما وقع لها وسواس في وجود الحق سبحانه، فتقع فيما هو أدهى وأمر من عدم قضاء حاجتها، فكان من المصلحة ما فعله أهل الديوان من ربط عقول الناس بعباد الله الصالحين، لأنه إذا وقع لهم وسواس في كونهم أولياء فإن ذلك لا يضرهم. قال رضي الله عنه: ومما يدلك على كثرة المنقطعين وزيادة الظلام في ذواتهم أنك ترى الواحد يخرج من داره

بعشرين موزونة مثلاً، ويذهب بها إلى ضريح ولي من أولياء الله تعالى فيطرحها عنده ليقضي له حاجته، وكم من فقير محتاج يلقاه في الطريق ويطلب منه متاع الله في سبيل الله لوجه الله فلا يعطيه درهماً واحداً حتى يبلغ للولي فيطرحها عند رأسه، وهذا من أقبح ما يكون، وسببه أن الصدقة لم تخرج لله عز وجل وعظمته وكبريائه ووجه الكريم ووجوده العظيم، إذ لو خرجت لذلك لدفعها صاحبها لكل محتاج لقيه؛ لكن لما كان الجاهل عليها والداعي إلى إخراجها هو قصد النفع لنفسه واستكمال أغراضه وحظوظه خص بها موضعاً دون موضع لظنه أن النفع يتبع ذلك الموضع وجوداً وعدماً.

قال رضي الله عنه: وقد رأيت في هذا اليوم ما أهدي للصالحين من باب تلمسان إلى الساقية الحمراء، فإذا هو من الدنانير ثمانون ديناراً ومن الغنم ثلاثمائة وستون شاة، ومن البقر اثنان وسبعون ثوراً، أخرج هذا كله في يوم واحد للصالحين، وما أخرج لله تعالى في ذلك اليوم عشرة دراهم. قال رضي الله عنه: وهذا سبب من الأسباب الموجبة للانقطاع عن الله عز وجل الطارئة على هذه الأمة من غير شعور لأكثرهم بها، وهي منحصرة في ثلاثمائة وستة وستين سبباً كلها موجبة لانقطاع العبد عن ربه عز وجل. فقلت: وهل حضركم الآن منها شيء؟ فقال رضي الله عنه: اكتب:

الأول: الهدية للصالحين على الوجه السابق دون وجه الله عز وجل.

الثاني: التوسل إلى الصالحين بالله عز وجل ليقضوا الحاجة، فيقول الزائر: قدمت لك رجاء الله يا سيدي فلان إلا ما قضيت لي حاجتي. وإنما كان سبباً للانقطاع، لأن الزائر قلب الواجب وعكس القضية، فإنه كان من حقه أن يتوسل لله عز وجل بأوليائه لا أن يعكس.

الثالث: زيارة الصالحين، وعلى الزائر دين فرض كعدد صلوات وجب قضاؤها عليه فترك قضاءها الذي هو حق الله، وفيه نور الله وسره تعالى الذي يرحمه به وذهب إلى زيارة صالح، ولا يخفى ما فيه من الانقطاع والظلام.

الرابع: الخوف من الظالم على العمر والرزق وغيرهما، فيقول في نفسه: لا أعصي هذا الظالم لأني إن عصيته قتلني أو منع رزقي. أو غير ذلك مما يوجب الخوف منه، ولو تحقق بوجود الحق تعالى معه وتصرفه فيه وفي ذلك الظالم لعلم أنه هو الفاعل وحده، لا يشاركه ذلك الظالم ولا غيره في فعل من الأفعال؛ وحينئذ فلا يخاف إلا منه تعالى، وبقدر ما يقوى هذا النظر في العبد يقوى قربه من ربه تعالى، وبقدر ما يقل أو ينعدم يكون بعده من الله عز وجل وانقطاعه.

الخامس: الطمع في الظالم فيترقب إليه لينال منه رزقاً، ولو تحقق بأن الله سبحانه هو الرزاق لم يصدر منه ذلك.

السادس: النصرة للكافرين فيلهمهم مصالحهم في دنياهم بأن يرى لهم طريقاً ونحوه، فإنه من أسباب الانقطاع عن الله عز وجل. قلت: وما رأينا من نصح ظالماً إلا وكانت عاقبة أمره خسراً. ونذكر هاهنا قصة سفيان الثوري رضي الله عنه مع الذي أراد أن يوقظ حرسياً للصلاة، فقال له سفيان: لا توقظه دعه هذه الساعة نسترح منه ومن شره فيها.

السابع: عدم النصيحة للمسلمين، فيرى ما يضرهم ولا يأمرهم بالتحرز منه، ويرى ما ينفعهم ولا يأمرهم بالتأهب له.

الثامن: استحلاء التعب والمشقة في طلب الدنيا على عبادة الله عز وجل، فمن أحس بذلك من نفسه فليعلم أنه مرتكب سبباً من أسباب الانقطاع.

التاسع: طلب الدنيا بما هو أهون منها وأذل وأحقر، وقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم يطلبونها بما هو أعلى منها وأعز، كالجهاد والتجارة والزراعة وغير ذلك من أسباب الحلال. وأما من طلب الدنيا بالزور والكذب والفجور والأيمان الحانثة فقد طلبها بمعاص هي أخس منها أي من الدنيا، فمن أحس بذلك من نفسه فليتب إلى الله عز وجل، فإن الدنيا لا تدرك إلا بما هو أعز منها.

العاشر: أن تكون أعمال العبد وطاعته بقصد أن يرحمه الله بها، وبقصد نفع نفسه وتحصيل أغراضه وحظوظه، لا بقصد وجه الله الكريم ووجوده العظيم، وهذا سبب قد عم أكثر الناس إلا من رحمه الله عز وجل، جعلنا الله منهم بمنه وفضله. قال رضي الله عنه: لو لم يخلق الله جنة ولا نار لتبين من يعبده ممن لا يعبده، ولكانت عبادة الذي يعبده خالصة لوجهه الكريم، وحينئذ تحصل المعرفة به تعالى على وجهها الكامل لمن عبده، ولكن الناس لما سمعوا بذكر الجنة والنار تفرقت أغراضهم نحوهما فضلوا عن السبيل.

الحادي عشر: المعاصي في حرمات الله تعالى كالمساجد ونحوها، فإن العبد لو تحقق بإضافة البيت إلى ربه فقال في قلبه: هذا بيت الله، لم تصدر منه فيها معصية.

الثاني عشر: اللواط وستأتي مفسدته وأنه لا مزيد عليها.

الثالث عشر: ضرب الرجل امرأته من غير ذنب، فلذلك الضرب سبب في الانقطاع لما لها عليه من الحقوق.

الرابع عشر: المنة على الأهل والعيال بالنفقة، فيقول: أنفقت عليهم كذا وكذا، بقصد المنة.

الخامس عشر: الحسد، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما فيه من المفاسد وأن غالب المعاصي منه.

السادس عشر: الإقدام على المعصية مع معرفتها، وسيأتي إن شاء الله بيان ذلك عند الكلام على أشد الناس عذاباً يوم القيامة.

السابع عشر: جمع الدنيا من الحرام. قلت: ولا يتكرر ومع الوجه التاسع كما لا يخفى.

الثامن عشر: عقوق الوالدين. فسمعته رضي الله عنه يحكي عن شيخه سيدي عمر بن محمد الهواري، وذكر أنه كان جالساً معه عند السدرة المحررة التي هي خارج روضة سيدي علي بن حرزهم؛ فجاءه ولده يودعه وأراد الذهاب إلى الحج، فأبى عليه أبوه سيدي عمر. قال: وكان عاقاً لأبيه، فذهب وأبوه غير راض عنه، فقال لي سيدي عمر: نتيجة عقوق الوالدين أربعة أمور؛

أحدها: أن الدنيا تذهب عنه وتبغضه كما يبغض المؤمن جهنم.

ثانيها: أنه إذا جلس في موضع من المواضع وجعل يتكلم مع الحاضرين في شيء من الأشياء صرف الله قلوبهم عن الاستماع لكلامه، وينزع الله تعالى البركة والنور من كلامه ويصير ممقوتاً بينهم.

ثالثها: أن أولياء الله تعالى من أهل الديوان والتصرف لا ينظرون إليه نظر رحمة ولا يرقون له أبداً.

رابعها: أن نور إيمانه لا يزال ينقص شيئاً فشيئاً، فمن أراد الله به الشقاوة والعياذ بالله لم يزل كذلك إلى أن يذهب نور إيمانه ويضمحل بالكلية فيموت كافراً، نسأل الله السلامة، ومن لم يرد به ذلك مات ناقص الإيمان أعاذنا الله من ذلك.

قال: ونتيجة رضاهم أربعة أمور هي أضداد لهذه الأمور: تحبه الدنيا كما يحب المؤمن الجنة، ويحلو كلامه بين الناس، ويحن عليه أولياء الله تعالى، ولا يزال إيمانه يزيد شيئاً فشيئاً والله الموفق. فانظر يا أخي هذه المفاسد الأربعة في عقوق الوالدين، والمحاسن الأربعة التي في بر الوالدين.

التاسع عشر: مخالطة المحجوبين كذوي الرياسات، فإن في ذات اليد المؤمن خيطاً من نور يخرج من ثقبة من ذاته يتصل ذلك النور بعطية الحق سبحانه يزيد بمخالطة أوليائه تعالى ويقل بعدمها ويخاف عليه من الانقطاع أصلاً، وانسداد الثقبة بمخالطة أرباب الرياسات، فإنهم برياستهم وأموالهم وجاههم يستولون على ذاته فتكون تحت أسرهم وفي حكم قبضتهم، فلا يزال يصغي إليهم بقلبه وقالبه، ويبقى على ذلك المدة الطويلة، ولا يقع الحق سبحانه في فكره ولا في خاطره، فلا يزال كذلك مسترسلاً في أغراضه وانقطاعه حتى تنسد الثقبة أصلاً والعياذ بالله، وهذه آفة حاصلة من ذوي الرياسات. نسأل الله السلامة.

العشرون: التفريق بين الخلفاء الأربعة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

هذا ما قاله الشيخ الدباغ رحمه الله تعالى.

ومن عجب ما ذكره الشيخ الشعراني في كتابه المسمى «درر الغواص» في هذا الموضوع، فقد سأل شيخه الخواص، فقال ما نصه: وسألته رضي الله عنه: هل أقرأ أو أصوم وأجعل ثواب ذلك لآدم عليه السلام، ليكون ذلك وصلة بيني وبينه في المعرفة في الآخرة بسبب أعلمته به؟ فقال: لا تجعل بينك وبين الله واسطة أبداً من نبي أو غيره. فقلت له: كيف؟ فقال: لأن الرسول إنّما هو واسطة بين العبد وبين الرب في الدعوى إلى الله لا إلى نفسه، فإذا وقع الإيمان الذي هو مراد الله تعالى من عباده ارتفعت واسطة الرسول عن القلب إذ ذاك، وصار الحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه ومن رسوله، ولم يبق للرسول إلا حكم الإفاضة على العبد من جانب التشريع والاتباع كما في حال المناجاة في السجود سواه، فنفس الرسول يغار من أمته أن يقفوا معه دون الله تعالى، فإنه يعلم أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ كما حصل له الأجر على ذلك، كما أشار إليه قوله صلى الله عليه وسلم: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها» الحديث.

انظر يا أخي إلى غيرة الحق تعالى على عباده لقوله لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فأعلمنا تعالى بأنه أقرب إلينا من أنفسنا ومن رسولنا الذي جعله الله تعالى واسطة لنا في كل خير، مع أنه تعالى بالغ في مدحه صلى الله عليه وسلم حتى كاد أن يصرح بأنه هو لكثرة ما وصفه بالكمال في نحو قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وبقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]،

ومع ذلك قال له: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[آل عمران: ١٢٨]، فأخرجه عن حال الخلق ونفاه عنهم وأثبته معه في البراءة عن المثلية وعن مشاركة أحد منهم في كماله أو رتبته صلى الله عليه وسلم، فافهم والله أعلم. انتهى كلامه.

درة يتيمة

حضر صاحبي الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير. فقال: هل تسمح لي أن أنقد هذه المقالات. فقلت: حباً وكرامة. فقال: أين الثريا وأين الثرى؟ ذكرت سيرة عمر رضي الله عنه لمناسبة آية الشورى وأتبعتها بأقوال الشيخ الدباغ، فأين المناسبة بينهما؟ فقلت: يا صاح الأمر سهل، إن في السورة آيتين وهما آية الشورى وآية المودة في القربى وبينهما صلة ما. ألا ترى أن المسلمين أبوا أن يسيروا بالشورى بعد سني الخلافة وهي ٣٠ سنة كما تقدم، ولقد ظن الناس أن الانتساب لعظيم أو لملك كاف، وهذا في الحقيقة انحراف عن الجادة في الخلافة، فآية المودة في القربى باعتبار التفسير المشهور جعلت سبباً في إبطال الشورى في زمان ما من أزمان التاريخ الإسلامي، ولقد تغالى الناس في التدلي والتنزل والتغاضي عن الحقائق الإسلامية حتى نذروا النذور لمن مات من الأولياء شرفاء أو غير شرفاء، فلذلك ذكرنا أقوال الشيخ الدباغ ليظهر المسلمين الحقائق التي يقول بها علماء الإسلام وظهرت على لسان صالح من صلحاء الإسلام.

ولو أنهم أدركوا الحقائق لرجعوا إلى ربهم في صغيرات الأمور وكبيراتها والله يقضي بالحق. إن الذي أضل كثيراً من المسلمين هو الجهل الفاضح، ولعلك تذكر ما قدمته من حديث عمر مع ابن العباس. فقال: أذكره، ولكن أريد ما هو أوضح. فقلت: اسمع ما جاء في كتاب «أشهر مشاهير الإسلام» وهذا نصه:

ومن عجيب فراسته التي كان كأنه ينظر منها بعين الغيب ما ذكره ابن عبد ربه في العقد. قال: قال أبو بكر بن أبي شيبة: كان عبد الله بن عباس من أحب الناس إلى عمر بن الخطاب، وكان يقدمه على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستعمله قط، فقال له يوماً: كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفيء على التأويل، فلما صار الأمر إلى علي استعمله على البصرة فاستحل الفيء على تأويل قوله الله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[الأنفال: ٤١]، واستحله من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تفرس فيه ذلك عمر من قبل.

هكذا كان مبلغ فراسة عمر رضي الله عنه خصوصاً في بني هاشم، وقد كان يتفرس فيهم القيام يوماً لطلب الخلافة وإثارة غبار الفتن والاستحواذ على ذلك المنصب الذي كانوا يرون أنفسهم أحق الناس به، على خلاف ما كان يراه جلة المهاجرين الذين يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم من أن يعملوا له عملاً كي لا يحدثوا أنفسهم بشيء من الإمارة لأنها غير النبوة، ومن ذلك ما ذكره في العقد أن العباس رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وسلم طلب منه ولاية فقال له: يا عم، نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها.

وكان عمر لتفرسه فيهم التطلع إلى الإمارة لا يستعمل أحداً منهم كما لم يستعملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجاهر بظنه هذا فيهم، وقد جاهر به لعبد الله بن عباس مراراً، ومنه ما تقدم ذكره في باب سياسته إذ قال له: يا ابن عباس، إني خشيت أن يأتي علي الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلم إلينا ولا هلم إليكم دون غيركم.

ولقد تحققت فراسته في بني هاشم بعد إذ قضوا عصوراً طويلة في مكافحة الملوك ومزاحمة الخلفاء على الخلافة، وأسسوا عدة دول أضخمها العباسية في بغداد والفاطمية في أفريقيا، وأهرقوا سيولاً من دماء أشياعهم وأشياع غيرهم في سبيل نيل هذه البغية، وتأتى عن هذه المزاحمة من التشويش في أمور الدولة الإسلامية والاضطراب في المسلمين ما الله به عليم.

على أنهم لو اتعظوا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ صرف أسلافهم عن الإمارة وصرفها عنهم لما أقدموا على شيء من ذلك، بل لكانوا إذا استمر في نفوسهم شيء من التطلع إلى الخلافة سلكوا إليها سبيلاً غير ذلك السبيل، وجعلوا الأمة بأجمعها طامحة الأنظار إليهم ساعية بنفسها لإسناد منصب الخلافة لأهل الجدارة منهم.

وحسبهم موعظة وذكرى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه على صلاحه وتقواه وقرابته من رسول الله وشهرته بالعدل والورع والزهد ـ ومن كعلي بعده ـ لم يوفق إلي جمع كلمة الأمة على الرضا بخلافته، لا لقصور فيه معاذ الله، وإنّما هو لما وقر في نفوس الأمة يومئذ من أن الهاشميين بسبب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينفكون عن الإدلال على الناس وحب الاستعلاء على الكافة، والناس يومئذ في إبان نشأة الإسلام وعز الحرية وحظيرة المساواة والإخاء التي حشرهم إليها الإسلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وبقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»، فتوهم أن يسلبهم بنو هاشم شيئاً من هذه النعمة بالاستعلاء عليهم؛ كانوا غير ميالين لاستخلاف أحد منهم.

يدلك على صدق هذا القول ما ذكره في العقد عن عبد الله بن عباس قال: ماشيت عمر بن الخطاب يوماً فقال لي: يا ابن عباس، ما يمنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة؟ قلت: لا أدري. قال: لكني أدري أنكم فضلتموهم بالنبوة، فقالوا: إن فضلوا بالخلافة مع النبوة لم يبقوا لنا شيئاً، وإن أفضل النصيبين بأيديكم، بل ما إخالها إلا مجتمعة لكم وإن نزلت على رغم أنف قريش ـ يريد الخلافة ـ انتهى ما أردته من كتاب «أشهر مشاهير الإسلام»، والحمد لله رب العالمين.

فقال صاحبي: لقد وضح المقام وضوحاً تاماً، فالحمد لله، فماذا تقول في الأمم الإسلامية الحاضرة؟ هل ظهرت في بعضها بوادر الشورى. فقلت: إن هذا الزمان الذي سيظهر فيه نور النبوة وتظهر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة عمر وغيرهما، وهنالك تبدل الأرض غير الأرض، والمسلمون مقبلون على هذه الحال طوعاً أو كرهاً، والذي منعهم من ذلك هو الجهل، أما اليوم فإن الله قد أذن بانتشار العلم في الإسلام، وستكون الحكومات كلها شورية، فهل لك أن تسمع ما جاء في جريدة الأهرام يوم الاثنين ٥ نوفمبر سنة ١٩٣٠ وهذا نصه:

الحياة النيابية في أفغانستان

جلالة الملك نادر شاه يمنح البلاد مجلساً نيابياً

حفلة الافتتاح وخطاب العرش

نشرنا في الأهرام الغراء منذ أسبوع كلمة عن جلالة الملك نادر شاه ملك أفغانستان الحالي بمناسبة تتويجه، واليوم جاءنا البريد الأفغاني طافحاً بوصف حفلة افتتاح المجلس النيابي الجديد الذي أنعم به جلالة الملك نادر شاه على بلاده التي تعشق الحرية وتتفانى في الذود عن حياضها من قديم الزمان، رغبة في أن تسود العدالة والرفاهية في تلك البلاد.

وقد ألقى جلالته خطاباً إضافياً بحث فيه عن حالة المسلمين، وقارن بين تاريخهم الماضي وتاريخهم الحاضر بشيء من الإيجاز، وخرج من بحثه بنتيجة هامة هي منح بلاده الحياة النيابية الصحيحة، لتتمكن في صراحة وإيمان من إدارة شؤونها بنفسها. وقد قامت الأمة الأفغانية المجيدة على بكرة أبيها تهلل وتكبر لهذا الحادث السعيد. وإننا لا نرى مندوحة من أن ننشر للقراء الكرام وصف حفلة الافتتاح كما شرحته الجرائد الأفغانية وترجمة خطاب العرش الكريم. قالت جريدة «إصلاح» التي تصدر في كابل: كان يوم ١٦ ربيع الثاني سنة ١٣٤٩ يوماً مشهوداً في كابل، تطاولت إليه أعناق الأفغانيين وتطلعت إليه أبصار الشاهدين منهم والغائبين، لأنه فاتحة عهد جديد وغرة عصر سعيد، وهل هناك أعظم من نعمتي الحرية والشورى الملية، فجدير بهذا اليوم أن يحتفل به الأفغانيون احتفالاً جديراً بهم وهم الأبطال الأماجد.

ففي هذا اليوم غصت ردهة قصر جهل ستون «الأربعين عموداً» بجموع وكلاء الأمة وعظمائها والكثيرين من العلماء والموظفين العسكريين منهم، وذلك لمشاهدة الاحتفال بافتتاح المجلس النيابي الأفغاني الذي يعد أكبر حادثة تاريخية في أفغانستان في العصر الحاضر، لأن أفغانستان التي نشأت من القديم على حب الحرية كانت محرومة من نعمة الشورى بطريقة رسمية تخضع لها الحكومة المركزية وتكون رهن إشارتها.

وقديماً كان القول الفصل فيها هو للحاكم الأعلى لا رقيب عليه ولا حسيب، وكثيراً ما نتج عن ذلك مضار لا تحصى، وأخطار كبدت الأمة ضحايا كثيرة وخسائر جسيمة، وفي الوقت نفسه يجدر بالحاكم العظيم خصوصاً في بلد كأفغانستان أن يعول على عضد شعبه ورضاه، بدلاً من أن يستقل برأيه الشخصي ويتبع هواه ويسخر من مواطنيه، ولو تصفحنا تاريخ أفغانستان لوجدنا أن الحكام الذين ساروا وفق رغبة الأمة كانوا في مركز أعظم ضمانة وأكثر حرية وأكبر كرامة وأبعد نفوذاً، وبالعكس فإن الذين فسقوا عن أمر الأمة واستهانوا بكرامتها طردوا ولم يجدوا لهم عوناً ولا نصيراً.

وهاهو جلالة الملك نادر شاه الذي نفخ في بلاده تلك الروح العالية التي نشلتها من الكارثة التي كادت تؤدي بها إلى الهلاك وتحمل في سبيل ذلك كل ما يتحمله المخلصون مستعيناً في ذلك بما وهبه الله من قوة الذهن وسعة العقل وحسن البصيرة، يفتتح عهده السعيد بإعطاء البلاد حريتها التامة وحقوقها الكاملة، فأنشأ المجلس النيابي «لويه جركه»، رغبة في جمع كلمة الأمة وتوحيد الوجهة

الوطنية توحيداً صادقاً لخدمة الصالح العام، كما يتضح من خطاب العرش وهذا ترجمته: أعزائي المحترمين، أحمد الله الذي أتاح لنا هذا الاجتماع الأخوي بعد أن قاسينا ما قاسينا في سبيل تبديد تلك الشدائد والمخاوف التي كانت تحيط بنا وبالبلاد من كل جانب، فاجتماعكم أيها النواب في هذا المجلس المقدس وأنتم على أتم ما تكونون اتحاداً وأخوة إسلامية عملاً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠]؛ إنما هو لمقصد شريف وهو ترقية أفغانستان والعمل على إسعادها ورفاهيتها وتقوية أركانها وفقاً للأمر الإلهي القائل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩] ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى: ٣٨]، لهذا اجتمعتم في مكان واحد وفقاً لرغباتنا الصادقة، وإني أشكر الله تعالى على ذلك شكراً عظيماً، وأحييكم من صميم قلبي وأتمنى أن تكونوا أنتم وكافة أفراد الأمة بخير وعافية، وبعد فإنكم تعلمون أن النجاح والسعادة في الحياة هما في الاتفاق، كما أن الخراب والعبودية في النفاق، وقد شاهدنا ذلك بعيوننا في مدة لا تتجاوز السنة، فتأكدنا أن النفاق عذاب إلهي، كما أن الاتفاق رحمة سماوية، وتفصيل هاتين الحقيقتين واضح في التاريخ في كل زمان ومكان وأثرهما يعرفه كل إنسان.

وإنكم تفهمون لماذا وكيف انتشر الإسلام وعم الآفاق ونشر ألوية الأمن والسعادة البشرية والترقيات العصرية خفاقة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ومن سلك مسلكهم، لم يكن ذلك بقوة السيف وحده، إنما بالأصول الصحيحة والقواعد السليمة التي جذبت الجماعات المختلفة والأقوام المتباينة إلى حظيرة الدين الحنيف الذي انتشر بقوة البرق الخاطف أينما حل وسار، ومن أكبر دواعي نجاحه انعدام الفوارق الجنسية والاجتماعية بينهم، فالمسلمون إخوة مهما اختلف لونهم وتعددت أجناسهم وتباينت أوضاعهم، فلا فضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى، فهل تراهم تمسكوا بأهداب المساواة وحافظوا على الشورى في أمورهم وأعمالهم، إن رقي المسلمين في الماضي لم يكن له من سبب إلا بمحافظتهم على هذه الصفات الكريمة والمزايا الحميدة، فلما انحرفوا عنها وهي في الحقيقة أساس الرقي والتقدم سقطوا إلى الحضيض، لقد عرفت الدول المتمدينة بعد طول التجارب أن الأصول الإسلامية كالحرية والمساواة والشورى أفضل الأصول وأرقاها، ولذا اتخذتها أساساً لحكوماتها بعد أن أراقت في سبيلها الدماء الغزيرة، ولم يكن قبل الإسلام حرية بمعنى الكلمة حتى يمكن أن يشير إليها.

ومن أحسن أنواع المساواة في الإسلام مسألة ترتيب الصفوف في الصلاة، فالخادم يقف بجوار الملك في حضرة الإله يؤدي الفرض بلا كلفة ولا حرج. ونفس صلاة الجماعة أعظم مثل في المساواة الإسلامية، ولكن لسوء الحظ فإن الحكومات الإسلامية مالت إلى الاستبداد وعكفت على الإفساد والتفرقة، فتأخرت وانحطت حتى أصبح يضرب بها المثل في الذلة والمسكنة.

فما سبب هذا التدني وذلك الترقي يا ترى؟ الدنيا عالم أسباب، فإذا كانت الأسس التي تبنى عليها الأعمال والإصلاحات مبنية على التجارب الصحيحة والقواعد الثابتة كانت النتيجة في أي زمان ومكان لا شك مفيدة منتجة.

وإذا كانت الأسس غير صالحة والتجارب غير ناضجة جاءت العاقبة وبالاً بلا مراء، هذا هو القانون الأساسي الذي لا يتبدل ولا يتحول إلى قيام الساعة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١]، ففي الزمن الأول كان المسلمون أهل استقامة وعلم بالسياسة وحزم وشجاعة عملاً بقانونهم الإلهي القويم، فوصلوا بذلك إلى ما وصلوا إليه من الرفاهية والسؤدد، فلما ابتليت الأمة الإسلامية بالملوك الأنانيين والعلماء المفسدين وساءت سيرة الحاكمين مع انتباذ قانونهم المبين وصلت إلى ما هي فيه من العجز والانحطاط. ومن دواعي الأسف أنه كلما ظهر في هذا العصر رجل بصير حازم غيور على دينه وبلاده سواء أكان من الحكام أو العلماء قام في وجهه المعارضون فلا يهدأ لهم بال إلا إذا نكسوا رأسه فيخلو الجو لذوي الأغراض والمصالح الشخصية، وهذا ما يتباهى به المسلمون و التاريخ شاهد عدل على ذلك.

ولما كان لا بد من قوة تنظم وتؤيد المعاملات والأحكام، أعني حكومة عادلة تسير على منهاج الشرع الإلهي يكون فيها الحاكم هو المسؤول الأول عن تنفيذ القوانين التي شرعتها الجماعة التشريعية ويكون مسلكه قدوة للرعية، إذ الناس على دين ملوكهم، كان من الواجب أن زمام أمر كل أمة دائماً أبداً بيد شخص عاقل صادق يسهر على مصالح الأمة ويعمل على محو الفوضى والخراب وجلب السعادة والرفاهية. هذه هي نظريتي التي توصلت إليها أعرضها عليكم أيها الأعزاء.

وفيما يختص بوطننا العزيز، فإني لآسف بأن الانقلاب الذي وقع أخيراً لم يكن وحده هو سبب خراب أفغانستان، بل أيضاً عدم وجود أساس حكومي ثابت كان أكبر عامل في ضعف وتأخر البلاد. فإذا لم نتخذ بالرغم من كل شيء الاحتياطات اللازمة والوقايات الضرورية إزاء أمثال هذه الصدمات المفجعة والنكبات المدلهمة؛ فإننا نعتبر مقصرين في خدمة الوطن الخدمة الحقة اللائقة به إن لم نعتبر خائنين له.

وإنني كما تعلمون حقاً أحب بلادي من صميم فؤادي، ولست أرغب في شيء أكثر من أن أعتبر خادماً من خدام الوطن، ولهذا وبالرغم من المشاكل المالية التي وقعت عقب الانقلاب الأخير أرغب في أن تكون حكومة أفغانستان على أساس صحيح وأمتن رغبة في تقدم البلاد وإنهاضها إلى مدارج الفلاح، وكل من يساهم في هذا المقصد النبيل لاشك يفوز برضا الوطن المقدس وإحراز السعادة الأبدية الخالدة. ولهذا المقصد عينه الذي أعتبره مفتاح السعادة طلبتكم أيها الوكلاء لأعرض عليكم رغباتي الخالصة، وهي أنا منحنا رعيتنا الحرية الكاملة التي لم يحصل عليها أكثر الأمم رغم إراقة الدماء، وأمرنا بالمجلس النيابي رغبة في أن تسود العدالة والرفاهية في هذه البلاد، ولتعلموا أنكم إذا أحسنتم استعمال حقكم المخول لكم أمكنكم الحصول على فوائد جمة لخير وطنكم وحكومة بلادكم. وإني لأرجو أن تقوم في أفغانستان الشورى الملية التي هي دواء المرض ومفتاح السعادة على خير الأسس وتحوز كافة الصفات والعناصر التي هي في الإسلام.

وإني أحمد الله الذي وفقني إلى تحقيق ما وعدت به، وهاهو المجلس النيابي ينعقد لهذا المقصد السامي، وبذلك أشكر الله شكراً كثيراً على ما هداني إلى إحياء سنة كانت متروكة إلى هذا اليوم.

وسيتباحث معكم في هذا الباب الصدر الأعظم ومجلس الوزراء في جو ودي للوصول إلى طريقة الانتخاب وعدد الوكلاء، وفقكم الله وسدد خطاكم حتى يكون عملكم هذا موضع إعجاب ورضا العالم أجمع آمين.

وإننا لنبتهل إلى الله بالدعاء بأن يجعل هذا العمل محمود النتيجة، مبارك الأثر على البلاد، وأن يفيء به عليها ظلال الأمن والرفاهية، وأن يحفظ للبلاد ذات جلالته الكريمة، وهو من شهد له التاريخ بعمله الموفق في إنقاذ البلاد من الفوضى، ومن عرفت له البلاد مآثره الكريمة في نشر ألوية الحرية مؤيدة بتوفيق الله. انتهى ما جاء في الجريدة المذكورة.

فلما أتممت هذا المقال قال صاحبي: لقد شرحت صدري فأحمد الله عز وجل، ولكن ماذا تقول في بقية بلاد الإسلام. فقلت: هي إلى هذا سائرة، فأهل مصر بلادي وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش، وكذا أهل الشام والعراق وغيرهم، كل هؤلاء ستكون حكوماتهم شورية صادقة، وستزول الأمم الأوروبية من بلادهم فلا تبقى إنكلترا في بلادنا مصر وفلسطين والعراق، ولا إيطاليا في طرابلس ولا فرنسا في الجزائر ومراكش وتونس والشام، ولا إسبانيا في مراكش، بل هذه الدول سترحل من تلك البلاد، لأن الذي أدخلها فيها هو جهل المسلمين وغفلتهم، واليوم استيقظوا، وستكون الحكومات محلية صادقة بعيدة عن الترف والنزوات والشهوات القاتلة.

إن الذي أخر المسلمين بعد الصدر الأول ظنهم أن الحاكم هو الذي يفعل ما يشتهي ويتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام في هذه الحياة؛ وهذا مرض وجهل، فليتعلم المسلمون تعلماً أرقى، وليعلموا أن ذلك كله مرض وجهل فاضح وخزي عظيم، الملك والأمير والحاكم والقاضي يجب أن يكونوا أزهد الناس في مال الدولة وأرفعهم نفساً وأعفهم، والله هو الولي الحميد.

انتهى تفسير سورة «الشورى».

تفسير سورة الزخرف
هي مكية

إلا قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ **فمدنية**

آياتها ٨٩، نزلت بعد الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي

قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾
۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ
﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ
إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا
جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ
مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ
مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ
سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾
وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن
ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾
وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى
ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ
ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن
رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾
وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟
يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا
هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ
تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾
فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ

فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ

﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ

يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً

فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ

بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي

وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ

ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا

أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ

الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾

لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾

لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا

يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ

لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ

بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ

الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾

وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا

يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

تفسير البسملة

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة وعلى ما أوليتنا من الجميل، وشرحت صدورنا لتبيان بعض أسرار كتابك الكريم. هذا، ولما كتبت هذه الكلمات حضر صديقي الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير فقال: ما الذي تريد أن تكتب في البسملة بعد ما تقدم في بضع عشرة سورة، وكيف تعيد القول فيها؟ وهذا إلى التكرار أقرب، والتكرار في التأليف غير محمود، فقلت: أيها الصديق لقد تعجلت علي، وما كان لك أن تحكم حكماً قاطعاً من طريق الظن. فقال: ليس بالظن. إن البسملة معروفة المعنى يفهمها الخاص والعام، فإعادة القول فيها جار على المثل: «توضيح الواضحات من المشكلات». فقلت: تسمح لي أن أبدي رأيي، فقال: وهل تجاسرت على الإسراع في الاعتراض إلا لأسمع مقالك، وأفهم بيانك، إيضاحاً للأمر، وتبييناً للحق. فقلت: إن هذا النوع الإنساني ما أوقعه في الإثم وأضاع منه معظم سعادته فأصبحوا في الأرض متقاطعين متدابرين؛ إلا اغترارهم بعقولهم وظنهم أنهم يعلمون كل شيء، فهم يرون الجمال في الوجوه الإنسانية والصور الحيوانية والنباتية والكواكب المشرقة، ولكن أكثرهم عن الجمال مسحورون، وفي ذنوبهم وهمومهم الوهمية محبوسون مغمورون، وما يدرك حقائق الجمال إلا أولو الألباب.

ومثل الجمال في شيوعه وعدم تعقله المآكل والمشارب، فالناس جميعاً يأكلون ويشربون ويعيشون ويموتون ولا هم يذكرون حقائق ما يأكلون، فهم عن معرفة حقائق المآكل مسحورون، كما أنهم عن بدائع الجمال والفرح بها مبعدون.

وعلى هذا القياس تسمع المسلمين من نوع الإنسان يقرؤون الفاتحة في الصلاة ويسبحون ويحمدون ويظنون أنهم يفهمون حقائق الرحمة التي يقرؤونها في البسملة، وهذا الظن استوى فيه علماؤهم وجهلاؤهم وشيوخهم وصبيانهم، وهم جميعاً إلا قليلاً منهم مغرورون لأنهم لا يعلمون.

إن الإنسان اعتاد أن يظن أن ما ألفه عنده معروف، ألا لا فرق بين الشمس والقمر والنجوم التي اعتدنا رؤيتها وألفنا منظرها وبين البسملة والمآكل والمشارب والجمال العام، فهذه جميعاً يظن الجاهل بسبب ألفتها أنه بها عليم وما هو بعليم. لا يعقل الجمال من نوع الإنسان إلا القليل وهم الحكماء وما أندرهم في هذا الإنسان، وقد مر الكلام في هذه وحدها في سورة «السجدة عند الآية ٧»: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ الخ، فارجع إليها إن شئت.

وبقي الكلام في الطعام والشراب والبسملة. فقال صديقي: أما البسملة فنعم. ولماذا تذكر عجائب الطعام والشراب، فقلت: إيضاحاً لسؤالك، ألم نسو بين هذه الثلاثة في أن أكثر الناس يجهلونها وما هم بعالمين، قال: بلى. قلت: ألم أقل إن أمر الجمال تقدم في سورة «السجدة». قال: بلى. قلت: إذن نشرح القسمين الباقيين، أما أحدهما فمن باب التنظير، وأما ثانيهما وهي البسملة فهي المقصود، وهذا الأسلوب الذي سلكته في هذا التفسير وإن كان فيه إطناب سيكون من بواعث إنهاض الأمم، وبعث العزائم، وشرح الصدور، وإبراز همم كانت خامدة، وعقول كانت نائمة. قل لي رعاك الله أيهما أقرب إلى إيقاظ الهمم، وبعث تلك النفوس الشريفة التي أودع الله فيها قوى يعوزها الإيقاظ

والتنبيه؟ إعراب البسملة الذي كان كثير من المؤلفين يكررونه في أول كل كتاب وتطبيقها على العلوم الاثني عشر المشهورة عند المتأخرين من أمم الإسلام وموت النفوس في قشور العلوم فيكون الجهل التام والموت الزؤام، أم الغوص على الدرر والجواهر في بحار العلوم واستخراج خلاصاتها في أول كل سورة بمناسبة ما في نفس السورة كالذي نفعله الآن، إن تفسير البسملة في هذه السورة لا تكرار فيه البتة، هي فوائد مستخرجات من نفس القرآن، بل من نفس السورة التي فيها البسملة، وسترى في هذه السورة عجباً، فإن الرحمة مكررة في سورة «الزخرف» هنا ثمان مرات: اثنتان على هيئة المصدر، ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾[الزخرف: ٣٢] الخ، ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ ﴾[الزخرف: ٣٢] الخ، و(٦) بهيئة الصفة المشبهة.

(١) ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾[الزخرف: ١٧] الخ.

(٢) ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾[الزخرف: ١٩].

(٣) ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ ﴾[الزخرف: ٢٠] الخ.

(٤) ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ ﴾[الزخرف: ٣٦] الخ.

(٥) ﴿ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً ﴾[الزخرف: ٤٥] الخ.

(٦) ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾[الزخرف: ٨١] الخ.

فالرحمة وما اشتق منها كررت في السورة وذكرت في البسملة، والحاء والميم في أول السورة حرفان من الرحمة، وهذه الآيات التي بها الرحمة فيها أسرار لا بد من إظهارها، وسترى هنا من عجائب العلم وبدائع الحكمة مما فتح الله به ليلة الجمعة الفائتة وفي ليلة السبت بعدها قبل الفجر أي في ليلتي (١٤) و (١٥) نوفمبر سنة ١٩٣٠م ما تقر به أعين أرباب البصائر، ويبرز علم مخزون تفتح به أقفال كانت موصدة قبل ألفي سنة على كنوز خبأها سقراط وأفلاطون في كتاب الجمهورية عند الكلام على المثل الأفلاطونية، وما اعترض به عليها أرسطاطاليس بعدهما، وما قاله الفلاسفة بعد تلك القرون وأغلق الأمر عليهم، فأرجو أن أوفق في هذا المقام لتحقيق هذا المقام، وذلك بطريق العقل تفسيراً لهذه الآيات وتطبيقاً عليها.

فقال: إن هذا القول الذي سمعته منك الآن غريب، وكيف يدخل ما يقوله سقراط ومن بعده في هذا المقام. وكيف ترجو أن تحل مشكلة عسر فهمها على فلاسفة اليونان والرومان والأمم بعدهم. فقلت: أنا قلت لك أرجو، وستكون معي وقت المباحثة في هذا الموضوع، والله يقول: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى: ٣٨]، أنا إذ ذاك سأعرض في المناقشة آيات السورة التي فيها الرحمة، وسنحاول بطريق مبادلة الفهم والمناقشة معنى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾[الزخرف: ٣٦] الخ، وقوله تعالى في سورة أخرى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[الرعد: ٢٨]، وندرس هذا الموضوع. وننظر هذا المقام في قول سقراط سيد فلاسفة أوروبا الحاليين والسابقين بإقرارهم، وماذا قال في هذا المعنى قبل نزول القرآن، ثم نذكر الشبهات التي وردت عليه وهكذا، ثم نبين ما عن لنا في ذلك، فإن زالت الشبهة فقد نصرنا الله وفتح علينا، وإن لم تزل فقد نلنا نعمة الاجتهاد وقمنا بالواجب

علينا. فقال: والله لقد أقنعتني وشفيت صدري، فأنا الآن أوافقك على البحث في هذا الموضوع، ولقد انشرح صدري فيه لا سيما أن هذه الآيات لا تخطر في بال علماء الإسلام فضلاً عن الجهال. إن الأمم السالفة خطر لهم الكلام في معانيها قبل نزولها، فالكلام في ذلك يكون من أعجب الأعاجيب.

فقلت: الآن اتفقنا على أننا سنبحث في البسملة من هذه الوجهة. قال: نعم. قلت: إذن في المسألة التي كنا أخذنا نشرع فيها قبل البسملة بعد الكلام على عموم الجمال، وهي مسألة المآكل والمشارب من حيث إن الناس لما كانوا معتاديها لم يتفطنوا لها، كما لم يتفطن أكثر المسلمين منهم للبسملة من أجل شيوع ذكرها في كل أمر ذي بال. قال: أنا موافق على ذلك، فقلت:

المآكل والمشارب

قدمت لك أيها الصديق في هذا المقام أن أكثر الناس يتوهمون أنهم يعرفون ما يأكلون وما يشربون وهم في ذلك مغرورون، فإذا سألت صبياً أو رجلاً جاهلاً وقلت: هل تعرف الماء؟ استهزأ بهذا السؤال وظن السائل غبياً. هذا معنى ما قلته. قال: نعم. قلت: ألست تظن أن هذا الوهم خطأ، وكيف لا يكون خطأ ونحن نعلم أن هذا الماء الذي نشربه وهو من السوائل مركب من عنصرين كل منهما يشبه الهواء. وبعبارة أخرى: إن هذا الماء الذي في النهر والبئر والبحر إذا وضعناه في زجاجة وسلطنا عليه الكهرباء وجدناه انحل حالاً ولم يبق أمامنا ماء، وإنّما نرى عندنا جسمين يشبهان الهواء، وكل منهما له صفة تخالف الآخر، فأحدهما إذا أدخلنا فيه قطعة خشب طرفها فيه آثار النار فإنها تشتعل حالاً، والآخر جسم خفيف جداً يصلح لارتفاعات الطيارات في الجو، وأولهما الأكسوجين، والثاني الأدروجين، والأكسوجين ٨ على ٩ من الماء. إذن معظم الماء أكسوجين، والأكسوجين يكون غازاً كالهواء ويكون مع الأدروجين ماء، وهو داخل في الدبش الذي نبني به مساكننا وفي الحجارة، فلو أننا وزنا الحجارة بعد تحليلها لوجدنا أن في كل مائة أقة منها (٤٨) أقة من الأكسوجين، كما أننا إذا وزنا الماء بعد تحليله وجدنا في كل تسع أقات منه ثمانية أوقات، فهو مكون لأكثر الماء ولما يقرب من نصف الحجارة، وهو داخل في الهواء مع الأوزوت، وهذا الأوزوت لا يخلو منه جسم إنسان ولا حيوان بل هو ثلاثة أرباع وزن جسم الحيوان. اقرأ كتاب تنوير الأذهان في تغذية الأجسام لأستاذنا علي باشا مبارك، إذن الماء الذي نشربه ـ ويظن الصبيان والجهال منا أنهم يعرفونه كما يظن المسلم أنه يعرف معنى البسملة ـ يعوزه درس وتفصيل، إذن المعرفة يعوزها التفصيل والإيضاح، أما الإجمال فالوقوف عنده غرور.

أوَليس من العجب أن نرى أكثر من ٨ على ٩ من الماء مادة تكون في نحو نصف الأحجار وثلاثة أرباع الحيوان، ونراها في الماء شراباً، وفي الأحجار بيوتاً صلاباً، وقلاعاً حصينة، وفي الحيوان عظاماً ولحماً ودماً. نشرب الماء ونغسل به البلاط وهو في الوقت نفسه نصف نفس البلاط المغسول، إذن هو غاسل ومغسول، وهو شارب ومشروب، فإذا كان ثلاثة أرباع الإنسان أكسوجيناً فالأكسوجين المتجمد شرب الأكسوجين السائل، ومعلوم أن الهواء فيه أكسوجين، فإذن الإنسان أيضاً يأخذ بالتنفس الأكسوجين الذي في الهواء.

اجلس في أي مكان شئت، فالبلاط تحت الجالس نصفه أكسوجين، والهواء فيه أكسوجين، ونفس الإنسان فيه أكسوجين، والماء أكثره أكسوجين، إذن هذه مسائل أعجب وأبدع من سحر السحرة. هذا الإنسان يمتطي الغارب ويركب القارب والسفين في اليم والقطار في الأرض ويسير إلى القطبين ويرصد النجوم ليعرف العجائب.

يا أيها الإنسان، أنت عجب، وشرابك عجب، وجسمك عجب، وتنفسك عجب، ومجلسك عجب، أنت مغمور في بحر لجي من النور.

سبحان الله الجميل البديع، عجب وألف عجب! أكسوجين يصير حجراً وعظماً ودماء وهواء فهو جامد وغاز وسائل، وهو هو نفسه يطهر نفسه، فهو من حيث إنه ماء يطهر نفسه من حيث إنه إنسان أو بلاط أو غيرهما، كما أنه هو يدخل في الرئة فتتلقفه هي من الهواء فيطهر الدم في أجسامنا، جلّ الله وجلّ العلم وجلّت الحكمة، وجلّت نعمة العلم.

ما الناس سوى قوم عرفوا　　　وسواهم همج الهمج

فلأكتف أيها الصديق من الكلام على الشراب بما ذكرناه في الأكسوجين، ولنذكر مقالاً وجيزاً في المآكل. وإني ليسرني إذا كنت على ذكر مما تقدم في هذا التفسير، فأجابني قائلاً: نعم. لقد جاء في سورة «فاطر عند الآية ١١»: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ ما ملخصه أن في الفم ستة مجار تفرز مواداً تهضم المواد النشوية، فإذا وصل ما بقي منها وهي الذي لم تؤثر فيه تلك القنوات الست إلى المعدة تلقاه العصير المعدي فأذابه، وجملة ما يتعاطاه الإنسان إما مواد عضوية ولكنها ليس فيها مواد زلالية وذلك كالنشاء والسكر وكالزيت والشحم والسمن، فهذه يدخلها الفحم ولا يدخلها الزلال كزلال البيض، وإما مواد عضوية وفيها المادة الزلالية كزلال البيض والمواد المستخرجة من العظام المغلية ومادة الجبن ومادة أخرى من نوع ذلك في اللحم، وفي بذور البقول كالفول والعدس والبسلة، وفي الحبوب كالقمح والذرة، وبهذا عرفنا المواد العضوية بقسميها.

وهناك مواد غير عضوية مثل كربونات الجير، وذلك في العظام والأسنان، وفوسفات الجير في العظام أيضاً وهي نصف وزنها تقريباً، وهذان يدخلان في الأغذية النباتية والحيوانية وملح الطعام وأملاح أخرى، هذا هو ما يتعاطاه الإنسان. فقلت: إذن طعامنا مفرق على البر والبحر وما فيهما، فهذا الملح مستخرج من البحار ومن الجبال، والمواد الدهنية تستخرج من الحيوان ومن الأشجار كالزيتون، والمواد النشوية مستخرجات من النبات كقصب السكر والحبوب أمثال القمح وغيره، والمواد الزلالية تستخرج من الحيوان ومن الحبوب أيضاً، ولعلك تذكر المواد الفحمية الطائرة في الهواء التي هي المخزن العظيم الذي إليه ترجع المواد الفحمية الخارجات من أجسامنا مع الزفير، الذاهبات إلى النبات لتغذيته، الراجعات إلينا ثانياً بطريق تعاطيه من أوراق النبات وثماره، فهناك تبادل بين الحيوان والنبات في ذلك، فبينما النبات يتنفس مادة الأكسوجين في الهواء ويرسله إلى المخزن العظيم في الهواء؛ إذ الحيوان يقبل ذلك الأكسوجين ويعطي الجو بدله مادة فحمية، تصل إلى ذلك المخزن الطائر في الجو، وهو يوصله إلى النبات.

فقال: أتذكر فهو مذكور في سورة «يس» كما أن القناة الهضمية وجميع رسومها وما يوضحها مذكورة في سورة «فاطر»، وهناك أن الفحم الصافي في الجو نحو ١٣٨ ألف مليون ونصف مليون طن والطن معلوم أنه نحو ٢٢ قنطاراً، والقنطار ٣٦ أقة. فقلت: نعم. إذن نحن بني آدم في الأرض أكثرنا في غرور عظيم، إذ نظن أننا نفهم الطعام والشراب، فهانحن أولاء ذهبنا كل مذهب في طعامنا وشرابنا لقد فرق على الكرة الأرضية وطار في الجو وغاص في البحر، وأدهشنا أن نرى أسناننا قد ركبت من الجير الداخل في بناء منازلنا، وهو الذي التقطه النبات من الأرض فأكلناه، ومن «الفسفور» تلك المادة البيضاء ذات الرائحة المشبهة رائحة الثوم، وهي تباع في مربعات من البلور، مملوءة بالماء للوقاية من إيذاء تلك المادة، لأنها تلتهب سريعاً بمجرد ملامسة الهواء، فإذا لامست الأصابع التهبت حالاً ويعسر إطفاؤها وتحدث جروحاً خطرة، وهذه المادة إذا كتب بها على حائط في محل مظلم لا نور فيه ظهرت الكتابة كأنها نار تفزع منها الأطفال والشيوخ والنساء، فعجب أن يكون الجير في منازلنا وتلك المادة النارية التي نراها في أعواد الكبريت التي نوقد بها النار داخلين في أسناننا بأنواعها الثلاثة لتمزيق أغذيتنا وقطعها وطحنها، ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

فهذه الأسنان تهرس الطعام، والعيون الست النابعات في الفم تتخلله لتهضمه، ثم يمر فيصل إلى الاثني عشر، هل تتذكره أيها الصديق. فقال: أتذكره مرسوماً في سورة «فاطر». فهناك تقابله عصارتان إحداهما آتية من الصفراء والأخرى من البنكرياس المرسومين هناك، وهاتان العصارتان يتقابلان فيغيران تلك المادة تغيراً عجيباً ليحصل لها اقتراب من أن تكون من جملة الدم.

ولنرجع إلى الفحم الذي يخرج من الزفير. قال: أنا أتذكره جيداً من هذا المقال ومن سابق التفسير فقلت: أزيدك فيه علماً إنه في السكر وفي الورق وريش الطيور وفي العظم واللحم والجلد والشمع والدهن والزيت، فإن الفحم يظهر في آثار ما يوقد منها، وهو تلك المادة السوداء الظاهرة للعيان، وكل شيء لا يخلو من الفحم، وهو في الحجر الذي في المباني وفي الرخام والمرمر، إذن هو في كل ما نضعه على المائدة إلا الملح فهو لا فحم فيه، ولقد قالوا: إن الفحم أمير والأكسوجين المتقدم شرحه سلطان.

ولا جرم أن الهواء مركب من الأكسوجين والأوزوت، وهذا الأوزوت هو نفسه المواد الزلالية المتقدم شرحها الداخلة في الحبوب واللحم والبيض، وقد تقدم شرح ذلك، فأجسامنا مركبات من أكسوجين في الهواء وفي الماء ومن فحم فيه وفي غيره، ومن مادة الزلال السابحة فيه، ومن شحم الحيوان ولحمه، والزيت ونشاء الحبوب وغير ذلك، وهذه كلها يحملها الدم وهو يجري في الشرايين، والشرايين تصل بدقتها المتناهية في كل جزء من أجزاء الجسم وتعطيه ما يستحقه من تلك المواد بعدل وإنصاف، فإذا وصل الدم إلى الأسنان مثلاً أخذت حقها وهو المواد الجيرية والفسفور كما تقدم، وإذا وصل إلى العين أخذت المواد التي تليق لها بحيث تصلح للإبصار، وهكذا الأذن والجلد والأعصاب، إذن هذه حكومة عجيبة مدهشة. وإني ليحزنني أن أرى أكثر هذا النوع الإنساني يعيش جاهلاً بهذه الكرة الأرضية، ويعيش جاهلاً بنفسه وهو مغرور جهول، ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧].

فيا ليت شعري متى يرتقي هذا الإنسان وينظم أممه على مقتضى نظام جسمه البديع الجميل المتقن، يجري الدم في الشرايين فتتلقاه الأعضاء، فيأخذ كل عضو حقه ولا يتعداه، ويترك ما ليس له بحق، كأن هذه الأعضاء قرأت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[النساء: ١٣٥]، أو كأنها قرأت جمهورية أفلاطون، أو كأنها قرأت: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾[النحل: ٩٠].

الله أكبر. أجسامنا بديعة التركيب، حسنة الوضع، ونحن نعيش فيها، ونحن بها جاهلون، نتعاطى الطعام ومثلنا معه كمثل من قال الله تعالى فيهم: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾[الجمعة: ٥]. وإذا جهلنا الطعام والشراب فإننا أعرق في الجهل بمعنى البسملة التي كلامنا فيها، ومتى أخذ كل عضو حظه من مواد الغذاء الذائبة في الدم نما وكبر على مقتضى قوانين مجهولة لنوع الإنسان في الأرض، ثم يكون هناك عالم آخر وهو عالم الأعصاب المتصلات بالنخاع الشوكي المرسومات المشروحات في سورة «فاطر»، والنخاع الشوكي يوصل الأخبار إلى المخ، وهناك عالم التعقل والتفكر. إذن طعامنا في القناة الهضمية كيموس وكيلوس، وفي الدورة الدموية دم، وفي أعضائنا المختلفات أعصاب وعظام وعضل ودهن المخ، وآثاره في أعصابنا ونخاعنا الشوكي ومخنا علوم ومعارف وفكر وذكر وحكمة، فكيف نقول: إننا بما نأكل عارفون أو لما نشرب دارسون، وهذا من أسرار قوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢١]، وهذا الجهل كما تقدم يضارعه جهلنا معنى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾. إذن فلنفض الكلام على معنى الرحمة الذي هو المقصود في هذا المقام فأقول:

الرحمة

لقد قدمت لك أيها الذكي في أول هذا المقام أن الرحمة في هذه السورة وقد ذكرت (٨) مرات فوق ما جاء في البسملة (٢)، فالجميع (١٠)، والحاء والميم تشيران إلى الرحمة أيضاً، فلا بد لنا إذن من فهم الآيات المذكور فيها الرحمة مثل: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾[الزخرف: ١٧] الخ، ومثل: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾[الزخرف: ٣٦] الخ، ومثل آية: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[الزخرف: ٣٣] الخ، ولكن لا بد لنا قبل فهم معاني هذه الآيات من تحقيق معنى الرحمة فوق ما تقدم.

فقل لي أيها الذكي: أيهما أحق باسم الرحمة؛ أهذه النعم المتغيرة المتبدلة التي لا ثبات لها، أم النعم الثابتة؟ قال: بل الثابتة. قلت: حسن. قلت: ثم إن النعم المتغيرة أيها أحق باسم الرحمة أعلاها أم أدناها، قال: كل ما كان أعلى كانت الرحمة فيه أوفر، وكل ما كان أدنى كانت الرحمة فيه أقل، قلت: إذن وجب الآن أن نشرح أنواع النعم ونبتدئ من أدناها إلى أعلاها حتى نفهم الرحمة، ونبين أنواع الرحمات المذكورة في هذه السورة إذ ذاك. فقال: يا للعجب! وهل النعم لها نهاية حتى تبين عددها ودرجاتها، إنها يعوزها علوم الأمم وأعمار جميع العلماء في الأرض. فقلت: إننا لا نعرف من جميع النعم إلا ما أدركته حواسنا وعقولنا، إذن فلندرس درجاتها باعتبار إدراكنا لها، وحواسنا

معروفة محصورة عندنا والنعم مقسمة عليها، فالبحث في النعم سيكون في تفصيل ما يدركها لا في تفصيل المحسوسات والمعلومات. قال: أما هذا فهو حسن، فأريد أن تذكر لي أدنى درجات النعم. فقلت: هي كل ما كانت تستلذه حاسة اللمس كنعومة الحرير، فإن لابس الحرير والنائم على الفراش الوثير يحس كل منهما بلذة اللمس، وهذه اللذات سببها النعومة الحاصلة في اللباس والفراش. قال: ولماذا كان هذا أدنى الرحمات؟ قلت: لأن حاسة اللمس عامة في كل حيوان، حتى الدودة في الماء وفي الطين لها حاسة اللمس، وهذه الحاسة لا تعرف إلا بما يلاصقها، فهي كالأعمى لا يدرك إلا باللمس. قال: ثم ماذا؟ قلت: اللذة التي هي من هذه المحسوسات بحاسة الذوق كالأطعمة والأشربة، فإذا رأينا أقواماً يفخرون بالطعام ولذته، والشراب وسورته، عرفنا أن هؤلاء في درجة اللذة الثانية. فقال: ولم جعلتها ثانية؟ قلت: لأن الذوق من الطعومات أشرف من بقية الملموسات، فحاسة اللمس عامة، ولكن الطعم خاص بمواد مخصوصة، فنحس نحن بكل ما يمس جلدنا، ولكن حاسة الذوق اصطفت خلاصات المادة كالفواكه والحبوب، وليس لها علم بالحجر والمدر والطين والتراب وهكذا. قال: ما الذي فوق هذه؟ قلت: حاسة الشم، ذلك لأنها لا تتقيد بشم ما لاصقها، بل تشم المادة عن بعد وليست مضطرة إلى ملاصقتها وملاقاتها، وإنّما تلاقي ذرات لطيفات لا تراها العيون يرسلها المشموم كالورد والمسك تسير في الهواء وتصل إلى الخيشوم فتؤثر في الأعصاب، فالشرف هنا من حيث إن الحاسة لم تلاق نفس المادة، بل لاصقت ذراتها اللطيفات والواسطة في ذلك الهواء.

وأرفع من هذه حاسة السمع، لأنها ليست في حاجة إلى ملاقاة المسموع، بل الهواء هو الواسطة بينها وبين الجسم الذي خرج منه الصوت، وليست الأصوات كالمشمومات التي هي عبارة عن ذرات مادية. كلا. وإنّما هذه حركات في الهواء، ولا جرم أن الحركات ألطف من الذرات في حاسة اللمس. وفوق ذلك يكون البصر وهو أرقى، فهو كما لم يكن في حاجة إلى ملاصقة الجسم المنظور، ولا إلى ذرات منه، هكذا لم يكن في حاجة إلى حركات في الهواء كالسمع، بل يحتاج إلى صور تسير في النور، والنور حركات في الأثير وهذا عالم أعلى مما سبقه، فهل فهمت في هذا الترتيب حكمة أيها الذكي؟ قال: نعم. قلت: إذا تفضلت بذلك أكون شاكراً لك. فقال: قد ظهر لي هنا قاعدتان: القاعدة الأولى: أن الحاسة التي هي أشرف يكون تركيبها أتم، القاعدة الثانية: أنه كلما كانت النعمة أتم كانت أبعد عن المادة وأقرب إلى التجرد منها. فقلت: ما برهان ذلك؟ قال: أما كون الحاسة تكون أتقن كلما كانت أعلى فإن ما تقدم في سورة «آل عمران» يحدثنا عن ذلك، فإن تركيب الأذن هناك أتم من تركيب ما دونها من الحواس، فهناك في تركيبها (١٤) عجيبة من عجائب الإتقان، وذلك مذكور في أول السورة عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[آل عمران: ٦]، فهناك الأذن الظاهرة والأذن المتوسطة والأذن الداخلة، وهناك عجائب لا عد لها، مثل السائل الذي في داخل الأذن وفيه خيوط دقيقة شعرية، وهكذا ثلاثة آلاف جسم صغير ظنوها آلات البرق «التلغراف» بحيث يتلقى كل واحد منها نوعاً من الأصوات يناسبه ويرسل ذلك إلى المخ، وبالجملة ففي الأذن الصيوان والصماخ والطبلة والعظمات الثلاث والدهليز والقنوات الهلالية والقوقعية والسائل المتقدم ذكره والرمل الحافظ

للصوت وعصي كورتي والشعرات القوقعية والأعصاب السمعية، فهذه هي الأربعة عشر جهازاً في الأذن وتفصيلها هناك، وهذا الإتقان لم يكن في صنع اللسان ولا الجلد ولا الخيشوم. وإذا ترقينا إلى تركيب العين وجدنا وصفها هناك أتم من تركيب الأذن، كيف لا وقد عدت الحكم هناك فوجدت (٢٦) حكمة، فهناك: (١) القرنية. (٢) والعنبية. (٣) والعنكبوتية. (٤) والشبكية. (٥) والمشيمة. (٦) والصلبة. (٧) والملتحمة. (٨) والجسم الزجاجي في وسط الشبكية. (٩) والرطوبة الجليدية وتسمى العدسية. (١٠) والرطوبة البيضية.

فالسبع الأول طبقات والثلاث الأخيرة رطوبات، وهناك تفصيل لا محل لذكره، والمقصود هنا أن الحاسة التي هي أشرف يكون تركيبها أتم، وأما كون النعمة أتم كلما كانت أبعد عن المادة فبرهانه واضح، ذلك أننا نرى نوع الإنسان يفارق النوم على الدمقس والحرير والفراش الأثير ـ ومعلوم أن هذه لذة الملامسة ـ ويركب القطار، لرؤية الأقطار، وجوب البحار، وتجشم الأخطار، ويركب متن الهواء، ويخترق بغواصاته لجج البحار ليشاهد أنواع السمك والنبات، وصنوف المخلوقات التي في قاع البحار، ونرى الجهلاء والعلماء يغادرون حدائقهم وفيها الروائح اللطيفة وأنواع الفواكه، ويتوجهون إلى دور الصور المتحركة، مع أنهم في تلك الحديقة قادرون أن يضربوا العود ويتمتعوا بأصناف الطرب وصنوف اللذات المختلفات. فدل ذلك على أن المبصرات عند الإنسان أرقى من جميع المحسوسات. لذلك كان البصر أدق وهكذا. ولم نر حاسة غير البصر لها قدرة على مشاهدة الشمس، فأما البصر فهو الذي اختص بها. قلت: والله لقد نطقت بفهم وأجبت. ثم قلت: أيها الصديق إننا نريد أن نتوغل في البحث. فقال: حباً وكرامة. فقلت: إذا كانت الشمس أعظم ما يشاهد بحواسنا، وأشرف حواسنا هي العين وتركيبها أتم، والواسطة بينهما هو النور، فهذا آخر لذة يعرفها الحيوان والإنسان نوع منه، وأريد أن أسألك أيها الصديق: ما أقصى سعادة عند الإنسان من هذه المحسوسات. فقال: المسرات واللذات. فقلت: اللذات أقصى ما يسعى إليه الناس. قال: نعم. فقلت: تذكر قليلاً في عاشق مات معشوقه وفرح بماله ففقده، ومغرم بجميل فذبل الجمال.

لعلك نسيت أيها الصديق ما قررناه أولاً في أول هذا المقام، وهو أن الثابت أتم نعمة والمتغير نعمته أقل فالسعادة تكون به أنقص، قال: حقاً كان ذلك، ولكن المسرات الجزئية بالعوالم المتغيرة لا ينكرها العقلاء. قلت: ولكننا الآن في مقام الفلسفة والحكمة وتفسير القرآن، ونريد أن نصل للحكمة في ذكر الرحمة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾[الزخرف: ٣٣] الخ، فهذه نعم متغيرة، والقرآن والحكمة يطلبان النعم الثابتة، ولا ثبات للمادة، فقال: إذن كأنك تريد أن أسعد ما يناله المرء في الحياة الدنيا هي البصائر. فقلت: حسن، ولكن هذا المقام يعوزه إيضاح وإفصاح. فقال: يسرني أن أسمعه منك. فقلت: إن هاهنا عيناً وضوءاً وشمساً، فالعين أرقى حاسة، والشمس أرقى محسوس، والضوء أجمل واسطة. قال: هذا صار مبرهناً عليه. قلت: ولما رأى حكماء الأمم قبل الإسلام أن هذه المرتبة يشاركنا بها البهائم فكروا فقالوا: إن الشمس بالنسبة لعوالم المولدات الثلاث على الأرض أشبه بنار متقدة، والناس في الأرض

أشبه بقوم في مغارة ظهورهم نحو الشمس ووجوههم متجهة إلى الضوء الذي على جدار المغارة أمامهم، وهذه المواليد الثلاثة أشبه بالصور المرسومة على حائط المغارة بواسطة ضوء النار، وهذا المثال تقدم غير مرة ولكن ذكرناه هنا لنوضح به المقام. إذن وراء هذه الشمس الله الذي برأها، ولهذه المواليد الثلاثة عوالم سماها أفلاطون عالم المثال وهو عالم ثابت، وعالم المواليد عالم متغير، كما أن الله ثابت دائم والشمس متغيرة، فالله بالنسبة لعقولنا كالشمس بالنسبة لعيوننا، وكما أن للشمس ضوءاً يصل إلى العين هكذا عالم المثال ينير على بصائرنا، فإذا لم تضئ الشمس فإن عيوننا لا ترى المبصر وإن كان أمامها، هكذا عالم المثال ثابت يرسل أشعته إلى عقولنا، ولولاه لم نعقل ولم نعلم، وإلى هذا المقام انتهت عقول الحكماء في الأمم قبل الإسلام.

ولما ترجمت الكتب إلى الأمم الإسلامية حصل عندهم القول بالاتحاد والحلول. هل تتذكر في أي مقام أوضحنا هذا أيها الصديق؟ فقال: قد تقدم في سورة «فاطر» نقلاً عن الإمام الغزالي، إذ ذكرت هناك في التفسير البسملة البراهين التي ذكرها موضحة وبان بها، وظهر أن ما يقوله متأخر والصوفية من الاتحاد والحلول عار عن البرهان العقلي، بل هذا أشبه بكلام الصبيان. قلت: ولكن أريد هنا أن أبينه بطريق أوضح مما نقلته فيما تقدم، لأن الأدلة هناك مطولة وفيها بعض الصعوبة. فقال: أحب أن أسمع ذلك. فقلت: أي حاسة في الجسم أشرف؟ فقال: طبعاً العين. قلت: هل يمكن أن يقول أحد إن العين هي الشمس. فقال: وهل تخطر بعقل عاقل. قلت: اسمع يا صاح رعاك الله، إن العين في الحقيقة مضيئة لأجسامنا والشمس تضيء العالم. إذن العين شمس صغرى. ألم تر أن تركيبها كما قلنا سابقاً أتم، ولماذا هذا؟ لأجل أن تكون أقرب كمالاً من الشمس، ولو لم تكن على هذا النمط لم تر النور، فالعين مخلوق بديع عجيب، والشمس كذلك، والعين في أجسامنا أقرب شيء إلى الشمس، فلذلك تقبلت منها النور، ثم إن العين والجسم والأجسام كلها في الأرض مخلوقات لم تكن لولا الشمس، فبالشمس ثار السحاب من البحار وهبت الرياح بالحرارة، فإذا لم تكن شمس لم تكن رياح ولا سحاب، فلا إنسان ولا حيوان، وبالتالي لا عيون ولا أبصار، قال: نعم. هو ذلك. فقلت: إذن الشمس سبب في العين، والعين أقرب عضو في أجسامنا إلى الكمال والكامل هي الشمس.

قال: حسن ذلك. فقلت: إذن يتوجه السؤال: هل العين هي الشمس؟ قال: كلا. لأن إحداهما سبب والأخرى مسبب، غاية الأمر أن العين أقرب إلى الشمس لأنها عنها أخذت وتركيبها ساعدها على ذلك. قلت: حسن جداً. ثم قلت: هكذا نقول لجميع علماء الصوفيين السابقين واللاحقين، ونعلن الحقيقة واضحة للعالم قاطبة فنقول: أيها الناس إن ما سمعتموه من أقاويل الصوفية من وحدة الوجود وما جاء في كتاب الأستاذ الكبير محيي الدين في «الفتوحات المكية» كل ذلك عبارات موهمة يجب الإقلاع عنها حالاً، لأنه ثبت بالبرهان اليقيني اليوم أن النفوس الإنسانية كالعيون، والله، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النحل: ٦٠]، كالشمس، والعوالم الروحية كالضوء، وعالم المثال كعوالم المواليد الثلاثة، ولن تبصر العين ما لم يكن النور، وكما أننا لا نقول إن العين هي الشمس وإن كانت أقرب إليها وهي تتلقى عنها الصور والأشكال بواسطة ضوئها، هكذا لا يعقل أن يكون الأنبياء أو الحكماء أو

الأولياء مهما علت درجاتهم وبلغوا أقصاها أن يكونوا هم نفس الله تعالى ، مع أنهم بالنسبة للناس كالعين ، والناس من ورائهم كالحواس الأخرى أدنى منزلة ، وهم يستضيئون بالنور الإلهي ، فيلهمهم الملائكة ويوحون إليهم المعلومات الثابتات في العالم الروحي ، فقال : ما أجمل هذا البرهان ، إنه لقريب سهل المنال يعقله كل متوسط الذكاء . فقلت : فإذا عرفنا هذا وقد امتحنا آراء أسلافنا وقد وضحت الحقيقة ؛ فلنتجاوز ذلك إلى ما وراءه ، وهي آراء سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، فلنذكر أولاً ما قالوه ، وما آثار كلامهم في الأمم التي بعدهم ، ثم نتبعه بما نراه مما فتح الله به ليلة الجمعة كما قدمته قريباً . فقال : ما أشوقني إلى ذلك . فقلت : إن أفلاطون بعد أن ذكر مثال الشمس المتقدم قال : على الإنسان أن يترقى من الأخص إلى الأعم ، ثم يترقى من المحسوسات إلى المعقولات ، حتى يرجعها كلها إلى ذات الله ، وهو الكمال المطلق والخير المحض ، وجميع المعاني هي صفاته وهي حكمته . وهنالك أعلن للملأ أن هناك عالم المثال وهو ثابت ، وعالمنا هو المتغير ، ولقد عارض هذا المذهب أرسطاطاليس تلميذ أفلاطون ، فقال : أنا أسلم أن الكليات هي أصل العلم ، ولكن لا أسلم أنها مفارقة للمادة ، وهل هناك كليات إلا في أذهاننا ، فالذهن مخزن الكليات ، أما أن هناك عالماً نسميه عالم المثال وهو أصل لعالمنا فهذا لا أسلم به ، وكيف أسلم به وهو إذا كان ثابتاً لا يتحرك فكيف صدر عنه هذا العالم المتحرك ، ثم إنه إذا كان مفارقاً فكيف يؤثر فيما فارقه ، وكيف يكون جوهراً مفارقاً له ، وإن كان متصلاً بالعالم فقد دخله التغيير بتغير ما اتصل به ، وكيف ينطبق الجوهر الواحد على الأفراد المختلفة مع أنه لا يقبل الانقسام .

وأطال في ذلك ثم قال : إن العالم مكون من مادة وصورة وكيفية معينة من الوجود ، والمادة لا تحقق لها إلا بهذه المعينات ، وهي في نفسها إمكان محض أي قوة واستعداد لقبول الصورة ، والصورة كل ما به يتعين وجود المادة من شكل ووضع وبعد وكيفية ، كاللون والطعم والرائحة والثقل والخفة ، وهذان لا يكونان متميزين إلا بالعقل أما في الخارج فلا ، وما الحركات إلا شوق المادة إلى الاستكمال ، فهي أبداً مجدة للكمال وذلك بالحركات في المقادير « الكم » كالنمو والزيادة والنقصان والذبول ، وبالحركات في الكيف كالاستحالة من صفة إلى أخرى ، وبالحركات في الأين وهي النقلة من مكان إلى مكان .

وقول أرسطاطاليس المذكور فيه لبس ، فقد رد عليه حكماء اليونان بعده فقالوا : أولاً : إن المادة عندك أمر سلبي وعدم محض ، وإذا كانت عدماً فكيف تشتاق إلى الاستكمال بالحركات ، وإذا لم نقل ذلك بل قلنا إنها إمكان محض ، فهل يعقل أن للإمكان وجوداً . إن وجود المادة يناقض ما يقوله هو أنها مسلوبة الوجود ، وإذا سلمنا بوجودها بعد هذا كله أصبح للوجود أصلان معاً وهو مناقض لأصل مذهبه . ثم هو يقول : إن الطبيعة ما هي إلا المادة والصورة والحركة ، والمجتمع من هذا يسمى طبيعة ، ولم يبين هذه الطبيعة ، ما هي؟ هل هي ذات موجودة ، أم هي معنى موجود باعتبار العقل .

فلما مات أرسطاطاليس ترك تلاميذه هذه المباحث ، وأخذوا يفكرون في علم الطبيعة والأخلاق وجدّوا في هذه العلوم ، وهنالك نبغ « أبيقورس » المولود سنة ٣٤١ ق . م المتوفى سنة ٢٧٠ ق . م ،

ورجع إلى مذهب « ديموقراطيس » القائل بالجزء الذي لا يتجزأ، وهو يقول: أجل المقصود من الحياة إدراك الحقائق وذلك بالفلسفة، واللذة الناجمة عنها أهم مقاصد هذه الحياة. ثم نبغت فرقة الرواقيين ويسمون أصحاب الأسطوانة وأصحاب المظال ـ وهو اسم المحل اجتماعهم بأثينا ـ وهم شيعة « زينون » المتوفى سنة ٢٦٤ ق. م وهؤلاء يقولون: إن العالم جوهر واحد، فهو من جهة قوة عاقلة، ومن جهة أخرى مادة. ومن صحابه « كريزيبون » المتوفى سنة ٢٠٩ ق. م. وعلم الطبيعيات وهو علم الإلهيات عند هذه الطائفة.

ملخص هذا المقام

هنالك قال صاحبي: لقد طال المقال فأرجو تلخيصه ثم كيفية ارتباطه بالرحمة أولاً، ثم كيف تفسر الآيات التي فيها الرحمة في سورة « الزخرف » بهذه العلوم المذكورة هنا. فقلت: ألا تذكر أن أصل المقام:

(١) إنك قلت: إن البسملة معروفة وتفسيرها هنا تكرار.

(٢) فأجبتك بأن الجمال المذكور الموضح في سورة « السجدة » أكثر الناس يزعمون أنهم يعرفونه، وما هم بعارفين ولا يعقله إلا الحكماء.

(٣) وأن الطعام والشراب يظن الصبيان والعامة أنهما معلومان، وهم جميعاً لا يدركون بالتفصيل عجائب توزيع المواد النشوية والمواد الزلالية والمواد المعدنية والماء كالأرز والبطاطس وكاللحم والبيض وكالملح وكماء الأنهار.

فهذه موزعات على مناطق الأرض في أنواع النبات والحيوان والبحار، وهكذا تقتسمها أجزاء القناة الهضمية فتهضمها وتخالط الدم فيأخذ كل عضو حظه من الحياة وهكذا.

ثم يكون الفكر والعقل، فهذا إجمال الكلام على الطعام والشراب، وبقي الكلام على الرحمة المذكورة في البسملة التي كررت (٨) مرات في سورة « الزخرف »، فلما أخذنا نفصلها وجدنا أمراً عجباً! وجدنا أن حواسنا كلما كانت أقرب إلى محسوسها كان ذلك المحسوس أخس. وكانت نفس الحاسة أقل درجة وكنا نحن بذلك المحسوس أقل اهتماماً. ذلك أن المحسوس الناعم كالحرير لا نعرفه إلا إذا لاصق أجسامنا وذلك يعطينا لذة ضئيلة إذا قسناها بلذة المشموم، والمشموم يبعد عن حاسة الشم ويرسل من لدنه ذرات لطيفة فهو ألطف من المطعوم، كالحلو الذي يلامس حاسة الذوق التي هي أرقى من حاسة اللمس، فإذا ارتفعنا إلى السمع وجدنا الحاسة أتم تركيباً، والمحسوس ألطف يكاد يفارق المادة ولا نحتاج في تعرفه إلى الملاصقة، أما المبصرات فإنها أبدع وأعجب، ورسولها الأمين أشرف من الهواء وهو الضوء، والضوء في عالم الأثير.

فجلّ الله. جلّ الله الذي أعطى الإنسان درساً لن ينسى. فهاهو ذا يقول له: أيها الإنسان: ألست تعقل؟ ألم يكن أشرف حاسة عندك هي البصر؟ أليس المبصر بها يبعد عنها ولا يلاقي حاستك إلا النور. إذن هذه الحياة الجسمية نفسها كشفت لك الغطاء عن السعادة. تقول لك بلسان طلق: أيها الإنسان، أما تخجل، وكيف تجهل نفسك تتلمس السعادة في جوانب المادة، وأنا رسمت لك الخطة: إن

المادة ما هي إلا مبدأ كالذي رأيت في عالم الملموسات، ولكن لا بد من ارتقائك في المعاني كارتقاء العين في محسوسها عن حاسة اللمس في ملموساتها. ألا إن الفرق ما بين الخشن والناعم من حيث ملاصقة الجسم وبين الشمس والعين من حيث شدة البعد التي تصل إلى مسافة (٣٥٠) سنة بجري القطار السريع ليلاً ونهاراً. يجري فيها النور بين عينك والشمس، وكأن الله يخاطب المسلمين في الأرض قائلاً: المادة مبدؤكم فلا بد من دراستها وإتقانها كما درست حاسة لمسكم ما حولكم، وإياكم أن تقفوا عندها لئلا تذلوا بل ارتقوا في دراستها طبقاً عن طبق لتحكموها وأنتم فيها، كما ارتقت حواسكم طبقاً عن طبق، فحكمت الأذن على الأشياء البعيدة فأخذت علمها بطريق الحركات في الأصوات. وكما حكمت عيونكم على الكواكب البعيدة فاقتنصت صورها من الجو وهي جارية في الضوء الساري في ألطف موجود وهو الأثير. ثم كأنه عز وجل يقول: أيها المسلمون، هاهم أولاء الأمم قبلكم وإن لم أرسل لهم رسولاً فكروا في هذه العوالم وارتقوا في الأسباب، وقالوا: إذا كانت السعادة تتبع الارتقاء عن المادة وكل من ارتقى عنها خضعت له وكل من خضع لها أذلته؛ فهاهم أولاء من قبلكم بحثوا بآرائهم وعقولهم وقالوا: إن هناك صوراً معنوية هي أصل لهذه المواليد على الأرض وربكم مشرق نوره على تلك العوالم المثالية التي على مثالها خلقت عوالمكم، وهناك تجلى الله على عقولكم بالإلهام كما تتجلى الشمس على عوالمكم بالضوء. وكما أن الضوء يأتي لأعينكم بصور المخلوقات الأرضية، هكذا أتجلى أنا على عالم المثال فيشرق على عقولكم بسبب إمدادي لكم.

هذا ثم جاء آخرون بعد هؤلاء فأنكروا عالم المثال وقالوا: إن الكليات العلمية لهذه المحسوسات كالإنسان والحيوان لن تكون إلا في الذهن. إذن ليس هناك عالم مثال، وهناك يقول أرسطاطاليس: إن العلم إنّما يتعلق بمحقق، والمحقق هي المادة وصورتها المعنية المعروفة. وجاء بعده الأبيقوريون والرواقيون وهم أصحاب المظال فقالوا: إن كلامه في المادة غير منتظم. وأدركوا أن هذه الأقوال غير مجدية، فتركوا هذه الارتباكات ورجعوا إلى دراسة علم الطبيعة وعلم الأخلاق.

هذا أيها الصديق ملخص ما تقدم، وأنا أحمد الله حمداً كثيراً على التبيان وتعليم البيان، ولم يبق إلا أن ألخص المقام كله في كلمتين اثنتين وهما: إن دراسة هذه المخلوقات التي هي آثار الرحمات عرفتنا أمرين: أحدهما محقق. والثاني يعوزه التفكر. أما المحقق فهو أن سعادة أهل هذه الأرض لا تكون بالانغماس في المادة بل في التجافي عنها والترقي في إخضاعها لا تركها، فيكون الناس في هذه الأرض بالنسبة للمادة كالعين بالنسبة للشمس.

فهذه قضية محققة أظهرتها دراسة رحمة الله المذكورة في البسملة في حواسنا وفي المخلوقات حولنا، فكلما كان الناس مغمورين فيها ذلوا، وكلما ارتقوا فأخضعوها إخضاعاً معنوياً سعدوا، والدليل على ذلك أن استعمال الكهرباء التي هي ألطف من الأجسام الأرضية أسعد الناس سعادة ما، وذلك أقرب إلى استعمال العين للشعاع الواصل من الشمس، فإن بين الكهرباء والنور مشاكلة، ففرق ما بين استعمال غارب البغل والحمار والفرس التي هي أجسام كثيفة وبين استعمال الكهرباء التي هي عوالم لطيفة شريفة، فالثمرات على مقتضى المقدمات كثافة ولطافة، وهذه بعينها دروس

يعطيها لنا ترتيب أجسامنا. هذه هي الكلمة الأولى المحققة. أما الكلمة الثانية التي يعوزها التفكير فهي ما يقوله أرسطاطاليس وأبيقور وزينون مما تقدم، فهذا راجع لأصل العالم ومنشئه.

وسترى إن شاء الله في سورة «محمد» صلى الله عليه وسلم تحقيق الكلام في رسالة سميتها «مرآة الفلسفة» التي وعدت بذكرها سابقاً مراراً في هذا التفسير، ولكني أقول قولاً إجمالياً الآن تذكرة لك أيها الصديق وللأذكياء من قراء هذا الكتاب:

اعلم أننا نحن على هذه الأرض لن نصل إلى غاية العلم، وغاية الأمر أننا نتلمس الممكن منه، فهاهو ذا البرهان اليقيني الذي عرفناه من دراسة جسمنا أثبت لنا أن سعادتنا في اللطائف لا الكثائف، وأن هذا الإنسان عليه أن يجد في المعنويات في هذه الحياة حتى يتمرن عليها ويرتقي كما ارتقت عينه عن لسانه، فهذه ترى الشمس في الأقطار البعيدة، وهذا يلامس التمرة فتكون قيداً له وسجناً، فإذا تلمسنا علم ما وراء ذلك ونظرنا نظر سقراط الذي اعترض على العالم المثالي الذي قرره؛ فإننا نقول: إذا كان علماء الطبيعة لما عجزوا عن إثبات مادة تحمل الضوء الساري في الجو من الكواكب وتحمل قوة الجاذبية التي بين الكواكب وبين الشمس و الأرض والقمر؛ أقول لما عجزوا عن ذلك؛ قالوا نفرض أن هنا عالماً خفياً نسميه «أثيراً»، ولقد تم شرح عالم الأثير في أول سورة «الصافات» وتحقيق الكلام فيه، فهذا الفرض قد اضطروا إليه اضطراراً، ليمكنهم به حل النظريات الطبيعية وفهم القوانين، فإذا جاز هذا في علم الطبيعة التي هي أقرب إلى عقولنا، أفلا يجوز نظيره في علم ما وراء الطبيعة، ونقول: إذا كان الضوء لا يصل إلى عيوننا إلا بعالم سميناه أثيراً ونحن لم نتحققه، أفليس من حقنا أن نقول إن العلم لا يكون له ثبات إلا بأمور ثابتة، والأمور الثابتة هنا نسميها عالم المثال، وهو نماذج لعالمنا هذا، وعلى مقتضى عالم المثال الذي صورت فيه جميع القضايا الكلية التي نحس بها في أذهاننا خلقت العوالم المشاهدة، فأما كل ما ورد من كلام علماء اليونان على عالم المثال فإنه يرد نظيره على عالم الأثير، فإذا كان معدوماً فكيف يحمل المعدوم الموجود؟ فالقول هناك كالقول هنا.

امتحان آراء علماء الإسلام
وآراء علماء اليونان

إذن نحن الآن امتحنا آراء علماء الصوفية من حيث وحدة الوجود، فظهر لنا أن دراسة أجسامنا تحل المشكلة كما تقدم في العين والشمس، وامتحنا آراء فلاسفة اليونان فرأينا أن عالم الأثير المقبول عند علماء الطبيعة يرد عليه ما ورد على عالم المثال، ومع ذلك اضطر له العلماء في زماننا اضطراراً، وقنعوا بإثباته لحل النظريات لتسهيل حل النظريات العلمية. وهذا الذي قلته الآن برهان إقناعي، ولكن البرهان اليقيني ستراه في سورة «محمد» صلى الله عليه وسلم كما أنبأتك.

تفسير الآيات

لا جرم أنك بعد هذا أيها الصديق تفهم حق الفهم قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾[الزخرف: ١٧] إلى آخره، إذ يرى الإنسان أنه محصور الفكر في أن الولد ذكراً وأنثى

وهذا انغماس في المادة، والانغماس فيها عذاب أليم في الحياة الدنيا، والله منزه عن المادة فكيف يجعله متصفاً بما كان عذاباً له؟ وهناك يظهر سر: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[التوبة: ٥٥]، ودراسة علم الحواس المتقدم يظهر لنا أن الخضوع للمادة صغار، وهكذا قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[الزخرف: ١٩]، فالذكورة والأنوثة صفات أهل المادة الذين هم أقرب إلى العذاب في الحياة ببرهان دراسة الحواس المتقدم، والملائكة مبرؤون من المادة وهم مختصون بالعلم.

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾[الزخرف: ٢٠] فهؤلاء جهلاء، ولكن الله لسعة رحمته لهم لم يهلكهم، فهو وسعهم كما وسع البهائم في الأرض وكما عاش الإنسان بين عين تنظر الشمس ولمس يلمس الحجر، فالله يرحم الأدنى والأعلى كل في مركزه الخاص به. وأما قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[الزخرف: ٣٦] فهو المقصود من هذا المبحث كله. ذلك أن السعادة كما قدمنا ترجع إلى إدراك ما هو ثابت ولا ثبات للمادة. والثابت الحق هو الله عز وجل. وكل مال وولد وسلطان وجمال وأرض وسماء لا ثبات لها. فالفرح بالمتغير غرور. ولا فرح ولا سرور إلا بما هو ثابت. ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[الزخرف: ٣٣] الخ. فالقصور المزخرفات بالذهب والفضة والسرر راجعات كلها إلى المادة الغليظة، وقد برهنّا برهاناً يقينياً أن السعادة في الابتعاد عنها، والرحمة الحقيقية في إدراك ما هو ثابت ولا ثابت إلا لصانع العالم، فهل لك أن أسمعك ما قاله نفس أفلاطون عن سقراط لتعجب من أن القرآن قد جاء تفسيره على ألسنة الفلاسفة، بل على لسان أكبر فيلسوف تخر له فلاسفة أوروبا الحاليين باعترافهم سجداً، فانظر ماذا يقول؟ يقول معنى نفس هذه الآيات، فهو يقول في الكتاب السادس مخاطباً «اديمنتس»:

أولست من رأيي أيضاً أن سبب استياء الجمهور من الفلسفة راجع إلى تصرف الذين كالسكارى يقتحمون ما لا يعنيهم ويسيء بعضهم بعضاً، ويسرون ببث الفتن والاغتياب، وبالإجمال الأشخاص الذين لا تتفق تصرفاتهم مع الفلسفة. ثم قال: وحقاً يا اديمنتس أن من وجه أفكاره نحو الأشياء الموجودة حقيقة ليس له متسع من الوقت للاشتباك بمصالح الآخرين ومنازعتهم، فتتسرب إليه عدى أذاهم، بل على الضد من ذلك يقف أوقاته على التفكر بأشياء صحية ثابتة، وإذ يرى أنها لا تضر إحداها الأخرى ولا تني خاضعة للنظام وهي على أتم وفاق مع العقل يجتهد في درسها والتشبه بها، أوَتظن أن الإنسان يستطيع أن لا يتمثل بما يلازمه ويحترمه. فأجاب: غير ممكن. فقال سقراط: فالفيلسوف الذي يلازم ماهو إلهي متزن يصير إلهياً متزناً مع أنه هنا كما في كل موقف آخر مجال واسع للتزييف.

وقال في صحيفة ١٨٨ ما نصه: إن بحثنا أرانا أن في كل منا آلة تساعده في تحليل العلم، كما أنه لا يمكن تحويل العين من النور إلى الظلام بدون أن يتحول الجسم كله، هكذا أمر هذه القوة مع النفس فيلزم تحول النفس كلها عن العالم الفاني ليمكنها التفكر في عالم الحقيقة وفي أبهى قسم منه وهو ما ندعوه صورة الخير. انتهى.

يقول طنطاوي : أفليس مما يدهش المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن آيات هذه السورة التي ذكرت فيها الرحمة كالتي تصف الكافرين بأنهم لو كانت لهم قصور مزخرفة وسرر الخ لم يكن ذلك نافعاً لهم ، وكالتي تبين أن من أعرض عن ذكر الله تسلمه الشيطان وأضله وهكذا .

أقول : إن هذه الآيات قد جاء تفسيرها قبل أزمان النبوة بنحو ثمان قرون على ألسنة الفلاسفة . إذن هذا القرآن كما وصفه الله آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم . إذن المفكرون في جلال الله المتعلمون الحكمة هم أرقى الناس ، وهم أولى بإدارة الأمم لأنهم يزهدون في المال وفي أعراض الدنيا ، وليسوا كبعض الزهاد يعتزلون الناس ويكونون عالة عليهم . وبهذا يعرف المسلمون أن الزهد في الدنيا ليس معناه تركها ، بل أن يكون الإنسان عالماً بالجمال الأقدس ، موقناً أن السعادة في المعرفة والعلم ، أي : العلم بالله والملأ الأعلى ، وهذا لن يمكن بمجرد قراءة القرآن ولا تفسيره ، ولكن بدراسة علوم هذه الدنيا ، وينتقل من الخلق إلى الخالق ، ثم يكون خليفة له على عباده ، ولم أجد من سار على منواله سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن جرى على طريقه ، فهو الذي ينطبق عليه الآيات المذكورة من احتقار المادة والقيام بخدمة الأمة وتنظيم الدولة . ذلك هو الحق الصراح ، فأجلّ أنواع الرحمة في الحقيقة يرجع إلى إدراك جمال الله عزّ وجلّ وصفاته وفهم الوجود تبعاً لذلك .

ثم أن يكون الإنسان زاهداً في المادة متخلقاً بالأخلاق الجميلة ، خليفة على عباد الله ، منظماً لأممهم نافعاً لدولهم ، فهو في العالم ولكنه غير مغرم به ، بل بالعلم وبالله ، وهو مساعد للمجموع منظم للحكومات وللأمم بقدر طاقته ، هذا هو الحق الصراح ، والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الثلاثاء ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٠ .

مقاصد السورة

(١) تأييد النبوة ، إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[الآية : ٨] .

(٢) وإثبات الألوهية بالأدلة الطبيعية ، إلى : ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾[الآية : ١٤] .

(٣) بعض سيئات كفر القوم ، إلى قوله : ﴿ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾[الآية : ٢١] .

(٤) سبب كفرهم ، إلى قوله : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[الآية : ٢٣] .

(٥) شدة جهلهم وجمود عقلهم ، إلى قوله : ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[الآية : ٣٤] .

(٦) الانتقام منهم ، إلى : ﴿ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[الآية : ٢٥] .

(٧) تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بذكر قصة إبراهيم ، إلى قوله : ﴿ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[الآية : ٣٠] .

(٨) ليست المظاهر المادية من أسباب الدرجات العلمية والدينية ، إلى قوله : ﴿ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الآية : ٣٥] .

(٩) من ترك عقله فلم يشغله بالحكمة تولاه الشيطان .

أعطيت ملكاً فلم أحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

إلى قوله : ﴿ مُّهْتَدُونَ ﴾[الآية : ٣٧] .

(١٠) من تصادقا على المعصية تعاديا عند القضاء ، إلى قوله : ﴿ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[الآية : ٣٩] .

(١١) إنّما تنفع الذكرى من استعد للفهم إلى قوله : ﴿ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الآية : ٤٠] .

(١٢) عدة الله نبيه بالنصر وعلو أمره وإنه مسؤول عن الدين والقرآن هو وقومه، إلى قوله: ﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[الآية: ٤٤].

(١٣) قصص موسى لتأييد أن المظاهر المادية ليست سبباً للمعارف العقلية، إلى قوله: ﴿ وَمَثَلًا لِّلْأَخِرِينَ ﴾[الآية: ٥٦].

(١٤) شؤم الحرص على الجدال وعدم جدواه في إبطال الحقائق، إلى قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[الآية: ٦٢].

(١٥) ذكر عيسى عليه السلام واختلاف أتباعه ووعيدهم، إلى قوله: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[الآية: ٦٦].

(١٦) معاداة قرناء السوء يوم القيامة وعذابهم وسعادة الصالحين، إلى قوله: ﴿ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾[الآية: ٨١].

(١٧) تنزيه الله تعالى ووصفه بسعة الملك والقدرة والحكمة وشهادة الفطرة بذلك، وبالاختصار وصفه بصفات الجلال والإكرام وهو المقصود، إلى قوله: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الآية: ٨٨].

(١٨) سعة الصدر والصفح والمسالمة خير الأخلاق. اهـ.

مجمل تفسير الألفاظ
في المقاصد الأربعة الأولى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴾ تقدم الكلام عليها في السورة السابقة ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ القرآن، أقسم به من حيث نظمه وإعجازه، إن الله صيره كذلك، فالقسم كالاستشهاد على المقسم به ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ لكي تفهموا معانيه ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ عطف على «إنا»، ﴿ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿ لَدَيْنَا ﴾ عندنا ﴿ لَعَلِىٌّ ﴾ رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزاً ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ذو حكمة بالغة. أو محكم لا ينسخه غيره ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ أفنذود الذكر ونبعده عنكم صافحين فلا نأمركم ولا ننهاكم من أجل أنكم أسرفتم في كفركم وترككم الإيمان. ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: كاستهزاء قومك بك، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ أي: المشركين ﴿ مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي أنهم أقروا بأن الله خلقهما وأنه ذو عزة وعلم، ومع ذلك جمعوا بين النقيضين إذ عبدوا غيره وأنكروا قدرته على البعث، ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ قارة يمكن الانتفاع بها، والمهد موضع راحة الصبي، والخلق كلهم يتربون على الأرض وهي موضع راحتهم، فلذلك جعلت مهاداً لعدد العباد ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ طرقاً ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى مقاصدكم في أسفاركم، فلم تكن تلك المهاد رمية من غير رام ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾ بقدر حاجاتكم إليه، فلم يكن كثيراً حتى يهلككم ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ ﴾ بالمطر ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ﴾ كما أحيينا بلدة ميتاً ﴿ تُخْرَجُونَ ﴾ من قبوركم أحياء ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي الأصناف والأنواع أو الذكران والإناث، أما هو فهو فرد لا ثاني له. ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ في البحر والبر ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ على ظهور الفلك والأنعام ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي: بتسخير ما ركبتموه في البحر والبر ﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾ ذلّله ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ مطيقين أو حافظين ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

لَمُنقَلِبُونَ ﴾ لمنصرفون في المعاد ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ أي بعد الاعتراف بأن الله هو الذي اتصف بالخلق والعزة والعلم الخ ؛ جعلوا له من عباده ولداً وهم الملائكة ، والولد جزء من الوالد وبعضه لأنه بضعة من الوالد ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر الكفران ، ومنه نسبة الولد إليه تعالى ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ هذا استفهام إنكار وتوبيخ وتعجب ، ويقول : أتخذ ربكم لنفسه البنات ﴿ وَأَصْفَىٰكُم ﴾ أي : أخلصكم ﴿ بِٱلْبَنِينَ ﴾ فاختار لنفسه المنزلة الدنيا ولكم المنزلة العليا ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ﴾ أي : بالجنس الذي جعله له مثلاً ، إذ الولد لا بد أن يماثل الوالد ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا ﴾ صار وجهه أسود في الغاية لما يعتريه من الكآبة ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ مملوء قلبه من الكرب ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴾ أو جعلوا له من يتربى في الزينة يعني البنات ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ ﴾ في المجادلة ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ مقرر لما يدعيه من نقصان العقل وضعف الرأي ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ أي : حكموا بهذا وأثبتوهم إناثاً ، وقد جمعوا بهذه الفرية بين الضدين : العبادة والولادة ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ أي : أحضروا خلق الله إياهم فشهدوهم إناثاً ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة ﴿ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ عنها يوم القيامة ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ﴾ أي : لو شاء عدم عبادة الملائكة ما عبدناهم ﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي : وقال بنو مليح بوجه غير ما تقدم : لو نهانا الرحمن وصرفنا ما عبدناهم استهزاء ولكن أمرنا بعبادتهم ولم ينهنا عنها ، ما لهم بما يقولون من حجة ، ما هم إلا يكذبون على الله ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ من قبل القرآن ﴿ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ بذلك الكتاب .

ذكر سبب كفرهم

ولما بطلت جميع الحجج رجعوا إلى التقليد ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ أي : دين ، وهي من الأم وهو القصد ، فالأمة الطريقة التي تؤم أي تقصد ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ أي إنهم مهتدون باتباع آبائهم وتقليدهم من غير حجة ، وهذه في الحقيقة حجة الغافلين من الأمم الحاضرة والغائبة . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ودلالة على أن التقليد في ذلك ضلال قديم ، والأمم في ذلك متشابهة والعلة في ذلك التنعم والكسل والبطالة . ولذلك أكثر الله في نوع الإنسان من الحروب والأمراض والعداوات ليستحثهم على العمل ولتنشط العقول وليفكروا حتى يقل الترف الجالب للتقليد والنوم في ظل الجهالة العمياء .

شدة جهلهم وجمود عقولهم

قال تعالى : ﴿ قَـٰلَ ﴾ أتتبعون آبائكم ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾ أي : بدين أهدى من دين آبائكم .

وقرأ ابن عامر وحفص : « قال » أي النذير ، فـ « قل » حكاية أمر ماض أوحي إلى النذير ، وحينئذ يقال فماذا أجاب أهل القرية ؟ فأجاب : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾ وإن كان أهدى ، وذلك ليقنطوا نذيرهم من أنهم يفكرون .

من المقصد السادس إلى المقصد التاسع

إلى قوله: ﴿ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الآية: ٣٧]

قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ بالاستئصال ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ولا تكترث بتكذيبهم ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ ﴾ أي: بريء ﴿ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ أي: إنني أتبرأ مما تعبدون إلا من الله الذي خلقني ﴿ فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ أي: يرشدني إلى دينه ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ أي: وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي لا إله إلا الله ﴿ كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ في ذريته، فيكون فيهم أبداً من يوحد الله ويدعو إلى توحيده ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أي: يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحده ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ يعني أهل مكة وهم من عقب إبراهيم، فمددت أعمارهم، وأكثرت نعمهم، فشغلتهم النعم والترف والشهوات وأطاعوا الشيطان ونسوا كلمة التوحيد، وجريت على عادتي أن أجعل في بني إبراهيم من يوحد الله ويدعو من كفر منهم لعله يرجع، فاخترت محمداً ليدعوا هؤلاء، فقالوا: هذا سحر الخ، وهذا قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي: القرآن ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقوله: ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي: واضح الرسالة بما معه من الآيات ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ ﴾ فيه متحكمين بالباطل ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ ﴾ العبارة تفيد الاستهانة ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أي: رجل عظيم من إحدى القريتين كقوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[الرحمن: ٢٢] وإنما يخرجان من الملح وحده على قول بعض القدماء، ولكن ظهر في العلم الحديث أن اللؤلؤ يخرج من الماء العذب كما ستراه في سورة «الرحمن» وهذا من معجزات القرآن؛ والقريتان مكة والطائف، والرجلان الوليد بن المغيرة عظيم مكة، وعروة بن مسعود الثقفي عظيم الطائف، وكان كل منهما ذا مال وذا جاه، مع أن العظيم في العقل والعلم والدين غير العظيم في اصطلاحهم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ أي النبوة، والاستفهام للإنكار والتجهيل والتعجب، كأنه يقول: أيها القوم عجباً لكم، كيف جهلتم قدر أنفسكم، أو بلغ من شأنكم أن تصطفوا من تشاؤون للنبوة التي لا يصلح لها إلا من له رتبة عظيمة وروحانية تستدعي عظيم النفس، فتكون ذات فضائل قدسية، وكمالات خلقية، وتكون مستهينة بالزخارف الدنيوية التي اتعستم فيها، فلستم أهلاً لأن تفاض عليكم فضلاً عن أن تهبوها لمن تشاؤون. ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يقول تعالى: نحن فاوتنا بينهم في الرزق، فمنهم الغني، ومنهم الفقير، ومنهم السيد، ومنهم العبد، ومنهم الملوك، ومنهم السوقة، ومنهم الأقوياء، ومنهم الضعفاء، ومنهم ذوو الجمال، ومنهم ذوو الدمامة، ولم يقدر أحد من عبادنا أن يغير ما حكمنا به في أحوال دنياهم مع قلتها وذلتها، فكيف يقدرون على الاعتراض على حكمنا فيما هو أرفع درجة، وأعظم منصباً، وأشرف غاية، وهو النبوة، فنحن رفعنا بعضهم على بعض بمشيئتنا، وخصصنا من نشاء للنبوة كما أردنا، فكما لم يغيروا ما هو أدنى هكذا هم أعجز عن التغيير فيما هو أعلى.

ثم أتم وصف حال تفاوتهم في الدنيا فقال: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ أي: أوقعنا بينهم التفاوت في الرزق ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم ويستخدموهم في مهنهم، ويسخرونهم في أشغالهم، حتى يعيش بعضهم مع بعض، وينفع بعضهم بعضاً، فهذا بماله وهذا بأعماله، لأنا حكمنا أن هذه النفوس تعيش في الأرض لتتعاون، ونحن قادرون أن نطعمهم وهم قاعدون كما أطعمنا النبات والدود، ولكن هي الحكمة أن الأعمال التكليفية التي يتعاطاها الناس سواء أكانت طبيعية أم شرعية تصير فيما بعد الموت معينة للنفوس، فيسهل عليها التعارف والتعاون في عالم الأرواح، وعلى قدر تهذيبها ومحبتها لبعضها يكون ارتقاؤها، وكيف تتعارف في الدنيا إلا باللقاء والاختلاط، فأحوجناهم إلى القوت وأغنينا وأفقرنا، وجعلنا ذكراً وأنثى، كل ذلك ليتعارفوا ويتعاونوا. وأنزلنا العبادات وفرضناها ليتحدوا في الصلوات، ويتعاونوا في الصدقات، وأنزلنا القرآن والعلم لتجمعهم جامعة الحكمة والأخلاق وهي أقوى الجامعات وأمتن الروابط، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ ﴾ بالنبوة وما يتبعها ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أي: مما يجمع الكفار من الأموال، فالدنيا على شفا جرف هار. إن المادة والمظاهر الفانية لا قيمة لها في حضرتنا فنحن أغدقنا النعم على الدواب والأنعام وكثير من جهلة بني الإنسان، ولولا أن تتطلع أعين المؤمنين إلى زهرة الدنيا وزينتها إذا غمرنا الكافرين بها وأوسعناها عليهم سعة مطلقة وأن تهلع قلوبهم وتتخلع حينما يرون الكافرين في أنعم حال وهم في شظف العيش؛ لجعلنا كل كافر في أرغد عيش وأنعم حال ولكنا لم نفعل ذلك رحمة بالمؤمنين، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي: ولولا أن يصيروا كلهم كفاراً فيجتمعون على الكفر ويرغبون فيه إذا رأوا سعة الرزق عند الكفار ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ ﴾ ومصاعد إلى المعارج جمع معرج ﴿ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ يعلون السطوح لحقارة الدنيا وقوله: ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ ﴾ بدل اشتمال، ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾ أي: أبواباً وسرراً من فضة. يقول: لجعلنا للكفار سقفاً من فضة ومصاعد وأبواباً وسرراً من فضة ﴿ وَ ﴾ جعلنا لهم ﴿ زُخْرُفًا ﴾ أي: زينة من كل شيء ويقال: الذهب أيضاً، فيكون عطفاً على محل «من فضة»، أي: سقفاً من فضة وذهب، أي: بعضها من فضة وبعضها من ذهب، وإذا كانت المعارج والأبواب والسرر كالسقف كما تقدم يكون بعضها من فضة وبعضها من ذهب على هذا التقدير أيضاً، ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: ما كل ذلك إلا متاعها القصير الفاني، وليس مما تقدر به قيم النفوس الإنسانية، فكيف يقولون: لولا أنزل هذا القرآن على رجل الخ؛ والعظمة المادية لا علاقة لها بالمناصب النبوية ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الكفر والمعاصي. ولا جرم أن هذه النعم والسرر والأبواب المصنوعة من الذهب والفضة لو أعطيت للمؤمنين حتى يصبح الناس كلهم مؤمنين لأخلت بالمقصود من الإيمان، لأن الترف والنعيم يحجبان أكثر العقول عن عالم الروحانية والرقي العقلي. وقلّ من يتخلص من شرك هذه الآفات. فالشهوات والزينة والزخارف للعقول أشبه بالقاذورات بالنسبة للأجسام. وكما أن الأجسام القذرة يحوم حولها الذباب فيلقي فيها بيوضه لتفرخ في القروح والعيون ويخرج ذباب يعيش من تلك القاذورات فتكون

آلاماً وآلام؛ هكذا تلك النفوس الضعيفة تعشعش فيها النفوس المماثلة لها من عالم الشياطين وتلقي إليها بذور الفساد، فتزرع في تلك العقول وتحصدها النفوس خزياً وعاراً في الدنيا والآخرة، ولذلك أعقبه بقوله: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ يتعام ويعرض عنه بانهماكه في المحسوسات واشتغاله باللذات ﴿ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ أي: نسبب ونضم له شيطاناً ونسلطه عليه، وذلك على مقتضى سنتنا الكونية، كما سلطنا الذباب على الأجسام القذرة، وخلقنا الحيات والعقارب والحشرات في المحال العفنة تلطيفاً للهواء ورحمة بالناس والحيوان، هكذا النفوس. فإذا قتلت الحيات أحداً أو أصاب الحيوان الذري الذي لا يرى المسمى بالمكروبات أحداً، أو عم الوباء من ذلك، فمن مات فقد كان هكذا استعداده، ومن عاش فإنه يكون أقدر على الحياة لقوة تحمله فلم يؤثر فيه الوباء، هكذا هذه النفوس الموسوسة للضعفاء توقعهم في الذنوب لاستعدادهم فينالون جزاءهم من عقاب الحكومات، أو احتقار الناس، أو الأمراض في الدنيا، فيكون ذلك عبرة لهم وزجراً لغيرهم، وتكون نتيجة ذلك الرحمة، ويشير لذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾[مريم: ٤٥]، فالعذاب بالأمراض الفتاكة والموت والشياطين المضلة. كل ذلك إيقاظ من الله للإنسان، وإياك أن تدخل في هذا عذاب الكافر، فوالله إن فيه سراً يحرم إفشاؤه تحريماً قاطعاً، فإذا عرفته فلا تقله بل ليدفن معك، لأن الأمم اليوم لا تستعد لفهمه. واعلم أن هذا المقام هو نتيجة العلوم كلها ديناً وحكمة وتصوفاً، فمن عرف الحقيقة في هذا المقام فقد وصل لله ونال غاية الحكمة، فإذا عرفت فالزم. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أي الشياطين ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ ليمنعون العاشين ﴿ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ عن سبيل الهدى ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أي العاشون ﴿ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ لأنهم تلقوا من الشياطين ما يلائم أمزجتهم ويوافق أخلاقهم، وألفوه فلم ينكروه. اهـ.

الكلام على المقاصد من العاشر إلى الثالث عشر
إلى قوله: ﴿ وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾[الآية: ٥٦]

يحسب كفار بني آدم أنهم على هدى وقد أغواهم الشيطان ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ الكافر منهم ﴿ قَالَ ﴾ لقرينه الشيطان ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ أي: بعد المشرق والمغرب، ففيه تغليب أحدهما ثم التثنية ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ أنت ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ أشركتم ﴿ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أي: لا ينفعكم الاشتراك في العذاب ولا يخفف عنكم شيئاً، إن الكافر يتمنى هنا شدة البعد بينهما، وجاء في آية أخرى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا ﴾[فصلت: ٢٩] الخ، فأجيبوا بأن الاشتراك في العذاب لا يخفف عنكم شيئاً ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ ﴾ فقومك كالصم البكم فلا يقبلون الهداية، فمن عجب أنك تقدر على هدايتهم، وعطف على العمي قوله: ﴿ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ في ضلال لا يخفى، فهؤلاء لا يقبلون الهداية ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ بأن نميتك قبل أن نعذبهم ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ بالقتل بعدك ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ﴾ في حياتك ﴿ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ ﴾ من العذاب ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ قادرون على ذلك متى شئنا عذبناهم، وقد انتقم منهم يوم بدر، وهذا فيه تسلية له صلى الله عليه

وسلم لأن وعده الانتقام منهم على كل حال ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ من الآيات والشرائع ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج فيه ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَذِكْرٌ﴾ لشرف عظيم ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عن حقه وأداء شكره، ومعنى هذا أن القرآن نزل بلغة العرب، ودين الإسلام وعد الله بنشره في الأرض، وأبناء العرب هم العارفون باللغة، فعلى هذا هم الملزمون بالقيام بنشر اللغة العربية ودراسة هذا الدين للأمم الأخرى، فالأمة العربية متى قصرت فيما ألزمها الله به أذلها الله في الدنيا، وأدخل المقصرين منها النار يوم القيامة، ولذلك لما قصرت في واجبها انطمست معالمها ودخلت في حوزة الأمم الأوروبية، وعسى أن يقرأ هذا أبناء العرب من إخواننا ويفهموا مركزهم في الأرض أنهم هم المعلمون للأمم، فلينشروا هذا القرآن وليتعلموا هم لغات الأمم وليكتبوا المصاحف بالعربية، ويكون على الهامش تفاسير بلغات مختلفة كالإنجليزية والروسية والألمانية وهكذا حتى تعرف الأمم هذا الدين، هذه الآية توجب على أبناء مصر والشام واليمن والحجاز والعراق أن يكونوا ناشري هذا الدين، ولكن هم اليوم في جهالة تائهون، وسيقوم مجدهم كرة أخرى، وترجع أيام عزهم، وإذا ورد في حديث البخاري ومسلم أن الخلافة في قريش، وفي البخاري أيضاً حديث: «إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين»، وأيضاً يقول بعض المفسرين: القوم هم العرب والقرآن لهم شرف.

إذا عرفت هذا فتأمل قوله صلى الله عليه وسلم: «ما أقاموا الدين»، فكأن الخلافة جعلت لهم ليحافظوا على الدين فكأنّ المحافظة على الدين هي المقصودة من خلافتهم، فالمحافظة أصل والخلافة فرع، وهذا يشير لمعنى الآية: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي: واسأل أممهم وعلماء دينهم ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ هل حكمنا بعبادة الأوثان، والمراد تقرير أن جميع الأنبياء على التوحيد، فليس ببدع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حتى يعارض ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أتى بهذا القصص ذاكراً فيه ما يناسب المقام من تفاخر فرعون بعظمة ملكه، ومن اتهامه لموسى عليه السلام بالسحر كما فعل القوم مما هو مذكور في هذه السورة، إذ تمنوا أن تكون النبوة لرجل من القريتين عظيم، وجعلوا النبوة سحراً، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ يسخرون ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ من قرينتها ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كنقص الثمرات وإرسال الطوفان الخ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الكفر ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ سموه ساحراً، أي: عالماً ماهراً باهراً إنكاراً للنبوة ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فيكشف عنا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما أخبرتنا عن عهده إليك، أنا إن آمنا كشف عنا العذاب فاسأله أن يكشفه عنا ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ لمؤمنون، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ينقضون عهدهم ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ أنهار النيل تجري من تحت قصري وبين يدي في جناتي ﴿أَمْ أَنَا۠﴾ بل أنا ﴿خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيف حقير فكيف تكون له رئاسة مع المهانة ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلام لما به من الرقة فكيف يصلح للرئاسة ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾

جمع أسوار، وقرئ «أساورة» جمع أسورة، وقرئ «أساوير» جمع أسوار، أي: هلا ألقي مقاليد الملك إليه. ذلك أنهم كانوا إذا أرادوا تسويد رجل سوروه بسوار وطوقوه بطوق من ذهب ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ مقرونين به يعينونه أو يصدقونه ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ ﴾ أي: فاستخف أحلامهم بما يبديه من عظمة الملك والرئاسة وجعلها مناط العلم. ولو كان هناك نبوة لكان هو أولى بها، كما قال أهل مكة في رجل من القريتين ﴿ فَأَطَاعُوهُ ﴾ فيما أمرهم به ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ إذ أطاعوا الفاسق. هكذا أنتم يا أهل مكة إذا اتبعتم من يجعل النبوة موقوفة على العظمة والجاه، وتصبحون كقوم فرعون إذ انتقمنا منهم لما أغضبونا ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ أغضبونا بالعناد ﴿ ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ في اليم ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا ﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ﴿ وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ حديثاً عجيب الشأن سائراً سير المثل يضرب بهم الأمثال فيقول الناس مثلكم مثل قوم فرعون.

ذكر المقاصد من ١٤ إلى ١٨ وهي الأخيرة

وهي شؤم الحرص على الجدال وعدم جدواه في إبطال الحقائق

وذكر عيسى عليه السلام واختلاف أتباعه

وذكر معاداة قرناء السوء يوم القيامة وعذابهم وسعادة الصالحين

وذكر تنزيه الله تعالى ووصفه بسعة الملك والقدرة والحكمة وشهادة الفطرة بذلك

وبالاختصار وصفه تعالى بصفات الجلال والإكرام

وذكر سعة الصدر والصفح والمسالمة وأنها خير الأخلاق

اعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قرأ على قريش: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾[الأنبياء: ٩٨] غضبوا، فقال ابن الزبعرى: يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم. فقال عليه الصلاة والسلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم. فقال: ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه وعلى أمه خيراً، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما وعزير يعبد والملائكة يعبدون، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا. وسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[الأنبياء: ١٠١]، ونزلت هذه الآية: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ أي: ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً لآلهتهم وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه ﴿ إِذَا قَوْمُكَ ﴾ قريش ﴿ مِنْهُ ﴾ من هذا المثل ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحاً وضحكاً بما سمعوه من إسكات النبي صلى الله عليه وسلم بجدله ﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ آلهتنا خير عندك أم عيسى؟ فإن كان في النار فلتكن آلهتنا معه ومع عزير والملائكة، ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ﴾ أي: ما ذكروا لك عيسى ابن مريم إلا للجدل والخصومة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ جدلون بالباطل. ولما ذكر عيسى وأنه معبود عند النصارى أخذ يبين حاله فقال: ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي: إن عيسى ﴿ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ بالنبوة ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا ﴾ وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر ﴿ لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فليس

معبوداً كما يزعم قوم من النصارى، وإنّما العبرة فيه أنه ولد من غير أب، فيفتح للناس باب التفكر والتذكر والفهم والعلم، وليست مخالفة العادة في شيء موجبة لعبادته، بل هي مذكرة بعبادة الخالق الحكيم ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ على أننا لو نشاء لجعلنا ذريتكم ملائكة يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم، كما خلقنا عيسى من أنثى بلا ذكر وجعلناه رجلاً، أي: لو نشاء لجعلنا في الأرض عجباً كأمر عيسى بحيث يلد الرجل ملكاً فيخلفه، فباب العجائب والنظم المدهشة لا حد له عندنا، فكم من نواميس خافية عليكم بيدنا تصريفها ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي: القرآن ﴿ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ لأن فيه إعلاماً بها ودلالة عليها ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشكن فيها ﴿ وَٱتَّبِعُونِ ﴾ هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أن يقوله ﴿ هَـٰذَا ﴾ الذي أدعوكم إليه ﴿ صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ لا يضل سالكه ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ عن المتابعة ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ثابت عداوته، لأنه وسوس لأبيكم ولكم ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ بالإنجيل والشريعة لتستبين السبيل لكم ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ من أمور الدين وحدها ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أبلغه عنه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ وهذا ملخص جميع الديانات اعتقاد الوحدانية والتعبد بالشرائع أي العلم والعمل، انظر في سورة «آل عمران» فهناك ملخص الديانات في الأرض مصداقاً لهذه الآية: ﴿ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الآية: ٥١]، هو من كلام عيسى عليه السلام، فالصراط المستقيم علم بحقائق وعمل بشرائع ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ الفرق المتحزبة ﴿ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ من بين النصارى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ من المتحزبين ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ والمعنى هل ينتظرون إلا الساعة ﴿ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ فجأة، والمقصود أنها تأتيهم لا محالة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: غافلون عنها لاشتغالهم بأمور الدنيا وإنكارهم لها ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ ﴾ الأحباء ﴿ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ فالخلة التي مبناها الباطل تبطل متى ظهرت حقيقتها، وهؤلاء يظهر باطلهم يوم القيامة ﴿ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ لأن المودة أسست على حقيقة لا تفنى، وإذن ينادي الله المؤمنين المتحابين في جلاله فيقول: ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ مما تلاقونه بعد الموت كما يخاف غيركم ﴿ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ على ما خلفتم، لاعتقادكم أني وكيل حكيم أتصرف في ملكي بالحكمة والعدل، ولكن الحزن لغيركم.

ثم وصف العباد بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ أي: مخلصين ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ تسرون وتنعمون ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ جمع صحفة وهي القصعة الواسعة ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ جمع كوب وهو كوز لا عروة له ﴿ وَفِيهَا ﴾ في الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ بخلاف النعيم الذي هو زائل وهو نعيم الدنيا ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ شبهت الجنة في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة، وتلك إشارة إلى الجنة المذكورة، و«الجنة» خبر، وقوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ فيه إيماء إلى أنهم يأكلون بعض الثمار والباقي مزين لشجره. وفي الحديث: «لا ينزع أحد في الجنة من ثمرها إلا نبت مكانها مثلها». ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴾ خبر بعد خبر

﴿ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ لا يخفف عنهم ولا ينقص ﴿ وَهُمْ فِيهِ ﴾ في العذاب ﴿ مُبْلِسُونَ ﴾ آيسون من الفرج متحيرون ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب، لأننا نضع كل مخلوق في مرتبته ﴿ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ «هم» ضمير فصل. يقول: إن العذاب راجع إلى الاستعداد الفطري لنقص في قابليتهم، ولم يخرج ذلك عن ترتيب الدرجات على مقتضى الاستعداد، وهذا ليس من الظلم في شيء. فالفاعل يعطي والقابل ليس بأهل لما يفاض عليه، ﴿ وَنَادَوْا ﴾ لما يئسوا من فتور العذاب ﴿ يَا مَالِكُ ﴾ وهو خازن النار. قيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ «يا مال». فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم. ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ليمتنا، يقال قضى عليه: أماته، أي: سل ربك أن يقضي علينا ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ لابثون في العذاب لا تتخلصون منه بموت ولا فتور ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ ﴾ أي: لقد جئناكم معاشر الملائكة بالحق حينما أوحى الله إلى الأنبياء بواسطتنا ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ لا تقبلونه وتنفرون منه، لأن الحق يوجب التعب والباطل يوجب الكسل ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا ﴾ أي: بل أأحكم مشركو مكة أمراً من كيدهم ومكرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ كيدنا كما أبرموا كيدهم، وكانوا يتنادون ويتناجون في أمر الرسول صلى الله عليه وسلم في دار الندوة ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾ حديث أنفسهم ﴿ وَنَجْوَاهُم ﴾ ما يتحدثون فيما بينهم ويخفونه عن غيرهم ﴿ بَلَى ﴾ نسمعهم ﴿ وَرُسُلُنَا ﴾ والحفظة مع ذلك ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ ملازمة لهم ﴿ يَكْتُبُونَ ﴾ ذلك ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ منكم، أي: لو صح وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها أن للرحمن ولداً لكنت أسبقكم إلى طاعته كما تعظمون أنتم أبناء ملوككم، فإنني أول العابدين، وهذا وارد على سبيل المبالغة في نفي الولد، يقول: وإذا كنت أنا لم أعترف بولد بدليل أنني لم أعبده مع أني أقرب الناس إلى الله فالولد منفي حتماً، أي: فانتفاء الولد مرتب على انتفاء عبادته ضرورة انتفاء الملزوم بانتفاء لازمه.

ثم نزه نفسه فقال: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي: عما يقولون من كونه ذا ولد. ألا ترى أن الكواكب والشموس والأحجار والمعادن كلها لا تلد المثل كما يلد الإنسان والحيوان. وذلك لأن هذه العناصر المركبة منها تلك العوالم موضوعة للتحليل والتركيب، فهي جعلت أصولاً للأحياء تبرأت عما يتصف به الحيوان من توليد المثل، فالحجر لا يلد حجراً. والأرض لا تلد أرضاً مثلها. وكذا السماء والهواء والماء. فإذا كانت هذه التي جعلت أصول الأشياء تبرأت عن الولد فكيف يلد مبدعها! ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ﴾ في باطلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ في دنياهم ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ وهو القيامة ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ أي: وهو الذي هو في السماء معبود وفي الأرض معبود لا إله إلا هو، وإنما قلنا: «هو في السماء» لأجل صناعة الإعراب. وقلنا: «معبود» بدل «إله» ليكون مشتقاً يتعلق الظرف به ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ في إبداعه وصنعه في السماوات ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بجميع النتائج والمقدمات، والأسباب والمسببات، بحيث تخللت الحكمة التي قرنت بالعلم كل رطب ويابس وجليل وحقير، وهذا هو الذي يبرهن أنه المستحق للعبادة في السماوات وفي الأرض، لأن من يشاهد إتقان الحكمة فيهما يجد نظاماً واحداً وحكمة متسقة. هذا معنى الآية.

ولما كان الناظر في علم الطبيعة والفلك وقد درس علوم الرياضيات ونظر في هذا النظام يدهش لما يجد من العجائب والإتقان والصنع البديع، ويحار لبه من تلك الحكم التي لا نهاية لها في أصغره كما يراه في جلائل المخلوقات؛ أردفه بقوله: ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ والتعبير بـ« تبارك » لا يقوم مقامه تعبير في اللغة حتى يؤدي ما يثور في نفوس الحكماء والعلماء من مدهشات هذه الدنيا وغرائبها، بحيث يرى العاقل في أدق الأشياء بدائع تحير العقول، مثلاً ترى الملح الذي نأكله مم ركب؟ ركب من عنصرين أحدهما عبارة عن مادة إذا وضعت في الماء التهب الماء فصار ناراً، والعنصر الآخر سم مهلك قاتل، فيا عجباً! عنصران: أحدهما نار والآخر سم، لا نعيش في الدنيا إلا بتعاطي المركب منهما صباحاً ومساء، ولو نظر الحكيم الدارس علم الحيوان في قطعة صغيرة من جناح الناموسة لاطلع على تفاصيل ودقائق وأوردة وشرايين، ولرأى في إطارها ما يشبه الريش محيطاً به، وهكذا كشف العلماء بما نظروا بالمناظير المعظمة غرائب ينطق عندها العاقل قائلاً: ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾.

حيوان ذري يدير دولاباً

قد اطلعت بواسطة المنظار المعظم عند الأستاذ شوقي بك بكير المدارس بمدرسة الزراعة بحلوان على بركة ماء يبلغ عمقها في النظر عشرة أمتار، وفيها حيوانات كثيرة، أصف واحداً منها بأنه يحمل عجلة وهو يديرها في لجج الماء الغزير لتحصيل رزقه، ولعلك تقول: وما هذا البركة؟ أقول لك: إنه قد بل الزجاجة برطوبة من بركة هناك عنده، فهذه الرطوبة لما وضعت تحت المنظار ظهرت هكذا، وفيها تلك الحيوانات والنباتات والآلة دائرة لتحصيل الرزق، مع أن هذا الحيوان ودولابه الدائر لو اجتمع هو وآلاف مثله لم تره أعيننا، فضلاً عن عجلته أو دولابه. هذه المعاني وأمثالها هي التي يحملها قوله تعالى: ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ فهذا مما بينهما.

واعلم أن العقول الإنسانية تبقى راكدة حتى تحركها أمثال تلك العلوم. وإنهاض القلوب على قسمين: قسم بما قلناه من أمثال تلك العلوم إذا قرئ على الوجه الذي قررناه. وقسم بظهور أصحاب العقول الكبيرة الذين يحملون الشعوب على انتهاج خطة الكمال، وقد آن أوان ظهور الأمرين معاً في أمة الإسلام، فسيظهر أهل العقول الكبيرة ومعهم تلك الحكم الغالية، وهذا هو الذي يديم الأمم ويرقيها. ولما كانت هذه العجائب لا يعلمها إلا الله وحده، والناس لا يعلمون إلا قليلاً مع أنها بين أيديهم كانت الساعة أولى أن يجهلوها، فأعقبه بما يدل على ذلك فقال: ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ التي تقوم القيامة فيها ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء. ولما كان ذلك اليوم يكون فيه الحساب والشفاعة قال: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ ﴾ من معبوداتهم كالأصنام والملائكة والمسيح ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾بكلمة التوحيد ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله ربهم حقاً ويعتقدون ذلك، فهؤلاء هم الذين يملكون الشفاعة كالملائكة والمسيح، لأن الشفاعة على مقدار وصول الآثار العلمية والدينية، وكل من وصله علم المسيح قبل النسخ، وهكذا المؤمنون من جميع الأمم الذين لم تنسخ دياناتهم يشفع لهم أنبياؤهم وعلماؤهم وشهداؤهم كما في الحديث، والملائكة من باب أولى لأنهم

الواسطة ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ أي: المشركين ﴿ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ لا الأصنام ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف أو من أين يصرفون عن التوحيد وهذا إقرارهم، ثم عطف لفظ «قيله» من: ﴿ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ على الساعة، أي: وعند الله علم الساعة وعلم قول، ويقول محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ يَـٰرَبِّ ﴾ الخ، وقرئ مجروراً ومنصوباً، وهو في الثاني عطف على محل الساعة، لأن إضافة العلم للساعة من إضافة المصدر لمفعوله، فمحلها نصب، فلما شكا صلى الله عليه وسلم إلى ربه عدم إيمانهم أجابه الله قائلاً: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ فأعرض عن دعوتهم وأنت آيس من إيمانهم ﴿ وَقُلْ ﴾ لهم ﴿ سَلَـٰمٌ ﴾ أي: متاركة، فلا تدع عليهم بالعذاب ولا تدعهم للدين ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة كفرهم وتنصر عليهم. انتهى التفسير اللفظي.

في هذه السورة سبع لطائف

(١) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[الآية: ٣] مع قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[الآية: ٤٤] وقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا ﴾[الآية: ٤] الخ.

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الآية: ٩] إلى قوله: ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾[الآية: ١٤] مع قوله: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الآية: ٨٢] إلى قوله: ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[الآية: ٨٧].

(٣) وفي قوله: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾[الآية: ٢٢] الخ.

(٤) وفي قوله: ﴿ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾[الآية: ٣٠] مع قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾[الآية: ٤٩]. وفي قوله: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[الآية: ٣١] مع قوله: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾[الآية: ٥٣] وقوله: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الآية: ٥١].

(٥) وفي قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾[الآية: ٣٨] مع قوله: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[الآية: ٦٧].

(٦) وفي قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾[الآية: ٦١].

(٧) وفي قوله: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾[الآية: ٦٥].

اللطيفة الأولى والثانية

قد علمت فيما مضى من السور أن ﴿ حمٓ ﴾ تشير في هذه السور إلى الحمد، وأن الحمد هو مناط العلوم كلها والحكمة، فأول هذه الأمة الإسلامية حمد، وآخرها حمد، وفي صلاتها حمد، وفي أكلها حمد، وفي لبسها حمد، وفي سفرها حمد، وفي جنتها حمد، يقولون: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾[فاطر: ٣٤]، وأيضاً على لسان الملائكة حمد لأنهم يسبحون بحمد ربهم، والحمد يكون على النعم، والنعم لا يحمد عليها إلا إذا عرفت. فرجع الأمر إلى العلوم وعجائب الصنع والحكمة في السماوات والأرض.

أما علوم اللغة من النحو والصرف والمعاني وأمثالها فما هي إلا آيات. وأما علوم الفقه ومقدماتها كالأصول وما يلحقها من علوم الجدل فإنّما هي للقضاء وحفظ نظام الدولة الظاهري.
أما امتلاء العقول بالحكمة وإظهار رجال عظماء في أمة الإسلام وحفظ البلاد من تألب الأمم عليها ورفدها بالخيرات والثمرات والنعم؛ فذلك لن يكون إلا بعلم السماوات والأرض وبعلم الكيمياء والنبات والحيوان والتشريح وطبقات الأرض والهواء والبحار، ألا تراه ابتدأ السورة قائلاً: ﴿ حمٓ ﴾ مشيراً للحمد، ثم أعقبه بذكر القرآن العربي لأنه الدليل على ما يجب على الناس، ثم أبان منزلته في علوه عنده تعالى وحكمته، فهي أعلى المنزلة وهو موسوم بالحكمة. ومن الحكمة ما ذكره في اللطيفة الثانية من شهادة الفطر بأن الله خالق السماوات والأرض صاحب العزة والعلم الذي مهد الأرض وجعل فيها السبل وأنزل الماء من السماء فأخرج به النبات والأنعام وجعل السفن، وأيضاً ذكر أنه معبود في السماوات والأرض ورب السماوات والأرض ورب العرش، كل ذلك مناط الحمد المرموز له بلفظ: ﴿ حمٓ ﴾، فالحمد لله رب العالمين.

التربية هنا أضيفت إلى السماوات والأرض وأضيفت إلى العرش، فيرجع مدار إسعاد أمة الإسلام إلى معرفة العوالم كلها وتربية الله لها، وهذا هو الذي بيناه في سورة «الفاتحة» فارجع إليه، فإنها أشارت لمجامع العلوم، وكأن سور آل حم جاءت مفصلات للحمد المذكور في «الفاتحة».
وقد جعلت آل حم رياض القرآن، ومعلوم عند أكابر الحكماء من أمتنا الإسلامية أن رياض الجنة العلوم، فالفاتحة بها تفتح أبواب الجنات وهي العلوم عند الحكماء في الإسلام، وتفتح أبواب الجنات الحسية عند العامة، فليس يعقل جنات العلم إلا الذين أدركوها في هذه الدنيا، فهؤلاء يتمنون جنات العلوم ولا تهمهم الجنات المحسوسة، والعامة وصغار العلماء لا ينظرون إلى الجنة المحسوسة، ففي هذه السورة أشير إلى مجامع الحمد بالآيات التي ذكر فيها السماوات والأرض، وأضيف الرب إلى العرش تارة وإليهما تارة أخرى، وكذلك شهدت الفطر بأن الله خالق ذلك كله، وهذا القول منزل للأمة الإسلامية كلها عربيها وعجميها، إنّما الذي يدهش العقول ويحير الألباب أن أبناء العرب اليوم مسؤولون أمام الله وهم نائمون.

يا أبناء العرب، يا من أنتم في شمال أفريقيا في تونس والجزائر ومراكش ومصر والشام والعراق واليمن والحجاز وغيرها، أأنتم نيام، ألا تنظرون، ألا تفكرون، اسمعوا كلام ربكم، يقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[يوسف: ٢]، ووصف هذا القرآن بأنه عالي المنزلة، حكيم النظم والمعنى، ثم في نفس هذه السورة قال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[الآية: ٤٤]، وهذا أمر عظيم، فأبناء العرب اليوم مسؤولون عن هذا القرآن وحقه ونشره بين الأمم، إنكم يا أبناء العرب لا تقدرون أن تنشروا هذا القرآن إلا إذا كنتم أنتم للعلوم دارسين، وللحكمة عاقلين، حتى إذا نشرتموها نشرتم ما يشير إليه من العلوم، وليس معنى هذا أنكم تدرسون كل علم وكل فن، كلا. بل أقول: إن كل من اطلع على ما كتبته في هذا التفسير وقرأ بعضه بنظام في جميع القرآن فقد أدرك كيف يدعو إلى القرآن، إن الله يا أبناء العرب سائلكم فشمروا عن ساعد الجد، يا أبناء العرب تمم عن هذا

القرآن بما كان لكم من الصولة والدولة، وقام بنصره فريق من أمة العجم جزاهم الله خيراً. ولكن أنتم أصل اللغة، فإذا نشرتم القرآن وكنتم عالمين بالحكمة انقادت لكم الأمم انقياداً أدبياً، والأمم اليوم لا تعرف إلا الحجة، فلتكن لكم جمعيات منظمة تدرس نظام هذه الدنيا ومقاصد القرآن مع بعض الإلمام ببعض اللغات.

يا أبناء العرب، إن أهل أوروبا يريدون منكم نشر دينكم. يا أبناء العرب، أقول لكم ذلك عن علم، فإني سمعت «اللورد هدلي» الإنجليزي لما حضر إلى الجامع الأزهر وهو يخطب يقول: إن ثلاثة أرباع الأمة الإنجليزية اليوم يريدون أن يسلموا. وما منعهم إلا أنهم لا يجدون قوة علمية مع هذا اللورد ومن معه تقوم بنشر حقائق دين الإسلام ويكونون قوة يحتج بها من أراد اعتناق الدين أمام آبائه وإخوته وأصحابه»، فأينما ولى الأوروبي وجهه لا يجد عربياً واحداً ينصر هذا الدين ويقيم الحجة ويعلم الدين هناك.

يا أبناء العرب. هذا زمان مجدكم. يا أبناء العرب، إن ربكم يقول: ﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]. أما نبينا صلى الله عليه وسلم الآن فليس بمسؤول لأنه بلغ، ونحن الآن المسؤولون، نسأل بين يدي الله تعالى، إن الأمم سئمت تلك الديانات الباردة والتي فترت، ودينكم هو الذي يليق بالعصر الحاضر.

فإذا أعرضتم عن نشره فاعلموا أن الله لكم بالمرصاد، فالنار تحت الأجل في باطن، والنار قد ظهرت في الأعمال الحربية في أوروبا، وأصبحت الأمم المقصرة في العلوم الواجبات تحت رحمة أصحاب النار الذين يرسلونها من طياراتهم، فهبوا من رقدتكم واقرؤوا العلوم كما أوضحته في هذا التفسير. ثم لتكونوا شهداء على الناس، ولتكونوا حزب الله، لتكونوا ناصري العلم والحكمة، لتقوموا بتمدين النوع الإنساني بعد أن ترتقوا، ليس في الأرض اليوم شعب يقدر أن يكون بهذا غير العرب. العرب قاموا بدورهم أيام القرون الأولى ولكن دورهم الحالي أهم وأعظم، دورهم الحالي قراءة العلوم كلها ونشر القرآن بحكمته هو الذي يفهم الأمم أن العلوم المنتشرة في الدنيا يطلبها القرآن.

قولوا يا أبناء العرب للأمم: هذا القرآن نزل بلغتنا ونحن نحفظه وتركنا العلوم وربنا الذي هو ربكم ورب كل شيء ألهمكم أن تستخرجوا العلوم من كنوزها في الأرض وفي السماوات، فإذن هو أنزل إلينا لفظه وألهمكم ما يتضمنه من المعاني، إن ربنا عدل حتى لا نقول نحن سادات العالم بالعلم والدين، وحتى لا تقولوا أنتم نحن سادات العالم بالأمرين، فأعطانا ديناً حقاً، وأعطاكم سره، فعندنا لفظه وعندكم معناه، ونحن اليوم نقرؤه عليكم ونبين مواضع علومكم منه، وهي تتخلل كل سورة وكل آية، بل الحروف الهجائية في أوائله تشير إلى مجامع علومكم، فالسنا نفتخر عليكم ولستم تفتخرون علينا، فإذا قلنا: هو ديننا نزل بلساننا؛ تقولون أنتم: ولكن الله أظهر أسراره على أيدينا، وقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل: ٩٣] يشير إلى الآيات التي ظهرت على أيدينا وقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] كذلك، فإذن أنتم حملتم لفظه وبعض معانيه، ونحن قرأنا ما هو مقصوده ومغزاه، والله هو الذي أحوج أهل الشرق

لأهل الغرب كما أحوج أهل الغرب لأهل الشرق، فهؤلاء بدينهم وهؤلاء بعلمهم، وهذا مما يشير له الحديث: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع»، فنحن المبلغون وأنتم المبلغون. والله أراد أن نتعارف وبمثل هذا يتم التعارف، فنحن معاشر الأوروباويين أخذ آباؤنا العلم عن آبائكم، وآباؤكم أخذوا العلم عن أمم أخرى، ونحن دخلنا العلوم من أبوابها وأظهرناها فقرأتموها، فلنا الفضل في حفظها وارتقائها، ولكم الفضل في حفظها سابقاً وفي حفظ الدين الإسلامي سابقاً ولاحقاً. هذا هو الزمان الذي يقال فيه هذه المحاورات، والله هو الولي الحميد.

واعلم أن هذا الأسلوب من الدعوة هو الذي سينشر في مستقبل الزمان، وهو بعض الذي يقصد من قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[التوبة: ٣٣]، وهذا ظهور حجة وبيان، وقد ظهر كثير من ذلك أيام الحروب الصليبية، فإن أهل أوروبا كانوا كالوحوش جهلة ذلك التاريخ، ثم أخذوا في الرقي شيئاً فشيئاً، ولما جاءت الحروب الصليبية خلعوا لباس الجهالة ولبسوا لباس الحكمة، وأذكر لك من ذلك:

(١) إن البابا كان معتبراً عندهم كالقطب عند المسلمين. وكان له الملك السياسي في الأرض التي تحت سلطته، وقد ملك أهل إيطاليا سنة ٧٢٦ ميلادية الموافقة سنة ١٠٨ هجرية البابا عليهم، فجعلوه رئيس النصرانية، ثم توسع أتباعه في ذلك قرناً بعد قرن حتى صاروا يولون من يشاؤون ويعزلون من يشاؤون من ملوك أوروبا.

(٢) وكان لكل ملك تاج ولهم ثلاثة تيجان.

(٣) وكانوا إذا ركبوا يمسك لهم الركاب ملوكهم.

(٤) وإذا أمروا بمحاربة أمة لا يخالفهم أحد.

(٥) ويحرقون من خالفهم بالنار وهو حي.

(٦) وكان البابا مرة ألزم أمبراطور ألمانيا أن يقف حافياً ثلاثة أيام في فصل الشتاء أمام باب قصره ليطلب منه الغفران.

(٧) ورفس البابا مرة برجله تاج ملك جرميا حيث كان جاثياً أمامه يطلب الغفران.

وبهذه الأعمال أخذت سطوة البابا تنحط شيئاً فشيئاً إلى سنة ١٢٨٨ هجرية، فدخل الإيطاليون عاصمة مملكة البابا وأخذوها منه وأبقوه رئيساً على الكاثوليك ومقره في الكنيسة الرومية. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى والثانية، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾

هذه الآية وأمثالها كثير في القرآن قد تقدم القول عليها في غير ما موضع. فإن النوع الإنساني لكونه في هذه الأرض التي تعتبر أنها في الطبقة المتأخرة من العوالم ليس كاملاً كل الكمال، فهو في عالم متأخر يعاشر الحيوان الذي لا رأي له، بل يسير بما فطره الله عليه، فأدنى الإنسان قريب من الحيوان، قل فيه المفكرون الذين يجتازون تلك الأسوار المنيعة، والحصون الشاهقة، والأشواك الشائكة، والطرق

الوعرة، والبحار الواسعة، والجبال الشاهقة الفاصلة بينه وبين التفكير. إن الناس خلقوا بين أوهام وآراء تقف أمامهم سداً وحائلاً أشد مما ذكرناه، فإذا ما أنار الله بصائر الناس هدموا تلك الحصون، وأزالوا تلك الجبال، وكسروا تلك الحوائل، وعبروا الأنهار، ووصلوا إلى الحقائق سالمين، وكثير منهم يهلكون أثناء الطريق لعدم قدرتهم على تلك المشاق العظيمة.

هذا كله من التقليد الذي ملك مشاعر هذا الإنسان الذي يعيش بالتقليد ويموت على التقليد، بل جميع الديانات تقليد. فالمسلم والوثني والنصراني كلهم مقلدون، متبعون لا مبتدعون، والله أظهر قهره للإنسان بهذه الأحوال ليفكر المفكرون، ويعتبر المعتبرون، ويخرج في كل أمة مجتهدون عاقلون، وقوله تعالى في هذا المقام: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾[الزخرف: ٢٤] فتح باب للنظر والعلم، إن الأمة الإسلامية في الأعصر الأخيرة غفلت عن هذا النور، فهم أمروا بهذه الآية أن يتبعوا ما هو أهدى وما هو أحسن، كما في آية أخرى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾[الزمر: ١٨]، فنحن مأمورون باتباع الأحسن وباتباع الأهدى في كل زمان، هذه فتح باب للنظر في كل صناعة وكل علم، فلندرس طرق البحار والهواء والحرب والسلم والسياسة ونتبع ما هو أسلم لنا، هذا هو الدين هذا هو القرآن، وما سواه ضلال. تم الكلام على اللطيفة الثالثة.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

مع قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾

وقوله: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

مع قوله: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾

الناظر في هذه السورة يرى أمر القصص واضحاً، فإن نبأ موسى عليه السلام فيه مسائل كثيرة نذكر هنا ما يناسب المقام. إنه تعالى ذكر قول مشركي مكة: هذا سحر، وأتى من قصص موسى عليه السلام بما يناسبه فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ﴾[الزخرف: ٤٩]، وأيضاً هزم الله فرعون ونصر موسى فهكذا محمد صلى الله عليه وسلم يكون مثله، وقد تم ذلك فإنهم قالوا: ساحر، كما قال قوم فرعون لموسى، ثم نصر النبي صلى الله عليه وسلم كما نصر موسى، وأيضاً قال مشركو مكة: إن الأولى بالنبوة الرجل العظيم في المال والجاه، فهكذا قال فرعون: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾[الزخرف: ٥١]، وقال أيضاً: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾[الزخرف: ٥٣] الخ، أي إن النبوة إنّما تكون لمن أعطي الملك وعزة الحياة الدنيا، وكانت نتيجة ذلك أن نصر موسى، هكذا يا محمد سيكون شأنك وقد تم ذلك.

واعلم أن هذا المقام يفتح لك باب التفكر في قصص القرآن. ويدلنا أن هذا القصص غير مقصود لذاته فيؤتى منه بالشواهد التي تكون تسلية للنبي وللمؤمنين وحكمة، وهذا يدلنا أن التواريخ ليست مقصودة لذاتها، بل يراد بها الحكمة والعلم وانتهاج الخطة المثلى. فلنرجع إلى قصص القرآن ولنفكر في المقصود منه لا في أصل القصة وحقائقها، فإن ذلك ليس مقامه بل مقامه الاعتبار والحكمة والنتائج وهذا من غرائب الحكمة والعلم. فالحكمة في ذلك أن لا يدرس التاريخ إلا للنتائج ولا يترك

سبهللاً، بلا تنظيم دروسه، وتتخذ نتائجه مناراً تهتدي به الأمة الإسلامية، فليقرأ المسلمون تاريخهم، وليأتوا بمقاصده الحكيمة، والله حكيم عليم. انتهت اللطيفة الرابعة.

اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾

وقوله: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

في هذه الآيات أصول المحبات والعداوات، إن المحبة لا تكون إلا بأسباب، ولا محبة بلا سبب، فمن قال: أنا أحب فلان؛ ظاناً أنه لا سبب له فهو جاهل، بل الحب حبان: حب في الله وحب في غير الله، فأما الحب الذي هو في الله فهو المبني على العلم والطاعات والحكمة، ولذلك ترى الذين استووا في أخلاق واحدة وعلوم متحدة وعقائد صادقة تكون بينهم المودة والمحبة على مقدار تكامل هذه الصفات فيهم، وكلما تباعدت الصفات تقاصرت المحبة، حتى إذا ما تنافرت أغلبها حصل التنافر العظيم، فمن كانت مودّاتهم ترجع إلى الطاعات فحبهم في الله، ومن كانت مودّاتهم على الشرور كالقتلة والفسقة فهي لغير الله، ومستحيل أن تكون محبة بلا سبب، فإذا قال امرؤ: أنا أحبك لله؛ وظن أنه لا سبب له فهو مخطئ، وعلى ذلك إذا أحب الإنسان أباه وأستاذه وتلميذه والصانع الذي صنع له حذاءه؛ فكل هذا الحب في الله، لأن الأسباب التي أوجبت الحب لا معصية فيها، لأنها إما مباحة، وإما واجبة، أو مندوبة.

نتائج تلك المحبات

وتكون نتائج تلك المحبات بقاء ما كان أصله الطاعة وانحلال ما كان أصله المعصية، وبيانه أنك ترى القتلة والفسقة والذين يشربون الخمور وأمثالهم يجتمعون ويتحابون، فإذا وقفوا أمام القضاء أقر كل منهم على صاحبه بقتل أو بسرقة، فذهبت تلك المودات، وضاعت تلك الصداقات، فهذا الذي نراه في الدنيا هو بعينه ما يرى يوم القيامة وبعد الموت، فإن من أضل جاهلاً يعرف بعد الموت أن ضلاله من إضلال قرينه فيكرهه يوم لا ينفع ذلك ولا الندم على ما حصل. فأما المتقون الذين كانوا على الصلاح وعلم الحقائق فإنهم بعد الموت لم يروا ما يناقض مودتهم ومحبتهم. فتزيد الألفة الجامعة كما تهدمت الألفة الفاسدة. هذا معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]. انتهت اللطيفة الخامسة.

اللطيفة السادسة: في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾

تقدم أنك قرأت أن الضمير يرجع للقرآن لأنه مشتمل على بيانها، فهو مبين لأمر الساعة، وهذا الرأي على غير ما قال به جمهور المفسرين، فإنهم قالوا: إن الضمير يرجع لعيسى عليه السلام، وفي هذا الاحتمال وجهان:

الأول أن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان ونزوله يعلم به قرب الساعة، وقرئ: «علم» كقمر، أي: علامة على قرب الساعة.

الثاني: أن إحياءه الموتى بإذن الله دليل على أن الله قادر أن يحيي الموتى يوم القيامة.

فهاهنا يكون الوجه الأول والوجه الأخير لا دليل فيهما على نزول عيسى آخر الزمان. والوجه الثاني هو الذي يدل. ولذلك ترى التفتازاني وبعض العلماء لم يجعلوا في الآية دليلاً على نزول عيسى عليه السلام.

إذا عرفت ما ذكره العلماء في القرآن فهل لك أن تسمع الأحاديث الواردة في الصحيحين في أمر عيسى عليه السلام.

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد». وفي رواية أبي داود قال: «ليس بيني وبين عيسى نبي وإنه نازل فيكم» الخ. وفي حديث الشيخين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم وإمامكم منكم».

وهناك روايات أخرى ليست في الصحيحين مثل: إنه يقتل الدجال، وإنه يأتي بيت المقدس والناس في صلاة العصر فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى إلا من آمن.

هذا ما جاء في الروايات وقد علمت ما صح منها فأما ما عداها فليست عن الشيخين، ومحصل الكلام في أمر عيسى عليه السلام أن القرآن لم ينص عليه فإن في الدليل احتمالاً. وأتى في الصحيحين ما سمعته، وما زاد فليس فيهما.

الكلام على المهدي

واعلم أن الكلام على المسيح يستدعي الكلام على المهدي، وخير من كتب في أمره هو العلامة ابن خلدون، لقد عقد فصلاً لهذا الموضوع، هكذا: «فصل في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك». وقد ذكر في هذا الفصل الأحاديث الواردة في المهدي ونزوله في آخر الزمان، وآراء المتصوفة وكبار الشيوخ ومحص الموضوع تمحيصاً.

الأحاديث المروية

ذكر الأحاديث التي رواها الترمذي وأبو داود والبزار وابن ماجة والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي، وذكر أنهم أسندوا تلك الأحاديث إلى الصحابة رضي الله عنهم، مثل: علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري، وأم حبيبة، وأم سلمة، وقرة ابن إياس، وعلي الهلالي وعبد الله بن الحارث. وقال: إن تلك الأسانيد عارضها قوم بالإنكار، والمعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل، ومن جملة الأحاديث ما رواه أبو بكر الإسكاف: «من كذب بالمهدي فقد كفر، ومن كذب بالدجال فقد كفر». وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك. ويقولون: إن أبا بكر الإسكاف عندهم متهم وضاع للأحاديث.

وهناك ذكر الأحاديث الكثيرة مثل أن المهدي يكون اسمه على اسم النبي صلى الله عليه وسلم واسم أبيه على اسم أبيه صلى الله عليه وسلم، وقد أطال في ذلك واستوفى المقام، وكنت أود الإطالة

بذكره ولكن المقام لا يحتمل ذلك في مثل هذا التفسير. ثم قال: فهذه جملة الأحاديث التي أخرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان، وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل، والأقل منه، وقد تقدم الكلام في هذا الموضوع مطولاً في أول سورة «الحج» فارجع إليه إن شئت.

آراء الصوفية وكلامهم في أمر المهدي

ذكر العلامة ابن خلدون في هذا المقام أن السلف الصالح من الصوفية ما كانوا يتعرضون لمثل هذه الأمور، فلا يذكرون المهدي ولا خروجه وكانوا يحرصون على المجاهدة ونتائجها، وكان الإمامية والرافضة من الشيعة يرجع كلامهم إلى التبري من الشيخين أولاً ثم حدث فيهم القول بالإمام المعصوم وألفوا كثيراً في ذلك، وجاء الإسماعيلية منهم فادعوا ألوهية الإمام بنوع من الحلول، وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة على طريق التناسخ، وآخرون ينتظرون مجيء من يقطع بموته منهم، وآخرون منتظرون عود الأمر من أهل البيت مستدلين بتلك الأحاديث المطعون في أسانيدها، ثم ظهر عند المتأخرين منهم الكلام في الكشف ومعرفة ما وراء الحس والقول بالحلول والوحدة، فشاركوا الإمامية والرافضة القائلين بألوهية الأئمة وحلول الإله فيهم، وهكذا القول بالقطب والأبدال، وهو يحاكي مذهب الرافضة في الإمام والنقباء، وأشربوا أقوال الشيعة، وظهر في كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة مثل ذلك في الفاطمي المنتظر. كل ذلك مبني على أصول واهية ومن هؤلاء ابن سبعين.

وقال ابن عربي فيما نقل ابن أبي واطيل عنه: وهذا الإمام المنتظر من أهل البيت من ولد فاطمة. وظهوره يكون بعد مضي ستمائة وثلاث وثمانين سنة، ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر أخذوا يؤولون ولم يتم شيء.

قال: وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة من اليوم المحمدي الذي ابتداؤه وفاته صلى الله عليه وسلم ونهايته ألف سنة.

وذكر الكندي أن هذا الولي يجدد الإسلام، ويظهر العدل؛ ويفتح الأندلس، ويصل إلى رومية فيفتحها، ويسير إلى المشرق فيفتحه، ويفتح القسطنطينية، ويصير له ملك الأرض، فيقوى المسلمون. ويعلو الإسلام، وحدد لذلك سنة سبعمائة وثلاث وأربعين، ثم يعقب ذلك سبع سنين للدجال. ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر، فيصلح الدنيا، وتمشي الشاة مع الذئب. وأطال في ذلك رحمه الله وأنار قبره وأنعم عليه بالنظر لوجهه الكريم.

إنني حينما أقرأ أمثال هذا في كتب أسلافنا يأخذني الأسف على هذه الأمة المسكينة التي كثر فيها الخلط والخبط والتحريف، حتى إن أكبر العلماء يضل في مثل هذه الأمور، ومن العجيب أنه ينقل عن متصوفة عصره ما نسمعه من متصوفة عصرنا، وكل له خبط وخلط وأماني وأضاليل.

وقال إنه سمع في عصره عن المسمى أبا يعقوب البادسي كبير الأولياء بالمغرب في أول المائة الثامنة أن ظهور المهدي قريب. فالأولون والآخرون يقولون وينتظرون وتذهب الأعمار ولا يحصلون على طائل.

رأي العلامة ابن خلدون

يقول: إن الملك لا يقوم إلا بشوكة وعصبية. يقول: وعصبية الفاطميين في زمانه قد تلاشت. وهكذا قريش أجمع. وظهرت أمم غلبت عصبيتها عصبية قريش، ثم قال: إن بالحجاز في مكة وينبع بالمدينة بني حسن وبني حسين وبني جعفر. قال: فإذا صح ظهور مهدي فليكن منهم. وملخص كلامه أنه لا يظهر إلا في عصبية. وأما مجرد النسبة إلى آل البيت فلا يكفي.

وقد ذكر جماعة ممن قاموا بدعوة المهدوية ولا عصبية لهم فقتلوا. مثال ذلك أنه قام رجل ينتحل التصوف وادعى المهدوية برباط ماسة لأول المائة الثامنة، فاتبعه خلق كثير من السوس، فدس عليه رؤساء المصامدة من قتله بياتاً وانحل أمره. وكذلك ظهر قبله بسنين قليلة رجل يسمى العباس وادعى أنه الفاطمي واتبعه قوم، ودخل مدينة فاس عنوة وأحرق أسواقها، ودخل غيرها فقتل في المزمة غيلة وانحل أمره.

فكرة عامة في مسألة عيسى عليه السلام والمهدي

قد رأيت أن المهدي أحاديثه مطعون بها، وليس له في القرآن ذكر. وقد ظهر بعد أيام العلامة ابن خلدون الشيخ السنوسي، ويقول أتباعه إنه المهدي المنتظر. وهكذا ظهر في السودان المهدي السوداني وهو الذي تركته دولة إنكلترا حتى استفحل أمر التعايش بعده. وانقضت عليه بعساكر بلادنا وعساكرها وهي تحكم بلادنا المصرية. فأزالت الملك وانتهى أمر المهدي أحمد. وقد ظهر في الإسلام بعد ابن خلدون أيضاً من قال إنه هو عيسى. وهو بهاء الله في بلاد الفرس، وأتباعه يسمون البهائية، ولهم انتشار في أوروبا وأمريكا.

وظهر في زماننا رجل في الهند جعل نفسه عيسى المنتظر. ويقال إنه نسخ الجهاد وأقر لإنكلترا بأن تحكم المسلمين وهو بذلك مستبشر فرح وهو الملقب بالقباداني.

فيا ليت شعري ماذا ينقذ الإسلام من هذه المصائب التي حلت به. خرج المهديون وقد كثروا، فمنهم من قتل ومنهم من بقي ملكه سنين ومئات السنين ثم ذهبت دولهم، وخرج الذين يقولون إنهم هم نفس عيسى الموعود به في القرآن احتمالاً وفي الحديث صريحاً، والأمة في ذلك لا تعرف كيف يكون المخرج.

وإذا كان في الإسلام الآن «عيسيان» ولكل عيسى منهم أتباع فربما جاء بعدهم غيرهم وهكذا. إن هذا تفريق لدين الإسلام وإضعاف له، فالعامة يخرفون بالمهدي قديماً وحديثاً، ويرون من يقول: أنا عيسى، فيحار أمر الناس في ذلك، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

رأي المؤلف

اعلم أن الأمة الإسلامية لا مخرج لها من الجهالة العمياء والذلة إلا بدراسة العلوم والوقوف على الحقائق. ليكن فيها اختصاصيون في العلوم الطبيعية والرياضية و التاريخ والحديث والتصوف، وهكذا حتى يقف الخواص على حقائق الدنيا. وإذن يسهل عليهم معرفة الحقائق، أما رأيي في المهدي فواضح. فقد قام بالأمر العلامة ابن خلدون وأظهر الحقيقة ناصعة.

وأما الكلام في عيسى عليه السلام: فاعلم أنه أقوى من المهدي لأنه جاء في الصحيحين. وجاء أنه يجعل الدنيا دار سلام، ويكون على دين المسيح الخ. وملخص ذلك أن هذه الأرض التي نسكنها تتبدل حالها أجمل مما نحن فيه. وإذا نظرنا نظرة صادقة لهذا الموضوع؛ أيقنا أن ذلك لا يتم في يوم أو سنة أو قرن، لأن انقلاب الإنسانية من هذه الحال إلى تلك الحال يحتاج لقرون. فإذا عاش عليه السلام في الأرض سبع سنين أو أكثر أو أقل كما في الروايات الواردة؛ فهذه المدة لا تقلب الأمم، لأن هذه ليست سنة الله، وهو عليه السلام نزل إلى الأرض قديماً فرجع الناس لحالهم، بل أرادوا صلبه فشبه لهم. وجاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأرض وأمر الدنيا بعده معلوم. فإذن نزول المسيح مرة أخرى لا يكون إلا بعد انتقال الأمم من هذه الحال تدريجاً إلى حال تصبح الأرض فيها أشبه بالفردوس، ولعل العقول إذ ذاك يكون لها شبه علم بنزوله عليه السلام: فإذا نزل تقبلته بالقبول. هذا ما يمكن أن يقال والله أعلم.

فائدة هذا الموضوع كله

هاأنت ذا قرأت الأحاديث الواردة في المسيح عليه السلام، وقد دخل في جملة الأمور الاعتقادية في الأمة وإن لم يكن صريحاً نصه في القرآن. ولكن أحاديث الشيخين لهما منزلة القبول في الأمة. وإذن نريد أن نعرف فائدة هذا الاعتقاد فنقول:

لقد علمت مما أسلفنا في هذا التفسير أن الأمة الإسلامية عليها أن تقوم بما عليها للإنسانية، فهم خير أمة أخرجت للناس، وهم شهداء الله على الناس كما أن الرسول شهيد علينا، وهذا الدين وعد الله بظهوره على جميع الأديان، فهذه وأمثالها نرجع إليها لأنها ظاهرة واضحة، وإذا ضممنا إليها أن النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ونحن معاشر أمة الإسلام في الأرض قائمون بشريعته، فنحن إذن يجب أن نكون رحمة للعالمين، وعلى هذا يكون المسلمون يوماً ما يقودون الإنسانية إلى السلام العام والإنسانية الخالصة، وتكون الأمم بسبب نشر المعارف والعلوم قد اقتربت من السلام العام، وتكون أمة الإسلام قد أصبحت صاحبة الفضل الأكبر في ذلك، إذن تسري الروح العيسوية في العالم بسبب الإسلام وظهور حقائقه الموعود بها بمثل قوله تعالى: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ومثل: ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل: ٩٣]، ومتى سرت الروح العيسوية في الأرض بسبب دين الإسلام فهناك حين يظهر المسيح يجد الأمة مستعدة للسلام العام، وسواء أنزل هو بنفسه أم كانت النفوس قد أشربت السلام فيكون ذلك رمزاً، فمثل هذا لا نتعرض له، فهو خاص بعلم الله تعالى، والذي في قدرتنا أن نقوله: على المسلمين اليوم أن يأخذوا دورهم في الرقي، وأن يكونوا دعاة الإنسانية والسلام والمودة وأن ينشروا العلوم، ويكون الإسلام ممزوجاً بما كشفه الناس في العصر الحاضر، وتكون دعوته قائمة بنفس العلوم كما سطرناه في هذا التفسير، أما أن يقوم في كل قرية رجل ويجعل له أتباعاً ويقول أنا المسيح؛ فهذا ما لا يطيقه الإسلام، وإذا كان هؤلاء الذين ظهروا كل واحد منهم هو المسيح فأين السلام في الأرض؟ وما هذا التعدد؟ مع أن عيسى واحد لا اثنان. وكيف نرجح أحدهما على الآخر؟ وأين السلام في الأرض.

فالقول العدل أن الأمة الإسلامية التابعة للمذاهب المختلفة. يجب على رؤسائها أن يوجهوا هممهم إلى تعميم التعليم وإكثار المدارس ونشر فكرة العلوم ممزوجة بالدين كما أوضحناه. ومتى تنورت الأذهان ووضحت الطرق طاحت تلك الدعاوى من النفوس، ي إننا لا نشغل أنفسنا بتكذيب أحد من مشايخ الطرق ولا العيسويين ولا المهدويين، ولكن نقول: ليقرأ أتباع هؤلاء الشيوخ العلوم فيعلمون الحقائق، وربما كان أساتذتهم هم الذين يمنعونهم العلم خيفة اطلاعهم على الحقائق فيستصغرون شأنهم، فأنا أوصي قراء هذا التفسير أن يذيعوا بين الأمة العلم والحكمة. وبذلك وحده يظهر المسلمون ويكونون خير أمة أخرجت للناس ويستعدون للروح العيسوية حتى إذا جاء أوانه فهموه فنزل فيهم. وأما مادام المسلمون على هذا المنوال فكيف ينزل المسيح في قوم جاهلين ربهم ونظامه وجماله وحكمته.

ولتنصح أيها الذكي الأمة أن تقلع عن انتظار من يأتي إليهم من المهديين، فوالله لا سعادة لأمة إلا بجدها واجتهادها. إن نفس الأنبياء لم يرسلوا إلا في أوساط تناسبهم. فليرق الشعب نفسه بالعلم والعمل والحب العام. وينتظر بعد ذلك نعم الله عليه. فليس يقلب المسيح طبائعهم بل يأتي إليهم وهم مستعدون للسلام العام. تم الكلام على اللطيفة السادسة، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة السابعة: في قوله تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾

اعلم أن النصارى بعد رفع المسيح عليه السلام مقرين بالوحدانية ولعيسى بالرسالة. ثم بعد رفعه دخلت شبه فانقسموا ثلاث طوائف: ملكانية. ونسطورية. ويعقوبية.

فالملكانية مصرحة بالتثليث فهم يقولون: الآلهة ثلاثة: المسيح. وأمه. والله. ويقولون: إن المسيح ناسوت كلي قديم. ومريم ولدت ولداً أزلياً. والله هو الأب. وعيسى هو الابن. إطلاقاً حقيقياً عندهم.

وأما النسطورية فإنهم يقولون: إن الكلمة أشرقت على جسد عيسى كإشراق الشمس على كوة أو بلور.

وأما اليعقوبية فيقولون: انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو نفس المسيح.

وإلى الملكانية الإشارة بقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣].

وإلى اليعقوبية الإشارة بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧].

ثم إن الملكانية هم المسمون الآن كاثوليكية. فأما اليعقوبية والنسطورية فهؤلاء ليسوا في أوروبا وربما يكونون في الشام ومصر والعراق والحبشة. وإنّما الذي حدث في أوروبا هم مذهب البروتستانت والكاثوليكية. والبروتستانت يقرون بالبعث. والبعث إما بالأرواح والأجساد، وإما بالأرواح فقط، خلاف بينهم. ثم إن لفظ كاثوليكية كلمة مدح لأنها كأهل السنة عندنا. ورئيس المذهب الكاثوليكي هو البابا بروما في دولة إيطاليا. فله اليوم الرئاسة الباطنية كالقطب عند المسلمين وكمشايخ الطرق، وتقدم قريباً ظلم البابا لأهل أوروبا وملوكها فانحطوا وذهبت رئاستهم. ثم إن الكاثوليكية بقوا على مذهبهم إلى القرن التاسع الهجري. فظهر منكرون للبابا بروما فصاروا يسمون المنكرين «بروتستانت» وهي كلمة أشبه بكلمة الخوارج أو المعتزلة عند المسلمين.

وملخص ذلك أن الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت هو البابا، فمن اعترف ببابا رومة فهو كاثوليكي، ومن لن يعترف به سموه بروتستانتي، فيأنف ويقول: أنا كاثوليكي. وإن كان لا يعترف برئاسة البابا، والبابا من جملة الأساقفة، ورئاسة الأساقفة ليست خاصة به، بل هي له ولأسقف الإسكندرية وأسقف القسطنطينية، فأما الكاثوليك فلا يعترفون إلا ببابا رومة، وبعض البروتستانت أيضاً لا يقر بالتثليث، لأنهم نظروا في كتب الإسلام فاعترفوا بالوحدانية، ويجعلون عيسى عبد الله عبده ورسوله، وهم مع الكاثوليك فيما بقي من العقائد.

وهناك فريق من البروتستانت باق على التثليث، ويكون الفرق بينهم وبين الكاثوليك عدم الاعتراف بالبابا وحده، ثم إن الصوم يقول البروتستانت: إنه سنة، ويقول الكاثوليك: إنه فرض، وهو مدة (٤٠) يوماً يتركون الطعام والشراب من طلوع الشمس إلى غروبها.

وأما البروتستانت وبعض الكاثوليك الذين ضعفت عقيدتهم، فهم يجوزون تناول الطعام والشراب. ولكن يمنعون اللحم كله وما تولد منه كاللبن والسمن، إلا الحوت فإنهم يأكلونه في حال الصيام ويأكلون الخبز والحلوى، وعندهم فرقة يسمونها اللاتينية، وفرقة يسمونها أهل الديانة الروسية «أورثوذكس» و ذلك لأنهم لا يعترفون بالبابا رئيساً، وهم موافقون للكاثوليك في كل شيء. وهؤلاء جميعاً يفتخرون بأنهم كاثوليك فيكذبهم أخصامهم قائلين لهم: أنتم فرقة لاتينية أو أورثوذكس.

واعلم أن الفرنسيين دخلوا دين النصارى سنة ٤٩٦ ميلادية وهم كاثوليك وبروتستانت، ومنهم من لا يقر بإله في باطنه، وكان ابتداء ملكهم سنة ٤٢٠ ميلادية، وأصل ملكهم قبل الميلاد بنحو خمسمائة سنة، ولم يتم الاستقلال فيما بين التاريخين، فحكمهم اليونان فالرومان فاستقلوا، وكانوا يعبدون الأصنام التي على صور الكواكب كالهنود.

ودولة الإنجليز التي ابتدأ ملكها قبل الميلاد بنحو خمس وخمسين سنة لم يستقلوا إلا سنة ٢٤٣ هجرية وهي سنة ٨٢٧ ميلادية ودخلوا النصرانية سنة ٥٩٦ مسيحية، وذلك قبل الهجرة بست وعشرين سنة. وفيهم الكاثوليك والبروتستانت والدهرية، وحصل بينهم وبين الفرنسيس حرب من سنة ١٣٣٧م الموافق سنة ٧٣٨ هجرية إلى سنة ١٤٥٣م الموافق سنة ٨٥٧ هجرية ويسمى حرب المائة سنة.

دولة النمسا أوستوريا: أكثرهم من التتار، ابتدأ الملك سنة ٣٣ ميلادية، والاستقلال سنة ٩٨٢ ميلادية الموافق سنة ٢٤٨ هجرية، ودخولهم النصرانية كالذين تقدموهم.

الدولة الجرمانية: ابتداء الملك سنة ٥٤ ميلادية، والاستقلال سنة ١٣١٥ ميلادية الموافق سنة ٨١٨ هجرية.

دولة المسكوف: استقلالهم التام سنة ١٦٢ ميلادية الموافق سنة ٢٤٨ هجرية، وكانوا يعبدون الأوثان ودخلوا النصرانية سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية، فهم الأمة الوحيدة التي تأخرت في دخول النصرانية إلى ذلك الزمن.

وأما بقية دول أوروبا فإن دخولها في النصرانية في أواخر القرن الخامس الميلادي، فتكون النصرانية في أوروبا الآن نحو ألف وأربعمائة سنة، ومذاهبهم الكاثوليك والبروتستانت واللاتين

والأرثوذكس. ثم الكاثوليك هي عين الملكانية، وأما النسطورية واليعقوبية فقد حذفتا من الغرب، وربما كانت في الشرق، والله أعلم. وقد تقدم ملخص هذا في سورة «آل عمران». وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة السابعة من اللطائف الخاصة، والحمد لله رب العالمين.

اللطائف العامة للسورة كلها

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ مع قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾

لأجعل الكلام على الآيتين في مقامين: المقام الأول: في غريب اللغة العربية في القرآن.

المقام الثاني: في نفس الأمة العربية. وهاك بيانهما:

الكلام على المقام الأول: في غريب اللغة العربية في القرآن

تقدم في أول سورة «حم. فصلت» الكلام على الألفاظ التي دخلت في القرآن من القبائل المختلفة ومن اللغات التي ليست عربية، كالفارسية والهندية الخ. وأريد هنا أن أذكر نبذة يسيرة في الكلام على معرفة غريبه، فقد جاء في كتاب «الإتقان في علوم القرآن» تحت العنوان التالي ما نصه:

النوع السادس والثلاثون في معرفة غريبه

أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون، منهم: أبو عبيدة وأبو عمر الزاهد وابن دريد، ومن أشهرها كتاب العزيزي، فقد أقام في تأليفه خمسة عشرة سنة يحرره هو وشيخه أبو بكر بن الأنباري. ومن أحسنها المفردات للراغب، ولأبي حيان في ذلك تأليف مختصر في كراسين. قال ابن الصلاح: وحيث رأيت في كتب التفسير، قال أهل المعاني: فالمراد به مصنفو الكتب في معنى القرآن، كالزجاج والفراء والأخفش وابن الأنباري. انتهى.

وينبغي الاعتناء به، فقد أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»، وأخرج مثله عن عمرو بن مسعود موقوفاً، وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعاً: «من قرأ القرآن فأعربه كان له بكل حرف عشرون حسنة، ومن قرأه بغير إعراب كان له بكل حرف عشر حسنات». المراد بإعرابه معرفة معاني ألفاظه، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة. وهو ما يقابل اللحن، لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها، وعلى الخائض في ذلك التثبت والرجوع إلى كتب أهل الفن وعدم الخوض بالظن، فهذه الصحابة وهم العرب العرباء وأصحاب اللغة الفصحى ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا فيها شيئاً، فأخرج أبو عبيدة في الفضائل عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾[عبس: ٣١]، فقال: أي سماء تظلني، أو أي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟ وأخرج عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾[عبس: ٣١] فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو الكلف يا عمر. وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير أنه سئل عن قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾[مريم: ١٣] فقال: سالت عنها ابن عباس فلم يجب فيها شيئاً. وأخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس. قال: لا والله لا أدري ما حناناً. وأخرج الفرياني: حدثنا إسرائيل حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس. قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعاً: غسلين، وحناناً، وأواه، والرقيم. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة. قال: قال ابن عباس: ما كنت أدري ما قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾[الأعراف: ٨٩] حتى سمعت قول بنت ذي يزن: تعال أفاتحك، تقول: أخاصمك. وأخرج من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: ما أدري ما الغسلين ولكني أظنه الزقوم.

فصل: معرفة هذا الفن للمفسر ضرورية كما سيأتي في شروط المفسر

قال في البرهان: ويحتاج الكاشف عن ذلك إلى معرفة علم اللغة أسماء وأفعالاً وحروفاً، فالحروف لقلتها تكلم النحاة عن معانيها، فيؤخذ ذلك من كتبهم، وأما الأسماء والأفعال فتؤخذ من كتب علم اللغة، وأكبرها كتاب ابن السيد، ومنها التهذيب للأزهري، والمحكم لابن سيده، والجامع للقزاز، والصحاح للجوهري، والبارع للفارابي، ومجمع البحرين للصاغاني، ومن الموضوعات في الأفعال كتاب ابن القوطية، وابن الظريف والسرقسطي، ومن أجمعها كتاب ابن القطاع. قلت: وأولى ما يرجع إليه في ذلك ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة، وهاأنا أسوق هنا ما ورد من ذلك عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة خاصة، فإنها من أصح الطرق عنه. وعليها اعتمد البخاري في صحيحه مرتباً على السور.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي (ح) وقال ابن جرير: حدثنا المثنى. قالا: حدثنا أبو صالح عبد الله ابن صالح حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] قال: يصدقون. ﴿يَعْمَهُونَ﴾[البقرة: ١٥] يتمادون. ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾[البقرة: ٢٥] من القذر والأذى. ﴿ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾[البقرة: ٤٥] المصدقين بما أنزل الله. ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾[البقرة: ٤٩] نعمة. ﴿وَفُومِهَا﴾ [البقرة: ٦١] الحنطة. ﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾[البقرة: ٧٨] أحاديث. ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾[البقرة: ٨٨] في غطاء. ﴿مَا نَنسَخْ﴾[البقرة: ١٠٦] نبدل. ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾[البقرة: ١٠٦] نتركها فلا نبدلها. ﴿مَثَابَةً﴾[البقرة: ١٢٥] يثوبون إليه ويرجعون. ﴿حَنِيفًا﴾[البقرة: ١٣٥] حاجاً. ﴿شَطْرَهُۥ﴾[البقرة: ١٤٤] نحوه. ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾[البقرة: ١٥٨] فلا حرج. ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾[البقرة: ١٦٨] عمله. ﴿أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] ذبح للطواغيت. ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾[البقرة: ١٧٧] الضيف الذي ينزل بالمسلمين. ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[البقرة: ١٨٠] مالاً. ﴿جَنَفًا﴾[البقرة: ١٨٢] إثماً. ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١٨٧] طاعة الله. ﴿لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[البقرة: ١٩٣] شرك. ﴿فَرَضَ﴾[البقرة: ١٩٧] أحرم. ﴿ٱلْعَفْوَ﴾[البقرة: ٢١٩] مالاً يتبين في أموالكم. ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾[البقرة: ٢٢٠] لأخرجكم وضيق عليكم. ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣٦] المس: الجماع، والفريضة: الصداق. ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾[البقرة: ٢٤٨] رحمة. ﴿سِنَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] نعاس. ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾[البقرة: ٢٥٥] يثقل عليه. ﴿صَفْوَانٍ﴾[البقرة: ٢٦٤] حجر صلد

ليس عليه شيء. ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾[آل عمران: ٥٥] مميتك. ﴿رِبِّيُّونَ﴾[آل عمران: ١٤٦] جموع. ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾[النساء: ٢] إثماً عظيماً. ﴿نِحْلَةً﴾[النساء: ٤] مهراً. ﴿وَٱبْتَلُوا۟﴾[النساء: ٦] اختبروا. ﴿ءَانَسْتُم﴾[النساء: ٦] عرفتم. ﴿رُشْدًا﴾[النساء: ٦] صلاحاً. ﴿كَلَٰلَةً﴾[النساء: ١٢] من لم يترك والداً ولا ولداً. ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾[النساء: ١٩] تقهروهن. ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾[النساء: ٢٤] كل ذات زوج. ﴿طَوْلًا﴾[النساء: ٢٥] سعة. ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾[النساء: ٢٥] عفائف غير زوان في السر والعلانية. ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾[النساء: ٢٥] أخلاء. ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾[النساء: ٢٥] تزوجن. ﴿ٱلْعَنَتَ﴾[النساء: ٢٥] الزنا. ﴿مَوَٰلِىَ﴾[النساء: ٣٣] عصبة. ﴿قَوَّٰمُونَ﴾[النساء: ٣٤] أمراء. ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾[النساء: ٣٤] مطيعات. ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[النساء: ٣٦] الذي بينك وبينه قرابة. ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾[النساء: ٣٦] الذي ليس بينك وبينه قرابة. ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾[النساء: ٣٦] الرفيق. ﴿فَتِيلًا﴾[النساء: ٤٩] الذي في الشق الذي في بطن النواة. ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾[النساء: ٥١] الشرك. ﴿نَقِيرًا﴾[النساء: ٥٣] النقطة التي في ظهر النواة. ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ﴾[النساء: ٥٩] أهل الفقه والدين. ﴿ثُبَاتٍ﴾[النساء: ٧١] عصباً سرايا متفرقين. ﴿مُّقِيتًا﴾[النساء: ٨٥] حفيظاً. ﴿أَرْكَسَهُم﴾[النساء: ٨٨] أوقعهم. ﴿حَصِرَتْ﴾[النساء: ٩٠] ضاقت. ﴿أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾[النساء: ٩٥] العذر. ﴿مُرَٰغَمًا﴾[النساء: ١٠٠] التحول من الأرض إلى الأرض وسعة الرزق. ﴿مَّوْقُوتًا﴾[النساء: ١٠٣] مفروضاً. ﴿تَأْلَمُونَ﴾[النساء: ١٠٤] توجعون. ﴿خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[النساء: ١١٩] دين الله. ﴿نُشُوزًا﴾[النساء: ١٢٨] بغضاً. ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾[النساء: ١٢٩] لا هي أيم ولا هي ذات زوج. ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾[النساء: ١٣٥] ألسنتكم بالشهادة. ﴿أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾[النساء: ١٣٥] عنها. ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا﴾[النساء: ١٥٦] رموها بالزنا. ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾[المائدة: ١] ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حدّ في القرآن كله. ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾[المائدة: ٢] يحملنكم. ﴿شَنَـَٔانُ﴾[المائدة: ٢] عداوة. ﴿ٱلْبِرِّ﴾[المائدة: ٢] ما أمرت به. ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٢] ما نهيت عنه. ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾[المائدة: ٣] التي تخنق فتموت. ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ [المائدة: ٣] التي تضرب بالخشب فتموت. ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾[المائدة: ٣] التي تردى من الجبل. ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾[المائدة: ٣] الشاة التي تنطحها الشاة. ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾[المائدة: ٣] ما أخذ. ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[المائدة: ٣] ذبحتم وبه روح. ﴿بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾[المائدة: ٣] القداح. ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾[المائدة: ٣] متعد. ﴿ٱلْجَوَارِحِ﴾[المائدة: ٤] الكلاب والفهود والصقور وأشباهها. ﴿مُكَلِّبِينَ﴾[المائدة: ٤] ضواري. ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[المائدة: ٥] ذبائحهم. ﴿فَٱفْرُقْ﴾[المائدة: ٢٥] افصل. ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾[المائدة: ٤١] ضلالته. ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾[المائدة: ٤٨] أميناً، القرآن أمين على كل كتاب قبله. ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة: ٤٨] سبيلاً وسنة. ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ٥٤] رحماء. ﴿مَغْلُولَةٌ﴾[المائدة: ٦٤] يعنون بخيل أمسك ما عنده، تعالى الله عن ذلك. ﴿بَحِيرَةٍ﴾[المائدة: ١٠٣] هي الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن. نظروا إلى الخامس فإن كان ذكراً ذبحوه فأكله الرجال دون النساء، وإن كان أنثى جدعوا أذنيها (وأما السائبة) فكانوا يسيبون أنعامهم لآلهتهم لا يركبون لها ظهراً، ولا يحلبون لها لبناً، ولا يجزون لها وبراً، ولا يحملون عليها شيئاً. (وأما الوصيلة) فالشاة إذا أنتجت سبعة أبطن. نظروا للسابع فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال والنساء، وإن كان أنثى وذكراً في بطن

استحيوها وقالوا وصلته أخته فحرمته علينا. وأما (الحام) فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئاً، ولا يجزون له وبراً ولا يمنعونه من حمى رعي ولا من حوض يشرب منه وإن كان الحوض لغير صاحبه. ﴿مِّدْرَارًا﴾[الأنعام:٦] بعضها يتبع بعضاً. ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٦] يتباعدون. ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟﴾[الأنعام:٤٤] تركوا: ﴿مُّبْلِسُونَ﴾[الأنعام:٤٤] آيسون. ﴿يَصْدِفُونَ﴾[الأنعام:٤٦] يعدلون. ﴿يَدْعُونَ﴾[الأنعام:٥٢] يعبدون. ﴿جَرَحْتُم﴾[الأنعام:٦٠] كسبتم من الإثم. ﴿يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام:٦١] يضيعون. ﴿شِيَعًا﴾[الأنعام:٦٥] أهواء مختلفة. ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾[الأنعام:٦٧] حقيقة. ﴿تُبْسَلَ﴾[الأنعام:٧٠] تفضح. ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾[الأنعام:٩٣] البسط الضرب. ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾[الأنعام:٩٦] ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل. ﴿حُسْبَانًا﴾ [الأنعام:٩٦] عدد الأيام والشهور والسنين. ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾[الأنعام:٩٩] قصار النخل اللاصقة عروقها بالأرض. ﴿وَخَرَقُوا۟﴾[الأنعام:١٠٠] تخرصوا. ﴿قُبُلًا﴾[الأنعام:١١١] معاينة. ﴿مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢] ضالًا فهديناه. ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾[الأنعام:١٣٥] ناحيتكم. ﴿حِجْرٌ﴾[الأنعام:١٣٨] حرام. ﴿حَمُولَةً﴾[الأنعام:١٤٢] الإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه. ﴿وَفَرْشًا﴾ [الأنعام:١٤٢] الغنم. ﴿مَّسْفُوحًا﴾[الأنعام:١٤٥] مهراقاً. ﴿مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾[الأنعام:١٤٦] ما علق بها من الشحم. ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾[الأنعام:١٤٦] المبعر. ﴿إِمْلَٰقٍ﴾[الأنعام:١٥١] الفقر. ﴿دِرَاسَتِهِمْ﴾ [الأنعام:١٥٦] تلاوتهم. ﴿صَدَفَ﴾[الأنعام:١٥٧] أعرض. ﴿مَذْءُومًا﴾[الأعراف:١٨] ملوماً. ﴿رِيشًا﴾ [الأعراف:٢٦] مالاً. ﴿حَثِيثًا﴾[الأعراف:٥٤] سريعاً. ﴿رِجْسٌ﴾[الأعراف:٧١] سخط. ﴿صِرَٰطٍ﴾ [الأعراف:٨٦] الطريق. ﴿ٱفْتَحْ﴾[الأعراف:٨٩] اقض. ﴿ءَاسَىٰ﴾[الأعراف:٩٣] أحزن. ﴿عَفَوا۟﴾ [الأعراف:٩٥] كثروا. ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[الأعراف:١٢٧] يترك عبادتك. ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾[الأعراف:١٣٣] المطر. ﴿مُتَبَّرٌ﴾[الأعراف:١٣٩] خسران. ﴿أَسِفًا﴾[الأعراف:١٥٠] هو الحزين. ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف:١٥٥] إن هو إلا عذابك. ﴿عَزَّرُوهُ﴾[الأعراف:١٥٧] حموه ووقروه. ﴿ذَرَأْنَا﴾[الأعراف:١٧٩] خلقنا. ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾[الأعراف:١٦٠] انفجرت. ﴿نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾[الأعراف:١٧١] رفعناه. ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾[الأعراف:١٨٧] لطيف بها. ﴿طَٰٓئِفٌ﴾[الأعراف:٢٠١] اللمة. ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف:٢٠٣] لولا تلقنتها. ﴿بَنَانٍ﴾[الأنفال:١٢] الأطراف. ﴿جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾[الأنفال:١٩] المدد. ﴿فُرْقَانًا﴾[الأنفال:٢٩] المخرج. ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾[الأنفال:٣٠] ليوثقوك. ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[الأنفال:٤١] يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل. ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾[الأنفال:٥٧] نكل بهم من بعدهم. ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾[الأنفال:٧٢] ميراثهم. ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾[التوبة:٣٠] يشبهون. ﴿كَآفَّةً﴾[التوبة:٣٦] جميعاً. ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟﴾[التوبة:٣٧] يشبهوا. ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾[التوبة:٥٢] فتح أو شهادة. ﴿مَغَٰرَٰتٍ﴾ [التوبة:٥٧] الغيران في الجبل. ﴿مُدَّخَلًا﴾[التوبة:٥٧] السرب. ﴿أُذُنٌ﴾[التوبة:٦١] يسمع من كل أحد. ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة:٧٣] أذهب الرفق عنهم. ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾[التوبة:٩٩] استغفاره. ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[التوبة:١٠٣] رحمة. ﴿رِيبَةً﴾[التوبة:١١٠] الشك. ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾[التوبة:١١٠] يعني الموت. ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾[التوبة:١١٤] لمؤمن تواب. ﴿طَآئِفَةٌ﴾[التوبة:١٢٢] عصبة. ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾[يونس:٢]

لهم السعادة في الذكر الأول. ﴿ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم ﴾[يونس:١٦] أعلمكم. ﴿ تَرۡهَقُهُمۡ ﴾[يونس:٢٧] تغشاهم. ﴿ عَاصِمٍ ﴾[يونس:٢٧] مانع. ﴿ تُفِيضُونَ ﴾[يونس:٦١] تفعلون. ﴿ يَعۡزُبُ ﴾[يونس:٦١] يغيب. ﴿ يَثۡنُونَ ﴾[هود:٥] يكنون. ﴿ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ ﴾[هود:٥] يغطون رؤوسهم. ﴿ لَا جَرَمَ ﴾[هود:٢٢] بلى. ﴿ أَخۡبَتُوٓاْ ﴾[هود:٢٣] خافوا. ﴿ فَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾[هود:٤٠] نبع. ﴿ أَقۡلِعِي ﴾[هود:٤٤] اسكتي. ﴿ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ ﴾[هود:٦٨] يعيشوا. ﴿ حَنِيذٍ ﴾[هود:٦٩] نضيج. ﴿ سِيٓءَ بِهِمۡ ﴾[هود:٧٧] ساء ظناً بقومه. ﴿ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا ﴾[هود:٧٧] بأضيافه. ﴿ عَصِيبٌ ﴾[هود:٧٧] شديد. ﴿ يُهۡرَعُونَ ﴾[هود:٧٨] يسرعون. ﴿ بِقِطۡعٍ ﴾[هود:٨١] سواد. ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾[هود:٨٣] معلمة. ﴿ أَلِيمٌ ﴾[هود:١٠٢] موجع. ﴿ زَفِيرٌ ﴾[هود:١٠٦] صوت شديد. ﴿ وَشَهِيقٌ ﴾[هود:١٠٦] صوت ضعيف. ﴿ غَيۡرَ مَجۡذُوذٍ ﴾[هود:١٠٨] غير منقطع. ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ ﴾[هود:١١٣] تذهبوا. ﴿ شَغَفَهَا ﴾[يوسف:٣٠] غلبها. ﴿ مُتَّكَـًٔا ﴾[يوسف:٣١] مجلساً. ﴿ أَكۡبَرۡنَهُۥ ﴾[يوسف:٣١] أعظمنه. ﴿ فَٱسۡتَعۡصَمَ ﴾[يوسف:٣٢] امتنع. ﴿ بَعۡدَ أُمَّةٍ ﴾[يوسف:٤٥] حين. ﴿ تُحۡصِنُونَ ﴾[يوسف:٤٨] تخزنون. ﴿ يَعۡصِرُونَ ﴾[يوسف:٤٩] الأعناب والدهن. ﴿ حَصۡحَصَ ﴾[يوسف:٥١] تبين. ﴿ زَعِيمٌ ﴾[يوسف:٧٢] كفيل. ﴿ ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴾[يوسف:٩٥] خطئك. ﴿ صِنۡوَانٌ ﴾[الرعد:٤] مجتمع. ﴿ هَادٍ ﴾[الرعد:٧] داع. ﴿ مُعَقِّبَٰتٌ ﴾[الرعد:١١] الملائكة. ﴿ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾[الرعد:١١] بإذنه. ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾[الرعد:١٧] على قدر طاقتها. ﴿ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾[الرعد:٢٥] العاقبة. ﴿ طُوبَىٰ ﴾[الرعد:٢٩] فرح وقرة عين. ﴿ يَاْيۡـَٔسِ ﴾[الرعد:٣١] يعلم. ﴿ مُهۡطِعِينَ ﴾[إبراهيم:٤٣] ناظرين. ﴿ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴾[إبراهيم:٤٩] في وثاق. ﴿ قَطِرَانٍ ﴾[إبراهيم:٥٠] النحاس المذاب. ﴿ يَوَدُّ ﴾[الحجر:٢] يتمنى. ﴿ مُسۡلِمِينَ ﴾[الحجر:٢] موحدين. ﴿ شِيَعِ ﴾[الحجر:١٠] أمم. ﴿ مَّوۡزُونٍ ﴾[الحجر:١٩] معلوم. ﴿ حَمَإٖ مَّسۡنُونٍ ﴾[الحجر:٢٦] طين رطب. ﴿ أَغۡوَيۡتَنِي ﴾[الحجر:٣٩] أضللتني.

هذا وإذا أردت بقية هذا الموضوع فراجعه في كتاب الإتقان المذكور، تجد جميع الغريب فيه إلى آخره. وهو نحو ٧ صفحات فاقرأه هناك إن شئت.

ويتبع ذلك ما ورد عن ابن عباس أيضاً إذ اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع ابن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه، فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقته من كلام العرب، فإن الله تعالى إنّما أنزل القرآن بلسان عربي مبين؟ فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾[المعارج:٣٧]. قال: العزون حلق الرفاق. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاؤوا يهرعون إليه حتى ... يكونوا حول منبره عزينا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[المائدة:٣٥]. قال: الوسيلة الحاجة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

وهكذا استمر يسأله وهو يجيب على هذا النمط، ونحن الآن لجتزئ هنا ببعض الكلمات وشواهدها اختصاراً واستبصاراً:

الكلمة	الشاهد
(١) ﴿مِنۡهَاجٗا﴾[المائدة: ٤٨] طريقاً.	(١) لقد نطق المأمون بالصدق والهدى وبين للإسلام ديناً ومنهجا
(٢) ﴿يَنۡعِهِۦٓ﴾[الأنعام: ٩٩] نضجه.	(٢) إذا ما مشت وسط النساء تأودت كم اهتز غصن ناعم النبت يانع
(٣) ﴿رِيشٗا﴾[الأعراف: ٢٦] مالاً.	(٣) فرشني بخير طال ما قد بريتني وخير الموالي من يريش ولا يبري
(٤) ﴿كَبَدٍ﴾[البلد: ٤] اعتدال.	(٤) يا عين هلا بكيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم في كبد
(٥) ﴿سَنَا﴾[النور: ٤٣] ضوء.	(٥) يدعو إلى الحق لا يبغي به بدلاً يجلو بضوء سناه داجي الظلم
(٦) ﴿حَنَانٗا﴾[مريم: ١٣] رحمة.	(٦) أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض
(٧) ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ﴾[الرعد: ٣١] أفلم يعلم، بلغة بني مالك.	(٧) لقد يئس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا
(٨) ﴿فَأَجَآءَهَا﴾[مريم: ٢٣] ألجأها.	(٨) إذا شددنا شدة صادقة فاجأناكم إلى سفح الجبل
(٩) ﴿لَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾[طه: ٤٢] لا تضعفا عن أمري.	(٩) إني وجدك ما ونيت ولم أزل أبغي الفكاك له بكل سبيل
(١٠) ﴿ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾[الحج: ٣٦] فالقانع الذي يقنع بما أعطي، والمعتر الذي يعترض الأبواب.	(١٠) على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السماحة ولبذل

ولأكتف بهذا في النظم، ومن أراد استيفاءه فليقرأه في كتاب الإتقان. والشواهد تبلغ نحو ١٥٠ شاهداً فلا نطيل بذكرها، وإلى هنا تم الكلام على المقام الأول.

المقام الثاني: في الكلام على نفس الأمة العربية

اعلم أيها الذكي أن الأمة العربية بقدر ما ذاقت من العز والاتحاد والسعادة وما نالت من الارتقاء أصابها الذل والانحلال والشقاء والانحدار، أمة بلغت بعلمها المشرقين والمغربين، ثم رجعت بعد ذلك بخفي حنين. رفعها العلم وخفضها الجهل، أمة عريقة في المجد، رفيعة القدر، قوية الشكيمة هي وحدها التي اختارها الله لارتقاء النوع البشري، لذلك خلقها وتمت كلمة ربك، خلقها في البادية،

وأنضج عقولها، وهذب نفوسها تهذيباً نسبياً، ومرنها على شظف العيش، والبأس وعزة النفس والقناعة، أعطاها مثالب مع هذه الفضائل فصار كل أهل بيت وقبيلة يرون أنهم سادات الأمم وعظماء أهل الأرض، فأورثهم ذلك التخاذل والتطاحن والأضغان والأحقاد، وما ذلك كله إلا من ازدياد سمو النفس والشهامة وحب العزة وازدياد تلك القوة عن المقدار الوسط والنهج القديم، فأصبح ما كان ممدوحاً تلحقه المذمة، وبينما هي على هذه الحال إذا جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن، فجمعهم بعد الفرقة ولم شملهم، فنالوا ملكاً لم تحلم به الأكاسرة ولا القياصرة، وتضامت تلك القوى المتفرقة المنتشرة في الصحاري والقفار، فصارت قوة واحدة فهزت أمم الأرض هزاً، وما ذلك إلا لما فهموا: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الزخرف: ٣]، ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[الزخرف: ٤].

ثم استبدلوا الكسل بالعمل، والترف والتنعم بشظف العيش، والقناعة وفتح البلاد لنزوات النفوس والشهوات، والطمع والجشع وجمع المال الوفير المورث للاستكانة والصغار والذل بالجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، مع حفظ الدولة وإسعاد الإنسانية كلها بلا تفرقة بين الأمم والشعوب بالمحافظة عليها، مع تأدية تلك الأمم ما يجب عليها لهم. فحق عليهم ما ورد في الصحيح: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا» الخ. وهذا الحديث بنصه في أول سورة «الأنفال» وهو من صحاح الأحاديث.

ثم إن هذه الأمة بعد أن أدت وظيفتها في الأرض ونشرت الدين وتفرقت في أقطارها، خمدت ريحها وأصبح الأبناء على نقيض الآباء، ونسوا مجدهم القديم وعزهم الشامخ وفضلهم العظيم، فأبناء العرب اليوم في شمال أفريقيا ومراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والسودان واليمن ونجد والحجاز والعسير والعراق والموصل ودير الزور. فكل هؤلاء بلادهم متلاصقة ودينهم واحد وعقولهم متقاربة ولغتهم واحدة.

فيا سبحان الله، أنا لم أر أمة بلغت ما بلغت هذه الأمة في مجدها أيام رفعتها، ولم أر أمة سقطت سقوطها أيام ذلها كأن الغنم بالغرم، وبرد الشتاء على مقدار حرارة الصيف، وطول الليل في الشتاء بمقدار قصره في الصيف. هاأنا ذا من أبناء العرب ولدت بالبلاد المصرية في قرية من قرى الشرقية. حفظت القرآن صغيراً ودخلت الأزهر بالغاً، ثم اعترتني فكرة هيجت بالي زمن الشباب، فأخذت أستغيث وبمن أستغيث؟ لا استغاثة إلا بمن خلقني. فكنت أدعوه وهو سميع الدعاء، ولكم سألته أن يوقفني على حقائق هذه الدنيا ونظام الكون وبؤس المسلمين وذلهم وعز غيرهم، ولماذا أرى الجهالة والنقص فاشيين حتى في التعاليم الدينية.

وأنت أيها الذكي تعرف مما ذكرته كثيراً في التفسير أن اتصالي بمدرسة دار العلوم، ونظري في كتب الأمم المحيطة بنا به، وقفت على كثير من أحوال هذا العالم وهذه الأمم.

ومما اتفق لي حادثة لا بد من ذكرها. ذلك أنها أشبه بتعريف لمفتاح به تفتح به أبواب الخيرات لسائر الأمم العربية.

محاورة بيني وبين المرحوم لطيف باشا سليم
في أمر ارتقاء العرب في المستقبل القريب

قد كنت في أطوار حياتي إلى السكون والخمول والانزواء أقرب لما قرأت ما يأتي:

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً سوى الهذيان من قيل وقال

فأقلل من لقاء الناس إلا لأخذ العلم أو إصلاح حال

ولكم كنت أقول في نفسي: لو أنني عرفت الحقائق وكنت مجهولاً في الناس لا يفكر فيّ أحد لكان ذلك أقصى أملي. ولكن حب البحث والعلم كانا سبباً في علاقاتي بجميع أمم الإسلام، ومنهم الطبقة الراقية في مصر، ولما أخذت أؤلف الكتب عرضتها على أهل العلم وذوي العقول الراجحة لأستوثق مما أنشر برأيهم، وكان منهم المرحوم محمد عسكر والمرحوم لطيف باشا سليم، فأما الأول فإني قابلته في منزل المرحوم إبراهيم بك أباظة بجوار قريتنا، ولم يكن رآني ولا رأيته من قبل، ولكن عرف كل منا الآخر وأنا شاب وهو قد بلغ نحو مائة سنة، وله قدم صدق في الحادثة العرابية، وأخذ يسألني عن تاريخ حياتي العلمية التي عرف مجملها من قبل أن ألقاه فأجبته. هنالك قال لي: أنتم أحسن منا. نحن أيام عرابي باشا لم نبن ثورتنا على أساس، أما أنتم فبناؤكم على أساس، لأنكم تريدون أن تجعلوا العلوم التي بها ارتقت أمم الأرض متصلة بالدين وأنتم ناجحون، وأن ما سمعته منك من حيث إن بعض رجال المعارف يضطهد ذلك؛ فهذا زادني يقيناً لأن الرجل لا يكون عظيم الشأن حتى يحقد عليه نظراؤه. وسيكون نشر آرائك على أيدي تلاميذك، والمستقبل لهذه الأمة عظيم، وأما المرحوم لطيف باشا. فهاك ما دار بيني وبينه وهو الذي سقت الكلام لأجله. لم تكن لي سابقة معرفة بالمرحوم لطيف باشا سليم. وهو كان من أكابر الأمة ومن أكابر الوطنيين. والذي عرفني به أني نشرت بعض كتبي وأردت أن أعرف آراء أكابر العلماء في مصر، فأعطيته كتاب «نظام العالم والأمم» فأثنى عليه، وصارت لي به صلة وثيقة، وهذه صورة المحادثة التي سقت الكلام هنا لأجلها:

قال رحمه الله: إن جلد الحمار الميت أرفع شأناً من الأمة المصرية ـ أقول: وذلك من شدة غيرته على البلاد ـ فقلت: ما برهانك يا باشا؟ فقال: إن جلد الحمار يمكن العلماء بالصناعة وبالكيمياء يلونونه بالحمرة أو بالصفرة الخ؛ وهذه الأمة حل بساحتها الآشوريون والفرس والرومان والفرنسيون والإنجليز ومع ذلك لا تزال نائمة خامدة جامدة، إذن جلد الحمار أمكن تلوينه والأمة المصرية لم تلون. هذه الأمة جامدة. فقلت: إن لي رداً على ما ذكرتموه. فقال: فماذا تقول؟ فقلت: إن الأمة المصرية أمة عربية لأن الأصل القبطي فيها قليل، وهانحن أولاء نجد عاداتنا وأخلاقنا وآدابنا كلها عربية، والأمة العربية بعد ما بلغت الصين شرقاً وجنوب فرنسا غرباً وأزالت ملك فارس والروم أصابها داء الترف، وأرداها الكسل، وأنهكها الطمع، وجندلها الجهل، وأصماها التخاذل والتنابذ والكبرياء والادخار والاتكال على الأمم المحكومة بهم. فسلط الله عليهم من كانوا لهم مسخرين ومستعبدين من الفرس والترك والممالك البرية والبحرية، وآذاهم الإسبانيون في الجزيرة، وحل الترك بساحة مصر فأزالوا نخوتها ومظاهر جمالها وكمالها، وأقفلوا مدارسها وتركوها قاعاً صفصفاً، ومحوا منها الصناعات

والعلوم، وبقيت البلاد ترتع في معاهد الجهل، ومراتع الذل، حتى إذا قيض الله لها المغفور له محمد علي باشا فقد أخذ يعلمها، ولكن تعليمه لم يكن مصحوباً بحرية، فبقيت الأمة مقيدة وعمومها جاهل بحقوقه، حتى إذا جاء المرحوم مصطفى كامل باشا في هذه السنين ونشر في جريدة اللواء مقالات وقرأها الشبان وأنا ملاحظ ذلك انفتحت بصائرهم وعرفوا الحرية في هذه السنوات القلائل.

ولقد كنت قبل ظهور جريدة اللواء أشاهد من تلاميذ المدارس احتقاراً لكل ما هو وطني، حتى إذا ظهرت جريدة اللواء أحبوا الوطن واستبدلوا حبه بحب الأساتذة الإنجليز، وكان مدرس اللغة العربية كأنه أمر ثانوي عندهم، فانقلب الحال وعدوه لهم أباً، كل ذلك بتأثير جريدة اللواء التي طلعت بهيئة عرفت الشبان ما معنى المحافظة على الوطن وعلى الحرية. إن أهل مصر أكثرهم من أصل عربي، والذي أخرهم وأضناهم هو الجهل الذي غمرهم به الترك مدة مئات السنين، وما مثلهم في مصر إلا كمثل آبائهم قبل النبوة، فإنهم كانوا قوماً جاهلين، فما كاد صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الدين ومضت ٢٣ سنة حتى كانوا أهل ملك عظيم ودين كبير، هكذا ـ وإن كان الفرق كبيراً ـ آباؤهم وهم أهل مصر ومن حولهم من أهل الشام وفلسطين والمغرب والعراق والموصل، فكفى هذه الأمم أن يظهر فيهم نابغة كظهور مصطفى باشا كامل حتى يعلموا حقوقهم، وينفضوا عن رؤوسهم غبار الذل وينهضوا ببلادهم، ودليلي على ذلك حال التلاميذ بمدارسنا وانقلابها في زمن قليل جداً، فهذا دلني على أن هذا الشبل من ذاك الأسد. فقال رحمه الله: أنا قلت لك لا مانع أن يحصل أمر غير عادي. فقلت: لكن أنا لا أقول ذلك، بل أقول هو أمر عادي، فإن المسألة علم وجهل، فالعرب متى عرفوا نهضوا ورجع لهم مجدهم. انتهى الحديث.

مصداق هذا الحديث

حديثي مع نجله فؤاد باشا سليم

وبعد سنين قليلة توفي المرحوم لطيف باشا، فذهبت إلى منزله بالعباسية لأعزي نجله فؤاد سليم باشا، فلما رآني بكى لعلمه بمودة أبيه لي، وحكى لي ما يأتي، قال:

إن مصطفى باشا كامل لما أسس الحزب الوطني وأصبح هو رئيسه وأنا ناموسه «سكرتيره» كان والدي إذ ذاك في مرض موته، فدخلت عليه، وسألني ماذا فعلتم؟ فقلت: هانحن أولاء أسسنا الحزب الوطني. فقال: يا فؤاد اجتمع المصريون؟ فقلت: نعم يا والدي وأنا سكرتير الحزب الوطني. فقال: لو قالها غيرك لم أصدقه، أنا أموت وأنا مستريح الضمير إذ رأيت المصريين اجتمعوا في حياتي. اهـ.

فقلت له: الحمد لله إذ صح ما استنتجته قبلاً في حديثي معه وظهر له صدق فراستي في أمة العرب والأمة المصرية. أكتب هذا الآن وفي بلادنا الأحزاب الآتية: الوفد. الحزب الوطني. حزب الاتحاد. حزب الشعب. حزب الأحرار الدستوريين. إذن أصبح ما كان فراسة أولاً يقيناً الآن، وعليه أقول: حقاً وصدقاً إن الأمة العربية على بكرة أبيها لا ينقصها إلا التعليم. والذي قتلها هو الجهل؛ فهي أمة متروكة مهملة، وقد أقبلت أيام سعادتها، وهاهي ذه تقوم من رقدتها. وهنا أذكر بعض ما كان لها من المجد في العلوم الطبية في الشرق والغرب والآثار العمرانية، وأخص بالذكر بلاد الأندلس، وأقفي

بذكر ما حاق بها من الذل والهوان في القرون الأولى بسبب تفرق وحدتها، ثم أتبعه بنتائج ذلك اليوم في البلاد الإسلامية، وأخص بالذكر تونس ومراكش، ثم أقفي بما ساقه الله من الدلائل على مستقبل باهر للأمة العربية والأمم الإسلامية، وذلك بذكر مسألة الوطن القومي لليهود في فلسطين، وكيف كانت هذه أول أساس أخذ المسلمون يبنون عليه اتحادهم، فالعرب جميعاً اتحدوا مع أهل فلسطين في ذلك، ثم إن دفن المجاهد الكبير المولى محمد علي الهندي في فلسطين وتوطيد المودة بين العرب والهنود المسلمين أمر لم يسبق له في التاريخ نظير، ثم أبين أن هذه الحوادث ترجع لآيتين إحداهما آية: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[الآية: ٥٧] في سورة «حم غافر»، والثانية هنا وهي: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[الزخرف: ٤٤].

وإيضاح المسيح الدجال هنا والعلم العيسوي، فهذه سأوضحها في سبعة فصول:

الفصل الأول: في أثر الطب العربي في تطور الطب الفرنسي.

الفصل الثاني: فيما قاله الأمير شكيب أرسلان في رحلته إلى بلاد الأندلس للدلالة على عظمة آثار العرب.

الفصل الثالث: فيما جاء له أيضاً في كوكب الشرق من تخالف الأمم العربية قديماً وتضافر الأمم عليهم فذهبت دولهم.

الفصل الرابع: في نتائج ذلك التفرق القديم الذي حل بالمسلمين اليوم في تونس ومراكش.

الفصل الخامس: في حادث الوطن القومي لليهود، وكيف كان سبباً لوضع أساس للاجتماع بعد التفرق.

الفصل السادس: في حادث لم يسبق له نظير من اتحاد العرب والهند بعد ذلك ومن دفن المجاهد الكبير محمد علي بالقدس وتصريحات أخيه المولى شوكت.

الفصل السابع: في أن هذه الحوادث ترجع لآيتين من كتاب الله تعالى: الأولى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾[غافر: ٥٧]، وقد تقدم بيانها في سورة «حم غافر»، وفيها شرح أمر الدجاج، والثانية هنا وهي: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[الزخرف: ٤٤].

الفصل الأول:

فيما ذكرت به أمة الإسلام عموماً والعرب خصوصاً في علم الطب

وذلك في مقالين: المقال الأول: وهو ما جاء في مجلة «الجامعة الإسلامية». المقال الثاني: وهو ما جاء في جريدة الأهرام تحت عنوان «أثر الطب العربي في تطور الطب الفرنسي»، وذلك كله إيضاح لقوله تعالى هنا: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[الزخرف: ٤٤]، وهاك نصهما:

البحث عن تاريخ العلوم، أو
تأثير المدنية العربية الإسلامية في نهضة الغرب

في أوروبا اليوم حركة عظيمة للبحث عن منشأ العلوم الحاضرة وعن كيفية تطورها، ولقد كان من أكبر العوامل على هذه الفكرة أحد العلماء الطبيعيين الإفرنسيين الكيماوي «مارسلين برتسلو»،

ولهذا العلامة فضل كبير في جلب أفكار الأوروبيين إلى مسألة هامة وهي تاريخ العلوم ، لقد أدرك « برتسلو » أنه لا بد من دراسة تطور الفكر البشري ، فقال : لا بد أن ندرس كيفية تطور العلوم في الأزمان المختلفة ، فألف لذلك كتاباً سماه تاريخ العلوم ، ومنذ ذلك الحين عمت في أوروبا فكرة جديدة وهي أنه لا يجوز أن ينظر إلى ما فكر فيه السالفون كأنه أساطير الأولين ، لأن الرقي لا يكون إلا بالتدريج ، أي كل عصر من العصور مدين للعصر الذي قبله ، ولا يمكننا أن نتصور أمة تنشأ فجأة كما نرى ذلك في كثير من كلامهم ، وترى الأوروبيين يهتمون الاهتمام العظيم في هذا الشأن ، وينفقون له كثيراً من القوى المادية والمعنوية ، ففي كل قطر من الأقطار عدة معاهد لهذا الشأن بعضها للبحث عن تاريخ الطب ، وبعضها للبحث عن تاريخ العلوم الطبيعية . أما تاريخ الفلسفة فقد اشتغل فيه كما لا يخفى أناس كثيرون منذ أجيال عديدة ، ولا يمكننا أن نتصور شخصاً درس الفلسفة إلا واهتم بتاريخها قبل كل شئ ، ففي ألمانيا اليوم عدة أساتذة وقفوا كل حياتهم لهذا الغرض ، وقد عثروا في طريقهم على نقط هامة ، وليس غرضهم هنا معرفة المنشأ ولمن الفضل في نشر العلوم فحسب ، بل يودون أن يعلموا إلى أي جهة تتجه معارفنا ، أي : معرفة الماضي والحاضر للتفكير في المستقبل . كما اتضح لبعضهم أن العلوم المادية برقي عظيم والمعنوية بانحطاط مستمر فثابروا على إحيائها ، وبذلك قطعوا خطوات واسعة ، وتهتم الحكومات الأوروبية لهذا الشأن اهتماماً كثيراً ، فساعدت علماءها على نشر ما كشفوه من الأمور وعلى عقد مؤتمرات يحضرها العلماء من أقطار مختلفة ليتبادلوا الآراء وليعرفوا صوابهم وخطأهم بالبحث مجتمعين ، وقد عقد في منتصف شهر أيار الماضي من السنة الحالية مؤتمر بين المللي « كذا » في باريس حضره علماء من أصقاع مختلفة ، هل تعلم ماذا كان أهم شيء تداوله المؤتمر ؟ وجوب تعلم تاريخ الأمة العربية ، وإن أكبر عثرة واقفة أمام طريقهم هي معرفتهم تاريخ الأمة العربية حق المعرفة ، وما دامت الحالة على هذه لا يمكنهم أن يداوموا البحث بصورة جدية ، ولقد سمعت هذا من أستاذين كبيرين : الأستاذ سيغرست المتخصص بالطب عند العرب في لبزيغ ، والأستاذ روسكا رئيس معهد البحث عن تاريخ العلوم الطبيعية في برلين . وهناك كتب خطية عديدة ولا أظنها إلا بيعت بثمن بخس هي اليوم في مكتبات أمهات مدن أوروبا محفوظة في أعز موقع لا يسمح لنا برؤيتها إلا بكل صعوبة ، تفتخر كل أمة من الأمم بأنها بين خزائن كتبها . ولا يمكننا أن ننالها ولو أنفقنا في سبيل ذلك ما أنفقنا من الأموال الطائلة ، هكذا كانت تلك الكتب القيمة ذليلة بيننا ، عزيزة عند من يعرف قيمتها ، ولقد أحرز اثنان من بني وطننا وهما السيدان : كامل عياد ومحمد أبو غنيمة ، لقب دكتوراة في جامعة برلين ، الأول في الفلسفة ، والثاني في الطب ، لاشتغال الأول في ابن خلدون والثاني بالطبيب العربي الجراح أبي القاسم الزهراوي . فأهمية ابن خلدون كما قال عنه كبار الغرب إنه أول من وضع التاريخ ضمن علم ، وجاء بنقد التاريخ ، وتتبع الحوادث التاريخية ليحصل الإنسان على نتائج لا بد منها لمعرفة الشعوب ومزاياها وتطورها وحسناتها وسيئاتها ، أما أبو القاسم فقد ذكر عنه الدكتور أبو غنيمة بأنه سلك طريقاً في التداوي بالكي يشبه تمام الشبه الجراح الشهير الأستاذ المستشار « بير » ، وقد ذكر قاموس المحيط الألماني عن أبي القاسم هذه الكلمات :

ولد أبو القاسم في الزهراء من مدينة قرطبة وتوفي سنة ١١٠٦ ـ ١١٠٧، وقد كان شهيراً في الجراحة، وأهميته لا تزال حتى هذا اليوم في التاريخ، وله كتاب في الطب الذي ألفه وترجم إلى اللاتينية للمرة الأولى من غريم سنة ١٥٣٢م.

أما القسم التشريحي وهو خير ما ورث من الطب العربي، فقد ترجمه إلى اللاتيني في أكسفورد سنة ١٧٧٨ العالم الإنكليزي شاننغ. فنجد أهمية البحث عن تاريخ العلوم هنا وكيف كانت تدرس العلوم من منابع عربية. وقال السيد الدكتور محمد شرف في المقدمة من معجمه الإنكليزي العربي ما نصه: بقيت جامعات أوروبا أكثر من خمسة قرون تعتمد في مادتها العلمية على الكتب العربية، وفي نهاية القرن الخامس عشر كانت الكتب العربية المستعملة في جامعة توبنجين أضعاف الكتب اليونانية، وكانت مؤلفات الرازي وابن سينا أساس التعليم الطبي في جامعة «لوفان» في القرن السابع عشر، واستمرت مؤلفات ابن سينا تدرس في جامعة الطب الكبرى في «مونبيليه» حتى القرن الثامن عشر.

ولقد ألقى الأستاذ المتخصص في تاريخ الطب «سيغريست» محاضرة في الحفلة التي أقيمت على مضي ألف سنة على الطب العربي في المعهد الطبي الألماني التابع لجامعة برلين هذه خلاصتها: نحن مدينون للعرب بجزيل الشكر لهذه المدنية الزاهرة التي نتنعم بها. أهمية المدنية العربية كبيرة لأننا إذا وصلنا إلى آخر حلقة من حلقاتها نجدها متصلة بنا، فإذا أخذنا مثلاً اكتشاف ميزان الحرارة من قبل «غاليله» نجد كتب طب ابن سينا الأساس الذي نمشي عليه في ذلك العهد، عندنا اليوم كثير من التعابير اليونانية لا يمكننا فهمها إلا إذا ترجمناها للعربي، تاريخ الأمة العربية قبل الإسلام لا يهمنا كثيراً حيث لا صلة له بنا، ولكن الذي يهمنا منذ نشأة محمد صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي عرف توحيد القبائل وغرس الفضيلة في قلوب الناس. وما مضى على ظهور هذا الرجل قرن واحد إلا رأينا مدنية زاهرة وحكومة عظيمة عادلة، فنجد أولاد الصحراء القاحلة يفتحون العالم وينشرون العلوم والفنون في أرجائه المختلفة.

وقد ازدهرت العلوم في عهد العباسيين وترجموا كثيراً من آثار اليونان، وقد كانوا مترجمين فأصبحوا بحاثة، وإنا نعجب حتى يومنا هذا كل العجب بتلك القابلية العظيمة التي كانت عندهم، فنجد شخصاً واحداً تجتمع فيه ميول عديدة مثل الفخر الرازي الذي ألف ألف مجلد، وكان رئيس مستشفى وفيلسوفاً وموسيقياً ومن محبي الفنون الجميلة، ولا زال العجب يأخذ منا من ابن سينا الذي أراد أن يستخرج قانون الطب على حسب المنطق، فنجده سياسياً دينياً حقوقياً طبيباً منطقياً، ومن يذهب اليوم إلى قرطبة يرى غابة من المرمر الجميل، ويرى الآثار التي تنبئ عن وجود (٥٠) مستشفى، ويرى المكتبة التي تحتوي على (٤٠٠) ألف مجلد، ويرى الجامع القديم هناك، يدرك ولا شك أهمية تلك المدينة، ثم إذا مر بعد ذلك على قصر الزهراء يكون في القصر الذي ولد فيه الطبيب العربي الجراح أبو القاسم.

ولقد كان لظهور هذا العالم أهمية عظيمة في الجراحة، حيث كانت العرب قبله تخاف من الموسى. وأهميته على قسمين: نظرية وعملية. أما الأولى ففي تغير أفكار الناس من وجهة الجراحة

والنظر للمريض بعين الشفقة . أما العملية فهي ترقي أسباب الطب الجراحي إلى أن صار بالصورة التي نراها اليوم .

الآن لقد انعكس الأمر - مخاطباً طلبة العرب ـ فنحن يجب أن نؤدي ما علينا نحوكم من الواجب . وهذه العلوم التي ترونها اليوم عندنا قد ورثناها عن أجدادكم ، عندكم واجب كبير ولكم مجد عريق وسلف صالح ، يجب عليكم أن تفهموا تاريخكم ومدنيتكم ، وكم من الكنوز العربية الثمينة أصبحت اليوم مدفونة للإهمال ، ومؤتمر العلوم في باريس أفهمنا جهلنا بتاريخ العرب ، وقد ساعدونا على درس تاريخكم وحضارتكم . وعليكم واجب ثان يا طلاب العرب ، الشرق اليوم يتحين للنهضة ، وأنتم ستنقلون المدنية وتعلمون الناس كما فعل ذلك حنين بن إسحاق ، وستكونون بادئ ذي بدء مترجمين فتصبحون بحاثة . ولا يبعد أن يكون بيننا رجل يحتفل فيه أيضاً بعد ألف سنة كما نحتفل اليوم في هذا المكان بأبي القاسم . ولقد قال المستشار الأستاذ « هيس » مدير جامعة برلين هذه الكلمات : نحن نهتم بتاريخ الطب العربي لأمور ثلاثة :

(أولاً) الجد والاجتهاد الذي لا يعرف الملل الذي كان عندهم .

(ثانياً) حب الاطلاع وأداء الواجب المجرد عن أي شخصية .

(ثالثاً) تحمسهم للمعرفة وشرف الصنعة عندهم .

فلذلك لا عجب أن نرى ممن اجتمعت فيهم هذه الصفات أن يكونوا من أحسن البحاثة . ليتنا قدرنا هذه الحقيقة كما يقدرها الأوروبي الذي لا يريد من ذلك ألا أن يزيد مداركه ومعارفه ليتقدم إلى الأمام ، وقد بحثوا أيضاً في العلوم الطبيعية التي كانت عند العرب مباحث كافية ، ونشروا كذلك كتباً عديدة كمصنفات في الكيمياء لجابر بن حيان ، نشره « هولمبارد » الإنكليزي وطبع في باريس ، ولقد اطلعت على هذا الكتاب فوجدت نظريات جمة في العلوم الطبيعية الموجودة في ذلك الزمن وبين الآراء الطبيعية اليوم .

وأكبر فضل وجدته في جابر هو تقديره للعمل والتجربة ، إذ يقول : وملاك كمال هذه الصنعة العمل والتجربة ، فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء أبداً .

ثم قوله أيضاً : كل شيء طبيعي فاعتمد عليه . ويوجد أيضاً كثير من التعقيدات التي وضعها قصداً لكي لا يبوح بسر الصنعة .

ونشر أيضاً في فن المستعدنات تأليف « التيفاش » طبع في روما . وكتاب الأحجار لأرسطاطاليس ترجمة « لوقا بن إسرافيون جمعة » وترجمه إلى الألمانية الأستاذ « روسكا » . وقد قال في مقدمة الكتاب الكلمات الآتية : ليست الأسفار اليدوية ولا الأدب الذي جاء بعد الإسلام هو الذي رفع اسم العرب في الغرب فقط ، إذا أردنا أن نعرف تأثير المدنية الإسلامية في المسيحية الغربية فلنتفكر في الرياضيات والفلك والكيمياء والطب كيف كان علماء الإسلام يشتغلون بها بعد أن فقدت علوم اليونان إلى يومنا هذا ، ففيها نرى الأسماء الفنية المشتقة من العربي ، وكيف كانت العلوم زاهرة تحت راية الإسلام ، وكيف تعلق الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي ، هكذا يشتغل الأوروبيون في البحث

والتنقيب عن تاريخنا ومدنيتنا، وينشرون بذلك كتباً قيمة، يقيمون حفلات عظيمة لكل عالم خدم البشرية خدمة صادقة، ونحن ننظر إليهم كأساطير الأولين، أيطربنا هذا الإهمال؟ أيطربنا تفرقنا شيعاً وأحزاباً بين قديم وحديث، ونحن اليوم بأشد الحاجة أن نمد يد الإخاء إلى بعضنا للجد والاجتهاد؟.

وقد قال لي أحد الإخوان أثناء احتفال ألف سنة على الطب العربي، وفي نفس الوقت نقيم مأتماً على خروج المدنية من أيدينا، ولا ينفعنا الحزن واليأس بل السعي والجد، النوم كان طويلاً فكل شيء أمامنا صعب جداً، وكلما تقاعسنا عن العمل ازدادت الصعوبة هكذا كان أجدادنا في غابر الأزمان واليوم فقدنا كل شيء من أثر الأجداد، ولم يبق لنا غير ذكريات الماضي نسمعها من العلماء الغربيين.

إن كنا حقاً نحب ذلك السلف الصالح رحمهم الله فلنسترجع همم الخالف لنعيد لنا ذلك الشرف، فإنا بهم مقتدون، وإنا على آثارهم لمهتدون.

برلين محمد يحيى الهاشمي

ومما يناسب ذلك أيضاً ما جاء في جريدة الأهرام يوم ١٥ مايو سنة ١٩٣٠ تحت العنوان التالي وهذا نصه:

أثر الطب العربي

ألقى الدكتور البارع يوسف أفندي حريز الحائز لشهادة الامتياز من كلية باريز محاضرة في نادي مدرسة الطب عن أثر الطب العربي في تطور علم الطب في فرنسا، ولأهمية هذا الموضوع رأينا نشر خلاصة تلك المحاضرة القيمة.

قال المحاضر: من المتعارف أن الإغريق كانوا منذ ألفي عام حملة الطب القديم، أكان ذلك بعض ما خلفه الإسكندر الأكبر عقيب غاراته المشهورة على الشرق، أم أن هنالك بقايا معلومات طبية يونانية الينبوع، قد يكون الصواب بين هذين. على أن العرب لم يتصل بهم فن الشفاء إلا بعد قيام الدولة الأموية، ولئن كان العهد الجاهلي فيه بعض من مارس الطبابة إلا أن خالد بن يزيد بن معاوية كان أول من نقل العلوم الطبية والنجوم والكيمياء إلى العربية، وكذلك فعل جابر بن حيان. على أن الحركة العلمية التي بدئ بها في صدر الدولة الأموية لم يتح لها أن تبلغ شأواً بعيداً إلا في صدر الدولة العباسية، وعلى الأخص في عهد المأمون سابع الخلفاء العباسيين الذي حمل رأسه أرفع عمامة في الشرق والإسلام. ولما انتهت هذه البذور الجديدة إلى ذلك المستنبت العربي العجيب ظهرت قرائح طبية من الطراز الأول في القرن العاشر للميلاد، أعد منها: الرازي أبا بكر محمد بن زكريا في آسيا، وابن الجزار في أفريقيا بالقيروان، وأبا القاسم عباس بن خلف الزهراوي في الأندلس. أما الرازي فقد ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية في الجيل الثاني عشر للميلاد، وكانت عمدة التدريس في أوروبا جميعها وعلى الخصوص في مدرستي مونبليه وباريس بفرنسا كما تشير إليه بكل تفصيل أطروحتي في جامعة باريس الموسومة «حظ الطب الغربي في تطور الطب الإفرنسي».

وللرازي مؤلفات عديدة أوصلها كتاب «عيون الأنباء» إلى المائة، ومما يدهش فيها تعدد مواضيعها وبحوثها، فقد كتب الرجل في الفلك، وقال بدورة الأرض، وكتب في الطب والتفسير

والكيمياء والإلهيات إلى آخر ما هنالك من شتى المذاهب والأبحاث. وبمناسبة عيده الألفي أنشأت عنه محاضرة في المجمع العلمي في دمشق الشام في شهر أكتوبر المنصرم، وله بيتان مشهوران من الشعر لا بأس من إيرادهما قالهما حين حضرته الوفاة بعد أن عمر مائة من الأعوام وتزيد:

لعمري لا أدري وقد أذن البلى ... بعاجل ترحال إلى أين ترحالي

وأين مقر الروح بعد خروجه ... من هيكل المنحل والجسد البالي

ومنه يستدل على شكه العلمي.

وأما ابن الجزار فهو تلميذ سليمان الإسرائيلي ومن أكبر مؤلفي العرب في الجيل العاشر للميلاد. وضع في القيروان كتابه الموسوم بزاد المسافر، ونقله إلى اللاتينية في الجيل الحادي عشر «لاون» الإفريقي كبير النقلة من العربية إلى اللاتينية في الجيل الحادي عشر، كما كان جيرار الكرماني كبيرهم في الجيل الذي يليه، وفي ابن الجزار وكتابه «زاد المسافر» يقول كشاجم:

أبا خالد أبقيت حيًا وميتًا ... مكارم ذاعت في البلاد عظاما

رأيت على زاد المسافر عندنا ... من الناظرين العارفين زحاما

سأذكر أفعالاً لأحمد لم تزل ... مواقعها عند الكرام كراما

وأما أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي، فقد كان بلا شك جراح عصره وأستاذ القرون الوسطى في ذلك الفن، ولقد نشرت له مجلة «المعهد العلمي» بدمشق الشام منذ عامين رسوم أدوات جراحية وجدت في إحدى منسوخات كتبه، وكلها تشير إشارة لا تقبل الاعتراض إلى معارفه التشريحية وطول باعه في هذه الصناعة.

الجيل الحادي عشر

كان من أكبر كواكبه الشيخ الرئيس ابن سينا، وقد كان اهتمام أوروبا به بالغاً حد الإعجاز، فقد نقلت إلى اللاتينية وشرحت كتبه وذيلت ما يقارب الأربعين من المرات. على أن أكبر مؤلفاته الطبية وهو القانون موجود اليوم بالعربية في قاعة المطبوعات في المكتبة الأهلية بباريس وهو طبع روما، ويرجع تاريخ طبعه إلى الجيل السادس عشر أي في أوائل عهد الطباعة كما هو معلوم، ولابن سينا في قاعة المطبوعات بباريس كثير من كتبه أذكر منها كتاباً لبقراط في الطب العام، وقد كتب على الصفحة الأولى منه: هذا الكتاب ملك أبي الحسين علي ابن سينا المتطبب.

وعلى الجدار الأمامي للبهو الكبير في كلية الطب بباريس رسم أطباء الإنسانية من عهد أبي الطب بقراط إلى يومنا ومن جملتهم الرازي وابن سينا والزهراوي.

الجيل الثاني عشر

وانتقل مصباح العلم من الشرق إلى الغرب، وكان بنو زهر على رأس الحركة العلمية لذلك العهد وحفيدهم أبو العلاء وهو أشدهم صداقة متينة وصلة بابن رشد فيلسوف الأندلس وطبيبها، وبينما كان ابن زهر يظهر عدم اكتراث بمؤلفات الرئيس ابن سينا كان ابن رشد يشرح أرجوزة الرئيس، وكتب هؤلاء المؤلفين الكبار نقلت إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر والرابع عشر وكانت موضوع

التدريس في أوروبا جميعها مئات من الأعوام، أما ابن رشد فقد ظل لمذهبه الفلسفي أثر جديد، وآخر من اهتم به الفيلسوف الكاتب «أرست رينان» فقيد فرنسا، ولما كان الرازي أول من وصف الجدري وكتب في أمراض الأطفال وفي واجبات الطبيب، كان ابن زهر أول من تكلم عن الشعور في العظام، ووصف عالم الجرب ودعاه بالصوأب، وأسهب في وصف الكسر والوشاء، وكذلك كان الزهراوي أول من أشار بالكي واستعمل حجر جهنم إلى آخر ما هناك من ضروب العلاج.

وأختم كلمتي هذه بأن أرى من طلاب المدارس الطبية في الشرق أمثال الأعلام من سبق ذكرهم، فنعيد للشرق رونقه الغابر ونسير مع أبناء المعمور في سبيل رفاهية الإنسانية، وما على المجتهد أمر عسير. وإلى هنا تم الكلام على الفصل الأول، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني

في بعض أسرار قوله تعالى: ﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[الزخرف: ٤٤]

وأن هذه الأمة عوقبت في الحياة الدنيا فضلاً عما تعاقب به في الآخرة

وذلك في ثلاث مقالات وهاك نصها:

المقالة الأولى

جاء في جريدة «المؤيد» بتاريخ يوم الأربعاء ٣ ربيع الثاني سنة ١٣٤٩هجرية تحت عنوان «الرحلة إلى الأندلس» وفي مدريد وطليطلة للأمير شكيب أرسلان ما نصه: وصلت أمس إلى مدريد آتياً من سرقسطة التي كان العرب يسمونها بالثغر الأعلى كما يسمون طليطلة بالثغر الأدنى، وقد استغرقت معنا الطريق من سرقسطة إلى مدريد نحواً من ست ساعات بالسكة بالسير السريع مررنا فيها على قرى ومدن معروفة من زمان العرب، مثل قلعة أيوب والحمة وغيرهما، والحمة حمام ساخن كما يفهم من اسمها، وجميع هذه القرى والمدن الصغار التي شاهدناها في أثناء اجتيازنا إلى مدريد مبنية على أنهر وجداول ومحاطة بالجنان والبساتين، وهيئتها شامية في تربتها وأشجارها وزروعها حتى في جبالها ووهادها، فلا عجب أن رغب أهل الشام أكثر من كل العرب في سكنى الأندلس، فإنهم ما انتقلوا من شام إلا إلى شام، ومن لم يشاهد أسبانيا لم يعلم سبب الجاذبية التي بينها وبين سورية، ولكن متى شاهد هذه الديار فهم السبب، فالأندلس في الحقيقة قطعة شرقية في الغرب، أو قطعة غربية من الشرق، ولقد ذكرت لقراء رسائلي أني سأخرج إن شاء الله كتاباً مستقلاً عن رحلتي إلى الأندلس، فلا ينتظر القراء مني هنا إلا إشارات بسيطة ولمحات دالة، وقد كان يخفق فؤادي طول هذه الطريق من مشاهدة المآذن التي كنا نراها في كل قرية من القرى التي كانت السكة تشقها أو تمر حذاءها، فهي باقية على حالها بطرازها المعماري العربي وشرافيها وطاقاتها وتخاريمها وكلها مربعة الشكل على نمط مآذن المغرب، وما تغير فيها إلا وضع الأجراس في أعلاها وتحويل المساجد إلى كنائس في أدناها، وجميع البشر يريدون الله، وكثيراً ما كنا نرى منارتين أو أكثر حول مسجد واحد، مما يدل على أن المساجد كانت لعهد العرب أوسع مما هي الآن وهي كنائس، وأن القرى التي هي اليوم قرى متوسطة الحال كانت في دور الإسلام قصبات كباراً وأن القصاب التي لا ترتفع

اليوم إلى درجات مدن كانت مدائن حافلة، فإن المساجد التي تبنى من فوقها منارتان وثلاث وأربع لا تكون إلا في المدن الزاخرة العمران، وقد صادف وجودي في القطار بعض نبهاء من الفرنسيس لحظوا هم أيضاً ما لحظته أنا.

أما مدريد فهي عاصمة من أجمل العواصم الغربية، لا ينقصها شيء عن عواصم الممالك الأخرى من سعة شوارع، ونظافة أزقة، وضخامة شأن، وفخامة بنيان، وعظمة ساحات، وتراخي مساحات، واشتباك أدواح جنائن، ونضارة أزهار وحدائق، وانتظام شامل كل معاني المدنية مع مزية فيها هي ارتفاع الصقع وإشراف يشعر معه الغريب بانشراح الصدر.

ليس لمدريد ما ينقصها إلا حداثة تاريخها إن كان هذا يعد نقصاً، فإنها ليست كبرشلونة التي يرجع تاريخها إلى دور الفينيقيين الذين لم يحبوها إلا لشبه سواحل هذه البلاد بسواحل سورية، ولا كسرقسطة التي كانت كرسياً لمملكة أراغون بعد أن أخذها الإسبانيون من بني هود الجذاميين، وقد كان لها دور مجيد في زمن الرومان، واشتق اسمها سرقسطة من « سيزرا وغسطا » أي القيصر أوغسطس الذي كان له مزيد العناية بها. ولم تكن مدريد كطليطلة عاصمة القوط يوم دخل العرب الأندلس، ولا كقرطبة كرسي الخلافة الأموية لعهد اكتمال عظمتها في الغرب واشتمالها على الممالك من جنوبي فرنسا إلى السودان. ومن البحر المحيط إلى طرابلس الغرب. كلا. فمدريد كانت في أيام العرب قرية غير ذات شأن، بنى العرب فيها حصناً في وجه بوار قشتالة اسمه مجريط وذلك في القرن العاشر.

ثم لما أخذ الإسبانيول يسترجعون البلاد مستفيدين من قتال العرب بعضهم لبعض ـ هذا المرض العربي الذي كان ولا يبرح رأس كل بلاء هذه الأمة ـ استرجع الأذفونش السادس ملك قشتالة حصن مجريط بعد نحو ١٥٠ سنة من بناء العرب إياه، والقصر الملوكي الحالي مبني في محل جامع كان مسجداً لقرية مجريط التي تحول اسمها إلى مدريد لقرب مخرج الجيم من الدال وقرب مخرج الدال من التاء أو الطاء، ولكن الذي جعل مدريد مدريد هو فيليب الثاني ابن شرلكان، وإنّما اختارها برغم قحولة باديتها وجدب ضاحيتها لأجل توسطها من بلاد إسبانيا فسرقسطة ضاربة إلى الشمال الشرقي وبرشلونة مرسى واقع في طرف قرطبة مائلة إلى الجنوب، وإشبيلية ممعنة في التغرب وهلم جراً، فبهذا عمرت مدريد وهي أحدث أسبانية تاريخاً وارتفعت وانخفض ما كان مرتفعاً قبلها، والله يرث الأرض ومن عليها.

ثالث يوم وصولي إلى مجريط أو مدريد قصدت إلى طليطلة التي لا تبعد عنها بسكة الحديد أكثر من ساعة ونصف، فزرت تلك المدينة الشهيرة عاصمة الأندلس يوم فتحها العرب، وشاهدت كل ما يشاهده السائح فيها، وبقيت بطليطلة نحو ثماني ساعات أبحث عن آثار العرب، وأحدق في هذا القصر وهذا الجسر وتلك المنارة وهاتيك المأذنة، وأقبل ذا الجدار وأتمسح بذلك الركن حتى شفيت غليلي من طليطلة، فقد كان في نفسي منها ما كان في نفس القراء، حتى كنت منذ عهد الحداثة أحفظ قول القائل:

زادت طليطلة على ما حدثوا	بلدة عليه نضرت ونعيم
الله زينه فوشح خصره	نهر المجرة والغصون نجوم

فرأيتها كما قيل بلدة عالية مشرفة على نهر كبير هو نهر «تاجه» الذي ينتهي إلى البحر المحيط عند أشبونة « ليزبون »، وقد انخفض النهر المذكور عن طليطلة وأحاط بها من الجهات الثلاث، فهي لا تساوي البر إلا من جهتها الشمالية، وعلى النهر بساتين وأشجار، وفي ضفافه غياض وجنان، ومنظر هذا النهر وما يليه من بسائط طليطلة من أبدع المناظر التي سرحت فيها طرف طرفي على رأي الكتاب، وكذلك حصانتها ظاهرة للعيان، وقد قلت لما دخلتها : إنه لا يمكن أن تؤخذ إلا بجوع أو بخيانة، ولا سيما في الأعصر التي أخذت فيها، وكنت أعلم من تاريخ الأندلس أن بني ذي النون أساؤوا التصرف فيها حتى آل الأمر إلى استرداد الإسبانيون إياها قبل جميع حواضر الأندلس حاشا برشلونة، فلما رجعت إلى مدريد راجعت التواريخ بالتدقيق، فأيدت المراجعة حدسي - وقررت ما جال في نفسي - وتحرير الخبر أن القادر بن ذي النون كان ضعيف التدبير فائل الرأي، فطمع فيه جيرانه من أمراء المسلمين وطفقوا يعتدون عليه ويتجاوزون، فذهب إلى الفونس السادس ملك قسطيلية أو على حسب قول العرب الأذفنش طاغية قشتالة وطلب حمايته، وجاء الأذفنش بجيش ومعه القادر بن ذي النون ليفتح له بلدته التي كانت هي أيضاً تمردت عليه، ووعده الأذفنش بأنه يفتحها ويقره فيها، فلما دخلها بسبب تفرق كلمة أهلها قلب له ظهر المجن وأقطعه بلاداً أخرى، واستولى الأذفنش على طليطلة وأعادها لحاضرة الملك كما كانت يوم دخل العرب الأندلس.

وكم في العالم الإسلامي من أمثال القادر بن ذي النون قديماً وحديثاً ينخدعون بأقاويل الأعداء ويستسلمون إليهم ويثقون بعهودهم، حتى إذا ما تمكن هؤلاء بواسطتهم من مرادهم قلبوا لهم ظهر المجن وأرسلوهم يقرعون سن الدم على ثقتهم بهم، ولكن حين لا ينفع قرع السن على حسن الظن فكان استرداد الإسبانيول لطليطلة مبدأ مصيبة الأندلس لأنه بأخذها أخذ الأذفنش إقليماً طويلاً عريضاً فيه ثمانون منبراً، ودخل في وسط بلاد الإسلام منها؛ فحال بين قرطبة وغرناطة من الغرب، وسرقسطة ولاردة وقلعة أيوب من الشرق حتى قال الشاعر :

الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

وإلى هنا تمت المقالة الأولى.

المقالة الثانية

ثم إنه لما استوثق لصاحب قشتالة أمر طليطلة وتمكن بها طمع في قرطبة وما زال حتى أخذها، ثم في إشبيلية وما زال حتى أخذها، وانهار بعد ذلك ملك الإسلام بالأندلس. ولولا نجدة المرابطين ثم الموحدين من أفريقية لسقطت الأندلس قبل أن سقطت بنحو(٣٥٠سنة)، فأبناء تاشفين ثم من بعدهم أبناء عبد المؤمن هم الذين شاء الله أن ينسؤوا أجل الإسلام في أسبانيا تلك المدة، وأما السبب في ملك ابن ذي النون لطليطلة وجلبة الأذفنش إليها فهو انصداع الخلافة في قرطبة وتشظي عصاها بتوالي الفتن، حتى إنه لما رأى أمراء الأطراف أن أمر الخلافة لم يعد جميعاً استقل كل أمير منهم بما بيده، فابن ذي النون بطليطلة وابن هود بسرقسطة، وابن عباد بإشبيلية، وابن صمادح بالمرية، وابن الأفطس ببطليوس وهلم جراً.

وهؤلاء هم الذين يقال لهم ملوك الطوائف، لم يكن لهم شغل إلا مقاتلة بعضهم بعضاً، بينما العدو يلتهم منهم كل يوم قطراً، وهم مع ذلك عن غيهم لا ينتهون.

ولذلك ولشدة ما عانى مسلمو الأندلس من ملوك الطوائف عندما نصرهم يوسف بن تاشفين رحمه الله في وقعة الزلاقة وأراد القفول إلى أفريقية فزع إليه الفقهاء وقالوا: إنك بمجرد ما ترجع يرجع هؤلاء إلى الظلم والعسف ومقاتلة بعضهم بعضاً واستنجاد الطاغية على المسلمين، فنرجو منك أن تريحنا منهم وتقوم بما أخذه الله عليك، وهكذا أقنعوه بأن يبسط يده على الأندلس كلها ويقضي على ملوك الطوائف، وجاءت الفتاوى بمثل ذلك إلى ابن تاشفين من الشرق، حتى قيل: إن الإمام الغزالي أفتاه بالاستيلاء على الأندلس إزالة لمعرة ملوك الطوائف، وليس لي أدنى اعتراض على ما فعل، ولو كان ابن عباد صاحب إشبيلية لخمياً وكنا نحن ننتهي إلى أرومة واحدة وكان ابن هود الخذامي جداً لصديقي خالد بك القرقني من عيون أعيان طرابلس الغرب، وهذا عدا أن لخماً وجذاماً كانتا قبيلة واحدة تقريباً.

وقصارى ما أعترض أنا فيه على يوسف بن تاشفين في نفيه المعتمد إلى أغمات؛ التقصير معه في أمر معيشته فقد كان يمكنه أن يرفه عيشه، أو يسد خلته ولو كان منفياً.

ولم تنجم دويلات الطوائف هذه إلا بسبب سقوط الخلافة في قرطبة، ولما كان حبل الخلافة مستحصفاً كانت الوحدة تامة، وكان الإسلام مهيباً، وكان المسلمون في أسبانيا نحو ١٥ مليوناً، وكانت قرطبة وحدها ذات مليون ومائتي ألف نسمة، وكان وكان.

فلما انتكث حبل الخلافة، وانصدعت الوحدة ساءت الحال، وتفرق الناس وزالت الهيبة، وذلت العرب، وبعد أن كان الناس لهم خولاً صاروا هم خولاً للناس.

هذه هي الخلافة التي يقول بعض الناس اليوم: إنها لم تفد الإسلام بشيء، بل يقولون: إنها كانت وبالاً على المسلمين إلا ابتلاؤهم بالشقاق والتقاطع، ولا سيما العرب الذين هم كما قال النعمان بن المنذر لكسرى: تراهم كلهم ملوكاً.

وكل أمة يريد جميع أفرادها أن يكونوا ملوكاً؛ ينتهي أمرها بأن يملك أمرها الأجانب ولا يبقى لها ملوك. وأعود إلى طليطلة فأقول: عندما كنت أقرأ:

طليطلة أدال الله منها ... سواها إن ذا نبأ كبير

فليس نظيرها إيوان كسرى ... ولا منها الخورنق والسدير

كنت أقول: ماذا عساها أن تكون هذه التي لا يحاكيها إيوان كسرى، ولا يرتفع إلى مستواها الخورنق والسدير؟ فلما رأيتها وجدت من حصانة موقعها، ومنعة أسوارها القديمة المبنية طبقاً على طبق، ما أكد لي قول هذا الشاعر، وعلمت أن سقوط طليطلة هو بالفعل نبأ كبير، لأن العرب لما أخذوا طليطلة ملكوا جميع ديار الأندلس، ولأن صاحب قشتالة لما دخل طليطلة بدأ الانهيار في جدار العرب ثم لما تذكرت قوله:

جوامعها كنائس أي قلب ... على هذا يقر ولا يطير

لحظة أن ناظم هذه القصيدة إنّما نظمها ثاني سنة فتح الأذفونش لها لأنه بحسب شروط تسليم طليطلة له كان تقرر بقاء المسجد الجامع للمسلمين، ووعد الأذفونش بمراعاة حقوقهم وأحسن معاملتهم في البداية ووزع مائة ألف دينار على ضعفائهم حتى يعملوا ويحرثوا، وهذا كله حتى يخدر أعصابهم ويغري غيرهم بالاستسلام، وقد أفلح في سياسته هذه، وخدع منهم خلقاً كثيراً، ولكنه بعد ذلك نقض كل عهد عاهد به وأعاد المسجد الجامع وغيره كنائس، وشاهدت تلك الكنيسة العظيمة وهي مبنية بمكان المسجد، ولم يبق من المسجد الأصلي إلا قسم قليل.

والبيوت في طليطلة لم يبق منها إلا قليل من القديم، ولكن صفة البلدة في ضيق شوارعها ودخول بعضها في بعض لا تزال كما كانت، كأنّما العرب لم يخرجوا منها إلا من خمسين سنة، وقد بقيت اللغة العربية لغة أهل طليطلة حتى بعد رجوعها للإسبانيول نحو خمسمائة سنة، يتكلم ويكتب بها المسلمون والمسيحيون معاً، ثم خلت طليطلة من المسلمين، فبقي المسيحيون وحدهم، وكذلك بقي اليهود، ولبثت لغتهم هي العربية، وبقي طراز بنائهم، وأسلوب معيشتهم غربيين، واستمر ذلك إلى سنة ١٥٨٠ مع أن ارتجاع الإسبانيول إياها كان سنة ١٠٨٥.

وكان لنصارى طليطلة طقوس دينية خاصة بهم يقال إنهم أخذوها عن القوط القدماء، وليست بالتمام مطابقة للطقس اللاتيني، ولما كانت طليطلة تحت حكم خلفاء بني أمية أي تبعاً لقرطبة؛ كان للنصارى المستعربين فيها أساقفة كما لنصارى قرطبة، وقد كان لمطران طليطلة في زمان الخليفة عبد الرحمن الناصر أسقف يقال له عبد الله بن قاسم، وقد أطلعني الأستاذ آسين بالأسيوس أعظم مستشرقي الإسبانيول على أربعة مجلدات مطبوعة حديثاً تتضمن الوثائق والصكوك العربية الباقية كانت في خزانة الكنيسة بطليطلة، يستدل منها على أن اللغة العربية كانت هي اللغة السائدة في تلك البلدة وما جاورها إلى نحو سنة ١٦٠٠.

ولقد نسخت بعض أنموذجات من هذه الوثائق، وهذا كاف من خبر طليطلة، بل هذا زائد على القدر اللازم لأن جميع هذه المباحث يجب ادخارها «للحلة السندسية في الرحلة الأندلسية»، وما جاء منها هنا هو محض اعتداء على «الحلة» وابتسار من ثمرات الرحلة، فمن شاء فليراجع الأخبار في آنها ومكانها. انتهت المقالة الثانية.

المقالة الثالثة

الجامعة الإسلامية لم تكن يوماً من الأيام بالمعنى الذي شاءت أوروبا تسميتها به لا في العصور الأخيرة ولا في العصور الأولى من الإسلام، طبعاً إن القرآن يوصي المؤمن أن يكون دائماً إلى جانب أخيه، وأن لا يفرق قضيته عن قضيته، غير أنه يأمره أيضاً بأن لا يؤيد إلا قضية عادلة. وأن يقيم العدل الصحيح تجاه كل الناس دون ما تفريق، فلا يمكن والحالة هذه أن يكون في الإسلام مسألة مناصرة مؤمن لغير مؤمن لمجرد كونه مسلماً. جاء في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

إن القرآن وسنة الرسول مليئان بالمواعظ الحاثة على إقامة العدل دون ما تفريق، الحق والحقيقة هما لله. ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم مرة: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، فسئل: كيف يعين أخاه ظالماً؟ فأجاب عليه الصلاة والسلام: «إذا كففت أخاك عن الظلم فقد نصرته». ولكن إذا كان المؤمن مظلوماً أينما كان وكيفما كان فإن القرآن يجعل معونته فرضاً مقدساً، إلا انه ينبغي ذكر أن إمكان هذه المساعدة بين المسلمين يجب أن يكون ثابتاً، ويجب أن تكون درجة هذه المساعدة موضع الدرس، فلا يمكن مطلقاً أن يطلب من المؤمن ما لا يستطيع، فالأقربون أولى بالمعروف، والقرآن صريح في هذه النقطة، وإليك الشروط التعاونية التي أمر بها الدين الإسلامي.

فالمسلمون تعاونوا بعضهم مع بعض غالباً أدبياً وعقلياً وسياسياً واقتصادياً ومادياً، والإسلام يقدم الأمثلة الناصعة على هذا التضامن، بيد أنه لم يتخذ في زمن من الأزمان شكلاً عاماً عالمياً، فالخلافة الموحدة في الإسلام لم تدم إلاّ مدة حكم الخلفاء الأربعة الأول، حتى إن خلافة علي كانت منشأ انشقاق هائل وحرب دامية بين المؤمنين، حرب ولدت الانقسام بين السنة والشيعة، فمنذ عهد الأمويين في الشام ووحدة الخلافة تعرضت لصدمة عظيمة من قبل ثورة ابن الزبير الذي انتزع منهم الحجاز مدة خمس عشرة سنة.

لكن في الإجمال ظلت الإمبراطورية الإسلامية موحدة. وهذه الحال استمرت زهاء قرن حتى سقوط الأمويين وقيام العباسيين الذين نقلوا قاعدة الخلافة من دمشق إلى بغداد. وفي ذلك الحين استطاع أحد الهاربين من بني أمية أن ينجو من سيف العباسيين فقصد أسبانيا التي كان الاستيلاء عليها حديث العهد؛ لكي يقيم فيها دولة مستقلة عن خصومه. ثم إن عبد الرحمن الأول وهو المسمى بصقر قريش لم يجرؤ وهو مستقل على اتخاذ لقب الخلافة لنفسه، وظلت الأدعية العامة في الأندلس تدعي أمامه باسم خلفاء بغداد، وإنّما عبد الرحمن الثالث الفاتح الشهير الذي أخضع كل أسبانيا وجنوبي فرنسا وكل شمالي أفريقية والذي كان أبرز حاكم في زمانه «القرن الثالث للهجرة» هو الذي تجرأ على أن يتخذ لقب خليفة بالرغم من وجود الخلفاء العباسيين في بغداد.

وعندئذ قامت عدة دول إسلامية مستقلة بعضها عن بعض، فالعباسيون في بغداد والأمويون في قرطبة، وفي حين من الدهر كان الإدريسيون في المغرب. ثم قامت أسرة ملكية أخرى تحدث انقساماً جديداً وهي أسرة الفاطميين خلفاء القاهرة «القرن الخامس للهجرة» استطال حكمها حتى القرن الحادي عشر، ومن ذلك الحين فقدت الوحدة الإسلامية كقوة سياسية، ولم يعد التضامن إلى تلك الممالك المتحدة. وكان معترفاً للعباسيين بشيء من التفوق الأدبي ليس غير. وكان يبدو أحياناً مظهراً للتضامن الأدبي حتى والمادي في البلاد الإسلامية، لكنه لم يتجاوز حدود التضامن الذي كان ممارساً في البلاد المسيحية.

وقد قدمت الدول المسيحية في القرون الوسطى تجاه الإسلام مثالاً للوحدة التي كانت مفقودة عند الدول الإسلامية، وذلك بتضافر الفرنسيين والألمان والفلمنك والإنكليز والطليان الخ، ككتلة واحدة لحرب المسلمين في الشرق، فقاموا بإحدى عشر حملة صليبية، ومن جهة ثانية رأينا المسلمين لما

أرادوا صد تلك الحملات لم يتحدوا إلا فيما بين المصريين والسوريين وسكان ما بين النهرين ، وهؤلاء جميعاً ليسوا إلا جزءاً من المسلمين ، وعبثاً نادى صلاح الدين ودعا مسلمي المغرب لتؤازره حكوماتهم بأساطيلها القوية ، ولو أنهم لبوا دعوته لاستطاعوا أن يحولوا دون نزول الحملات الصليبية .

ولئن كان بين مسلمي أفريقيا ومسلمي الأندلس تضامن تجلى بتقدم الجيوش ؛ فقد كان إزاء ذلك أكثرية منهم بجانب الشعوب المسيحية ، ولكن بين الشرق الإسلامي والغرب الإسلامي لم يسطر التاريخ أعمالاً عسكرية تبودلت بشكل عام . وقد وقع فقط أن أهل تونس والجزائر وطرابلس الذين كانوا أقلية تجاه الدول المسيحية دعوا لنجدتهم الدول العثمانية ، وقد سارع السلطان سليمان القانوني لوضع هذه البلاد تحت سيطرته إما رغبة في الفتح ، وإما في التضامن الإسلامي ، وإما لإقامة التوازن بين قوته وقوة شارلكان .

وقد مر حين من الدهر لم يكن في البحر المتوسط سوى أسطولين : أحدهما إسلامي تحت قيادة خير الدين برباروس . والآخر مسيحي . انتهت المقالة الثالثة .

الفصل الثالث

في أن القرآن ذكر للمسلمين عموماً وللعرب خصوصاً في النهضة الحالية

ولأقدم مقدمة فأقول : اعلم أيها الذكي أني كما ذكرت سابقاً مولود بقرية من قرى مديرية الشرقية تسمى « كفر عوض الله حجازي » ، وقد كان ذلك أيام الظلم والاعتساف ، والجور والقسوة ، فكان الحكام أظلم خلق الله ، وكانت الرعية جارية على سنن الرعاة ، فالأقوى كان يظلم الأضعف ، وكنت أرى أن الأقوياء والأغنياء يتحكمون في الضعفاء ، فيرسلونهم إلى أعمال الحفر في الجسور والترع التي لا أجر عليها من الحكومة ، بل هي مجرد ظلم واسترقاق وإرهاق ، ولكن كانت الحكومة المصرية تنتقل من حسن إلى أحسن سنة فسنة ، حتى استتب الأمن في البلاد وعرف كل ذي حق حقه .

وفي أثناء تلك المدة دخلت الأزهر فمدرسة دار العلوم فصرت مدرساً ، وهنالك أخذت أؤلف الكتب لنشرها بين المسلمين قياماً بما عاهدت الله عليه أني إذا عرفت الحقائق العلمية جعلت حياتي وقفاً على تعليم ورقي المسلمين ، كي لا يستسلموا للشك الذي آذاني وأقلق بالي ، وأخذت أعرض الكتب على ذوي الرأي في البلاد ، حتى إذا وجد أحدهم عيباً دلني عليه ، وكان حديثي المتقدم مع المرحوم لطيف باشا سليم ، وتوالت الجمعيات في مصر كحزب الوفد المصري وحزب الأحرار الدستوريين وغيرهم ، وهذا كله مصداق لما رأيته من قبل ، وقد ظهرت في هذه الأيام جمعية الشبان المسلمين ، ولها فروع في الجزائر وتونس والشام والعراق وأمريكا ، وهكذا جمعيات أخرى كجمعية المواساة والجمعية الجغرافية وغيرهما ، وكم في الأقطار العربية من جمعيات أدت أعمالاً عظيمة وأكثرها ظهرت بعد الحرب الكبرى ، وجميع البلاد الناطقة بالضاد اليوم تطلب الاستقلال . فانظر ما جاء في جريدة الأهرام بتاريخ ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٩ وهذا نصه :

الانتداب في البلدان العربية

بقلم الكبتن غوردون كانتج

المقال الأول

كان من أعظم أسباب سقوط الإمبراطوريات القديمة إسراف القوة الرئيسية تدريجاً بالتوسع المطرد في الممتلكات، ونرى في عصرنا هذا أن الإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية الفرنسية في خطر الانحلال لهذا السبب نفسه، إن مستشاري الإمبراطوريتين ويلوح أنهم من طراز نديم سابق لتاريخ البشر ممن لهم خبرة بفنون الحرب يصرحون أن الضرورة تقضي بصيانة الممتلكات الموجودة بضم ممتلكات أخرى.

معلوم أن زيت البترول باب من أهم مطالب العالم في هذه الأيام، فأصبحت موارده من الضرورات الأولية لكيان الدول العالمية؛ فالبترول إذن كان من العوامل التي اجتذبت إنكلترا إلى العراق وفلسطين وإيران التي اضطرت بحكم أحوال خصوصية إلى الانسحاب منها، ومتى كانت إنكلترا موطدة في العراق وفلسطين ففرنسا لا يمكنها أن تتخلى عن بقعة مجاورة ترتكز إليها وتتخذها قاعدة لحماية مصالحها، وهذا ما بعث على عقد اتفاق «سيكس ـ بيكو»، وتنفيذ هذا الاتفاق كان مضراً بالاتفاق الذي بين الملك حسين والحكومة البريطانية مع أنه كان في تاريخ سابق لاتفاق «سيكس ـ بيكو»، ومما يدل على أن إنكلترا قد سلمت بأنها حنثت في عهدها مع الملك حسين أنها أوجدت عرش العراق للملك فيصل بعد ما طردته السلطات الفرنسية من سورية، وقد أثر ذلك تأثيراً سيئاً في سمعة إنكلترا وهيبتها في الشرق الأدنى والشرق الأوسط، لأن العناصر العربية أدركت أنها سعت لثأر أقوى وأقدر، فقد كانت مقتضيات مواصلة الحرب أهم من كل شيء وفوق كل شيء، حتى إن الشرف البريطاني ترك جانباً وعد من سقط المتاع، وكانت هذه الاتفاقات الحربية المختلفة هي السبب الأكبر التي جعلت معاهدة فرساي وغيرها من المعاهدات شؤماً وهولاً وأسباب القلق الحالي وعدم الارتياح بين ملايين من الناس. والغاية من مقالتي هذه أن أقترح علاجاً لمسألة بلدان الانتداب في الشرق الأدنى والشرق الأوسط التي عانت هول تلك المعاهدات، وفي أي علاج يتناول مصالح عدة أمم لا يمكن لأية أمة منها أن تكون راضية كل الرضا، ولا بد من مراعاة مبدأ الأخذ والعطاء من كل جانب.

وللبحث في هذه المسألة لا أرى من الضرورة الدخول في تفاصيل إدارة شؤون بلدان الانتداب خلال الثمان سنوات الأخيرة، لأن هذه الوجهة من المسألة كانت موضوع البحث في عدة جرائد ومؤلفات، فالغلطات التعيسة والأخطاء المحزنة التي ارتكبتها فرنسا وإنكلترا قد اعترف بها، وليست المصاعب التي جابهتها كلاهما مما يستحق العطف، لأنها من المصاعب التي أوجدتها إنكلترا وفرنسا، وقد أصلحت إنكلترا جانباً عظيماً من أخطائها ولا سيما علاقتها مع العراق، وأخذت فرنسا بإرشاد المسيو بوسو تحاول إصلاح عواقب إدارتها الوضيعة في سورية، إن الغلطة الرئيسية التي ارتكبتها كل من إنكلترا وفرنسا هي عدم العمل بمقتضى البند الثامن والعشرين من عهد جمعية الأمم، وقد قالت المس «هويت» في كتابها عن الانتدابات ما يلي:

أما إذا كانت هذه الرغائب قد نفذت فأمر مبهم غامض، وأما إذا كان هناك لأولئك الناس رغائب جلية فأمر أغمض وأكثر إبهاماً، وبالحقيقة وواقع الأمر أن أهل بلدان الانتداب لم يستشاروا، والأسلوب الذي اتبع في هذه البلدان في تقسيمها إلى دويلات أوجد على سطح الكرة الأرضية بلقان أخرى، وهو أسلوب سقيم من الوجهة الاقتصادية نظراً للتعريفات الجمركية بين تلك الدويلات وعرقلتها لحركة التجارة. وبلدان الانتداب المعرفة بحرف (١) هي كما يلي:

(١) العراق: وضع انتدابه في شهر إبريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الأمم في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٤ ويبلغ عدد سكانه ثلاثة ملايين.

(٢) سورية: وضع انتدابها في شهر إبريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الأمم في يوليو سنة ١٩٢٢ ويبلغ عدد سكانها ٢٢٥٠٠٠٠ من المسلمين، و٤٠٠٠٠ من الدروز، و٤٠٠٠٠٠ من المسيحيين منهم ١٥٠٠٠٠ ماروني.

(٣) فلسطين: وضع انتدابها في شهر إبريل سنة ١٩٢٠ ووافقت عليه جمعية الأمم في شهر يوليو سنة ١٩٢٢ ويبلغ عدد سكانها ٧٥٠٠٠٠ نفس ٨٧ في المائة منهم عرب.

(٤) شرق الأردن: ويبلغ عدد سكانه ٢٠٠٠٠٠ نفس.

وفي شبه جزيرة العرب بلدان تحت الحماية البريطانية وهي: عدن، وعمان، والكويت، وبلدان مستقلة وهي: نجد والحجاز والعسير واليمن وحضرموت، ومجموع عدد سكان هذه البلدان كلها يتراوح بين خمسة عشر مليوناً وعشرين مليون نسمة.

أما إذا كان اصطلاح الانتداب قد وضع على قاعدة المثل الأعلى أو ابتكر كمرادف للضم والتملك فليس من موضوع البحث في مقالتي هذه؛ ولكن الأرجح أن جانباً عظيماً من عدد السكان المبين آنفاً متحد في مطالبه ورغبته في التخلص من الوصاية الأجنبية وإن كان مختلف الأحزاب غير متفقة على شكل الحكومة التي يجب أن تحل محل حكومة الانتداب أو دولة الحماية.

فهل مقتضيات الإمبراطورية البريطانية تتطلب أن تكون إنكلترا في فلسطين والعراق وشرق الأردن؟ وهل من الضروري أن تكون فرنسا في سورية؟ إن جواب البلدين هو: نعم. فإذا كانت إحدى الدولتين في سورية لا بد أن تكون الأخرى في فلسطين والعكس بالعكس، وتقول إنكلترا: نعم لأدافع عن قناة السويس ضد مهاجميها من الشرق، ولأدافع عن مصالح بريطانيا في بترول الموصل والمحمرة. وتقول فرنسا: نعم لأدافع عن خط أنابيب البترول وسكة الحديد المزمع مدها إلى الموصل وبغداد ومن كل منهما إلى حيفا، وهذه الفكرة الثانية لتنمية التجارة ومصالح الصناعات، ويتبعها ويترتب عليها الحماية العسكرية، وهكذا تظل الدول الأوروبية الإدارية تثير كتلة متجمعة من الرأي العدائي في تلك البلاد الذي قد يصبح بقوة الاتحاد قوة خطرة خطيرة، فالأفضل والحالة هذه الاعتماد على عقل سكان البلاد وعلى عهد صداقة يقوم على قاعدة التعاون التجاري والكسب المتبادل.

والسبب الأول يمكن درؤه باتفاق متبادل يعقد بين إنكلترا وفرنسا للانسحاب في وقت واحد من سورية وفلسطين وشرقي الأردن، ولكن فرنسا تقول: محال علي أن لا أحمي الأقلية المسيحية.

ولكنا نرى اليوم أن هـذه الأقلية المسيحية هي أيضاً تطلب جلاء فرنسا عن البلاد، وتقول إنكلترا: إن ذلك مستحيل، لا يمكننا لأن تنسحب وندع الإسرائيليين تحت رحمة العرب. ومع هذا فإن اليهود والعرب كانوا في عهد تركيا عائشين معاً في وفاق تام، إن تصريح بلفور هو سبب الاضطراب الحالي بين العرب واليهود، إن تأسيس هذا الوطن القومي لليهود لم يلق تعضيداً حقيقياً من زعماء اليهود، فقد أبدوا الفكرة عن غير طيبة خاطر مالياً وأدبياً، ولم يوافقوا قط على فكرة مغادرة محل إقامتهم للإقامة بذلك الوطن القومي، وقد كان معظم المهاجرين من اليهود القاطنين في شرقي أوروبا الذين ذاقوا الذل والهوان، وعانوا الشيء الكثير من الاضطهاد والظلم. وقد برهنت الأيام على أن الصهاينة صناعة خائبة عقيمة وجناية سياسية. فالصهيونيون المقيمون الآن بفلسطين قد وجدوا هناك بمساعي إنكلترا وجهودها ولا بد من الاعتراف بهم وحمايتهم ومساعدتهم.

نعم يجب الوصول إلى اتفاق متبادل بين فرنسا وإنكلترا تتفقان فيه على سحب كل شيء فيه شبهة العسكرية من سورية وفلسطين وشرقي الأردن، وأن يقدما للبلاد خبراء لتنمية فن الإدارة الحكومية والفنون والصناعات عندما يطلب منهم العرب ذلك بأنفسهم. والحامية البريطانية التي تسحب من مصر وفلسطين يمكن أن تعسكر لمدة ١٥ سنة في جوار بورت فؤاد بعد استئذان الحكومة المصرية، فتكون منها قوة مركزية متأهبة في أية لحظة للدفاع عن مصالح بريطانية العظمى في شرقي البحر الأبيض المتوسط، وللتعاون مع الحكومة المصرية على حماية القناة ودرء الاعتداء على حرية الشعب المصري. ولكن قلما يتسنى نقل هذا الاقتراح إلى حيز العقل، يجب على العرب أن يمدوا أيديهم للعمل ويقدموا برهاناً حاسماً على استطاعتهم إيجاد مشروع ابتكاري يتسنى به ملافاة حدوث الفوضى عندما تنسحب القوات البريطانية والفرنساوية من البلاد. فعلى نواب العرب أن يقدموا مشروعاً يبينون به ما يلي:

(١) أنهم أهل لإدارة شؤون بلادهم بأنفسهم وأن الانتداب صار غير لازم.

(٢) إن جميع المشروعات التجارية مثل سكك حديد بغداد وحيفا ومنابع البترول في الموصل والمحمرة تقدم لها التسهيلات اللازمة لترقيتها وإنمائها، وأن يسمح للمشروعات الأوروبية بالاشتراك مع المشروعات العربية أن ترقي مؤهلات البلاد التجارية والصناعية تحت شروط عادلة مرضية للجميع.

(٣) أن تستطيع الحكومات العربية تقديم الضمان الكافي لتأمين معاملة الأقليات المسيحية في سورية والأقلية اليهودية في فلسطين وتنفيذه، وأن تمنح الوطن القومي اليهودي قسطاً معيناً من الحكم الذاتي، وهذا الوطن القومي يجب أن يكون مثالاً مصغراً لمركز روحي تثقيفي فقط.

(٤) أن يستطيع زعماء نواب العرب أن يقدموا برهاناً حاسماً على موافقتهم على إنشاء وإيجاد دول عربية تحت سيطرة ابن السعود إذا كان ذلك ممكناً. وبهذا تم الكلام على المقال الأول.

المقال الثاني

يعتقد معظم الناس أن العرب يعجزون عن إظهار مقدرتهم بتقديم خطة إنشائية، أما أنا فأعتقد أنهم قادرون ليس بناء على تاريخ عنصرهم الماضي فقط؛ بل لما يحرزه أبناء العرب المهاجرون من

النجاح الباهر في المراكز الصناعية والتجارية العصرية في بونس أيرس ونيويورك وغيرها من أنحاء العالم المتمدن، وليس من الضروري الرجوع بالقارئ إلى الحكومات العربية السديدة الخطوات في العهود الغابرة، وحسبي أن أقول إنه في القرن الثامن بعد الميلاد في عهد الخلفاء الراشدين ببغداد كان في وسع التاجر المتجول أن يسافر من البصرة إلى دمشق مثقلاً بالسلع بغير أن يعتدي عليه أحد. وفي عام ٩٨٠ ميلادية، كان المسافر يقطع الشقة بين المهدية والقاهرة بلا خوف ولا وجل من قطاع الطرق، فإذا كان العرب قد استطاعوا في تلك الأيام تأمين الطرق بهذه الكيفية، فمن الأكيد المحقق أنهم قادرون على ذلك في هذه الأيام، ولا بد لنا من التسليم أنهم يحرزون هذه المقدرة بالإرث، ولكن هل يحرزون الإرادة والعزيمة على إظهار هذه المقدرة؟ إن على العرب أن يبرهنوا على ذلك الآن، ولا يكفي أنهم شديدو الرغبة في طرد المعلم من بلادهم، فهذا لا يعدو سياسة الهدم، ولكن يجب عليهم أن يظهروا مقدرتهم على التعمير والإنشاء. أما فيما يتعلق بالمخاوف التي قد تتطرق إلى قلوب الإنكليز بأن الأقليات المسيحية واليهودية لا تطيق الأغلبية الإسلامية فلا بد من قول شيء في ذلك.

إن الأقليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معاملة في البلدان الإسلامية، إلى أن تأتي دولة أوروبية وتستخدم تلك الأقليات لقلب الحالة، كما حدث في مسألة الأرمن والأتراك نعم إنه في الأنحاء البعيدة المنعزلة عن العالم الإسلامي قد لا يخلو الأمر من تعصب ضد المذاهب الأخرى، ولكن هذا كان كذلك بين مختلف الطوائف المسيحية.

على أن زعماء العرب في هذا العصر وفي العصور السابقة كانوا دائماً يعملون على تلافي هذا التنافر وإصلاح ذات البين، فإذا كان التعصب الديني قد أخذ مجراه في زمن من الأزمنة؛ فقد كان المسلمون من غير مذهب الحاكم ينالهم من الاضطهاد ما ينال المسيحيين، ومن الواجب أن تتخذ مبادئ نجران كالمثل الأعلى للزعيم المسلم، وكلمة الإمام علي رضي الله عنه: إن دم الذمي كدم المسلم، هي أيضاً خير مثال.

واليوم نرى الموازنة في لبنان والمسيحيين العرب في فلسطين ومسلمي الشام وفلسطين والعراق قد أخذوا يعرضون عن الفوارق في المذاهب والعقائد، ويجنحون إلى المثل الأعلى والمذهب العميم، وهو أننا جميعاً إخوان في الإنسانية، وأول خطوة في هذا السبيل هي السعي إلى توحيد بلاد العرب، وقد أخذ أبناء العرب المثقفون المتنورون في هذه الأيام يتطلعون إلى هذه الغاية ويبثون الدعوة إليها في عدة أنحاء، وزعماء العرب أدرى مني بالمنهج الذي يجب أن ينتهجوه للحصول على الوحدة العربية والتخلص من وصاية الأجنبي والتقدم الحثيث في التعاون مع خير الطبقات الأوروبية، وإني اقترح ما يلي على سبيل التجربة:

(أولاً) المبادرة إلى عقد مؤتمر في القاهرة يدعى إليه مندوبون من جميع البلدان العربية.

(ثانياً) ينتخب هذا المؤتمر مجلساً دائماً يكون مقره في القاهرة أو جدة أو الشام. ولما كانت القاهرة مركزاً حسناً تتوفر فيها أسباب المواصلات مع جميع بقاع الأرض العربية قد تكون لائقة لأن تصبح بمثابة جنيف للعرب.

(ثالثاً) على هذا المجلس الدائم أن يظل على اتصال وثيق بالبلدان العربية، وأن يعمل على عقد مؤتمر كل سنة أو سنتين.

(رابعاً) على هذا المؤتمر السنوي أن يتخذ الإجراءات اللازمة لإيجاد اتحاد عربي وأن ينتخب زعماءه ويتفق على زعيمه الأكبر.

(خامساً) تكون مهمته توحيد الأمة العربية ببث دعوة مبنية على الفطنة والحصانة.

(سادساً) يجب وضع خطة للتعليم يمكن كل دولة في خلال الخمس عشرة سنة المقبلة من الحصول على سيل مطرد من الشبان المتدربين على فن الإدارة الحكومية والعلوم والفنون والشؤون الصحية وما إلى ذلك.

فإذا استطاع العرب أن يصلوا إلى هذا التوحيد فيحتمل أن تتمكن إنكلترا من رفع حمايتها عن جميع البلدان العربية عدا عدن، وأن تعقد معاهدة صداقة ومحالفة بين سلطات الاتحاد العربي والإمبراطورية البريطانية، وإني أعتقد أن حلًّا كهذا يكون ضماناً أفضل لسلامة المواصلات الإمبراطورية، ويتوطيد أركان القوة في هذه البلدان من الشرق الأوسط وتوحيدها تتخلص الإمبراطورية البريطانية من إنفاق عدة ملايين من الجنيهات كل عام.

ويغلب على ظني أن العرب يجب أن لا يتصوروا وهم لا يتصورون أنه يتسنى لهم الوصول إلى هذه الغاية بغير مساعدة من الغرب، ويجب أن لا يعزب عن بال إنكلترا وفرنسا أن أمة تحت التدرب والتعليم لا يمكن أن تحرز المسؤولية اللازمة إلا بالممارسة والاختبار، وبهما دون سواهما تتعلم هذه الأمة اجتناب الأخطار والوصول إلى مستوى مرض من الحكم الذاتي، وزعامة الدعوة إلى الوحدة العربية يجب أن تخرج من دمشق، وربما قبل مضي وقت طويل يعود العالم العربي إلى ازدهاره ويناعته، ويدهش العالم بثقافته وعلمه كما كان في سالف الأحقاب.

وما هو تأثير هذا كله في إنكلترا فيما يتعلق بالإمبراطورية البريطانية؟ الجواب عن ذلك من الوجهة السلبية أنه يوجد القوة العسكرية في مركز واحد، ويقلل من تبعة التورط ويؤدي إلى اقتصاد المال، ومن الوجهة الإيجابية الابتكارية يضم جميع العنصر العربي إلى دائرة الصداقة الخالصة، ويوجد زبائن أقوياء أغنياء بالتقدم في المعيشة العصرية وبالتعاون التجاري الوثيق مع الغرب، وحيث كان زبون واحد في الماضي يقوم اثنا عشر زبوناً جديداً محله.

إن مشروعاً كهذا يتطلب وقتا للنضوج، ولكن الوقت لا يجدي ولا يغني فتيلاً إذا كان زعماء العرب في هذا العصر لا يعدون التربة ويتعهدونها بسماد العقل والفطنة وينثرون فيها بذور الاتحاد والوئام، ولإنعاش هذا المشروع وإبلاغه طور الازدهار والإيناع يجب أيضاً أن تنقى أرضه من الأعشاب البرية، وأن يروى ويسقى ليس بمساعي زعماء العرب الشجعان فحسب، بل بمساعي الأوروبيين أيضاً، ولا سيما الرجال الإنكليز ذوي البصيرة النيرة والنية الحسنة.

ولكي ينتج هذا المشروع خير النتائج من الضروري الحصول على تعضيد إنكلترا ومعاونتها، فللعرب أن يقتبسوا العلوم عن الألمان والفنون عن الفرنسويين، ولكن العلوم السياسية وفن معاملة

المذاهب المختلفة، وتحمل الفوارق الدينية، وواجبات الشرف والنزاهة يجب أن يتعلموها من إنكلترا ومن الرجال الإنكليز، وقد يطول العمر على ثقافة إنكلترا وتبقى مكرمة محترمة مرغوباً فيها خلال أجيال كثيرة مقبلة، ويكون مثلها مثل ثقافة الرومان والعرب في هذا العصر. وأختم مقالي هذا بكلمات أوناموتو: إني أقصد الحث وإذكاء وطيس الحماسة والاقتراح لا الإرشاد والتعليم. وإلى هنا تم الكلام على المقالين للكاتب النزيه غوردون كانتج.

الفصل الرابع: في تأكيد الفصل الثالث وذلك بمقالين

المقال الأول: التنافس الدولي ونصيب العرب منه

جاء في إحدى جرائدنا المصرية في يوم الأربعاء ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٤٩هجرية ما يأتي: إن القاعدة التي بنيت عليها مدنية القرن العشرين: الحق للقوة. وعلى هذا الأساس أصبح التنافس عظيماً بين الدول العظمى في بناء الأساطيل، وتدريب الجيوش، والتفنن في ابتكار الآلات الجهنمية القاتلة لحيازة السيادة والتفرد بالنفوذ في هذا العالم، مما أدى إلى نشوب الحرب العظمى التي كان من نتائجها انهيار الإمبراطورية الألمانية وسقوط أكبر دولة حربية على وجه الأرض.

إذا كانت الضغائن موجودة في الأفراد عند انتصار أحدهم على الآخر ومنعه من نيل ما يبتغيه والاستئثار به دون رفيقه؛ فأحر بها أن تكون عند الدول الكبيرة، وهكذا فإن ألمانية التي كانت تطمح لفتح العالم أصبحت اليوم لا حول لها ولا طول، لا ترى بعين الرضا ما يتمتع به دول الحلفاء من ثمرات الانتصار وتفردهم بالاستيلاء على بلاد العرب، وإذا كانت عاجزة عن إثارة حرب ثانية تقضي بها على ما يتمتع به غرماؤها، فلا تعدم غيرها من الوسائل خصوصاً، وهي تلك الدولة التي دفعت سفينة العالم في اليم وجعلتها تائهة بين أمواجه المتلاطمة مدة أربع سنوات حتى رست على الشاطئ وهي محطمة.

إن الشعب العربي يقطن أقطاراً شاسعة، وأغلبها واقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من خليج الإسكندرونة إلى مضيق جبل طارق، وهذا الشعب خاضع جميعه لنفوذ وسيطرة ثلاث دول كبيرة «الحلفاء»: الأولى: بريطانيا العظمى، ولها الشطر الأهم كمصر والسودان وجزء من سورية الجنوبية والعراق وأغلب سواحل الجزيرة العربية، والثانية: فرنسا، وفي يدها سوريا وإقليم المغرب أو إفريقيا الشمالية كتونس والجزائر ومراكش. والثالثة: إيطاليا، وهي مستولية على طرابلس الغرب.

فمن هذا ترى أن بلاد العرب محصورة في يد هذه الدول الثلاث التي لم تزل تسعى وتجتهد لتفكيك عرى هذا الشعب وبث روح التنافر فيه بمختلف الوسائط، فهذا مصري وذاك سوري، وهؤلاء عراقيون، وأولئك مغاربة، وبث سموم فكرة اللغات العامية والسعي للتشويق إلى العدول عن اللغة الفصحى التي هي الرباط الوحيد الذي يربط سبعين مليوناً من العرب.

ولما كان لهذه الدول من ينافسها في السيادة ولا يروق له أن تتحكم في هذه الشعوب؛ جعل يناصبها العداء بمختلف الوسائط التي تقضي على نفوذها وسلطتها من حيث لا تشعر. إن التنافس بين

إنكلترا وروسيا هو سبب بقاء الآستانة بيد الترك ، أو بقاء الدولة العثمانية إلى زمن الحرب العظمى ، وكذلك بقاء الدولة الإيرانية . وهانحن الآن للمرة الثانية نرى التنافس بين ألمانية ودول الحلفاء سيكون سبباً لإيجاد شيء من لا شيء وخلق كيان من العدم .

إن الشعب العربي الذي قرر المفكرون بأنه صائر إلى الانقراض بدأ يتحرك ويحس بوجوده في هذا العالم بعد تلك الغيبة الطويلة ، وما هذا إلا بفضل ذلك الطبيب النطاسي الحاذق الذي أخذ على عاتقه إحياء هذا المريض ليحرم أعداءه من تراثه .

إن الاجتماع العربي الكبير في « برلين » تحت إشراف لجنة الدفاع عن المغرب العربي وحضور مندوبين من جميع الأقطار العربية للاحتجاج على مرور مائة عام على احتلال فرنسا للجزائر أول قطر عربي احتله الأجنبي وإلقاء الخطب النارية التي ترمي جميعها إلى وحدة العرب الكبرى ؛ ما هو إلا أثر من آثار التنافس الدولي بين ألمانيا والحلفاء .

وهكذا سوف نرى أن هذه المنافسة الخطيرة ستفضي إلى خلق دولة الاتحاد العربي العام . ومن يعش يره ، أو كما قال شاعر العرب القديم :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له ... بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد

البصرة ـ العراق
أبو الوليد

المقال الثاني

جاء في جريدة الأهرام يوم الجمعة ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٩م ما يأتي :

في المجمع النسائي العربي

قرر المجمع النسائي العربي في بيروت وكذلك فروعه في البلدان العربية في الجلسة القانونية المنعقدة في أول نوفمبر سنة ١٩٢٩م بعد الوقوف على آراء الأكثرية الساحقة من مفكرات وجمعيات الأقطار كافة المسائل التالية :

(أولاً) المبادرة إلى عقد المؤتمر الشرقي العربي الأول في مدينة دمشق قلب العرب النابض في أواخر الربيع القادم لتعود المرأة العربية إلى ازدهارها ومناعتها ، ويدهش بثقافتها وعلمها كما كان في سالف الأحقاب ، وتنضم جميع العناصر النسائية إلى دائرة الصداقة الخالصة .

(ثانياً) ينتخب لهذا المؤتمر مجلس أعلى من مفكرات هذه الأقطار ويكون له مركزان رئيسيان في دمشق والقاهرة .

(ثالثاً) على هذا المجلس الدائم أن يظل على اتصال وثيق بالبلدان العربية وأن يعمل على عقد مؤتمر في كل سنة مناوبة في أقطار الشرق العربي .

(رابعاً) على هذا المؤتمر السنوي أن يتخذ الإجراءات اللازمة لإيجاد اتحاد نسائي شرقي عربي تكون مهمته توحيد الأمة العربية ببث دعوة مبنية على الفطنة والحصافة .

(خامساً) أن يكون هذا البيان كإعلان رسمي لجمعيات وأفراد المفكرات في الأقطار الآتي ذكرها وهي : مصر ، تونس ، طرابلس ، الجزائر ، برقة ، مراكش ، السودان ، جنوبي أفريقيا ، فلسطين ، شرقي الأردن ، العراق ، الحجاز ، اليمن ، نجد ، حوران ، بلاد العلويين ، سورية ، لبنان . وبصورة خصوصية يطلب المجمع آراء أخواتنا في المهجر ليشتركن معنا روحياً .

(سادساً) أن المسائل الخمس الرئيسية التي ذكرت في برنامج المؤتمر وأضيفت إليها مسألة رعاية الطفل باقتراح النابغة « مي » سيتفرع منها مواد شتى .

(سابعاً) أن هذا المؤتمر العام لا يزاحم المؤتمرات المحلية بل يحترمها ويؤيد مقرراتها . انتهى المقال الثاني .

الفصل الخامس

في أن الوطن اليهودي في فلسطين مما قرر ارتفاع ذكر الأمم العربية

جاء في إحدى المجلات العلمية وهي « السياسة الأسبوعية » في يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٣٠ تحت العنوان الآتي ما نصه :

حديث للأستاذ محمد علي باشا

عن رحلته في فلسطين ودفاعه عن البراق ورأيه في الرابطة العربية

عاد الأستاذ الكبير محمد علي باشا من الديار الفلسطينية بعد أن قضى في بيت المقدس زهاء عشرين يوماً أبلى فيها أحسن البلاء في الدفاع عن حقوق المسلمين والعرب في البراق الشريف أمام لجنة التحقيق الدولية ، وكان لدفاعه المجيد أثر خالد في الأوساط السياسية العربية وضجة عنيفة في الدوائر الصهيونية ، وقد رأى أحرار الجالية السورية بمصر أن يخفوا لزيارته ويهنئوه بسلامة الأوبة ويشكروه على ما تحمله من المشاق ، وما قام به من جلائل الأعمال في تأييد حقوق العرب وتشجيب مزاعم الصهيونية ، فتألف وفد من هيئة إدارة جمعية الدفاع عن فلسطين وأعضاء حزب الشعب العربي السوري برئاسة الأستاذ الزعيم الدكتور شهبندر ، وزاروا الأستاذ محمد علي باشا في منزله للقيام بواجب التهنئة والشكر ، وقد رأى كاتب هذه السطور أن يغتنم هذه السانحة ، فطرح على الباشا أسئلة عدة حول البراق والمسألة الفلسطينية والرابطة العربية ، فتفضل معاليه وأجاب عليها ما يلي :

(س) لقد رفعتم رأس مصر والشرق عالياً بما ناضلتم به عن حقوق العرب وتفنيد المزاعم اليهودية الصهيونية في قضية البراق الشريف « جدار المبكى » ، فهل لكم أن تتفضلوا بتخليص الأسس التي بنيتم عليها دفاعكم المجيد؟

(ج) حينما اتصل بي نبأ إبحار اللجنة الدولية إلى فلسطين للتحقيق في قضية البراق والنظر في شكاوى الفريقين المتنازعين والحجج التي يتذرع كل منهما بها ، تحركت في نفسي عاطفة الغيرة على هذا المكان المقدس الذي تتجه نحوه أنظار ثلاثمائة مليون مسلم ونيف في جميع أقطار العالم ، ورأيت أن الواجب الديني والقومي يقضي علي بأن أقبل دعوة إخواني الفلسطينيين ، وأقوم بقسطي في الدفاع عن ذلك الجدار الشريف ، فبرغم الأزمة الوزارية التي قامت في مصر ، وبرغم ما كنت أشعر به من

الانحراف في صحتي، لبيت نداء الواجب، ووليت وجهي شطر بيت المقدس، بعد أن تعرفت هناك إلى أحرار البلاد ودرست الموضوع من جميع أطرافه رأيت بالاتفاق مع سعادة الأستاذ أحمد زكي باشا، وهيئة الدفاع أن نقسم أعمالنا إلى ثلاثة أقسام:

(١) القسم التاريخي: ويتولى القيام به أحمد زكي باشا.

(٢) قسم التحقيق ومناقشة الشهود: ويتولاه الأستاذ عوني بك عبد الهادي.

(٣) القسم القانوني والسياسي: وقد عهد إلي بالقيام به.

وسار التحقيق سيره المعلوم، وأدلى كل من الفريقين بحججه وبراهينه، وبسط الأستاذ أحمد زكي باشا موضع النزاع من الوجهة التاريخية الثابتة والوثائق القطعية التي لا ترد مؤيداً بها حقوق المسلمين، ومن ثم جاء دوري فرأيت أن أستهل دفاعي بإبداء الاحتياطين الآتيين:

الأول: إن الأمة الفلسطينية أعلنت رسمياً وفي كل الظروف عدم اعترافها بالانتداب البريطاني وهي لذلك لا تريد أن تتقيد بأي نظام مستمد من هذا الانتداب ولا الإقرار بأية نتيجة ترجع إلى ما يسمى بوطن قومي لليهود، فدفاعي في هذا النزاع لا يغير شيئاً مما احتفظت به فلسطين لنفسها، لأنها هي وحدها صاحبة الحق في تقريره.

الثاني: يقرر المسلمون أن للنزاع على ملكية أماكن العبادة أو على حقوق مدعى بها على هذه الأماكن يجب أن ترفع إلى الهيئة المختصة دون غيرها بالفصل في أمر الوقف والأماكن المقدسة الإسلامية وما عداها فهو غير مختص أصلاً لعدم وجود حق له في ولاية الحكم على هذه الأماكن.

ثم دخلت بعد ذلك في الموضوع من الوجهة السياسية، وكشفت القناع عن حقيقة هذا النزاع وأسبابه الصحيحة، وبسطت ما لقيه اليهود من العنت والإرهاق في أكثر بقاع الأرض، وأنهم لم يجدوا ملاذاً يفزعون إليه إلا البلاد الإسلامية والعربية، لما كان يظهر أهلها من التسامح والرعاية نحوهم، وأمطت اللثام عن المطامع الصهيونية في السعي للاستيلاء على المسجد الأقصى، وعلى قبة الصخرة، وجعل مكانهما هيكلاً لليهود، وسردت طائفة كبيرة من الأدلة تؤكد نياتهم، وهي مستمدة من كتبهم وتصريحات مفكريهم وزعمائهم، ثم ألمعت إلى الخطر المقبل فيما إذا أصر اليهود على التمسك بمزاعمهم.

فتكون النتيجة أن هذه الصهيونية ستحمل العرب والمسلمين كافة على أن يعتنقوا الانتيسمنسم «مطاردة اليهود» ولو تحت ستار «الانيسيونيسم» مطاردة الصهيونية فيتلطخ تاريخ الإنسانية مرة أخرى بمثل تلك المآسي التي وقعت في أوروبا من قبل، ولكن بطريقة أشد وأنكى، ثم تكلمت عن الجدار والرصيف في نظر المسلمين وأسباب تقديسهم إياهما وما ورد بشأنهما من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ثم قارنت بين ذلك وبين أسباب قدسية الجدار عند اليهود، وختمت دفاعي بالبحث من الوجهة الشرعية، وتطرقت إلى ذكر الوقائع والتطبيق القانوني.

(س) هل تعتقدون أن لجنة التحقيق تراعي في وضع قرارها تلك الاعتبارات الخطيرة التي وردت في دفاعكم؟

(ج) لا تستطيع الجزم الآن في كيفية القرار الذي ستصدره لجنة التحقيق الدولية في هذا الموضوع، ومهما كان شأن هذا القرار فنحن غير مقيدين به بوجه من الوجوه، كما مهدت في دفاعي أمام اللجنة، لأن هذا الجدار لا يخص فلسطين وحدها بل هو ملك لثلاثمائة مليون مسلم منتشرين في أنحاء المعمورة، ولا بد من القول إننا لم نشأ أن نكتفي بإبراز وثائقنا وأدلتنا أمام اللجنة، بل قدمنا لها البراهين العلمية المحسوسة التي لا تدفع، والتي تنذر بشر وبيل فيما إذا فكر أحد بالاعتداء على الأماكن الإسلامية المقدسة، وذلك بأن دعونا أعضاء اللجنة إلى زيارة بعض الكنائس المسيحية مثل كنيسة القيامة وبيت لحم وغيرهما، وشاهدوا بأعينهم نتيجة الخلاف بين الطوائف المسيحية نفسها الذي سالت من أجله الدماء، فكيف يكون بالإمكان والحالة هذه التوفيق بين عنصرين متنافرين قد تأصلت بينهما الخصومة الدينية والسياسية وحملهما على الاجتماع للعبادة حول جدار واحد.

إن وضعية الستاتيسكو القائمة بين الطوائف المسيحية كانت من أقوى الحجج التي تدعم نظرية المسلمين وتدعوا أعضاء اللجنة إلى التفكير العميق في هذا الموضوع الديني السياسي الخطير قبل أن يبرموا قراراً بصدده، وقد علمت أن أحد أعضاء اللجنة صرح لأحد رجالات العرب قبل سفره: إن القضية خطيرة جداً أكثر مما كنا نتصور.

(س) ما هو الأثر الذي تركته في نفس معاليكم زيارتكم إلى القطر الفلسطيني؟

(ج) لقد لفت نظري أثناء وجودي في فلسطين نقطتان: الأولى ملأت نفسي غبطة وحبوراً، والأخرى ملأتها كآبة وأسى. لقد أبهجني منظر تلك الوحدة الجميلة التي تضم رجال العنصر الكريم مسلمين ومسيحيين، وتلك الوجوه المتلألئة بعاطفة الإخلاص، والنفوس الممتلئة بروح الهمة والنشاط وانصراف القوم جميعهم إلى الدفاع عن حقوقهم المقدسة، والوقوف كتلة واحدة في وجه العدو الغاصب والصهيوني الدخيل. والذي أحزنني أن أرى تلك التربة الطيبة والأراضي الخصبة التي تعد من أخصب بقاع العالم، قد أخذت تنساب من أيدي العرب شيئاً فشيئاً، وتنتقل إلى أيدي الصهيونيين الذين تشد أزرهم الأموال الأجنبية الطائلة، وتردهم المساعدات الكبرى من سائر أغنياء اليهود في العالم. أما العرب فمع خصب أراضيهم وجودة تربتهم لا يستطيعون أن يستثمروا تلك الكنوز الدفينة، بسبب فقرهم وسوء أحوالهم الاقتصادية، وشدة احتياجهم إلى المواد الأساسية للاستفادة من أراضيهم كما يجب. وفي اعتقادي أن السبيل الوحيد لإنقاذ فلسطين من براثن الصهيونية، وتقوية عزائم العرب في هذا القطر الشقيق، وإنهاض هذه البلاد من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية هو أن يتضافر أغنياء الشرق عموماً، ومصر خصوصاً على استملاك الأرض في تلك الأصقاع، وقد علمت بعد البحث الوافي والاستقراء الدقيق أن ثمن دونم الأرض في فلسطين، وهو يعادل ربع فدان مصري، يتراوح بين جنيهين وعشرة جنيهات، ويعطي مورداً في العام تبلغ نسبته بسهولة إلى ٢٠ في المائة، وهذه عملية ناجحة، وصفقة رابحة كما ترون.

وأنا سأواصل جهودي في هذا الموضوع، وأدعو من أتوسم فيهم الخير من متمولي مصر إلى الاشتراك في هذا العمل الاقتصادي المضمون وتعضيد هذه الفكرة الرشيدة.

(س) ما هي أقوى الوسائل التي تقترحونها معاليكم لتعزيز الروابط بين الأقطار العربية الشقيقة؟

(ج) إن التعاون على تحقيق المشروع الآنف الذكر وإخراجه إلى حيز الوجود مما يقوي الأواصر بين هذه الأقطار الشقيقة، لا جرم أن المشاريع الاقتصادية والعمرانية يجب أن تتقدم على كل مشروع سواها لأنها دعامة الاستقلال وأساسه.

وهناك مسألة أخرى يجب أن يكون لها الاعتبار الأول في هذا المضمار، وهو أن نسعى سعياً حثيثاً لانتزاع الفكرة الفرعونية من مصر، لأنها فكرة عقيمة لا يمكن تحقيقها، ومن المصلحة الأدبية والمادية لمصر ـ كما نوه الدكتور شهبندر في إحدى خطبه ـ أن تهجر عبادة الأحجار الميتة وتستعطف القلوب الحية في الشرق العربي التي جعلت قبلتها مصر لتنال الزعامة الحقة التي هي جديرة بها، وما دامت شروط الزعامة متوافرة فيها بالنظر لما لها من الموقع الطبيعي والمكانة التاريخية والمقام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فجدير بها أن تسير في طليعة الأمم العربية، وتحمل لواء ثقافتها، وتسعى إلى توثيق الروابط مع هذه الأمم الشقيقة.

ولا أكتم عنكم أننا الآن منحدرون في انحدار خطر مجهول العواقب بسبب اختلاف اللهجات بين الأمم الناطقة بالضاد، وأخشى كثيراً إذا استمرت هذه الحالة أن يؤدي ذلك في النتيجة إلى إيجاد لغات جديدة كما وقع في اللغات اللاتينية، وهذا من أقسى مطامع المستعمرين الذين يعملون جهدهم لإفساد لغتنا، وتقطيع أوصالها والاستعاضة عنها بلغات دخيلة كما هو الحال في الجزائر، حيث تشجع هناك اللغة البربرية وتعلم تعليماً مدرسياً لإحلالها محل اللغة العربية.

وعبثاً تحاول الأمم العربية أن تتبوأ مكانها بين الأمم المتمدينة وتنال ما تصبو إليه من حياة استقلالية هنيئة ما لم تعمل بادئ ذي بدء على تكوين ثقافة خاصة لها وتحفظ بهذه الثقافة كميراث تاريخي خالد، وأنا ما زلت أعلق أكبر الآمال على الأزهر الشريف، فهو باعتباره أكبر معهد ديني عربي في العالم الإسلامي قوة لا يستهان بها، فإذا أمكن إصلاحه وتنظيم شؤونه عاد بالفوائد الجليلة على مصر والبلاد العربية جمعاء.

وأرى أن يتكاتف العرب جميعاً لوضع معجم عام باللغة العربية على شاكلة القواميس الإنكليزية والفرنسية الكبرى لتوحيد المصطلحات العلمية والفنية وغيرها.

(س) ما رأيكم في عقد مؤتمر عربي للبحث في هذه الشؤون؟

(ج) أنا لا أعتقد نجاح فكرة المؤتمر في الوقت الحاضر، وإنّما أستصوب تأليف لجنة عامة من كبار مفكري مصر والشرق، تأخذ على عاتقها النظر في إنهاض البلاد العربية وترقية شؤونها الاجتماعي والاقتصادي، واتخاذ الوسائل المؤدية إلى إيجاد روابط مالية وأدبية بين هذه الأقطار، وتوطيد دعائم الألفة والاتصال بينها، وإزالة جميع ما يقام بين هذه الأقطار من الحوائل والفوارق التي يمكن التغلب عليها. فإذا وفقنا إلى تأليف مثل هذه اللجنة وسعينا لأن تكون متجردة من جميع النزعات الحزبية والصبغات السياسية ونالت عطف أرباب الثراء في الشرق وتأييدهم المالي، أمكننا حينئذ أن نخطو خطوات واسعة نحو الهدف الأسمى.

إن الأمم التي تظلم وتسلب حريتها لا بد أن تستعيد هذه الحرية إن كانت جديرة بها، فنحن كأمة عربية كبيرة يجب أن نسعى لاستكمال الخصائص والمزايا التي تؤهلنا لنيل الحرية والسعادة والاستقلال. انتهى ما أردته من المجلة المذكورة.

وهذا الحديث يدل دلالة واضحة كيف اجتمعت أمم العرب بل أمم الإسلام لهذه القضية، وهذا كاف لما قصدناه في الفصل الخامس.

الفصل السادس: في ذكر أمر عظيم إسلامي في أيامنا هذه
وهو دفن فقيد الإسلام محمد علي بفلسطين وهذا حادث يعز نظيره في التاريخ
٢٠٠ ألف يشيعون الجنازة و ١٠٠ ألف يشهدون الصلاة
حفلة التأبين في المسجد الأقصى

جاء في جريدة الأهرام يوم السبت ٢٤ يناير سنة ١٩٣١ ما نصه: خرجت البلاد الفلسطينية الواقعة على خط السكة الحديدية من القنطرة إلى القدس لتحية رفات الفقيد الكبير مولانا محمد علي وتعزية شقيقه مولانا شوكت علي ونجله مولاي زايد علي وحرم الفقيد الكريم، فكانت كل بلدة تقابل القطار بالتهليل والتكبير قبيل انبثاق الفجر بساعات برغم شدة البرد، وكان مولانا شوكت علي يشكر لهم تكبدهم هذه المشاق ويحيي عواطفهم النبيلة، وفي منتصف الساعة السابعة صباحاً، وصل القطار إلى البلد التي كانت محطتها غاصة بالجماهير من سائر الأنحاء، واصطف طلبة وطالبات المدارس ورجال الجمعيات بأعلامهم وشاراتهم وكلهم مكبرون مهللون، وكذلك في الرملة وفي سائر المحطات حتى وصل القطار إلى القدس التي احتشد في محطتها ألوف من المشيعة بينهم قناصل الدول الأوروبية ورؤساء الدين المسيحي، وبالرغم من شدة الزحام ابتدأ الموكب سيره في الساعة العاشرة صباحاً إلى المسجد الأقصى في منتصف الساعة الأولى بعد الظهر، حيث أدى هؤلاء جميعاً فريضة الجمعة في حرم المسجد الأقصى الذي غص بالمصلين، وبرغم اتساع جوانبه الفسيحة ضاق بهم ولم يتمكن الكثيرون من أداء الفريضة داخل الساحة العظمى، فأدوها في الشوارع المجاورة للحرم، وبعد انتهاء الصلاة وقفت الألوف لشهود حفلة التأبين التي لم يمكن إقامتها في الحرم، وضاقت بها ساحته الرحبة، وصعد رجال الوفود الإسلامية والمؤبنون على المنبر الأثري المصنوع في عهد المرحوم السلطان قايتباي سلطان مصر مدة حكمه في فلسطين وسورية، وابتدأ سماحة السيد محمد أمين الحسيني مفتي القدس بافتتاح حفلة التأبين بكلمة قيمة أسالت العبرات، أعرب فيها عن مبلغ الخسارة التي أصابت الشرق وعلى الخصوص الهند وفلسطين، هذه النكبة الصادعة التي انتزعت بطلاً نادراً من أبطال الإسلام، وقام بعده الأستاذ الكبير السيد عبد العزيز الثعالبي نائباً عن شمالي أفريقيا، وعلى الخصوص عن وطنه تونس، وهو أقدم الحاضرين عهداً بصداقة الفقيد، وأخذ يتدفق في بلاغته تدفق السيل، وأخيراً بكى فأبكى، وواصل رثاءه، فكان ينقل الجمهور من الحسرة المطلقة وأثر النكبة الصادعة إلى الأمل والرجاء بأن تكون هذه الفاجعة مبدأ عهد جديد للمسلمين يقتدون فيه بالراحل الكريم في حياته الحافلة بالجهود والتضحيات العظيمة.

وقام خطباء مصريون وغيرهم، ثم ابتدأت حفلة الدفن، فسارت الألوف تلو الألوف إلى القبر الذي أعد للفقيد في خلف آل الخطيب الكرام بالمسجد الأقصى، وجيء بالنعش وقد غطي بغطاء من القطن المنسوج في الهند أعده هنود بور سعيد وفوقه غطاء من الحرير الأخضر الموشى بالقصب، وقد نقشت عليه بعض آيات الكتاب الكريم صنعه سيدات القدس الشريف، وفوقهما قطعة أثرية من الكسوة الشريفة النبوية أهداها سمو الأمير محمد علي لتوضع فوق نعش الفقيد. (انظر شكل ٨ وشكل ٩). وقد صلى عليه داخل حجرة الدفن فضيلة شيخ الهنود في القدس ومولانا شوكت علي ونجله زاهد علي وحرم الفقيد الكريم وفضيلة الأستاذ التفتازاني. ثم ووري التراب بين بكاء الباكين ودعاء الداعين.



(شكل ٨ ـ مولانا شوكت علي واقفاً على المنبر وحوله عظماء الإسلام)



(شكل ٩)

نعش الزعيم الكبير مولانا محمد علي محمولاً على الأكتاف. وخارجاً للدفن بعد الصلاة عليه في المسجد الأقصى الذي ضاق على سعته بعشرات الألوف من المصلين فاضطروا إلى الصلاة في الشوارع المجاورة له

وبالجملة فقد شهدت فلسطين مشهداً في جنازته لم يشهده من قبل المعاصرون كثرة وإجلالاً وعناية، وكان مولانا شوكت علي يجيب على تعزيات الوفود الإسلامية العديدة بعبارات بليغة بالإنجليزية تترجم إلى العربية، وقد قال أخيراً لأهل فلسطين: لقد استودعناكم أثمن ما نملك، وذلك دليل قيم على حبنا لكم وإخلاصنا في قضيتكم، واهتمامنا بأمركم، نحن معاشر الهنود المسلمين المدينين للعرب كافة بإسلامهم ومدنيتهم، وكانت كلماته تقابل بما هي أهل له من الأثر الصالح في النفوس.

بعد يوم محمد علي في فلسطين

قال مراسل الأهرام في يوم الأربعاء ٢٨ يناير سنة ١٩٣١ ما يأتي: انقضى يوم مولانا محمد علي ولكن أحاديث الناس عن هذا اليوم لا تنقضي قبل وقت طويل، فلم تزل الألسنة تلهج بعظمة هذا اليوم وما لاقاه جثمان الفقيد من الإجلال في الاستقبال والدفن. وقد هالني ما رأيت من كثرة المتوافدين لزيارة لضريح وقراءة «الفاتحة» والترحم على الضيف الثاوي في هذا المسكن، ورأيت كثيراً من النساء البدويات فضلاً عن السيدات والعقائل من أهل المدن يزرن محمد علي راقداً في ضريحه.

وبينما أنا خارج من هذا الجامع فإذا جماعة قادمون صوب الباب، فبادرني أحدهم سائلاً: هل هذا قبر مولانا محمد علي؟ ثم دخلوا بكل لهفة، وكذا تتردد الوفود الفلسطينية على مولانا شوكت لتقدم عزاءها له، فيجيب بأنه لن ينسى هذه الحفاوة الكبرى، وأن ما شاهده من مشاطرة أهل هذه البلاد له في هذا الخطب العظيم يدل على أن الشعور بالوحدة الشرقية أشد مما كان يتصور، وقد قال لأحد الوفود: إن هذا اليوم يوم دفن أخي محمد علي في بيت المقدس هو بالحقيقة فاتحة عهد جديد بين فلسطين والهند.

ويتردد على مولانا شوكت علي مكاتبو الصحف الأجنبية ويطلبون مقابلته، ولكن الوقت إلى الآن لم يتسع له هذا، وقد علمت أن المستر مارتن مكاتب الديلي تلغراف قابل مولانا شوكت وأخذ منه حديثاً أعرب فيه مولانا شوكت عن الواقع الذي حصل في نفسه من ليلة ٢٣ يناير الحالي إلى الساعة المقابلة.

وقد علمت أن مولانا شوكت علي قد أبرق إلى جمعية الخلافة في بمباي برقية مسهبة ضمنها صفوة الأخبار التي تصف نقل الفقيد من بور سعيد إلى القدس الشريف ودفنه بجوار المسجد الأقصى. وقد جاء في هذه البرقية العبارات التالية: وضع النعش تجاه الصخرة إلى جهة الجنوب، وفي الساعة الثانية حتى الرابعة بعد الظهر كان عظماء المؤبنين يتبارون في تأبين محمد علي، وبعد أن فرغوا وقفت وطلبت منهم باسم الإسلام وبحرمة الفقيد أن يقطعوا العهد على نفوسهم أن يكونوا من هذا اليوم عاملين لتكميل الذي بدأ فيه محمد علي وثابر عليه بكل توفيق من تجديد الحياة الإسلامية الشرقية.

وقال في هذه البرقية أيضاً ما نصه: إن جثمان أخي محمد علي كناية عن محنة مقرونة بروح التواضع تمنح إلى معشر العرب الذين لم يزل العالم مديناً لهم بأعمالهم التي قاموا بها فيما مضى من نشر العرفان والعلوم والدين والحضارة في جميع العالم.

ومن أقوال الأستاذ شوكت علي أيضاً ما يأتي: إن موت أخي في ميدان التضحية للحظة الأخيرة، وقد كان مشتغلاً بخدمة الوطن والإسلام أثر تأثيراً عظيماً في الإنكليز، والموت على مثل هذه الحالة المقرونة بالجهاد يؤثر أكثر من الجهاد في حالة الحياة، ثم قال: إن موت شقيقي سيؤدي إلى مشاكل الهند ويوصل إلى تحقيق رغبات البلاد.

وسئل هل ستطرح قرارات مؤتمر لندن على هيئة عامة في الهند؟ نعم سيعقد مؤتمر من مسلمي الهند بعد وصولي ليسمعوا من المندوبين المسلمين في مؤتمر لندن كل ما حدث هناك لتقرير ما يرونه ملائماً للوقوف على رأيهم فيما يشيرون به، ثم يعقد بعد ذلك مؤتمر عام من المسلمين والهندوس. هل أنتم متفائلون؟ نعم إني متفائل، ومما يدل على ذلك أن المسلمين بحمد الله يد واحدة وقوة متحدة.

ثم قال: إني مسرور لأن مؤتمر لندن أعطاني فرصة للتحقق من أن الإنكليز يرغبون رغبة أكيدة في انتهاج سياسة مبنية على حسن التفاهم وإصلاح ذات البين بينهم وبين الهند ومصر، وإعطاء الشرقيين القسط الواجب من الاحترام. اهـ.

لما رسمت هذه الصور واطلع عليها صديقي العالم. قال: إن لي اعتراضاً على رسم هذه الصور في التفسير، إن عادتك جرت في هذا التفسير أن لا ترسم إلا ما يفيد فائدة طبيعية من صنع الخالق عز وجل، أما هنا فأراك خالفت عادتك. فقلت: نعم، ألا ترى رعاك الله أن هذه حادثة يعز نظيرها في التاريخ، ألم ترى كيف أقدم الأستاذ شوكت علي على دفن أخيه في البلاد العربية المقدسة، وهذا حادث لم أجد له نظيراً من قبل، بل إني لم أر رابطة بين المسلمين توطدت مثل هذه، إن تاريخ المسيحيين شاهد أنهم كانوا أقوى اتحاداً من المسلمين كما تقدم، ولكن اليوم جاء دفن المولى محمد علي ببلاد العرب دليلاً على ارتباط مسلمي الهند وهم ٧٠ مليوناً بمسلمي الأمم العربية. فإذا قالت إنكلترا: هذا وطن يهودي، قال الهنود: نحن مع إخواننا وقد دفنا أحد عظمائنا فيه، وهل في زماننا معجزة قرآنية أعظم من هذه، وهل أنا رسمت النعش في التفسير، إلا لأنه أبرز لنا معجزة نبوية، ألا ترى إلى ما قاله الأستاذ المولى شوكت علي: إن جثمان أخي محمد علي كناية عن محنة مقرونة بروح التواضع تمنح إلى معشر العرب الذين لم يزل العالم مديناً لهم بأعمالهم التي قاموا بها فيما مضى من نشر العرفان والعلوم والدين والحضارة في جميع العالم. اهـ.

إن هذا القول لم يصدر من أمة من أمم الترك أو الفرس، فالترك هدموا ممالك العرب هدماً وأذلوهم، وقدماء الفرس من قبلهم فتكوا فتكاً سياسياً بالأمم العربية وهم مسلمون، ولكن أهل الهند بهذا العمل المجيد قد أفهمونا معنى قوله تعالى هنا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[الزخرف: ٤٤].

أصبحت الهند وأبناء العرب اليوم صفاً واحداً في مقابلة من يعتدي على بيت المقدس أو بلاد فلسطين، فهذا مصداق لهذه الآية ونور من أنوار النبوة المحمدية، والحمد لله رب العالمين. انتهى الفصل السادس.

الفصل السابع

في اتحاد المسلمين اليوم على فرنسا إذ أشيع أنها تنصر البربر، وتشيع النصرانية في تونس، وذلك في مقالين: المقال الأول: وهو ما جاء في إحدى جرائدنا المصرية يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٩٣٠ بعنوان «نداء إلى ملوك الإسلام وشعوبه جميعاً». المقال الثاني: وهو ما جاء في جريدة «كوكب الشرق» تحت عنوان «ظاهرة عجيبة» وهاك نصهما:

نداء إلى ملوك الإسلام وشعوبها جميعاً

وإلى علماء الحرمين الشريفين، ورجال المعاهد الإسلامية من أعلام الأزهر وملحقاته في المملكة الإسلامية، وجامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في فاس، ومعهد ديوبند في الهند، ومعهد النجف في العراق، وإلى الجمعيات الإسلامية في أنحاء الأرض، ولا سيما جمعيات الهند: جمعية الخلافة في بومباي، وجمعية العلماء في دلهي، وجمعية أهل الحديث في دلهي، وجمعيات أندونيسيا: اتحاد إسلام في سومطرة، وشركة إسلام في جاوة، والجمعية المحمدية في جكجا كرتا؛ وإلى المسجد الإسلامي الأعلى في القدس، والمسجد الإسلامي الأعلى في بيروت، وإلى جمعية ترقي الإسلام في الصين،

وإلى الصحف الشرقية على اختلاف لغاتها ولهجاتها

إن أمة البربر التي اهتدت بالإسلام منذ العصر الأول والتي طالما اعتمد عليها الإسلام في فتوحه وانتشاره وطالما استند إليها مستنجداً أو مدافعاً في خطوبه العظمى، هذه الأمة التي سارت مع طارق إلى أسبانيا ثم مع عبد الرحمن الغافقي ومع أسد بن الفرات إلى صقلية، هذه الأمة التي كانت منها دولتا المرابطين والموحدين فكانت لها في تاريخ الإسلام أيام غراء مجيدة، هذه الأمة التي ظهر منها العلماء الأعلام، والقادة العظام، والتي لرجالها في المكتبة الإسلامية المؤلفات الخالدة إلى يوم الدين، هذه الأمة التي تبلغ في المغرب الأقصى وحده أكثر من سبعة ملايين نسمة، تريد دولة فرنسا الآن إخراجها برمتها من حظيرة الإسلام، بنظام غريب تقوم به سلطة عسكرية قاهرة ممتهنة به حرية الوجدان، ومعتدية على قدسية الإيمان، بما لم يعهد له نظير في التاريخ.

لقد وردت على مصر كتب من الثقافات في المغرب الأقصى تذكر أن فرنسا قديماً استصدرت ظهيراً سلطانياً تاريخه ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٤٨هـ ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ ونشرته الجريدة الرسمية في المغرب بعددها رقم ٩١٩ تنازل فيه سلطان المغرب لها عن الإشراف على الأمور الدينية لأمة البربر، وأن فرنسا قد بدأت بالفعل في تنفيذ ذلك الظهير، فقامت السلطة العسكرية في المغرب الأقصى تحول بين ثلاثة أرباع السكان وبين القرآن الذي كانت به حياتهم مدة ثلاثة عشر قرناً، فأبطلوا المدارس القرآنية، ووضعوا قلوب أطفال هذه الملايين وعقولهم في أيدي أكثر من ألف مبشر كاثوليكي بين رهبان وراهبات يديرون مدارس تبشيرية للبنين والبنات، وأقفلوا جميع المحاكم الشرعية التي كانت في

تلك الديار، وأجبروا هذه الملايين من المسلمين على أن يتحاكموا في أنكحتهم ومواريثهم وسائر أحوالهم الشخصية إلى قانون جديد سنوه لهم وأخذوه من عادات البربر التي كانت لهم في جاهليتهم، وهي عادات لا تتفق مع الحضارة ولا تلائم مستوى الإنسانية، وحسبنا مثلاً على انحطاطها وقبحها أنها تعتبر الزوجة متاعاً يعار ويباع، وتورث ولا ترث، وأنها تجيز للرجل أن يتزوج ما شاء كيف شاء ولو أخته فمن عداها في وقت واحد، وإن قانوناً كهذا القانون يسن للمسلمين مخالفاً للإسلام، يعد من رضي به مرتداً عن الإسلام بإجماع علماء المسلمين.

إن فرنسا التي تبث الدعاية في أمم الأرض بأنها أمة الحرية، قد أجبرت رجال حكومة المغرب المسلمين على أن يتركوا دينهم بتنازلهم عما للسلطان من الحق في إقامة أحكام الشرع الإسلامي بين رعاياه من قبائل البربر وجماهيرهم، والاعتراف لحكومة الحماية الفرنسية بأنها صارت صاحبة التصرف في دينهم وأمورهم التشريعية والتهذيبية، وهو ما لا تملك تلك الحكومة الحق في التنازل عنه، ومنذ استصدر الفرنسيون ظهيراً «مرسوماً» من سلطان المغرب بهذا التنازل اعتبروا جميع المدارس القرآنية ملغاة، وجميع العبادات الإسلامية معطلة، ووكلوا تعليم أطفال المسلمين إلى الرهبان توطئة لتنصير هذه الأمة عقيدة وعبادة وعملاً، وحالوا بين جميع مناطق البربر وبين علماء المسلمين ورؤساؤهم فلا يتصل بها أحد منهم.

أيها المسلمون، قد أجمع علماؤكم من جميع المذاهب على أن من رضي بارتداد مسلم عن دينه يكون مرتداً برضاه عن ذلك، فيجب على جماعات المسلمين وطوائفهم وجمعياتهم وأفرادهم أن يرفعوا أصواتهم بالاحتجاج على هذا العمل المنكر الفظيع بكل ما في وسعهم كل بحسب ما يليق به، فإذا لم ينفع الاحتجاج فكر المسلمون في الوسائل الجدية، وإن في وسعكم أيها المسلمون أن تجبروا دولة فرنسا على احترام إسلام هذا الشعب الكبير، وتركه يتمتع بحريته الدينية والوجدانية، لأن حرية الدين والوجدان حق من حقوق الإنسان، يجب على الإنسانية حمايته من عبث العابثين واعتداء المعتدين.

لقد سلكت دولة فرنسا مع إخواننا مسلمي المغرب سبيلاً غير سبيل الرفق والنصح، فجردتهم من وسائل النهوض وحالت بينهم وبين التعليم الصحيح، وأنفقت أموال أوقافهم الإسلامية في ضد ما وقفت له، واختصتهم بشر النصيبين في كل ما تتصل به مصالح الوطنيين والأجانب، وإن في المسلمين من كان يعرف هذا ويتغاضى عنه إلى حين، رجاء أن يجعل الله لأهل المغرب فرجاً من عنده، ولكن امتداد يد السلطة القاهرة في المغرب إلى دين الإسلام واعتداؤها على حرية العقيدة والعبادة قد أوصل هذا العدوان إلى الحد الذي ليس بعده حد، فحق على كل مسلم أن يبادر إلى إنكار هذا المنكر بكل وسيلة يستطيعها.

يجب أن تعلم فرنسا أن الإسلام لم يمت، وأن المسلمين قد استيقظوا وصار بعضهم يشعر بما يصيب البعض الآخر من اضطهاد في دينه ودنياه، وأن بناء مسجد في باريس تؤخذ باسمه ملايين الفرنكات من أوقاف الحرمين الشريفين، وملايين أخرى من الإعانات الجبرية من جميع مسلمي أفريقيا مع إعانات أخرى من سائر العالم الإسلامي لا يمكن لفرنسا أن تجعله حجة على حرية الإسلام،

ومودة المسلمين في مملكتها ـ التي تسميها أحياناً إسلامية ـ مع هذا الجرم الفظيع الذي شرعت فيه أخيراً، وظنت أنها تنتزع به بضعة ملايين من حظيرة الإسلام بنظام تنفذه قوة عسكرية قاهرة.

إن فرنسا إذا لم ترجع عن هذه الجريمة فإن العالم الإسلامي يعتبر ذلك مجاهرة منها بعداوته، وسيعلن ذلك على منابر المساجد، وعلى صفحات المجلات والجرائد، وفي حلقات الدروس الدينية وفي نظم الجمعيات الإسلامية. لقد حان حين امتحان أحرار أوروبا فيما يدعونه من الانتصار لحرية العقيدة والوجدان، حتى لقد رضوا بكثير من المنكرات التي يعترفون أنها منكرات، وذلك حرصاً منهم على بقاء الحرية طليقة من قيودها، وإن أقدس الحريات حرية الوجدان والاعتقاد، وأسوأ ما أصيبت به هذه الحرية في هذا العصر محاولة فرنسا أن تحول المغرب الأقصى عن إسلامه إلى النصرانية أو ما شاءت أن تحوله إليه. لقد سمعنا صوت أوروبا حكوماتها وشعوبها يرتفع عالياً باستنكار ما فعلته روسيا البولشفية من إقفالها بعض المعابد، مع أن يد البولشفيك الحديدية إنّما امتدت إلى الحجارة والطوب ولم تمتد إلى النفوس والقلوب، فالعالم الإسلامي ينتظر من أوروبا التي احتجت إلى عمل السوفييت في الكنائس، أن تقول لفرنسا كلمتها الصريحة في عدوانها على دين الإسلام في المغرب الأقصى، ومنعها سبعة ملايين من البشر منعاً رسمياً مؤيداً بالسياسة والجيش من أن يسكنوا إلى دينهم، وأن يتصلوا بإخوانهم المسلمين اتصالاً روحياً يطمئنون إليه ويرتاحون له.

فيا أيها المسلمون: إن دينكم مهدد بالزوال من الأرض، فإن فرنسا إذا أمكنها تنفيذ مشروعها هذا في المغرب فستحذو حذوها جميع دول أوروبا في المشرق، وقد حكم عليكم في هذه الحال بذل أنفسكم وأموالكم في سبيل الدفاع عن دينكم، فما الذي يمنعكم عن الدفاع عنه، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧٥]، ويقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة: ٢١٧]، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد: ٧]، ويقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧] ويلي ذلك الإمضاءات.

ظاهرة عجيبة من ظواهر التبشير الديني في تونس

حديث اليوم. الشعور العام نحو المؤتمر الإفخارستي. الإضراب عن العمل

مظاهرة الطلبة. عرائض من الشعب للباي والأعضاء المسلمين

نشاط البوليس واهتمام الحكومة. اعتقال ٢٥ طالباً

جاء من مراسل كوكب الشرق في تونس يوم ٢٩ مايو سنة ١٩٣٠ ما يأتي: لعل القراء يعلمون أن المؤتمر الإفخارستي الذي يعقد في كل عامين لحج الرهبان والكاثوليك عامة، ولأمور أخرى، قد قرر اجتماعه في هذه الدورة بتونس، وهذه أول بلاد الإسلامية ينعقد فيها مؤتمر مسيحي، وقد حاولت الحكومة التي أشرفت عليه إخفاء حقيقة صبغته والتمويه على الناس بأنه حج مسيحي لا دخل فيه لجرح العواطف ومس المعتقدات، غير أن أسقف قرطاجة «منسنيور لوميتر» أعرب عن الصبغة

الحقيقية للمؤتمر وقال في إحدى خطبه : إن هذا المؤتمر هو عبارة عن حملة صليبية جديدة نحو تحقيق فكرة سان لوي « لويس التاسع » و« الكردينال فيجري ».

وقد زادت الحكومة الفرنسية أن قررت أخذ مليونين من الميزانية التونسية ـ برغم أنف المجلس الكبير ـ وخمسة ملايين من إدارة الأشغال العامة التونسية ، ونصف مليون من البلدية التونسية ، وعشرات ألوف من إدارة أوقاف المسلمين ، كل ذلك لتصرفها على المؤتمر الذي هو حملة صليبية ، وقد قدروا غضب الشعب واستياءه من هذا العمل المحرج ، ولكي يتخلصوا من ذلك الغضب وتكون الضربة متمكنة ، ولكي ينفذوا شيئاً من برنامج سياستهم التي اتخذوها بهذه البلاد وهي إيجاد الشقاق بين الأمة والعرش ـ أي : بين الشعب وملكه ـ قرروا أن يكون المؤتمر تحت رئاسة الباي أحمد الثاني ، وبعضوية شيخ الإسلام ، والباين مفتي ، والوزراء المسلمين وشيخ المدينة الذي قدم لهم خدمات جمة في الموضوع ، وشقيق رئيس الحجرة التجارية الأهلية ، وعضو المجلس الكبير وغيرهم من الذوات .

واستاءت الأمة وقررت الإضراب عن العمل احتجاجاً على وجود المؤتمر بصيغته هذه ، وعلى الملايين المقدمة لقوم يريدون أن يقوموا بحملة ضد الدين الإسلامي الذي هو دين الأمة العزيز عليها ، وأصبح يوم السبت ٣ مايو يوم إضراب ، فاستعملت الحكومة القوة لمنعه ، واتخذ البوليس كل طرق الشدة والصرامة في ذلك .

وقام جميع طلبة المعاهد بإضراب عام عن التعليم ، وفي الغد تظاهروا واشتد غيظ الحكومة ، وتدخل البوليس فانهال على المتظاهرين بالضرب حتى وقعت جروح للبعض ، وشاهدت البوليس يضرب الناس بالبسكليت من غير رحمة ولا شفقة ، إلا أن الطلبة أعادوا المظاهرة في الغد « يوم الاثنين » وجابوا شوارع باب البحر ، والبوليس يعتقل ويفرق ولم يرحم ، وظل الطلبة متظاهرين من الساعة الثالثة والنصف إلى الساعة السادسة ينادون بحياة الإسلام وسقوط المؤتمر الإفخارستي ، وقدمت عرائض ممضاة من كافة الأمة إلى الباي والذوات المسلمين الذين قبلوا عضوية المؤتمر ، تطلب منهم الانسحاب من المؤتمر .

واعتقل البوليس خمسة من الوطنيين و٢٥ من الطلبة ، والحكومة هاهنا متخوفة من العواقب الوخيمة التي يفضي إليها هذا العمل الجارح الذي أرادت أن تقوم به في القرن العشرين . هذا ، وإن الحزب الاشتراكي معاضد للأمة التونسية في احتجاجها ، وقد سعى لدى المراجع العليا لإطلاق سراح المعتقلين كما سعى الطلبة في ذلك مع زعماء الحزب الدستوري ، وقد أطلق سراح الكثير منهم بفضل مساعي الحزب الدستوري ورجاله ، والخواطر لا تزال مضطربة ، ولا يزال مرأى الألف راهب يثير الحماس والغضب . وإلى هنا تم الكلام على الفصل السابع من اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾[الزخرف: ١١-١٢]

مع آيات أخرى في سور كثيرة كقوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾[الزمر: ٢١]

إلى آخر ما في سورة الزمر من شرح الصدر للإسلام إذ يقول تعالى:

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾[الزمر: ٢٢] الخ

جاء في هذه الآيات إنزال الماء، وإخراج الزرع، ثم شرح الصدر للإسلام، وأن القرآن أحسن الحديث في سورة «الزمر»، وهنا مجال لفهم زرع مختلف الألوان نابت بسبب الماء، وانشراح صدر للإسلام، وكون القرآن أحسن الحديث، فلعمري أي مناسبة بين الزرع والماء الذي يشربه وبين انشراح الصدر للإسلام، ثم كون القرآن أحسن الحديث. ولما كتبت هذا حضر العالم صديقي الذي اعتاد الحديث معي في مثل هذا المقام، فقال بعد أن قرأ ما ذكرته الآن: حقيقة إن المناسبة تكاد تكون بعيدة الشقة بين الأول والثاني، أما بين الثاني والثالث فالمناسبة ظاهرة لأن الثالث سبب في الثاني، فهو من ذكر السبب بعد المسبب، لأن من قرأ أحسن الحديث ينشرح صدره لما فيه من المعاني.

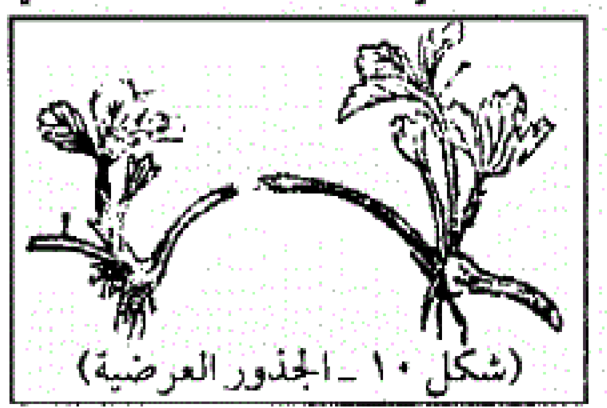
أما المناسبة بين الأول والثاني فهي التي تحتاج إلى بيان. فقلت: لقد جاء الكلام على النبات في مواضع كثيرة من هذا الكتاب، ولقد ظهرت عجائب في سورة «النمل» في آية: ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾[الآية: ٦٠] وفي غيرها، مثل إن الجذور وتدية وليفية ودرنية، وهناك مباحث أخرى، هكذا في سورة «السجدة» عجائب من النبات في صوره الظاهرة وعجائب تركيبه من الداخل، وبيان أن النخل له في تركيبه صورة أخرى تخالف جميع الأشجار. وإذا رأينا الله عز وجل يكرر ذلك الشيء الواحد في مواضع كثيرة في القرآن فهذا معناه أن نذكر الحكمة مفرقة لا مجتمعة.

وبعبارة أخرى: يستحسن أن تفرق عجائب النبات على الآيات، فإن قراءة علم النبات بصفة علم لا يثمر في النفس بهجة كالتي يثمرها ما يصنع في أمثال هذا التفسير بحيث يصطفي من أصناف النبات ما يثير في النفس بهجة، وترسم أشكاله، ويشرح شرحاً يشرح الصدر ويبهج النفس، فالقرآن ليس كتاباً علمياً بالمعنى المتعارف، فالكتب العلمية قصد منها نفس العلوم، والعلوم شيء والوعظ والاستدلال والتأثير في النفوس شيء آخر. وفرق بين خزن الحب في مخزن وبين إعداد الطعام للجائع. فالعلوم في حد ذاتها كالمخازن، واقتطاف شيء منها في مواضع متفرقة من القرآن شيء آخر. فليس المقصود من آيات القرآن أن تدرس العلوم المتعلقة بها دفعة واحدة في تفسيرها بل تقتطف اقتطافاً.

ولعمري إن الناس يعرفون الفرق بين روضة ذات أزهار وبين باقة من الأزهار تهدى للزائرين. إن الروضة لا تهدى ولكن الباقة تهدى وتشم وتأتي بالغرض المقصود من الإكرام. هكذا يجب أن يهدى لقارئ الآيات المختلفات زهرات العلوم. ويجب أن تنوع تلك الأزهار على مختلف الآيات، كما ينوع المضيف لضيفه أنواع المأكول والمشروب والمشموم باختلاف الحالات.

إن النفس لتسأم من التمادي في طعام واحد، ومن التمادي في حديث واحد، لذلك نجد القرآن نوع الحديث، وجعل النبات الذي يحض عليه مفرقاً على السور، تعليماً للمفسرين أن يفرقوا عجائب النبات على مختلف الآيات، ويصوروا محاسن أشكاله، لينشرح الصدر للإسلام بما يرى من الجمال البديع، وذلك بما يؤثر في نفسه من مختلف الأشكال في الأحوال المختلفات، وهنا اسبان أمران: انشراح الصدر للإسلام بمباهج الصور، وكيف كان القرآن أحسن الحديث، لأنه حديث ذو شجون لا يسأم الإنسان منه للتفتن في ترتيب الآيات.

فهاك ما يبهج من علم النبات، ومن صوره البديعة الحسنة: إذا قلنا في سورة «النمل»: إن الجذور ثلاثة أقسام، ورأيت رسمها وشرحها هناك؛ فلنذكر هنا الجذور التي لا تنشأ من الجذر الأصلي بل من الساق وتسمى الجذور العرضية. (انظر شكل ١٠).



(شكل ١٠ ـ الجذور العرضية)

ومثلها الجذور التي تشاهد على الساق الزاحفة للشليك، والجذور العرضية شائعة على الأكثر في ذوات الفلقة الواحدة كالذرة والقمح، فإن الجذر الأصلي لهذه النباتات يموت بعد الإنبات بقليل، وتنشأ بدلاً منه جذور عرضية على قاعدة الساق، وتتكون الجذور العرضية في بعض النباتات بمجرد ملامسة الساق للماء أو التربة الرطبة، ويستفاد من هذه الخاصة عملياً في تطبيقات عديدة، كترقيد النباتات وتقصيب القمح الخ.



(شكل ١١ ـ ترقيد الكرمة)

ففي الترقيد يحنى فرع من ساق النبات (شكل ١١) ويدفن في الأرض، فلا تلبث الجذور العرضية أن تتكون على هذا الفرع فيصبح نباتاً جديداً يمكن فصله من النبات الأصلي، وتلك وسيلة لتكثير النبات، كما سترى فيما بعد. وتقصيب القمح يكون بإمرار عجلة أسطوانية على القمح وهو حديث فتميل السوق على الأرض وتنبت عليها جذور عرضية تزيد في تغذية النبات، فيترتب على ذلك وفرة الغلة.

فلما قرأ صاحبي هذا القول واطلع على هذين الشكلين. قال: إن الجذور العرضية للشليك (شكل ١٠ المتقدم) وترقيد الكرمة (شكل ١١ المتقدم) لم يخرجا عن كونهما أمرين اعتياديين، فكل من الجذور الوتدية في القطن مثلاً، والجذور الليفية في نحو القمح، والجذور الدرنية في نحو الجزر، والجذور العرضية في نحو الشليك، والجذور الترقيدية في نحو العنب، كل هذه لم تخرج عن كونها مدفونة في الأرض وقد وافقتها الرطوبة والمواد الأرضية، غاية الأمر أن الساق امتدت منها الجذور في الشكلين السابقين على خلاف المعتاد في الجذور الأصلية، ولكن الدفن في التربة هو السبب في ذلك، فليس أمراً غريباً. فقلت: حياك الله. إن الأرض والدفن فيها ليس شرطاً في امتداد الجذور. فقال: ﴿ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١]. فقلت:

الجذور الهوائية


(شكل ١٢ ـ الجذور الهوائية)

قد تنشأ الجذور على سوق بعض الأشجار كالفيكوس البنغالي. (انظر شكل ١٢). فتنمو مدلات في الهواء حتى تصل إلى الأرض فتنغرس فيها، وتعرف هذه الجذور بالجذور الهوائية، وتكون مغطاة بنسيج ضارب إلى السمرة يحفظها من أن تجف في الهواء، ومن أهم وظائفها أنها تكون بمثابة دعامة للغصون الأفقية.

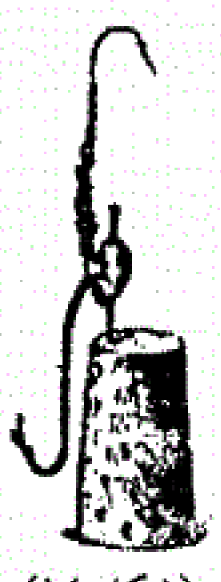
فقال: هذا حسن. ولكن لا يزال في النفس شيء، إذا اتجهت الجذور من الأعلى إلى الأسفل في الهواء واستغنت عن الطين وارتقت في أشجار كالفيكوس البنغالي عن أمثال القطن والجزر والقمح، فهي جميعها تتجه من أعلى إلى أسفل، وهذا أمر طبيعي عام، والتجربة الآتية شاهدة بذلك.

اتجاه الجذور

(شكل ١٣)
جذر في
وضع أفقي

يتجه الجذر الأصلي على العموم اتجاهاً رأسياً من أعلى إلى أسفل. لإظهار ذلك تأخذ بادرة في طور النمو وتضع الجذر وضعاً أفقياً (شكل ١٣) فترى طرفه ينحني رأسياً إلى أسفل، وإذا ثبتنا بادرة على قطعة من الفلين بحيث يكون الجذر إلى أعلى الساق والساق إلى أسفل (شكل ١٤) نشاهد في اليوم التالي أن الجذر ينثني إلى أسفل والساق إلى أعلى.

فقال صاحبي: هذا حسن فقد عرفنا أنا إذا وضعنا الجذر وضعاً أفقياً كما في (شكل ١٣) أو وضعاً معكوساً كما في (شكل ١٤) فإن الجذر يتجه إلى أسفل دائماً، ولكن ربما يخطر لبعض الناس أن هذا الجذر إنما يتجه إلى أسفل دائماً فراراً من النور أو طلباً لرطوبة الأرض. فقلت: إذا بذرنا بذوراً في أصيص ثم ينكس الأصيص (انظر شكل ١٥) بعد أن توضع على جافته شبكة سلكية تمنع سقوط التربة منه، فيرى أن الجذر ينمو رأسياً من أعلى إلى أسفل، وهو في هذه الحالة لا يجتنب الضوء ولا يتجه نحو البيئة الرطبة. فقال صاحبي: لقد استبان هذا الموضوع وظهر ظهوراً واضحاً، ولكن بماذا يسمي العلماء هذا الميل. فقلت: يسمونه الانحناء الأرضي، وقالوا: إن هذه ليست من الجاذبية العامة وما هذه التسمية إلا لمجرد الاصطلاح.

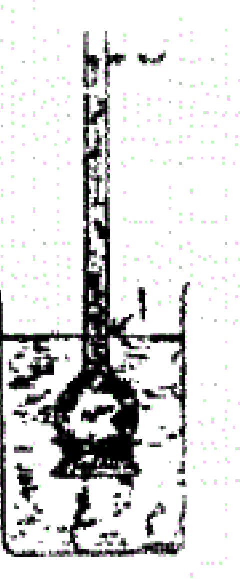

(شكل ١٤)
بادرة معكوسة

فقال صاحبي: هذا حسن. وبه نعرف قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

فقال صاحبي: عرفنا أن النبات يتجه دائماً جذره إلى الأرض، وإن هذا أمر جديد لم يكن في طبائع الأشياء، ولكني أرى أن امتصاص الجذور للمواد التي حولها يشبه كل المشابهة امتصاص المثانة (في التجربة الآتية) للماء النقي

(شكل ١٥)
تجربة الأصيص المنكس

حولها ، وذلك أننا نأتي بأنبوبة مسدودة في أحد طرفيها بقطعة من مثانة ونصب فيها محلولاً سكرياً سميكاً ثم نغمر الأنبوبة رأسية في إناء يحتوي على ماء نقي (شكل ١٦) بحيث يكون المحلول السكري على سمت الماء الخارجي ، وندعها كذلك زمناً فنلاحظ أن سمت المحلول السكري قد ارتفع في الأنبوبة من (أ) إلى (ب) كما نلاحظ أن ماء الإناء الخارجي يحتوي على قليل من السكر ، ويدل ذلك على أن مقداراً من الماء النقي قد نفذ من المثانة إلى داخل الأنبوبة ، وأن بعضاً من المحلول السكري قد نفذ إلى الإناء الخارجي غير أن تسرب الماء إلى داخل الأنبوبة كان أسرع من تسرب المحلول إلى الخارج .



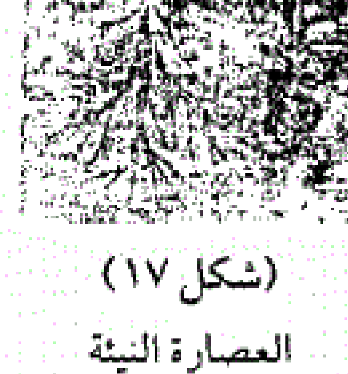
(شكل ١٦)
الانتشار الغشائي
م : ماء نقي
غ : غشاء
ش : شراب

فانتشار السوائل والمحاليل خلال الأغشية على هذه الصورة يعرف بالأسموز أو الانتشار الغشائي ، والضغط الذي حدث في الأنبوبة فرفع سمت المحلول يعرف بالضغط الانتشاري ، إذن ينفذ الماء والمواد الذائبة فيه من جدران الشعيرات الجذرية بالانتشار الغشائي ، ثم يندفع إلى أعلى بالضغط الانتشاري .

إذن الجذور في النبات كهذه المثانة سواء بسواء ، فهي تمتص من الخارج إلى الداخل وترسل من الداخل إلى الخارج . إذن هذا أمر طبيعي معروف ، فإذا وضعنا قطعة من السكر في ماء رأيناها امتصت الماء ، فعلا فيها أمام أعيننا ورأينا الماء حولها قد وصله شيء من حلاوة السكر ، ولكن الماء الداخل في قطعة السكر أكثر مما فقده السكر في أول الأمر ، ثم تنعكس الحال بعد ذلك . فقلت : إن الجذور ليست كذلك إنها تأخذ ولا تعطي .

إن الانتشار الغشائي في الأنسجة الحية تختلف عنه في الأنسجة غير الحية ، لذلك لا تسمح الشعيرات الجذرية بمرور السكر وغيره من المواد التي في داخل الخلايا إلى الخارج ، ولإظهار أثر الضغط الانتشاري في رفع العصارة النيئة إلى أعلى ؛ تعمل التجربة المعروفة بتجربة « هلز » :

تقطع ساق شجرة بمقربة من الأرض ويثبت على الجذع أنبوبة زجاجية تجعل رأسية . (انظر شكل ١٧) فبعد مدة ما يندفع في الأنبوبة سائل رائق ضارب إلى الصفرة إن هو إلا العصارة النيئة .



(شكل ١٧)
العصارة النيئة

وليست قدرة الشعيرات الجذرية مقصورة على امتصاص السائل والمواد الغذائية الذائبة فيها ، بل إنها قادرة أيضاً على امتصاص المواد الصلبة ، فإذا وضعنا رملاً رطباً على قطعة ملساء من الرخام وبذرنا فيه بعض البذور (انظر شكل ١٨) نشاهد بعد الإنبات أن المواضع من الرخام الملاصقة للشعيرات متآكلة ، ذلك لأنها تفرز في مثل هذه الأحوال سائلاً يذيب هذه المواد الصلبة ، ثم بعدئذ يحدث الامتصاص .



(شكل ١٨)
امتصاص المواد الصلبة

ويقوم الجذر عدا وظيفة الامتصاص بوظائف أخرى ، فهو يثبت النبات في الأرض ، وكلما كان الجذر أكثر تعمقاً وتفرعاً كان النبات أكثر نباتاً وأشد مقاومة لفعل الرياح ، والمنطقة الخاصة بالتثبيت هي الأقرب إلى الساق وهي خالية من الشعيرات وبشرتها غير ماصة .

والجذر يتبادل الغازات مع الأرض لأنه يتنفس ككل الأجزاء الحية من النبات ، وربما مات النبات إذا لم يجد الجذر مدداً كافياً من الأكسوجين ، لهذا كان من الضروري تسهيل دخول الهواء إلى الجذر ، ويتوصل إلى ذلك بحرث الأرض وعزقها ، ويستخدم الجذر لادخار المواد الغذائية التي يستهلكها النبات عند التزهير ، كما يشاهد في جذور البنجر واللفت الخ .

فقال صاحبي : هذا عجب ! فإن إفراز الشعيرات التي في الجذر للسوائل وإذابتها المواد الصلبة من أعجب العجب ، وهي في هذا أشبهت الإنسان والحيوان ، إذ لنا جميعاً غدد لعابية في أفواهنا ، ولنا سوائل أخرى مثل البنكرياس في المعدة ، وكل هذه لهضم الطعام ، ولنا غدد تفرز لبن المرأة لولدها ، ولنا المرّة الصفراء التي بجانب الكبد تفرز تلك المادة فتكون سبباً في منافع صحية ، وهكذا هنا الكليتان ليتجه الماء إليهما فينزل في الحالين ، فإذن النبات عنده وظائف كالوظائف عند الحيوان ، وبإفرازه سوائل خاصة يحدث تفتتاً في الحصوات ، وعلى ذلك تهدم الجذور المباني العظيمة بنفس الإفراز لا بالضغط الذي يفعله الثلج إذا جمد في باطن الكهوف ، فإن الماء إذا برد في باطن الجبال كسرها لأن الثلج أكبر حجماً من الماء الذي صار ثلجاً فيكسر ذلك الثلج ما فوقه من الأحجار فتظهر العيون ، فظهور العيون في الجبال إنّما يكون بضغط الثلج على الأحجار ، أما ذوبان الحجارة والحصوات وحبات الرمل ودخولها في جسم النبات فلن يكون بالضغط والتكسير ، وإنّما يكون بأعمال كيميائية وهي التحليل والتركيب . فتحلل الجذور تلك العناصر الصلبة في الحال وتدخلها أجسامها وهناك تركب تركيباً جديداً ، وهذا هو الرقي الذي وضعه الله في أرضنا وجعله دراسة لنا ، فهو يقول : الضغط الجسمي شأن الجماد ، فتعليم الناس العلم بالضغط والأذى ، وإرغامهم على العمل لمصلحة الذين استعمروا بلادهم ، إنّما هو شأن الأمم الذين لم يخرجوا عن أعمال الجماد ، فلا حياة لهم إلا الحياة الجامدة ، وهل الرجل الذي يسخر غيره لمنفعته هو إلا كالثلج ضغط على الحجر فكسره ، فأما الأمم التي هي أرقى فإنها تعلم الشعب تعليماً نافعاً وتنقله من حال الصلابة والهمجية إلى حال العلم والحكمة ، فترجع سهلة القبول للرقي ، وتكون الأمم إذ ذاك أشبه بتلك المواد المتفتتة من الحصى وقد حصلت في جسم النبات فصارت زهراً باهراً ، وورقاً ناضراً ، وثمراً نافعاً لسائر الناس ، هذا هو صراط الله المستقيم ، أن يعلم الناس قاطبة فيكونون أشبه بأمة واحدة ، لا أن يساموا الخسف كما يفعل الثلج في الجبال فيكسرها ، الماء في حاله المعتادة كالأمم في حال هدوئها . ولكنه إذا برد وصار ثلجاً في الجبل ، صار كالأمم الوحشية إذا اجتمعت لغزو أمة أخرى فتؤثر فيها بالقوة ، وأما جذور الأشجار فلا تؤثر بقوة الجسم ، بل بقوة العلم وهو علم الكيمياء . ولسنا نقول : إن الجذور علماء بالكيمياء . بل نقول : إن السلطة العليا المحيطة بهذه العوالم علمت هذه الجذور وهدتها أن تفتت الحصوات حولها كما هدت لعاب الحيوان أن يهضم الطعام ، ولقد اجتمع هذان المثلان أي مثل الثلج ومثل الجذور في مضغ

الإنسان والحيوان لطعامهما، فنحن نمضغ بقوة الأسنان، ولكن هذا المضغ وحده لا يسعد الحيوان، لأنه وإن فت اللقمة فليس معنى هذا أن اللقمة بهذا التفتيت أصبحت صالحة للغذاء. كلا. بل هناك تتلقى اللقمة الغدد اللعابية في الفم والبنكرياس في المعدة، وهناك يهضم الطعام ويتمثل بالجسم الإنساني ويصبح هو جسم الإنسان. فحال المضغ هي حال هذا الإنسان في وحشيته الحاضرة والماضية، وحال اللعاب وهضمه حال الأمم التي تأتي بعدنا التي تضع كل امرئ فيما استعد له من العمل، وكل أمة فيما استعدت له من المنفعة العامة لجميع الناس، وهذا هو الذي ألفت له كتاب « أين الإنسان ».

فقال صاحبي: هذا الموضوع كله قد بنيته أنت على الجذور وعملها، وأنا أريد أن تختمها بالكلام على أجزاء بعض الشجرات الظاهرة. فقلت: لقد تقدم الكلام على ذلك في مواطن كثيرة، منها ما تقدم في سورة « الحجر » عند آية: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾[الآية: ١٩]، فإنك ترى هناك الدوائر البديعة المنتظمة بها أوراق النبات بنظام هندسي بديع، فاقرأه هناك، وعند آية: ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[الآية: ٢٢] في نفس السورة، فإنك ترى هناك عجائب الأزهار ونومها ويقظتها وإلقاحها، وترى في سورة « الشعراء » نظيره، وفي سورة « النمل » ترى الكلام على الأوراق ونظامها من جهة أخرى غير ما جاء في سورة « الحجر ». فقال: ولكني أريد أن أشاهد نفس الزهرة عند نومها وعند يقظتها وما أشبه ذلك إيضاحاً لما تقدم في سورة « الحجر ».

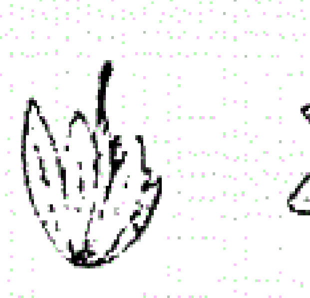
فقلت: جاء في كتاب « مبادئ التاريخ الطبيعي » ما نصه: ويؤثر الضوء في اتجاه الأوراق، فإذا وضعنا نباتاً في غرفة أمام نافذة رأينا الأوراق تدير وجهها العلوي نحو النافذة حتى تلقى أكبر قدر ممكن من الضوء، والأوراق بوجه عام تجعل نصلها عمودياً على اتجاه الضوء.

حركات الأوراق

رأينا فيما تقدم أن أوراق البراعم تغير وضعها عند تفتحها، وأن المحاليق تلتف حول الأشياء التي تصادفها، وهذا التغير في الوضع أو في الاتجاه الذي يشاهد في الأوراق الآخذة في النمو يعتبر نوعاً من الحركة، على أن الأوراق التامة النمو قد تتحرك بصورة واضحة عند بعض النباتات، وقد تكون هذه الحركة مسببة عن الضوء أو عن الملامسة، وقد تكون ذاتية ناشئة عن أسباب داخلية، ونحن نسرد هنا بعض أمثلة من هذه الحركات.

نعاس الأوراق

وريقات الورقة المركبة هي من الترمس تكون أفقية أثناء النهار، ولكنها متى أقبل الليل تنسدل شيئاً فشيئاً حتى تضم أوجهها السفلى بعضها إلى بعض (انظر شكل ١٩)، ثم تعود في الصباح سيرتها الأولى، وتسمى الحركات التي من هذا القبيل بالحركات النعاسية، وهي شائعة في كثير من النباتات كالبرسيم والحميض الخ.



(أ) يقظة (ب) نعاس

(شكل ١٩ ـ أوراق الترمس)

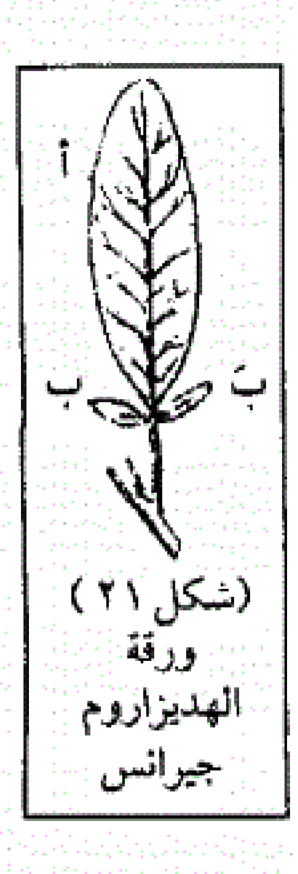
إنّما يغلب أن تتجه الأوراق في نعاسها إلى أعلى ضامة أوجهها العليا بعضها إلى بعض، وفي قاعدة الوريقة المتحركة نجد انتفاخاً يعرف بالانتفاخ المحرك (انظر شكل ٢٠)، وهو متى امتلأ بالماء تضخم ودفع الورقة إلى أعلى أو إلى أسفل وفقاً لشكله الذي يختلف باختلاف النباتات، وبالضد إذا تسرب منه بعض الماء إلى الساق رأيناه يهبط ويصير خرعاً فتأخذ الوريقات وضعها الأفقي من جديد، وترجع كثرة الماء وقلته في الانتفاخ المحرك إلى أن مقدار الماء الذي يتجه النبات يتغير تبعاً لشدة الضوء، وكأنّما الغرض من الحركات النعاسية، إنقاص السطح الورقي المعرض لبرودة الليل.

(شكل ٢٠)
الانتفاخ المحرك
رسم وهمي

الحركات المسببة عن الملامسة

أوراق بعض النباتات كالمستحية والنباتات الآكلة الحشرات تتحرك بمجرد اللمس فتغير وضعها ثم تعود إليه بعد زمن ما، هذه النباتات هنا قابلة للتهيج بصورة تشبه من بعض الوجوه، قابلية التهيج عند الحيوانات لا سيما أننا نستطيع في كلتا الحالتين إبطال هذه القابلية للتهيج وقتياً بتأثير بعض المواد المرقدة كالأثير والكلوروفورم. والنباتات المستحية تقدمت مشروحة بصورة في سورة «الرعد» عند آية: ﴿ يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ﴾[الآية: ٤].

الحركات الذاتية



(شكل ٢١)
ورقة
الهديزاروم
جيرانس

وهناك نباتات تتحرك أوراقها لغير سبب ظاهر، ويطلق على مثل هذه الحركات اسم الحركات الذاتية، وأحسن مثال لهذه النباتات نبات ينبت في الهند اسمه هديزاروم جيرانس (شكل ٢١) تتكون ورقه من وريقة كبيرة، وعند قاعدتها وريقتان صغيرتان (ب) و(بَ)، فمتى وضع النبات في بيئة لا تقل درجة حرارتها عن ٢٢° مئوية نرى الوريقتين الصغيرتين تتحركان ببطء فتدور كل منهما حول قاعدتها، بحيث تتم الدورة الكاملة في زمن يتراوح بين دقيقتين وخمس دقائق، وغالباً لا تكون هذه الحركات الدورية منتظمة، بل تتركب من عدة رجات متتابعة، وهنا أيضاً يرى في قاعدة الوريقة المتحركة انتفاخ هو الذي يدفعها إلى الحركة بما يظهر على جوانبه من الارتفاع والهبوط المتبادلين، على أن السبب الباعث لهذه الحركات لا يزال غير مدرك حتى الآن.

سقوط الأوراق

في غالب الأشجار والشجيرات التي تنمو في المناطق الباردة والمعتدلة تكون الأوراق محدودة الأمد، فإنها تتولد في الربيع وتنمو في الصيف، ولكن متى حل الخريف تراها تفقد خضرتها وتأخذ صبغة صفراء أو ضاربة إلى الحمرة، ثم تنفصل قاعدتها عن الغصن الذي كان يحملها وتسقط على الأرض تاركة مكانها أثراً ظاهراً يعرف بندبة الورقة، ويشاهد فوق سطح الندبة طبقة واقية من الفلين، وهذه الطبقة تنشأ قبل سقوط الورقة بمدة ما، فتمنع وصول العصارة إلى الورقة، كما أنها تساعد على

انفصالها من الغصن، ويتكون في إبط الورقة قبل سقوطها برعم إبطي يظل ساكناً مدة الشتاء، ثم ينمو في الربيع التالي ويكون غصناً جديداً ذا أوراق، وتعرف مثل هذه الأوراق بالأوراق المتجددة، ومثلها أوراق المشمش والتفاح والكرمة، على أن بعض الأشجار والشجيرات تكون مكسوة بأوراق خضراء في جميع أوقات السنة، وتسمى هذه النباتات بدائمة الخضرة، ومثلها الصنوبر واليوكالبتس، المعروف عند العامة بالكافور، والفيكوس الخ، ففي هذه النباتات تبقى الأوراق على الأشجار أكثر من فصل، ولا تسقط أوراقها في وقت واحد.

فلما سمع صاحبي ذلك. قال: هذا حسن جداً. فهل ترى هنا فكرة حكمية؟ فقلت: لقد عجبت هنا من أمرين: أولهما: أن الورقة قبل سقوطها يحدث فوق سطح الندبة طبقة واقية فتمنع وصول العصارة إليها. ثانيهما: إنه يتكون في إبط الورقة قبل السقوط برعم إبطي يظل ساكناً مدة الشتاء، ثم ينمو في الربيع، وهذان عجبان، فكأن هذه الطبقة أشبه بالسدود في البحر تمنع جري الماء لغرض خاص، أو كما يصنع في سقي الأرض، إذ يحول الماء من الحوض الذي يجري فيه الماء إلى حوض آخر وذلك بسده بالطين الذي يجرفه بالفأس، إذا فعل الله في أبداننا ما فعله في حقولنا سواء بسواء، وبدون دراسة هذه العلوم لا يخطر لنا أن ذبول هذه الأوراق تقدمه سد العصارة عنه، كما أن الإنسان يموت ولا يعرف الناس عن الموت إلا أنه أمر طبيعي ويجهلون السبب، لم يكن ليخطر لأحد من الناس قبل انتشار هذه العلوم أن الحمى والجدري والإسهال والحمى التيفوذية والحمى التيفوسية وأمثالها والكوليرا كلها لم تكن إلا لحيوانات ميكروسكوبية أحدثتها وأنتجت تلك الأمراض، انظر في سورة «الروم»، كما أن سقوط الأوراق لم يكن ليخطر للناس قبل ظهور هذه العلوم، إن هناك سداً يوجب انحباس العصارة عنها، إذن كل ما في أجسامنا وما في هذه العوالم لا يكون إلا بأعمال دبرتها نفوس عالية منظمة مستمدة نظامها من مبدع العالم، كما نرى الضوء المنتشر في الأرض مستمداً من قرص الشمس، فهاهنا قوى عاقلة تحيط بنا كاملة العقل مهندسة حكيمة لها أفعال ذات نظام تحيط بنا إحاطة الشمس بأجسامنا، فهاهنا نور شمسي وكوكبي وهاهنا ضوء عقلي يتدخل في كل شيء. هذا هو الأمر الأول، أما الأمر الثاني فهو البرعم الإبطي الذي ينمو في الربيع أشبه بالأجنة في بطون أمهاتها ليحلوا محل الآباء إذا ماتوا، فبينما الهرم يحل بالآباء ترى الأجنة والأطفال ينمون ويكبرون، هكذا البرعم الإبطي ينمو أثناء منع العصارة عن تغذية الورقة ليحل بها الفناء، وهذا هو قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾[الملك: ٣]، فهذه العصارة حولت من الورقة إلى البرعم الصغير كما تتزايد الحياة في الأطفال وتتناقص في الكبار، والله هو الولي الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل. كتب في يوم الأربعاء ١٥ يناير سنة ١٩٣٠م.

بهجة العلم في اللطيفة الثانية

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ﴾[الزخرف: ١١]

يقول الله في سورة «الواقعة»: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[الآيات: ٦٣-٦٥]، فالله هو الذي أنزل الماء من السماء

وهو الذي سلكه ينابيع في الأرض، وهو نفسه الزارع، وهذه الآيات يفهمها الجاهل والعالم لأنها واضحة، ولكن التحقق منها وإدراك حقائقها لن يكون ولن يتسنى إلا لقليل من نوع الإنسان. إن الناس مغمورون بالنعم وهذه النعم تعمي وتصم لكثرتها عن إدراك الحقائق، فالنعم لوفرتها من شمس تضيء، وهواء يحيط، وحبوب تزرع، ونبات يظهر، ولا عمل للإنسان فيها، كل هذه أنامت هذا النوع الإنساني قديماً وحديثاً، فهل لك أن أحدثك حديثاً جميلاً يكشف بعض النقاب عن هذا الجمال حتى يكون باباً تلج منه لإدراك الحقائق، وإن كانت تلك الحقائق يعوزها صرف الحياة في فهمها والبحث عنها، ولن يحب الإنسان صانع هذا العالم حباً مفرطاً لذاته غير ملاحظ خوفاً من النار ولا طمعاً في الجنة، ولا عقاباً ولا ثواباً، إلا إذا درس هذه الدنيا وجمالها درساً فكرياً، بعد الاطلاع على علوم الحيوان والنبات والكواكب الخ. وهذا الدارس هو السعيد حقاً في هذه الدنيا وبعد الموت، لأنه لا يرى من الله إلا الرحمة العامة، ولا يكدر صفوه ما يرى من حوادث الدول والحروب ولا الموت ولا الحياة، فإن هذا الدارس المفكر وقفت نفسه على سر هذا كله وقنعت بالحقائق فانشرحت لها وتجلى لها الله في الدنيا برحمته الحقيقية، وهذا هو الذي لا يحزنه الفزع الأكبر لأنه عارف، والعارف موقن بالرحمة، والذي يخاف من الفزع الأكبر هم أكثر هذا النوع الإنساني لأنهم يعيشون في جلودهم ولا يفهمون نظام الرحمة في الوجود ويتقلبون في أنواع اللذات والآلام ولا يفهمون ما وراءها، فهؤلاء قد جعل من بين أيديهم سد الشهوات ومن خلفهم سد الآلام فأغشي على عقولهم فهم لا يبصرون الحقائق، فأما أنت أيها الذكي فهاك نبذة من ذلك الجمال تفتح بها ما أغلق على أكثر نوع الإنسان وإن كانوا علماء في جميع هذه العلوم، فانظر إلى الشمس إنها ترسل الألوان السبعة المعروفة، وهي: الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي، وهذه تتحد وتصير لوناً واحداً، وهو الذي يغطي الأرض وجبالها وأنهارها وبحارها، وآجامها وحجرها ومدرها ونبتها وشجرها، وهذا الضوء هو الذي به ينمو النبات، ذلك أنه يساعد المادة الملونة المخزونة في الأوراق على اجتذاب المواد الفحمية من الهواء، وهو الذي يقيم هيكل النبات، وهذا النبات هو الذي توقف بناء هيكله على الشمس، ترى فيه أمراً عجباً! تراه مقسماً على بقاع الأرض وعلى الأزمنة وعلى حواس الأحياء وعلى ما ينفعهم من غذاء وفاكهة ودواء.

فهاهنا أربعة فصول في تقسيم النبات على بقاع الأرض والأزمان والحواس ومنافع الحيوان. وهاك بيانها:

الفصل الأول: في أن أنواع النبات تكون في جميع الأماكن

إن منها ما ينبت في البراري والقفار، ومنها ما ينبت على رؤوس الجبال. ومنها ما ينبت على شطوط الأنهار وسواحل البحار، ومنها ما ينبت في الآجام والغياض، ومنها ما يزرعه الناس ويغرسونه في القرى والسوادات والبساتين، ومنها ما يكون على وجه الأرض، ومنها ما ينبت تحت الماء؛ ومن ذلك قصب السكر والأرز والنيلوفر وأنواع العكرش، ومنها ما ينبت على وجه الماء؛ كالطحلب، وما ينسج على الشجر والنبات؛ كالكشوثي واللبلاب، ومنها ما ينبت على وجه الصخور كخضراء الدمن

ومنها ما لا ينبت إلا في البلاد الحارة كالنخل، ومنها ما لا ينبت إلا في البلاد الباردة، وما لا ينبت إلا في التربة الطيبة، وما لا ينبت إلا في الرمال وبين الحصا والحجارة والصخور والأرضين اليابسة، ومنها ما لا ينبت إلا في الأرضين السبخة المشورجة.

واعلم أن أرضكم هذه لما أتمت في حضانة الشمس المدة الكافية لسن بلوغها قالت لها بلسان الحال: أي بنيتي، هاهو ذا جاء زمن بلوغك فانهضي من مرقدك في معهدك الذي تتربين فيه، وهاأنا ذا أرسلك إلى مدارك الذي تدورين فيه حولي، كما أرسلت من قبلك أخواتك الكبريات مثل بناتي أورانوس ونبتون والمشتري والمريخ وأمثالهن. فهاهو ذا جاء الوقت الذي أرسلت لتكوني في مدار خاص وهو منزل بعلك الذي تطيعيه، وهو الضوء الذي يسير مني إليك حين تبتدئين في الدوران، وباجتماعه معك تلدين ذرية صالحة إن شاء الله، وهي أنواع النبات والحيوان، ولكن يا بنيتي واسوءتاه إن أبناءك من ذرية أحد أولادك المسمى آدم سيكونون خارجين عن سنن القوانين حين يطردون من الجنة التي كان أبوهم فيها، فأنا يا بنيتي أنصحك أن تأخذي معك كل ما يجب لحفظ صحتهم إذا ضعفت لتطول حياتهم أمداً ما، فخذي في هيكلك من العناصر ما ينفعهم، فهاهو ذا المغنسيوم والكبريت والفوسفور والحديد والكلور وأمثالها، فإنها ستدخل في مواد نباتية فيكون الأول نافعاً في العضلات، والثاني في الدم، والثالث في المخ، والرابع في احمرار الدم، والخامس في هضم طعامهم، فهذا يا بنيتي هو وأمثاله من الجهاز الذي تأخذه بناتي معهن لأزواجهن حتى يلدن الذرية الصالحة النافعة. واعلمي يا بنيتي أن الله قد أعد لأبنائك من ذرية آدم كل ما يحتاجون إليه قبل إخراجك من جسمي، لأنه علم أنهم قوم لا يحافظون على صحتهم، فأمرني أن أبلغك أمره إذ يقول: إنه سينبت عليك مثلاً الجزر ليكون نافعاً للجلد كما تقدم، وأمثال الخس ليكون نافعاً الأعصاب، وأمثال البرتقال ليكون نافعاً للشجاعة، والبقدونس ليكون نافعاً للكليتين، والطماطم لتكون نافعة للكبد.

وهذه الذرية ستخلق بعد مئات الملايين من السنين. فقالت الأرض: يا أماه، وكيف هذا؟ فقالت: لأن الله يعلم كل شيء قبل خلق السماوات والأرض، فهناك مناسبة عجيبة بين العناصر والنباتات وبين أعضاء الإنسان عضواً عضواً، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٧].

الفصل الثاني
في تقسيم النبات على الفصول

النبات	مبدأ زرعه	زمان حصده
أكثر النبات	في زمن الربيع	
الحنطة والشعير والباقلا والعدس وغيرها	في زمن الخريف	الربيع
القثاء. الخيار. الباذنجان	في الشتاء	الربيع
الجزر. الشلغم. الكرنب. القنبيط	الخريف	الشتاء
السمسم. الذرة. الأرز	الصيف	الخريف
القطن. القنب	الربيع	الخريف

الفصل الثالث
في تقسيم النبات على حواس الحيوان ومنه الإنسان

النبات	الحاسة
مناظر الأشجار والأزهار جميعها	لحاسة البصر
الأزهار وذوات الرائحة الطيبة كالورد	لحاسة الشم
حفيف الأشجار وغوير الأعشاب وهكذا	لحاسة الأذن
الحلو كالتمر والتفاح والعنب وأمثال ذلك	لحاسة الذوق
نعومة الزهر والقطن مثلاً	لحاسة اللمس

الفصل الرابع
في تقسيم النبات على منافع الإنسان

فمن النبات ما هو للغذاء كالحبوب والفواكه، ومنها ما هو للدواء، وهذا مقسم على الأعضاء أو عام، فأما ما هو عام فمثاله الكافور والصفصاف، أما الكافور فهو نافع في الأمراض العصبية كالصرع واختناق الرحم المسمى «هيستريا»، وذلك بأن تهجم على المريض نوبات عصبية فيفقد الشعور تماماً فلا يحس ولو كوي بالنار، ويقع ولو كان أمامه بئر ويعض على لسانه، ويقول له العامة «معفرت»، وهذا يستعمل له التفريح وترك الكدر، ويرش له مسحوق الكافور على فرشه فهو مضاد للتشنج، وإن كان قد اعتاد الاستمناء باليد يمنعه ذلك المسحوق على الفرش. وأما الصفصاف فهو للحمى، وذلك أن المصاب بالحمى يعالج بغلي أوراق الصفصاف بأن يوضع أوقيتان في رطل ماء، ويغليان ويشربهما، مع وجوب ترك المحل الذي أصيب فيه بالحمى حتى يغير الهواء، ويقتصر على الحمية ولا يأكل إلا قليل المرق واللبن، ولا يشرب إلا ماء الشعير ليطفئ الماء الظمأ، ويكون مقام ورق الصفصاف مغلي قشر البلوط وورق الجوز أو الزيتون. فهذا مثالان هو عام لمداواة الجسم كله، أما ما يختص ببعض الأعضاء دون بعض فمثاله:

(١) إن الجلد ينفعه أكل الجزر.

(٢) والأعصاب ينفعها أكل الخس والسبانخ.

(٣) ولترك الخوف وظهور الشجاعة ينفع أكل البرتقال والليمون.

(٤) ولأجل شفاء الكليتين ينفع أكل البقدونس وكشك الماز والفجل.

(٥) ولأجل شفاء الكبد ينفع أكل الطماطم والهندبا «جعضيض» والبصل.

(٦) ولشفاء النزلة المعدية المعوية المزمنة وهي «القرحة» يأكل المريض السريس الأخضر، وهو «الشكوزيا البرية» مع الغذاء مدة أسبوع، وهكذا حب الرشاد لأنه يحتوي على أصول مقوية جداً للهضم ومصلحة لتلبك المعدة.

(٧) ولشفاء الرأس من ضرر «بطحة شمس» وهي المسماة بضربة الشمس يصب على الرأس ماء بارد مضاف إليه قليل من الخل، ويترك الرأس عارياً.

(٨) ولشفاء داء الخناق المسمى « دفتيريا » يؤتى للمريض بخرقة نظيفة تلف على قطعة خشب رقيقة ثم تغمس في عصير الليمون المصفى ويمس بها حلق الطفل، ويكرر ذلك كل ساعة مرة.

(٩) ولإسهال الطفل الذي يسميه الفلاحون بمصر « التلويحة » يجب أولاً منع سببه وهو أكل الطعام والثمار قبل استعداد الطفل للأكل، بل يجب أن يطعم لبن البقر إذا لم يكن لأمه لبن ويضاف إليه مقدار درهم من مسحوق الطباشير الناعم النقي كل يوم أو مثله من مسحوق الفحم النباتي « فحم الخشب النظيف » وقد يضاف إليه بيكربونات الصودا.

(١٠) ويعالج وجع الشقة وهو أمراض النخاع والمغص المعوي والمغص الكلوي باستعمال مغلي بزر الخلة، يؤخذ قدر أوقية ويغلى في رطل ماء ويصفى ويشرب منه قدر فنجال كل صباح، فليواظب على ذلك فإنه لا يشكو مرة أخرى من وجع الشقة، وليلاحظ نقاء ماء الشرب، فالأحسن أن يغلى في إناء ويؤخذ الصافي منه ويبرد في أوان ويستعمل، أما الترويق بنوى المشمش أو بالفول ففيهما ضرر كبير، فالأول قتال والثاني يعفن ويأتي بجراثيم مضرة، والأحسن وضع نصف أوقية من الفحم النباتي النظيف المغسول مراراً في الزير، ومتى فرغ الزير يؤخذ الفحم ويغسل ثانياً ويفعل به ما فعل أولاً، فهذا ربما يفيد في إزالة وسخ الماء، وينفع في هذا المرض أيضاً أكل الكبر وهو معروف في حقول البرسيم في مصر، وينفع أيضاً فنجان من مغلي بزر الحرمل عند تناول الإفطار مدة أسبوع.

تلك عشرة كاملة بعد المثالين الأولين العامين. فقلت: هذا كله من كتابين: أحدهما كتاب « طب البركة » تأليف الدكتور عبد الرحمن إسماعيل المتخرج من القصر العيني بمصر، وثانيهما كتاب في الطب تأليف السير ويليم ويلكوكس.

ولقد بذلت جهدي في أن أجعل هذه الأمثلة مستوفاة بحيث يمكن الانتفاع بها في المعالجة، ولم أنقص من المعالجة المذكورة فيها شيئاً مما ذكر في المصدر الذي نقلت منه.

هنالك اطلع على هذا أحد العلماء فقال لي: هذه الفصول الأربعة طال الكلام فيها، وهل هذا كتاب طب أم هو كتاب زراعة؟ إن هذا تفسير للقرآن. وإنّما ذكرتك بهذا لئلا يستهويك جمال العلم فتنسى أصل الموضوع، فيرى القارئ أنك تجاوزت الحد المقرر للتمثيل في التفسير. فقلت: كلا، ما غفلت، وإنّما هذه الفصول جملتها قواعد أربعة أبني عليها قصور الحكمة وقلاع العلم، إن القمح والقطن وأنواع الخضر والريحان والفاكهة يزرعها الناس وتمر عليهم الفصول والسنون ويأكلون ويتفكهون ويمرضون ويتداوون ثم يموتون وأكثرهم لا يذكرون. فهاهنا ذكرنا هذه الأمور، وسأبين هنا كيف تمثل الروايات حول الناس صباحاً ومساء وهم لا يشعرون ولا هم يذكرون، غاية الأمر أن يقال فلان غني، وفلان فقير، وفلان جاهل، وفلان عالم، أما هذه الفصول التي تمثل في مشاهد الطبيعة فهم عنها معرضون، وقل من يخلق في هذه الأرض ثم هو يفكر في أن الشمس خرجت منها أمواج الأشعة فسافرت حتى وصلت إلى البحار، فأثارتها وأثارت الهواء، فكانت سحاب فمطر فرزق وتمر ودواء.

إن أكثر الناس لا يعلمون، ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧]، ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ضوء وهواء وحب يدفن في الأرض وماء ينزل عليه ومواد خضراء بعضها

فوق بعض ذات أوراق على ساق فأزهار فاتنة ، ثم إن كل ثمر أو حب له عضو من أعضاء جسم الإنسان يداويه ، فأي مناسبة بين الشمس التي بعدت عنا مسافة (١٢) سنة بسفر قلة المدفع وبين بذور تلقى في الأرض وماء يخالطها ثم ينتج دواء أو غذاء لمخلوق بعيداً عنهما لا مناسبة بينهما البتة ، أي مناسبة بين بذور ومياه وأضواء وبين رجل في الحقل ، حتى إن هذه الحبوب والأوراق المختلفات تقسم منافعها على أعضائه من قلب وكبد ومعدة وأمعاء إلى آخر ما تقدم . يحار فكر العاقل فيقول : نور يسوق غازاً وسائلاً ، وهذان يجريان في الجو بلا نظام ، ثم هما يؤثران في غيرهما وهكذا حتى ينتهي الأمر إلى منفعة عامة لكل حي .

فقال صاحبي : لقد ذكرت أن هذه أشبه بالروايات والناس لا يعقلونها ، فقلت : نعم ، إن فصول الروايات على قسمين : فصول يعقلها الحكماء ، وفصول يعقلها الجهلاء ، والعقلاء والجهلاء كل منهما فرح بما لديه ، فهذا بالخيال مغرور ، وهذا بالحقائق في حبور ، فيا بعد ما بينهما . إن بينهما بعد المشرقين والمغربين . فقال : حدثني عن الخيال الذي للعوام وللحقائق التي للخواص ، على شريطة أن يتحدا في معنى واحد حتى أدرك الفرق بينهما . فقلت : أذكر لك أولاً قصة خيالية من قصص « ألف ليلة وليلة » قد قدمت ذكرها في سورة « الكهف » وهي قصة مدينة النحاس ، ذكرتها هناك من أنواع الزينة التي أبدعها الله في عقول العلماء فأبهجت القلوب ، ذلك أن الكتاب تصور أن موسى بن نصير المعروف بأنه مع طارق بن زياد اللذين فتحا الأندلس ، كان معه رجل اسمه عبد الصمد قد كشفا عموداً من النحاس ففتحاه ، فخرج جني كان معذباً من أيام سليمان عليه السلام ، وحكى لهما تاريخ حبسه . ثم ذهبا إلى مدينة النحاس وهي كبيرة جداً ، طاف الرجال حولها على خيولهم يومين حتى رجعوا للمكان الذي خرجوا منه ، وأدهشهم سورها الذي لا يمكن اقتحامه لعظمة ارتفاعه ، ثم عثروا على مفاتيحها فوجدوا جواهر من ذهب وفضة وألماس وياقوت مما لا يحصيه إلا الله ، والناس صرعى كل في مكان في السوق والقصور والمنازل ، ومن أعجب العجب أنهم رأوا فتاة جميلة وعيناها تنظران ، فسلما فلم ترد فعرفوا أنها ميتة ولكن عينها تتحرك بالحكمة ، فقرب واحد منها ليأخذ ما عليها من الحلي والحلل التي لا نظير لها في الدنيا ، فانقض عليه سيافان واقفان حولها بتصوير الحكمة ، فضرباه بالسيف فقتلاه فتركوها ، ثم وجدوا لوحاً مكتوباً فيه قصة هذه المدينة والمجاعة التي حلت بها ، فاقرأ الملخص بتمامه في سورة « الكهف » أو فارجع إلى نفس ألف ليلة وليلة .

فهذه الخرافة تلذ السامعين من الصغار والنساء والعامة والجهلاء ، لأن فيها مفاجآت عجيبة وأموراً غريبة ، والخيال يصبو إلى هذه الغرائب ، فإنه إذا سمع أن هناك مدينة عظيمة جداً دهش لأنه لا نظير لها ، وإذا سمع أنها مملوءة جواهر وأن فتاة جميلة تتحرك عيناها دهش جداً ، وإذا سمع أن رجلاً قتل بسيوف من تماثيل واقفة زاد دهشه ، فهذه الرواية جعلت لتعليم الناس الزهد في الدنيا ، ولا سبيل لذلك إلا بهذه الخرافات فهي حسنة جداً لصغار الأحلام . وهكذا تجد رواية أخرى جاء فيها أن ابن ملك من ملوك مصر رأى في خزائن أبيه خلعة بهجة ، فيها صورة فتاة جميلة ، وهو في سن الرابعة عشرة فهام بحبها ، وأعطاه أبوه بعد اللتيا والتي ما طلبه من رجال الجند والذخائر والعدة ، وسافر إلى أقصى

الشرق ومات جميع رجاله غرقاً تارة وقتلاً أخرى بعد أن وقع في الأسر مراراً، ورماه القدر في بلاد الفرس بعد رجوعه من الشرق الأقصى، فعثر على ابنة ملك الجن في حديقة وهي نفس الصورة التي كان يطلبها فتزوجها ورجع بها إلى أبيه وكان يوماً مشهوداً.

فهذه القصة تقرؤها في نفس كتاب «ألف ليلة وليلة» وربما مرت الإشارة إليها في غضون هذا التفسير. ولعمري ما هذه القصة وأمثالها إلا رمز لمعرفة الحقائق التي نحن بصددها. فإننا نعيش في الأرض ولا نفقه من هذا الوجود شيئاً، ولن ننال تلك الحقيقة الناصعة التي هي السعادة الحقة إلا بأن نجعل أجسامنا وأموالنا قرباناً لأجلها، ونلقي بمهجنا في سبيل العلم والحكمة أو في ساحات الحرب، فنكون أدينا ما وجب علينا. فهذه الممالك التي وقع فيها ابن ملك مصر وما صادفه من ذل وجوع وعري وفقد الرجال والمال ثم الأسر والضرب والغرق ثم النجاة؛ كل هذا ضرب مثلاً لطلاب المجد والعلا، فهم لا ينالونه إلا باستغنائهم عن هذه الحياة والوقوع في المهالك والمهاوي والمشاق العظيمة فيكون الفوز.

ولقد أردت أن أؤلف رواية خيالية تستبين بها سبيل هذه الفصول الأربعة في ضوء الشمس والهواء والماء والنبات وتقسيمه على الفصول الأربعة وعلى أعضاء الإنسان، مع تباين ما بينها، فأعيتني القريحة بعد الكد والنصب، حتى إذا كنت يوم أمس بعد الظهر وهو يوم الأحد ١٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية وأنا سائر في منيل الروضة.

وهناك جلست تحت شجرة فأخذتني وأنا جالس سنة من النوم، فخيل لي كأن أمامي رجلين يتحادثان. فقال أحدهما: هل أحدثك حديثاً عجيباً في غرائب هذه الدنيا؟ فقال: أحب ذلك. فقال: كنت الليلة نائماً فأتاني خمسة رجال فأيقظوني فرأيت جسمي مطروحاً على الأرض كأنه ميت، فقلت: أنا ميت. قالوا: أنت حي وهذه روحك. ولها اتصال بهذا الجسم وسترجع إليه، وسارا بي حتى ارتفعا إلى السماء ووصلنا إلى الشمس:

(١) فرأيت حمامتين: إحداهما ذات طوق أحمر، والأخرى ذات طوق أبيض. فقلت: ما هاتان يرحمكم الله؟ فقالوا: اصبر قليلاً.

(٢) ثم نظرت فوجدت هاتين الحمامتين أسرعتا في الجري حتى وصلتا إلى الهواء المحيط بالأرض، ثم أخذتا ترفرفان كثيراً حتى رأيت عربات لا عدد لها تجري في الجو، ولكن لا عجلات لها، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: اصبر قليلاً.

(٣) ثم عمدت الحمامتان إلى البحر فأخذتا تضربانه بأجنحتهما، فخرجت قرب لطيفة الصنع مملوءة ماء، وصارت تطير في الجو هنا وهناك بغير نظام، إذن هناك عربات وقرب ماء كلها طائرات شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً لا نظام لها ولا ثبات.

(٤) وبينما أنا متعجب من هذه المعركة المختلفة إذ رأيت هذه القرب قد حملت على تلك العربات واتحدت هذه مع هذه حتى صارت كأنها سفن تقترب من بعضها، فعجبت كل العجب! فقلت: ما هذا يرحمكم الله؟ أدركوني وأسعدوني حتى أفهم، فقالوا: اصبر.

(٥) وبينما أنا كذلك إذ رأيت هاتين الحمامتين عمدتا إلى تماثيل مصنوعة من الطين مجوفة فأخذتا ترفرفان عليها، فرأيت تلك الصور أخذت تتقلب من حالها الأولى إلى حال أتم وأرقى، وأخذ الطين يصفو شيئاً فشيئاً حتى صار لحماً وعظماً وفيه عيون وأسماع وأبصار. ثم أخذت التماثيل تتحرك وتمشي وتتكلم، فأخذ مني العجب كل مأخذ، وهذه الصور مختلفة الأشكال والألوان والأعمال من كبير وصغير.

(٦) ثم رأيت صورة طينية أكبر من جبال هملايا بهيئة إنسان، وهذه الصورة أخذت الحمامتان ترفرفان عليها، وانضم إليها ألوف مرفرفات حتى تحركت ونطقت، وهناك أخذ مني الرعب كل مأخذ وقلت: إن هذا الذي أمامي هو ما يقال له الغول، ولو أنه خطا نحوي خطوتين لقتلني، فقالوا: لا تخف اصبر قليلاً.

(٧) ثم سارعت الحمامتان إلى أرض قفر، فأخذتا ترفرفان عليها، وقد رأيت هناك نملاً كثيراً تضع ما يشبه الحصوات أو الرمل، والحمامتان تضربان دائماً على وجه الأرض فوق تلك الرمال، فما أسرع أن رأيت تلك الحصوات والرمل قد ارتفعت فوقها أعمدة شيدت عليها قصور خضر وفيها مخازن عجيبة.

(٨) وتلك المخازن فيها ما يشبه تلك الحصوات والرمل التي جلبها النمل. فقلت: ما هذا يرحمكم الله؟ فقد والله رأيت عجباً لم أسمع ولم أر مثله. فقالوا: اصبر.

(٩) ثم سمعت من هذا الإنسان الكبير الجثة أصواتاً من جميع جسمه، وتلك الأصوات مختلفات من معدته، ومن أمعائه، ومن كبده، ومن قلبه، ومن رأسه، ومن جنبه، ومن نخاعه، ومن رئته، ومن طحاله، ومن كليتيه.

(١٠) فعند ذلك رأيت جماعات من النمل قد أسرعت حثيثاً إلى تلك المخازن، فصارت تأخذ منها وتلقي على مواضع تلك الأصوات، فلا تكاد النملة تضع بزراً من تلك البزور على الجنب أو الرأس أو المعدة حتى يسكن الصوت حالاً، وتارة يتأخر قليلاً، فهنالك اعتراني أشد الدهش، فقلت: ما هذا يرحمكم الله، فإني لا صبر لي على هذه العجائب؟ فقالوا لي: أما الآن فنعم قد تم لك العلم.

قال: فقلت: وأي علم؟ أنا لا أعلم شيئاً. فقولوا لي يرحمكم الله ما هما هاتان الحمامتان. فقال أحدهم وهو الرئيس: الآن أحدثك، إن الناس في الأرض نيام، وهذا الذي رأيته هو الذي يرونه بأعينهم ولكنهم لا يفقهون وعلماؤهم وجهلاؤهم على حد سواء. قال: فقلت: ولم لا يفقهون؟ قال: لأن هذه روايات خلقوا فيها، وهم أنفسهم من الممثلين، والممثل في مرسح التمثيل غير النظارة، فأنت الآن من المشاهدين، وأهل الأرض هم المشهودون. فلما كنت في جسمك كنت مشهوداً، ولكنك الآن شاهد والشاهد غير المشهود. فما أهل الأرض إلا صور متحركات يشهدهم فيها المقربون. فأما أنت الآن فلست منهم بل صرت روحاً فصرت أشبه بالشاهدين. قال: فقلت: ولم لا أكون من الشاهدين؟ قال: يا بني، إن الشاهدين ليسوا هم الذين تضرب لهم الأمثال فحسب مثل هذه الأمثال التي سأبينها لك، بل هم الذين يدركون نفس الحقائق، وفرق بين الثريا والثرى، ومدركو الحقائق هم

المقربون الذين يقول الله فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم: ٩٦]، والمودة الحقيقية لا تكون إلا بمعرفة الحقائق فعلاً لا تخيلاً، فهأنا ذا أقص عليك ما رأيته الليلة لتبلغه لأهل الأرض. فقلت: فما هاتان الحمامتان إذن؟ فقال: أما ذات الطوق الأحمر فهي الحرارة، وأما ذات الطوق الأبيض فهو الضوء، وأما العربات فهي الرياح، وأما القرب المملوءة ماء فهي البخار الخارج من البحر بتسلط الحرارة عليه، فيكون باجتماعهما سحاب، وأما ضرب الحمامتين بأجنحتهما على الأرض وعلى ما يشبه الحصوات والرمل فذلك أن الحرارة والضوء لا بد منهما في ظهور النبات من الأرض، وأما تلك الصور الطينية فهي جميع الحيوانات، فهي من الطين مصورات، ولولا الحرارة والضوء ما كانت لها حياة، وأما القصور المصورات فوق الأعمدة وفيها المخازن فهي النباتات، وأما ذلك الإنسان العظيم الجثة كجبال همالايا فهو الأمم الأرضية صورت لك بهيئة إنسان كبير الجثة، وأما الأصوات الخارجات من أعضاء جسمه فهي الأمراض الموزعات على الأعضاء الجسمية في أفراده، وأما طوائف النمل الحاملات لتلك الحبوب من المخازن في تلك القصور فهم الأطباء يضعونها على مواضع الداء لتشفى. قال: ثم قال هذا الطيف لي: فهذا هو تمثيل أحوال تحيط بكم، فإذا رجعت روحك إلى جسمك فقل لهم: يا أهل الأرض. إن حولكم عجائب وعجائب ولكنكم لا تعقلونها لأنكم أنتم صور ممثلون ولستم من النظار، ولقد أقسم الله بالشاهد والمشهود وقدم الشاهد لأن الشاهد يعقل ويكون من المقربين، وهو الذي عقل عن الله وأدرك رحمته فعلاً، فلا يهوله الفزع الأكبر لأنه اطلع على الأسرار وعرف الحقائق، فلم ير من الله إلا الرحمة، فإن أماته أو أحياه أو أفقره أو أغناه فهو في السعادة الأبدية سعيد في الدنيا بالعلم، وسعيد في الآخرة بالعلم، فأما أمثال هذه الخيالات فهي لفتح باب العشق والحب، ومتى كان الحب وصل العبد لخالقه. والعبيد على قسمين: عبيد عبدوا بالرغبة، وعبيد عبدوا بالرهبة، فأهل الخيال عبيد الرهبة، وأهل الحقائق والحب والعشق عبيد بالحب، وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ [مريم: ٩٣]، وإلى الثاني الإشارة بقوله: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا ﴾ [الإسراء: ١] الخ، فملك الناس تارة يكون بالرهبة، وتارة يكون بالحب والعشق، وأفضلهما الثاني. قال: ثم قال لي الطائف وهو رئيس الجماعة الذي معه:

* وما كل مصقول الحديد يماني *

قال. ثم قلت لرئيس الجماعة المذكور: حياك الله، عرفت أن القصور الخضر تمثل المزارع وأن المخازن فيها تمثل الحبوب، فعلمني رعاك الله مما علمك الله بعض الحقائق بعد الخيال عسى أستيقظ فأخبر أهل الأرض فيصلوا إلى الحقائق. فقال: أما الآن فنعم. لأنك اشتقت إلى العلم ولا علم إلا بعد الشوق، والشوق أعظم أبواب السعادة، فقد رأيت النبات في الأرض. قال: نعم. وهو مقسم على الأزمنة والأمكنة والأعضاء والحواس. قال: فقلت: نعم. وهذا أمر عجب لا أعرف سره. فقال: قد علم الله أنه سيخلق الإنسان وأن أنسب الأوقات للزرع فصل الربيع الذي فيه تظهر أكثر النباتات. قال: فقلت: نعم. لولا أنه تعالى لم يجعل الزرع إلا في ذلك الوقت لتعطل الإنسان في بقية السنة، فدبر

الأمر وجعل لبقية الفصول أنواعاً من الزرع ليعمل الناس، لأنهم إذا لم يعملوا كان ذلك تعطيلاً لهم ومرضاً لأجسامهم، ولو أن النبات اختص بمكان دون مكان لاجتمع الناس في مكان واحد هم والحيوان فهلكوا، فلذلك وزعه على أمكنة كثيرة.. قال: فقلت: هذا عجب! والله إن أهل الأرض لا يفكر أكثرهم في ذلك. قال: لهذا أعلمك. ثم قال: وهل الحرارة والضوء والهواء والماء كانوا علماء بكل شيء حتى عرفوا أن بذوراً مرماة في الأرض فاجتمعوا عليها، ثم حصل النمو فوزعت محصولاتها على الأعين والآذان والجلود والبطون والأكباد والقلوب الخ، بحيث أصبحت تلك الأمور المبعثرة التي يرى ظاهرها لا نظام لها وكأنها جاريات بغير حساب، قد صارت مقصودة قصداً حقيقياً بحيث توزع ثمراتها على حاجات الحيوان والإنسان عضواً عضواً وحاسة حاسة، أي أن النباتات البالغات عنكم الآن (٢٥٠) ألف نوع كلها موزعات على أعضائكم وحواسكم، مع أن من يرى الضوء والحرارة والهواء والماء والأرض وهي تتفاعل لا يخطر له أن النتائج تكون منظمة هذا التنظيم المدهش، وأي نسبة بين الشمس التي تجري وبينها وبينكم آماد وآماد، وهي ترسل ضوءاً لكم وبين الأعين والمعدات والجلود، ثم إن أرضكم كما تقرؤون أنتم في العلوم كانت قطعة من الشمس، وهذه القطعة فيها الجير والمغنسيوم والكبريت والفوسفور والحديد والكلورين، فهذه المواد مما يدخل في النبات عندكم، وكل هذا مرسل من الشمس في أجزاء الأرض، فلم تقف الشمس عند هذا الحد، فأمرها الله بإرسال ضوء وحرارة ينبعثان منها ليتمما ما قصده الله سبحانه، كما خلق الله عقولكم يا بني آدم فهي كهذه العناصر ساكنة لا عمل لها، ولكنه يرسل لكم أنبياء، ويلهم من بنيكم حكماء، فيحركون أجسامكم وعقولكم، كما أنكم ترون الضوء والحرارة ينبعثان من الشمس فيساعدان:

(١) الجير المذكور المفيد للعظم الشافي للجروح على أن يدخل في نبات الكرنب، وفي اللبن والجبنة التي لم يؤخذ زبدها، وفي السبانخ والبصل والمشمش والتين والبرقوق والطماطم والكرفس والباميا والردة.

(٢) ويساعدان أيضاً المغنسيوم الذي يكون قوة في العضلات ويمنع الفتق فيدخل بسببها في السبانخ والخص والخيار والطماطم والبرتقال والشعير والذرة والقمح والليمون والتين والباميا.

(٣) ويساعدان أيضاً الكبريت الذي هو المنظف للدم المانع للروماتيزم على أن يدخل في السبانخ والقنبيط واللفت والفجل الأحمر والطماطم والقرلة وكشك الماز والجزر والكرنب والبصل والباميا.

(٤) ويساعد الحرارة والضوء أيضاً الفوسفور الذي هو مغذ للمخ على أن يدخل في الفجل والقنبيط والخيار والجوز والبسلة والعدس والقمح وفي الخص والسبانخ، وهكذا في صفار البيض وكشك الماز.

(٥) ويساعدان أيضاً الحديد وهو الذي يعطي الدم لونه الأحمر على أن يدخل في تركيب الكرنب الأحمر والسبانخ والبصل والزبيب وصفار البيض النيء والبلح والبرقوق والبنجر وكشك الماز والطماطم.

(٦) وهما أيضاً يساعدان الكلورين وهو المساعد للهضم المنظف للمعدة على أن يدخل هيكل الكرنب وملح البحر والجزر والسبانخ واللبن وسمك البحر المالح والفجل والجبنة وجوز الهند والبنجر.

ثم قال: هذه المواد الست مما يدخل في تركيب النباتات، قد أرسلها الله مع الأرض يوم أن اقتطعها من الشمس، ثم أرسل لها الضوء والحرارة فنزلت عليها فكانت سبباً في دخولها هذه النباتات المفرقات على أعضاء بني آدم وعلى حواسهم، بحيث لا يكون هناك داء إلا وله دواء. ولا حاسة إلا ولها ما تطلبه، ولا حاجة من حوائجكم إلا كانت حاصلة موجودة قد أثيرت بذورها وأصولها من عوالم فوق شمسكم، ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[الذاريات: ٢٢].

ثم قال: فهذا هو ما سألت عنه. فهل فهمت؟ قال: فهمت. يقول مؤلف هذا الكتاب: كل هذا وأنا مصغ إلى القائل وعندي أشد الدهش والبهجة، وأقول في نفسي: يا رب، كيف أكون في حيرة وقد عجزت فعلاً عن تمثيل ما يحيط بنا من العجائب بحيث يكون أشبه بالروايات، وكيف يئست والله يأساً حقيقياً من أن أصور ذلك بصور خيالية، ثم كيف أسمع ذلك في المحاورة بين هذين الرجلين؟ فهل هذه الأرواح هي إخوان روحي أم أي شيء هذا! ثم أردت أن أسأل هذا المتكلم، لأسأله من أنت؟ فاستيقظت وقد عجبت كل العجب وحمدت الله على أنه علمني ما لم أكن أعلم، وإني الآن يكاد قلبي يطير من بين جنبي إذ عرفت ما عجزت عنه، والحمد لله رب العالمين. كتب ضحى يوم الاثنين ١١ رمضان سنة ١٣٤٨ هجرية.

اللطيفة الثالثة: كشف النقاب عن بعض أسراره قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[الزخرف: ٣٦]

حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير. فقال: لقد أومأت إلى تفسير آية: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾[الزخرف: ٣٦] الخ عند الكلام على البسملة، ولكن النفوس اليوم يعوزها الوقوف على الحقائق، وكما أن علم الطبيعة لا يورث اليقين إذا اشتققناه اشتقاقاً هكذا علم القرآن، فإذا لم نصل إلى النهايات فلسنا علماء ولسنا سعداء، فهل هذه الحياة الدنيا شقاء والسعادة محصورة في ذكر الله تعالى؟ نحن نريد التحقيق في هذا المقام بالعقل. فقلت: أيها الحبيب، إذا أردت الوقوف على حقيقة هذا الموضوع فلا مندوحة لك من الصبر على البحث معي والتنقيب. فقال: سأصبر. فقلت: جاء في كتابي «بهجة العلوم» في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية الذي ألفته الآن تحت الطبع ما يأتي من علم الحساب:

(أولاً) إن كل عدد قسم بقسمين ثم زيد عليه أحد القسمين يكون المجموع من ضرب جميع ذلك في نفسه مساوياً لضرب ذلك العدد قبل الزيادة في تلك الزيادة أربع مرات والقسم الآخر في نفسه ومثاله أن تربع (٧+٣+٣) فهذا يساوي ١٠×٣× ٤ زائد ٧^{٢}.

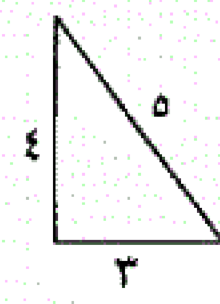
(ثانياً) كل عدد قسم بنصفين ثم زيد عليه زيادة ما يكون الحاصل من ضرب ذلك العدد مع الزيادة في نفسه وضرب الزيادة في نفسها مجموعاً مثلي ما يكون من ضرب نصف العدد مع الزيادة في نفسه وضرب نصف العدد في نفسه، ومثال ذلك (١٠) قسمت نصفين ثم زيد عليها اثنان فأقول: إن

ضرب الاثني عشر في نفسه والاثنين في نفسها مجموعاً مثلاً ما يكون من ضرب ٧ في نفسها و٥ في نفسها مجموعاً.

(ثالثاً) كل عددين مجذورين على الولاء إذا ضرب جذر أحدهما في جذر الآخر ويزيد عليه ربع تكون الجملة عدداً مجذوراً، فإذا ضربنا جذر ٤ في جذر ٩ وزدنا ربعاً فجذر المجموع ٢,٥.

فهذه ثلاثة مسائل من علم خواص الأعداد، وهاك ثلاثة أخرى في الهندسة وهي:

(١) زوايا المثلث الثلاث تساوي قائمتين.



(٢) مربع وتر الزاوية القائمة في المثلث يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين، فإذا كان أحد الضلعين ٣ والثاني ٤ فإن الضلع المقابل للزاوية القائمة يكون ٥ ومربع ٣ = ٩ومربع ٤ يساوي ١٦ ومجموعهما ٢٥ ومربع ٥ يساوي ٢٥ وهو المطلوب وهذه صورته:

(٣) الزاويتان الحادثتان من وقوع خط مستقيم على آخر مستقيم على جانب واحد منه هما قائمتان أو تعدلان قائمتين. فهل فهمت أيها الصديق هذه المسائل؟ فقال: إنها في غاية الوضوح، إن مسألة الزوايا الثلاث في المثلث تقدمها ٣٢ شكلاً حتى أمكن البرهنة عليها، ومسألة مربع الوتر تقدمها ٤٦ شكلاً كذلك، ومسألة الزاويتين تقدمها للبرهنة عليها ١٢ نظرية في الهندسة. فقلت: حسن جداً. إذن هذه المسائل ليست من البديهيات بل هي نظريات، ولا جرم أن النظريات ترجع إلى البديهيات في آخر الأمر، كقولهم: الكل أعظم من الجزء. وهذه النظريات والأشكال التي تقدمت المسائل المتقدمة قد جعلت لتوصل هذه المسائل إلى البديهيات، قال: نعم. قلت: فلنسر في بحثنا على هذا النور العلمي لنصل لما نقصده، فنقول: لنتخذ هذه المسائل الهندسية والحسابية الست مقدمات كما جعل الناس القضايا البديهية مقدمات وبنوا عليها علومهم الجزئية كالحساب والهندسة والفلك والجبر وغيرها. فلنبن نحن علمنا الذي هو سيد العلوم وهو العلم الأعلى وهو أصل العلوم على تلك العلوم الجزئية. وبعبارة أخرى: إن علماء الرياضيات والطبيعيات يتخذون المحسوسات والبديهيات أساساً وبنوا عليها علومهم الجزئية التي بها نظمت أمور الحياة في الأرض، فلنتخذ نحن نفس علومهم التي برهنوا عليها ونجعلها أساساً للعلم الأعلى وهو العلم الذي به السعادة والحكمة والجمال المطلق، ذلك لأن الناس مع شيوع علومهم وكثرتها تراهم دائماً في قلق، وآراؤهم في حيرة واضطراب، والناس في حرب وضرب واختلاق واختلاف، لا فرق بين عالمهم وجاهلهم، وأرباب العلوم ورجال الصناعات سواء في ذلك.

وكل يدعي وصلاً لليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

فنحن هنا نريد أن نتوصل إلى العلم الذي يربح جميع الطوائف وهو اليقين، كاليقين الذي يعرفونه في العلوم الرياضية، ومتى عرف الإنسان اليقين سعد السعادة التي لا نهاية لها. فقال صاحبي: إنك لتحدث عن أمر عظيم ذي بال وهو شريف، وأود أن يمنحك الله قوة الفكر حتى تعرفنا هذا العلم البديع الذي لو تحقق لأعطى النوع الإنساني اطمئناناً، والاطمئنان هو النعيم الأكبر في هذه الدنيا. قلت: أيها الصديق ستسمع ما يسرك ويكون عندك اليقين، لتنظر في المسائل الحسابية الثلاث وأخواتها

الهندسية التي قدمناها، هل هي خاصة بالأعداد التي كتبناها وأشكال هندسية خاصة؟ أم كل قاعدة منها تشمل أعداداً وأشكالاً كثيرة. قال: بل كل منها تشمل مسائل لا حصر لها هندسة وحساباً، فلأرقام التي ذكرتها والزاويتان اللتان رسمتهما ما هما إلا مثالان لا غير. فهناك من الزوايا والأرقام ما لا يعد وكله مطبق على هذه القواعد، قلت: أصبت المرمى، أترى هذه القواعد الكلية مشاهدة بأبصارنا؟ قال: كلا، بل نحن نعقلها ببصائرنا، والمشاهد بالأبصار:

(أولاً) المعدودات الخارجة والمواد التي دخلتها الهندسة في العالم المشاهد كالمنازل والقلاع.

(ثانياً) الألفاظ الدالة على تلك المعدودات والمواد الخارجة.

(ثالثاً) أرقام الأعداد وأشكال الهندسة المرسومات في الدفاتر والكتب، فالألفاظ والأرقام تدل على ما في الخارج، وما في الخارج صورة لما في الذهن، أما الذي في أذهاننا فهي القواعد الكلية التي لها صور كثيرة في الخارج. فقلت: الله أكبر، وصلنا إلى المقصود وأشرفنا على عالم الجمال والكمال والدوام، قل لي أيها الحبيب ماذا تقول في هذه القواعد الكلية التي في ذهنك أنت في الحساب والهندسة والمنطق والفلك والطبيعة والكيمياء، هل اعتراها يوماً ما تغير أو تبدل من يوم أن عرفتها؟ قال: كلا. هي دائماً في عقلي وهي أشبه بالمخازن ومنها أتصرف في أعمالي اليومية. قلت: حسن، أيهما أكثر دواماً، خزائن الذهب والفضة ومخازن الحب ونحوها أم هذه؟ قال: بل هذه هي الدائمة. قلت: ولكن الناس لغفلة أكثرهم لا يفرحون بهذه المخازن التي في أنفسهم، وإنّما يفرحون بالأمور الجزئية الوقتية، فتعال معي إلى ما هو أرقى من هذا. قل لي أيها الحبيب: ما الذي أدرك هذه الكليات العلمية. قال: نفسي. قلت: فهل لهذا نظير في العالم المحسوس؟ قال: نعم. العين والصورة الواصلة إليها بضوء الشمس من شجرة الورد مثلاً، فالعين نظير نفسي، وقواعد الحساب والهندسة كصورة شجرة الورد الواصلة إلى عيني من ضوء الشمس. قلت: حسن جداً. فلنرق في البحث إلى درجة أخرى. فقال: إني إلى ذلك وامق. فقلت: ما الذي كان السبب الظاهر بإذن الخالق في نمو الشجرة؟ قال: الشمس. قلت: وما الذي كان السبب في أنك رأيتها؟ قال: الشمس أيضاً. فقلت: إذن فالشمس سبب لظهور شجرة الورد وسبب لرؤيتك إياها. قال: نعم. قلت: حياك الله وبياك. فبين لي ذلك. فقال: الشمس تضيء ولها حرارة. والحرارة سبب البخار. وجري الهواء والبخار يحمله السحاب، فالبخار والهواء معاً سببهما الظاهري الشمس، والسحاب يكون مطراً. وبالمطر ـ بإذن الله ـ كان النبات. وأيضاً تقدم في سورة «يس» أن الورق المرسوم هناك في داخله مواد ملونة عائمة في سواحل هناك، وهذه المواد الملونة تساعدها أضواء الشمس على تناول المواد الفحمية من الهواء فينمو النبات، ومن النبات شجرة الورد المذكورة، ثم ضوء الشمس كما أنه ساعد على التغذية هو نفسه الذي يرسم صورة شجرة الورد ويوصلها إلى حديقتي فأنارها. قلت: أحمد الله أنك تذكر العلوم إجمالاً وتفصيلاً، ولم تنس شيئاً مما ذكرناه في هذا التفسير.

ثم قلت: إذن عندنا: (١) شمس. (٢) وشجرة الورد. (٣) وصورتها المرسومة بالضوء. (٤) وعين الإنسان. (٥) والقواعد العلمية. (٦) نفوسنا.

فنفوسنا كالعين والقواعد العلمية كصورة شجرة الورد التي وصلها الضوء إلى العين فيما تقدم فلم يبق إلا مثال الشمس ومثال نفس شجرة الورد، فهانحن أولاء لدينا ست مقدمات واضحة: أربعة محسوسة واثنتان معقولتان، فلم يبق إلا الاثنتان الباقيتان، فلنبحث عنهما كما يبحث علماء الجبر، إذ يتوصلون بالمعلوم للمجهول، فنقول: أيها الحبيب، هل تظن أن ضوء الشمس يوصل لأعيننا صورة شجرة الورد وهي ليست موجودة؟ قال: كلا. فالضوء لا يوصل إلا ما هو موجود فعلاً. قلت: حسن.

أفلست ترى أن الصورة الكلية التي في أذهاننا في سائر العلوم لها أصل وهي صورته، قال: إن كليات العلوم أصلها هو الذي نشاهده في الخارج من المعدودات ومن المباني في الهندسة وهكذا. فقلت: هذه جزئيات وتلك كليات وما أبعد الفرق بينهما، فصورة الكلي في عقولنا منقولة عن معنى كلي، كما أن صورة شجرة الورد الواصلة لعيوننا منقولة عن مادة جزئية، وليس من المعقول أن الكلي يكون عن جزئي، وما الجزئي إلا مثال له، فانظر لمثال شجرة الورد والشمس، وقل لي، ألست ترى أن القواعد التي نحس بها في عقولنا صور لأمور كلية معنوية ثابتة في أنفسنا، وصانع العالم هو الموجد لها، وهو الذي أظهر صورها لعقولنا بلا واسطة، كما أن شجرة الورد المذكورة صنعها بوساطة الشمس وأظهرها لعيوننا بوساطتها، أولست ترى أيها الحبيب أن مثال الشمس جميل به أمكننا أن نعرف هذه المسألة العظيمة فنقول:

إن الله الذي هو ثابت لا يتغير قد خلق أموراً كلية معنوية، وهي أمور روحانية ثابتة لا تتغير، وهو نفسه أهداها لعقولنا فعرفتها وعشنا بها، وضرب لها مثلاً بالشمس وبالمخلوقات الأرضية، فكما أن الشمس سبب في حياة النبات والشجر كانت هي أيضاً سبباً في رؤيتنا لهما، والله تعالى سبب في خلق المعاني الدائمة بدوامه، الجميلة المستمدة من جماله، وحين تشاهد أعيننا صور العوالم المشاهدة يكون ذلك سبباً في استيقاظ عقولنا واستعدادها إلى انكشاف تلك القضايا الكلية التي يفيضها الله على عقولنا، وبهذا تنحل مشاكل لا حد لها في عالمنا الأرضي وتظهر حقائق كانت مخبوءة.

فهانحن أولاء قد وصلنا إلى المقصود، واستنتجنا نتائج باهرة، وقسنا ما لم نشاهده على ما شاهدناه، وأدركنا أن المعاني الكلية التي نحس بها في عقولنا والتي عليها مدار حياتنا هي أصل لكل ما نشاهد في هذه الأرض، وهي صنع الله نفسه بلا واسطة وهي دائمة، وإذا ثبت هذا في علومنا التي نرجع إليها في جميع أحوالنا فليثبت نظيره في كل أمر عام.

فإذا رأينا الوجوه الجميلة؛ وإذا سمعنا بالعدل والكمال وما أشبه ذلك؛ فلنقل إن كل جمال وكل عدل مشاهد لنا فهو في هذا العالم ناقص كما قلنا، إن المعلومات التي نراها جزئية والكلي هو العالم المعقول، فالجمال المعنوي والعدل المعنوي والكمال، كل ذلك له مُثُل ـ بالضم ـ عليا في عوالم خارجة عن المادة، كما أن للعالم مُثُلاً ـ بالضم ـ عليا.

وبالجملة فلا علم ولا جمال ولا كمال ولا سعادة إلا فيما هو ثابت، فأما ما لا ثبات له فإنّما هو مذكر بما له كمال. أيها الحبيب: إن ما قلته الآن كله قد أذكرتني به آية في سورة «النبأ» وأنا أصلي

وقت السحر ليلة الخميس (١٩) نوفمبر سنة ١٩٣٠، وهي قوله تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾[النبأ: ١٢-١٦]. فإني حينما كنت أقرؤها ذكرت بالسراج الوهاج وبالسحب والمطر والنبات المذكورات في الآية مسألتنا بحذافيرها. فالنبات أذكرني بالمعلومات الجزئية التي تشبه المسائل الست المتقدمة في الحساب والهندسة. والشمس ذكرتني بصانع تلك الصور الجميلة المعنوية وهو الله تعالى، والصور المعنوية الروحية توصلها لنا المعلومات الجزئية المشار لها وهي مصنوعة لله الذي يرمز له بالشمس، وهنالك تبدى لي معان كثيرة، فالجمال والعلم وكل معنى شريف إنما يكون في العالم العقلي، وما الحس إلا أثر من آثاره.

أليست هذه مسألتنا التي نبرهن عليها الآن، وما مثل الحرارة المرسلة من الشمس إلى ماء البحر التي بها يكون البخار فالسحاب فالمطر إلا كما يفعل العقل الإنساني الذي يعرف الحقائق المخبوءة في العالم العقلي، فتنزل إلى العوالم الأرضية فيدرسها، كما تنزلت الحرارة من الشمس فاستخرجت الماء الصافي فصار مطراً، هكذا هذه العقول تستخرج بحرارة ذكائها المعارف وتنشرها بين أهل الأرض، وهذه النظرية الآن بها نعرف أكثر آيات القرآن وأسرارها مثل: ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾[النجم: ١٢-١٣]، إلى قوله: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴾[النجم: ١٨-١٩]، فآيات الله الكبرى هي التي رآها في عوالم غير عالمنا هذا، وذكر اللات والعزى ضرب مثل للعوالم المادية، فإن الناس إذا اكتفوا بالعالم المادي صاروا أشبه من بعض الوجوه بالذين يكتفون بالأصنام بالعبادة، ومثل قوله تعالى هنا: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾[الزخرف: ٣٦]. فذكر الرحمن إنما يكون بالعلوم الثابتة المعنوية، فأما عكوف الناس على الأمور المادية فذلك هو البقاء في مربط البهائم وشهواتها، وهنالك تكون الشياطين إذ لا شيطان ولا وسوسة إلا حيث تكون العوالم المادية والوقوف عندها، وهكذا البيوت ذات السقف المزخرفة والسرر كلها عالم مادي، ولكن الرحمة الحقيقية في العوالم الحكمية العقلية، وهكذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس: ٥٨]، ففضل الله ورحمته هنا هي العلوم والمعارف ومنها الدين والوحي، والذي يجمعونه هو المال.

هذا هو القرآن، واعجب كيف تكون هذه المعاني هي التي يحوم حولها سقراط، ولقد أوضحت لك أيها الذكي الدلائل التي أجملها هو وفصلتها لك تفصيلاً تاماً، ثم لتعجب ولتعجب ألف مرة من دين الإسلام كيف تكون الآيات التي تعد بالمئات في هذه المعاني قد ذكرت في جمهورية أفلاطون، أفلا أسمعك بعضها في العلم وفي الجمال والعدالة وهكذا، إذ ذكر في الكتاب السادس منها أن الفلاسفة وحدهم هم الذين يقدرون أن يحكموا الأمم وأما الجهلاء فلا، ومن هم الجهلاء إذن؟ هم التائهون في تعدد الصور، أي هم الذين لا يفكرون بعقولهم، وكل مقصودهم هذه المخلوقات المشاهدة لا المعقولة كما قدمنا. ولنشرع الآن في إيراد ما جاء في جمهورية أفلاطون من صحيفة ١٥٦ إلى ١٥٨ وهاك نصها بالحرف الواحد:

قال سقراط : لما كان الفلاسفة هم القادرون على إدراك الأبدي غير المتغير ، ولما كان العاجزون عن إدراكه تائهين في بيداء التغيير وتعدد الصور ليسوا فلاسفة ، فأي الفريقين يجب أن يحكم ؟ .

غولون : بماذا أجيب إذا رمت أن أنصف القضية ؟ .

(س) سل نفسك ؟ أي الفريقين قادر على رعاية قوانين الدول وعاداتها . وليكن هؤلاء الحاكمين .

(غ) أنت مصيب .

(س) أفيمكن أن نسأل : هل الأعمى أو البصير أهل للحكم ، ولحفظ كل شيء ؟ .

(غ) لا محل لهذا التساؤل .

(س) أفتظن أن هنالك أقل فرق بين حال العميان وحال الذين تجردوا كل التجرد من معرفة الأشياء على ما هي في ذاتها . وليس لهم في نفوسهم مثل واضح ، وليسوا بقادرين أن يتفرسوا في الحقيقة الكاملة تفرس المصورين فيتخذونها نموذجاً دائماً يتأملونه ويدرسونه بأتم عناية قبلما يتقدمون للعمل في النظم الأرضية فيما هو جميل وصالح وعادل ، واضعين هذه الأشياء في محلها اللازم ، ساهرين على حفظها حيث وجدت .

(غ) كلا . ليس بينهم كبير فرق .

(س) أفهؤلاء نعين حكاماً ونؤثرهم على العارفين كل شيء معرفة حقيقية ، وليسوا أقل من إخوانهم اختباراً ، ولا هم دونهم في دوائر الفضل الأخرى .

(غ) من الجنون تولية غيرهم ، إذ أنهم لا ينقصون جدارة ، ولأن النقطة التي يتفوقون فيها هي أهم كل شيء .

(س) أفنتقدم الآن لتبيان كيفية امتلاكهم نوعي الجدارة ؟ .

(غ) من كل بد .

(س) إذا كان الأمر كذلك وجب أول كل شيء أن ننظر نظراً ثاقباً في سجيتهم الخاصة كما قلنا في مستهل بحثنا ، وأظن أنا إذا اتفقنا فيها اتفاقاً كافياً اتفقنا أيضاً في إمكان اقتران الجدارتين في الأشخاص أنفسهم ، وأن أرباب هذه الصفات دون غيرها هم الذين يحكمون الدول .

(غ) وكيف ذلك ؟

(س) دعنا نسلم أن أرباب الفطرة الفلسفية هائمون بكل أنواع المعارف لتتجلى لهم حقيقة هذا الوجود الخالد الذي لا يغيره الزمن ، ولا تسطو عليه عوادي المحن .

(غ) فلنسلم .

(س) ولنفرض أيضاً أنهم شغفون بحقيقة الوجود الخالد لا يرضون منه بديلاً ، ولا أن يحذف فرع من فروعه كبيراً كان ذلك الفرع أو صغيراً معتبراً أو مستصغراً ، كما أبنا سابقاً في كلامنا في أرباب المطامع والحب .

(غ) أنت مصيب .

(س) والآن نتقدم لنرى هل في الإمكان أن نجد صفة ثالثة في خلق الذين تنطبق أوصافنا عليهم ؟ .

(غ) وأية صفة تعني؟.

(س) أعني صفة الصدق أي العزم على تجنب الكذب في كل صورة ما أمكن، ومقته مقتاً كلياً، ومحبة الصدق محبة حقيقية.

(غ) نعم، والأرجح أننا سنجد فيهم هذه الصفة.

(س) ليس الأرجح فقط يا صديقي، بل إنها ضرورة لا مندوحة عنها، فإن من كان فيه شغف فطري بشيء سر بكل ما اقترن بذلك الشيء اقتراناً وثيقاً.

(غ) يقيناً.

(س) أفنجد حليفاً ألصق بالحكمة من الصدق؟.

(غ) مؤكد لا.

(س) أفتستطيع فطرة واحدة أن تحب الحكمة وفي الوقت نفسه تحب الكذب؟.

(غ) لا يمكن ذلك قطعاً.

(س) فالنتيجة هي أن عاشق المعرفة يصبو إلى الصدق منذ الطفولة صبواً شديداً.

(غ) نعم يصبو.

(س) ولا يرتاب في أن من تنصب رغباته على شيء انصباباً شديداً يضعف ميلها إلى سواه كالماء الذي يتحول عن مجراه.

(غ) نعم لا شك في ذلك.

(س) فمتى تحول التيار نحو العالم بكل فروعه حامت رغبات المرء حول اللذات العقلية هاجرة اللذات التي محورها الجسد. هذا إذا كانت محبته الحكمة حقيقية لا مصطنعة.

(غ) لا يمكن أن يكون غير ذلك.

(س) ثم إن إنساناً كهذا يكون عفيفاً لا يسوده الطمع لأنه أبعد أهل الدنيا عن اعتبار الأشياء التي تحمل المرء على الاستماتة في حب المال مهما يكلفه الأمر.

(غ) يقيناً.

(س) وهنالك نقطة أخرى ينبغي لك اعتبارها في تمييز السجية الفلسفية عما سواها.

(غ) وما هي؟.

(س) إنها، تحذ التغاضي عن أية وصمة سافلة، لأن الصغارة أعظم ضد للنفس المتصفة بالميل التام لامتلاك الحقيقة الإلهية والبشرية في حالي وحدتها وتعميمها في كل أين وآن.

(غ) غاية في التأكيد.

(س) أفتظن أن النفس المملوءة بالأفكار السامية الممتازة بالتفكر يمكنها أن تعلق شأناً كبيراً على الحياة الحاضرة.

(غ) كلا ذلك غير ممكن.

(س) فإنسان كهذا لا يحسب الموت حادثاً مروعاً.

(غ) مؤكد أنه لا يحسبه كذلك.

(س) فلاحظ للفطرة الجبانة في الفلسفة الصحيحة.

(غ) لا أراها تتمكن منها.

(س) أفيمكن عقلاً متزناً حراً من الطمع والسفالة والعجرفة والجبانة أن يكون صعب المراس أو متعدياً؟.

(غ) غير ممكن.

(س) فحين تراقب ظاهرات الخلق الفلسفي والخلق غير الفلسفي يجب أن تلاحظ أيضاً منذ الصغر هل ذلك العقل لطيف عادل أو شرس ووحشي؟.

(غ) تماماً هكذا.

(س) وهناك نقطة أخرى لا إخالك تغفلها.

(غ) وما هي؟.

(س) أبسرعة يتعلم ذلك العقل أم ببطء؟ لأنك لا تستطيع أن تتوقع أن يحب أحد عملاً ما محبة كاملة وهو يتعاطاه بصعوبة وانزعاج فيكون تعبه كثيراً، ونجاحه قليلاً.

(غ) كلا، ذلك مستحيل.

(س) وإذا كان حليف النسيان فلم يذكر شيئاً مما حصله، أفلا تفرغ جعبته من المعرفة؟.

(غ) تفرغ.

(س) أفلا تظن أن جهوده العقيمة تنتهي به إلى كره نفسه ووظيفته.

(غ) دون شك.

(س) فلا تدرجن حليف النسيان في عداد النفوس الفلسفية، بل نطلب ذوي الذاكرة الحافظة.

انتهى ما أردته من جمهورية أفلاطون، والحمد لله رب العالمين.

ولقد شرح قبل ذلك في الكتاب الخامس أن الرجل ذا الفطرة السليمة يعلم أن من شغف بالحب في شرخ الشباب يكون شديد الشغف بمحبوبه، فيمدح في الفتى قصر الأنف لأنه جذاب، والأنف الأقنى أيضاً أمره عجب ومظهره بديع، والأنف المتوسط يجعل الوجه أكثر اتساقاً وجمالاً، ويمدح الأسمر اللون بأنه ذو رجولة، وشقر الألوان بأنهم أعلى الناس، والعشاق يمدحون «الأصفر الزيتوني».

وذلك لأنه انتحل عذراً لما رأى الصفرة في وجنة الحبيب، وبالاختصار يختلق العاشق جميع أنواع الأعذار لمدح جميع صفات محبوبه، وهكذا المولعون بالخمر فإنهم يختلقون جميع الأعذار لرشف أنواع الخمر كلها، وهكذا عشاق المجد فإنهم إذا لم ينالوا إكرام عظماء الرجال اكتفوا بمدح الأقلين ممن لا وزن لهم، وهذا مجد على أية صورة، هكذا فلنقل: محب الفلسفة يجب أن يكون عاشقاً لها جميعها عشقاً كلياً لا جزئياً مولعاً بجميع العلوم.

أما المغرمون بسماع القصص والحكايات والنوادر، والذين يدخلون كل جوفة لسماع الطرب، وكأنهم أجروا آذانهم للسماع، فهؤلاء نسميهم فلاسفة زائفين، والحقيقيون هم الذين ينظرون فيما هو

ثابت لا ما هو متغير، والثابت هي المعاني الكلية المتقدمة التي ترجع لها جميع العلوم. وهنا أخذ يبين أن هناك جمالاً وقبحاً، وعدالة وتعدياً، فكل منها واحد في نفسه عقلاً، ولكنه متعدد المظاهر.

ثم قال: إن الذين أغرموا بالعلوم كلها وأدركوا الحقائق، وتعلقت نفوسهم بالصور المعنوية التي سبقت، فهؤلاء قسم وهم الفلاسفة الحقيقيون، أما عشاق النظر الظاهر والصناعة والفنون ورجال العمل فهؤلاء لا نسميهم فلاسفة، فعشاق الأصوات الجميلة والأشكال والألوان والصور وكل ما أنتجه الفن ليسوا فلاسفة، لأنهم لم يعرفوا الجمال المطلق الذي أوضحناه، وحياة هؤلاء حلم ومنام، فليسوا أحياء لأنهم خلطوا الحقائق بالصور، وإذا أردنا أن نتلطف مع هؤلاء جميعاً قلنا لهم: أيها الأحباب إن عقولكم عقول متوسطة، ذلك لأنها أدركت ما هو متردد بين الوجود والعدم، وهي هذه الصور والأشكال، لأن وجودها ليس دائماً، فهؤلاء لا نبخسهم حقهم، ولا نقول لهم: إنكم جهال، كالذين يقولون: إن المعدوم موجود، كلا، فالذين يحكمون بوجود المعدوم جهال، والذين يعقلون الموجود الدائم هم الفلاسفة، أما أنتم فلا أنتم فلاسفة ولا أنتم جهال، بل أنتم ذوو عقول متوسطة بين الجهل والعلم، لأنكم خلطتم في حكمكم وفرحتم بالأشياء الأرضية من مال ومتاع وجمال وثروة ومنصب، فلسنا نحكم على عقولكم بالجهل المطبق، ولكنكم أشبه بالأطفال تفرحون بالألعاب.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: الله أكبر، إني قرأت ذلك في نفس الجمهورية، ولكن القول هناك مطول، وهنا ظهرت المعاني ظهوراً واضحاً ولم يخرج هذا عنها.

الله أكبر، إن هذه المعاني تنطبق على آي القرآن التي تزهد في الدنيا وتحبب في الآخرة، ولكن وصفك لها على هذا النهج يجعل المسلمين بعد اليوم مغرمين بالعلوم مع شدة حرصهم على نفع الناس، فيكون العالم فعلاً زاهداً في الدنيا لأنه عرف حقيقتها، وهو نفسه ينبوع يفيض الخير على أمته فترتقي بما تسمع من علمه، ويكون أشبه بالشمس، والناس أشبه بالمخلوقات على الأرض، فهو كلي أنتج الجزئيات، فأما أكثر كتب الصوفية ومن على شاكلتهم في القرون المتأخرة فإنهم تصدوا إلى احتقار الدنيا، ولكنهم في الوقت نفسه لم يحشقوا الناس في إدراك العلوم وتنظيم المدن. كلا. فانحطت الأمم الإسلامية، وإن هذا الشرح الذي أبنته الآن من أعظم النعم، ولطالما أشكل علي ما كنت تقوله لي سابقاً من أن القرآن يعوزه في تفسيره علم جميع الحكماء، فهأنا ذا الآن أرى أكبر العقول في العالم الإنساني بعد الأنبياء ـ وهو عقل سقراط وأفلاطون اللذين قال فيهما الفيلسوف سبنسر الإنجليزي وستلانة التلياني: إن عقول فلاسفة أوروبا بالنسبة لهؤلاء كالبقة بالنسبة للفيل. وهو الذي يقوم بشرح هذه الآيات وإيضاح بعض حقائقها ـ وأن القصور والمعارج المزخرفة والسرر البديعة وحطام الدنيا، كل هذا لا حظ للإنسان فيه كامل، والشياطين تلازم المادة، ورحمة الرحمن تلازم العلوم والمعارف والمعاني التي لا تتغير بتغير الزمن والنفوس تعلقها بإشراق النور الإلهي عليها.

ولقد زاد تعجبي ودهشي إذ أرى سقراط يقول: إن المعاني العقلية التي هي صور وأساس لكل ما على الأرض وغيرها من عالم المادة صنعها الله بنفسه، والشمس جعلت رمزاً لله، فصنع الله للمثل العقلية بلا واسطة مثله لنا وقربه لعقولنا كون الشمس سبباً ظاهرياً لوجود الحوادث التي تقابل تلك

المثل، وهذا وإن كان جميلاً فإني مرتقب ما ستقولونه في سورة « محمد » صلى الله عليه وسلم، ولكن إذا أشرت إليه هنا فإني أكون شاكراً أجلّ شكر. فقلت: إن حاسة اللمس تتصل بمحسوساتها وحاسة الشم كذلك، وهكذا حاسة الذوق والسمع والبصر، فكل واحد منها متصل بالعالم الذي يحس به، فلا ريب أن يكون للعقل اتصال بعالم عقلي أوسع بما لا حصر له من العالم المشاهد، وهذا البرهان الذي سأوضحه إن شاء الله هناك أقرب إلى اليقين من برهان سقراط. فقال: حسن والله لقد انشرح صدري. فقلت: الحمد لله رب العالمين. كتب صباح يوم الخميس ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٠، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة.

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ۝٧٠ ﴾

إلى قوله: ﴿ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٧٣ ﴾

مع قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ ۝٨٤ ﴾

إلى قوله: ﴿ وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٥ ﴾

مع ملاحظة نظائر هذه الآيات كقوله في سورة « الزمر الآية ٢٠ »:

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ ﴾ **إلى قوله تعالى:** ﴿ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ﴾ [الآية: ٢١]

ما أجمل العلم، وأبهج الحكمة، وحي نزل، ودنيا منتظمة، تسمو بهما العقول، وترقى بهما النفوس، الدنيا عروس زينت للناظرين، وجنة بهجة للمفكرين، نحن نعيش في جو من النور، والكتاب المسطور، والعلم المنشور، فسبحان الله مسدي النعم، مظهر الحكم، بارئ النسم، أليس من عجب أن نسمع في القرآن وصف الجنة أنها غرف من فوقها غرف مبنية، ثم نسمع عقبها الكلام على الماء النازل من السماء الذي جرى في باطن الأرض فخرج ينابيع فوقها فكان النبات المختلف الألوان، ثم أليس من أعجب العجب أن نرى في سورة « الغاشية » ما يشابه هذا، إذ وصفت الجنة بأن فيها عيناً جارية، وسرراً، وأكواباً، ونمارق، وزرابي. ثم يعقب ذلك ذكر الإبل كيف خلقت، والسماء كيف رفعت، والجبال كيف نصبت، فهنا أتبع ذكر الجنة بالماء والنبات، وهناك أتبعت بالحيوان والسماء والجبال، فما هذا العجب! جنة تذكر في القرآن ويذكر عقبها هذه العوالم فيقال هناك: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾ [الغاشية: ١٧] الخ، ويقال في آية « الزمر الآية ٢٠ »: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ ﴾ على سبيل الاستفهام التقريري، وهو أبلغ بما لا حد له من جعل الكلام خبراً. أليس هذا من الأسرار المكنونة والجواهر الحسنة النظام.

نعم؛ هنا سر وأي سر، فاعلم أن الإنسان يصبو للجمال والحب، فالنوع الإنسان كله يطلب الجمال والجمال مطلوب للحب، والحب هو المقصد الأسنى لهذا الإنسان، والأمانة التي قل فيها الحب يقل فيها النابغون المفكرون، والحب لا يكون إلا بالجمال، والجميل ما يناسبنا ويوافقنا، والقبيح ما ينافرنا، وكل ما يؤلمنا منافر لنا، والموافق لنا هو الذي جملت صورته الظاهرة في نظرنا أو صورته الباطنة بعلم أو بشجاعة أو إحسان.

وبالاختصار كل جمال يرجع لأمرين: العلم والقدرة، فالعالم محبوب، والشجاع محبوب، والمحسن محبوب، والإحسان والشجاعة يرجعان للقدرة، والجمال الظاهري فيه نوع من القدرة، فأما العلم فهو معروف، ولا جرم أن من يسمعون شجاعة عنترة العبسي أو علم الشافعي وأفلاطون وأبي حنيفة ويرون ذوي الجمال يكون حبهم على مقدار الآثار الواصلة لقلوبهم من أولئك المحبوبين ونرى الرجل في حياته بين امرأتين: إحداهما ترضعه، والأخرى يسكن إليها، فالأولى أحبها من طريق الإحسان، والثانية أحبها من طريق الشهوة والجمال، فما أبدع القدرة، وما أجمل الحكمة، يعيش الناس ويموتون وهم موزعو القلوب بين عوامل لا يدرسونها، وفي سبل لا يفهمونها، فهم محمولون على أجنحة لم يروها، يدارون بقوانين يجهلونها، ويحكمون بسنن لم يسنوها.

ولا جرم أن الإحسان المذكور والجمال من نوع القوة والقدرة، ثم إن الإنسان فيما بين المرأتين يعلمه الأستاذون، ويؤدبه المؤدبون، وذلك من طريق العلم، ويكون حبه للأستاذ على مقدار ما عرف من حكمته، وما أدرك من فطنته، وما استفاد من خبرته، إذن الحب موزع على إحسان الأم وجمال المرأة وعلم الأستاذ. فهاهنا اجتمع عند أكثر الناس أصول الأسباب التي بها الجمال، ولا جرم أن هذا تمرين على إدراك الجمال الأسنى. واعلم أن الإنسان مع هذا كله محبوس في هذه الأرض، محكوم عليه بالسجن فيها، مبعد عن بدائع السماوات ونجوم الأرضين، بل لا قدرة له على معرفة نفس هذه الأرض التي يسكنها، إذ يجهل بواطن جبالها وبحارها وأنهارها وجوها، بل يجهل خواص جسمه وعجائب روحه، ومع ذلك له نفس تواقة إلى إدراك ذلك، فهي تطوف به أعلى العلا، وتسمو به فوق العرش وتحت الفرش، نفس وثابة خطواتها تنتهب الفلوات، وتقطع السماوات مع أنها محبوسة الجسم مكبلة الروح.

نرى الرجل إذا أدخل السجن حن إلى وطنه وأهله، وكان ألمه على مقدار ما عرف من الأهل والأصحاب وما كسب من المال الذي حرمه، والملك الذي صرف هو عنه، هكذا نرى نفوسنا تود لو تطير إلى أقاصي السماوات أو تخترق تخوم الأرضين، إذن هي كالمحبوس في سجنه. إذن هي كانت تتمتع تمتعاً ما بتلك العوالم وحجزت عنها، وإلا فلماذا هذا الحنين والغرام، وما هذا التهافت على العوالم، وما بالنا نراها مذ جاءت إلى هذه الأرض تقرأ علم الفلك، وتخترع المجاهر «المناظر المعظمة» وتدرس أقدار النجوم، وتعدها وتحسبها، وتعد أبعادها وأقدارها وتفرح بذلك مع أنها لا طعام فيها ولا شراب ولا ملك ولا مال، ونسمع أن نجمة من نجوم الجبار وهي الجوزاء قدر الشمس ٢٥مليون مرة كما تقدم في هذا التفسير، فنفرح بذلك فرحاً شديداً.

ثم نقرأ في الكشف الحديث أن المجرة التي تشتمل على آلاف الملايين من الكواكب، وشمسنا كوكب واحد منها تدور حول نفسها مرة واحدة ـ كما تدور أرضنا في اليوم والليلة ـ في مدة ٣٠٠ مليون سنة فتدهش قلوبنا وتفرح، ويكون ذلك لنا سعادة وذكرى ومسرة، وقد اشتركت جميع أمم الأرض في هذه العلوم، وكل أمة تسابق أخرى في هذا الكشف، ولا ريب أن ذلك كله حصل لما نظر العلماء كواكب السماء بمنظار قطره مائة بوصة، وهاهم الآن في أمريكا يصنعون تلسكوباً قطره مائتا

بوصة، وهذا سيأتي بما لم يحلم بـه أهل الأرض مـن العلـم قريباً. ذلك هـو طبع الإنسان، فالعلماء يتسابقون إلى ازدياد العلم غراماً وحباً أكثر من تسابق رجال الحرب في إعداد المعدات الحربية وتدمير المدن، وهاتان الطائفتان مشتركتان في خلاص الناس من الجهل، فالعالم بعلمه وصانع القنابل بالقتل يخرج الإنسان من هذا الجسم، فيرجع إلى عالمه الروحي فيدرس على مقدار طاقته.

إياك أيها الذكي أن تنكر على هذه الجملة، فنحن الآن في مقام الجمال والحب والعجائب الإلهية، فهذا القتل بالحرب وإن كان مذموماً ومخرباً للأمم ذكرناه من حيث إنا ندرس نفس الوجود، وصانع العالم حكيم يداوي الداء بالداء، فالناس أشبه بمن أصابه القولنج فأصيب بالحمى فكانت سبباً في شفاء القولنج، فهذا خراب للأمم، ولكن نفس الأشخاص خرجوا من عالم الأجسام إلى عالم الأرواح، نعم أكثرهم يخرجون ناقصين ولكن النظام تجهله، ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾[فصلت: ٥٤].

إذا عرفت هذا أدركت تفسير هذه الآيات وأمثالها. علم الله تعالى حبس الناس في الأرض وتشوقهم إلى الحرية التامة بانطلاق أرواحهم إلى باحاتها، فأبرز لهم علمين: علماً مسموعاً، وعلماً معقولاً. أما العلم المسموع فهو ما يذكر في نحو الآيات من الغرف التي من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار، ومن السرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والنمارق المصفوفة، والزرابي المبثوثة، ومثل البناء بلبنات الفضة ولبنات الذهب في الجنة، وملاط ذلك البناء المسك، والحصباء لؤلؤ وياقوت، والتراب زعفران، وأنهم لا يموتون. ومثل أن الخيمة من لؤلؤة مجوفة، ومثل أن الجنة فيها مائة درجة، والدرجة الواحدة تسع العالمين جميعاً، ومثل أن الشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعه، ومثل أن المرأة من أهل الجنة لو ظهرت إلى أهل الأرض لأضاءت الدنيا ولملأتها ريحاً، وخمارها خير من الدنيا وما فيها، ومثل أن هناك سوقاً للصور يدخل فيه المؤمن فيرجع بالصورة التي يحبها. فهذه العجائب المسموعة في الكتاب تارة والسنة أخرى ترجع إلى الجمال وإلى القدرة، فالشجرة التي يسير فيها الراكب مائة عام ترجع للعظمة والعظمة محبوبة، فهي ترجع للقدرة كما رجعت شجاعة الشجاع إليها، والغني محبوب لأنه يملك مالاً، والملك قدرة، هكذا هذه الشجرة العظيمة، والحوراء الجميلة، والقصور البديعة، فيها الجمال، وفيها القدرة والعظمة مع الإحسان، فهاهنا اجتمع الجمال والعظمة والإحسان، وكل هذا محبوب. فالمؤمن إما شهواني فيكون حبه لنفس الجنة، وإما حكيم فينتقل هذا الحب لخالق الجمال، ويحب الله نفسه، وإليه الإشارة بحديث الترمذي عن ابن عمر: « وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشياً ». وأيضاً حديث الترمذي ومسلم: « فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى ». اهـ.

لما وصلت إلى هذا المقام واطلع عليه صاحبي الذي اعتاد أن يسألني عن هذا التفسير، فقال: حسن ما قلت وبديع ما وصفت، ولكني سائلك سؤالين: الأول: أن هذه الأوصاف التي أسندتها للأحاديث فوق طور العقول، فما هذه الشجرة التي لا يقطعها الراكب في مائة سنة، إن العقل لا يقبلها قبولاً حسناً. والثاني: أنك ذكرت أوصاف الجنة من الأحاديث فأحب أن أسمعها لأعرف رواتها حتى تطمئن النفوس للرواية، ومن أي الكتب.

ولا جرم أن هذا المقام كله في الكلام على ما هو مسموع ، ومتى تم الكلام عليه نريد أن تشرح المعقول شرحاً وافياً كما تشرح المسموع ، لأن هذا المقام جميل ، فإذا كان مستوفياً شرحه شرح الصدور. فقلت : أما كون الشجرة المذكورة وأمثالها لا يقبلها العقل فهذا ممنوع ، لأن الإمكان لا حصر له ، فقال : نعم . هو لا حصر له ، ولكن الإمكان شيء وتصور الممكن وقبوله أمر آخر . فقلت : ألست تذكر الكوكب الذي ذكرت لك أنه قدر الشمس (٢٥) مليون مرة . فقال : بماذا يفيدني هذا؟ فقلت : هو شمس ، قال : نعم . فقلت : إذا قسناها على شمساً كان لها سيارات . قال : نعم . قلت : وأرضنا حول شمسنا ليست أكبر كوكب . قال : نعم . قلت : وشجرها نعرفه . ولا جرم أن السيار يكبر بنسبة شمسه ، فلو أن أرضنا كبرت بالنسبة لكبر الشمس (٢٥) مليون مرة لكانت أشجارها أكبر من حالها الآن (٢٥) مليون مرة ، وأكبر شجرة في أرضنا إذا كبرت (٢٥) مليون مرة احتجنا في قطعها إلى عشرات السنين ، فإذا تذكرنا كوكباً آخر حول الشمس كالمشتري زادت شجراته أضعافاً مضاعفة ، ألا ترى أن المشتري الذي هو أكبر السيارات حول الشمس حجمه قدر حجم الأولى (١٣٠٠) مرة ، فإذا جعلنا أكبر شجرة فيه أكبر من أكبر شجرة في أرضنا (١٣٠٠) مرة ، وجرى الفارس تحت أكبر شجرة أرضية في زمان ما ، وكبرت شجرة المشتري (١٣٠٠) مرة ثم ضربنا هذه في ٢٥ مليوناً فيكون سير الفارس تحتها سنين كثيرة . وإذا وجدنا اليوم كوكباً أكبر من الشمس (٢٥) مليون مرة ، فنحن قريباً سنسمع عن كواكب أعظم ، وعليه تصبح الشجرة المذكورة في الحديث من أصغر الأشجار . بل إذا تذكرنا أن ذلك الكوكب الذي هو أكبر من الشمس (٢٥) مليون مرة فيه مواضع مسكونة ، كما أن أرضنا فيها مواضع مسكونة لا كلها ، كانت الشجرة التي فيها لا يقطعها الفارس في ألف سنة لا في مائة فقط ، إذن العلم الحديث اليوم فتح باباً لتصور عقولنا عظمة الله وعظمة الملك ، وإذا كانت العوالم المحسوسة التي ليست بجنة هذه عظمتها وقد وجدنا فيها هذه العظمة فما بالك بعوالم الجنة .

هذا ما أقول لك أيها الذكي جواباً على سؤالك الأول ، وهو أنك تستبعد ما جاء في وصف الجنات ، أما السؤال الثاني وهو أنك تريد أن تسمع نفس الأحاديث بأسانيدها ، فهاك ما جاء في كتاب « تيسير الوصول لجامع الأصول » من المجلد الثالث في صحيفة ٢٣٥ وما بعدها ، وهذا نصه :

ذكر الجنة والنار

فيه فصلان

الفصل الأول: في صفتهما

ذكر صفة الجنة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[السجدة : ١٧] » أخرجه الشيخان والترمذي ، وزاد البخاري في أخرى عن سهل بن سعد وذكر مثله ، ثم قال : وقال محمد بن كعب : إنهم أخفوا لله عملاً فأخفى لهم ثواباً فلو قدموا عليه أقر تلك الأعين . وعنه رضي الله عنه ، قال :

« قلت : يا رسول الله مم خلق الخلق؟ قال : من الماء، قلت : الجنة ما بناؤها؟ قال : لبنة فضة ولبنة ذهب وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، ولا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم ». ثم قال : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الله تعالى : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين » أخرجه الترمذي. الملاط : الطين الذي يجعل فوق ساقي البناء يملط به الحائط أي يصلح، ويئس يبأس : إذا افتقر واشتدت حاجته.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » أخرجه الشيخان والترمذي. وفي رواية لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة ». وفي رواية : « عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل لا يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام » أخرجه الترمذي.

وعن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في الجنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة، ومن فوقها عرش الرحمن، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس » أخرجه الترمذي.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة مائة درجة لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسعتهم » أخرجه الترمذي.

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم : ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة : ٣٠] » أخرجه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب » أخرجه الترمذي. وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقاب قوس في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب » أخرجه الشيخان. وزاد الترمذي عن أنس في أخرى : « ولقاب قوس أحدكم أو موضع قده في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت على أهل الأرض لأضاءت الدنيا وما فيها ولملأت ما بينهما ريحاً ولنصيفها ــ يعني الخمار ــ خير من الدنيا وما فيها ». قاب القوس وقده : قدره.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أن ما يقل ظفر مما في الجنة بدا لتزخرفت له خوافق السماوات والأرض، ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا سواره لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم » أخرجه الترمذي. وقوله : الزخرفة : الزينة والزخرف : الذهب. وخوافق السماء : جوانبها الأربعة وهي جهات الرياح الأربع.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان. فأما الظاهران فالنيل والفرات، وأما الباطنان فنهران في الجنة » أخرجه البخاري.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: « سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هل في الجنة خيل؟ قال: إن الله أدخلك الجنة فلا تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء تطير بك في الجنة حيث شئت إلا كان، فقال آخر: هل في الجنة من إبل؟ قال: إن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك » أخرجه الترمذي.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يغنين بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها، يقلن: نحن خالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكنا له » أخرجه الترمذي. قوله: الحور: جمع حوراء وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها. والعيناء: واحدة العين وهي الواسعة العين. وقوله: لا نبيد: أي لا نهلك ولا نتلف.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثوا في ثيابهم ووجوههم فيزدادوا حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً فيقول أهلوهم: والله لقد ازددتم حسناً بعدنا وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً » أخرجه مسلم.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن في الجنة لسوقاً ما فيها شراء ولا بيع إلا الصور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها » أخرجه الترمذي. انتهى الفصل الأول.

الفصل الثاني
في ذكر أهل الجنة

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما تتراءون الكوكب في السماء » أخرجه الشيخان.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » أخرجه الشيخان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشطهم الذهب ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة والألنجوج عود الطيب، أزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم

ستون ذراعاً في السماء » أخرجه الشيخان والترمذي . قوله : الألوة ، والألنجوج : من أسماء العود الذي يتبخر به ، ومن أسمائه الكِبَاء .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ، قيل : فما بال الطعام؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس » أخرجه مسلم وأبو داود .

وعن الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يدخلون الجنة بني ثلاثين لا يزيدون عليها أبداً ، وكذلك أهل النار » أخرجه الترمذي .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أهل الجنة جرد مرد كحل لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم » أخرجه الترمذي . وزاد في رواية : « عليهم التيجان ، وإن لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب » . قوله : الجرد : جمع أجرد وهو الذي لا شعر عليه ، والكحيل : هو الذي ترى أجفانه كأنها مكحولة من غير كحل .

وعن أبي رزين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يكون لأهل الجنة ولد » أخرجه الترمذي . وزاد في رواية عن الخدري : « إن اشتهى الولد كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة » قال بعضهم : ولكن لا يشتهي .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع ، قيل : يا رسول الله ، أوَيطيق ذلك . قال : يعطى قوة مائة » أخرجه الترمذي .

وعن الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفاها الجبار بيده كما يتكفى أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة ، فأتى رجل من اليهود فقال : بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ، قال : بلى . قال : تكون الأرض خبزة واحدة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : ألا أخبرك بإدامهم . قال : بلى . قال : بالام ونون . قال : وما هذا ! قال : ثور نون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً » أخرجه الشيخان . قوله : يتكفاها : أي يقلبها ويميلها . والجبار : من أسماء الله تعالى . والنزل : ما يعد للضيف من طعام وشراب . والنواجذ : الأنياب ، وبالام الثور : كما فسره في متن الحديث ولعل اللفظة عبرانية ، والنون الحوت وهو عربي .

وعن الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم ، واثنان وسبعون زوجة ، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء » أخرجه الترمذي .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه وخدمه ونعمه وسرره مسيرة ألف عام ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية ، ثم قرأ صلى الله عليه وسلم : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢-٢٣] » أخرجه الترمذي .

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « سأل موسى عليه السلام ربه تعالى: ما أدنى أهل الجنة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب وكيف، وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم، فيقال: أما ترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلِك من ملوك الدنيا، فيقول: رب رضيت، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله. فيقول في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رب رضيت، فقال: فأعلاهم منزلة، قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر » أخرجه مسلم والترمذي. وقوله: أخذوا أخذاتهم: أي نزلوا منازلهم المختصة بهم.

وعن الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يقول الله عز وجل لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » أخرجه الشيخان والترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « عرض علي أول ثلاثة يدخلون الجنة: شهيد، وعفيف متعفف، وعبد أحسن عبادة الله ونصح لمواليه » أخرجه الترمذي.

وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ألا أخبركم بأهل الجنة، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر » أخرجه الشيخان.

ولأبي داود من رواية حارثة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري » قال: والجواظ: الغليظ الفظ. قلت: الجواظ المنوع، وقيل: السمين المختال في مشيته، وقيل: القصير البطين، والجعظري: الفظ الغليظ، والله أعلم. اهـ.

رؤية الله تعالى

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: « نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر، فقال: إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾[ق: ٣٩] » أخرجه الخمسة إلا النسائي.

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم. فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة، ألم تنجنا من النار، قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى، ثم تلا هذه الآية: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس: ٢٦] » أخرجه مسلم والترمذي.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك تعالى؟ قال: نور أنّى أراه».

وعن مسروق قال: «قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أمتاه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت. أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً قد رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾[الأنعام: ١٠٣]، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾[لقمان: ٣٤]، ومن حدثك أنه كتم شيئاً من الوحي فقد كذب، ثم قرأت: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[المائدة: ٦٧]الآية، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين» أخرجه الشيخان والترمذي. انتهى الفصل الثاني، وبهذا تم الكلام على العلم المسموع من الكتاب والسنة.

الكلام على العلم المعقول

لقد عرفت أيها الذكي العلوم المسموعة في هذا المقام من الكتاب والسنة، وأدركت أن العلوم التي ملأت الدنيا كلها إلا بلاد الإسلام قربت لنا تصور النبوة المحمدية، وأصبحنا نشاهد نجوماً أقدارها قربت لعقولنا تلك الصور الجميلة في الجنة، فهاك أحدثك حديثاً عجباً في القرآن نفسه وفي الدنيا: تقدم في هذا المقال أني ذكرت لك أن آيات النبات والماء في هذه الصورة ذكرت عقب ذكر الجنة، وآيات الإبل والسماء والجبال في سورة «الغاشية» ذكرت بعد ذكر الجنة، فما الحكمة في ذلك يا ترى؟ الحكمة في ذلك أوضحتها العلوم التي في هذا التفسير، اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً، أحمدك على نعم العلم ونعم الحكمة، وهل كان يدور بخلدي أيام شبابي وأنا جاهل جد جاهل، أتلمس العلم في النهر وفي الحقل وفي النجم، أننا سنصل الآن إلى أبدع الجمال في هذا التفسير، وأننا ندرك جنة تتمتع بها عقولنا ونحن أحياء في الدنيا قبل أن نموت، ونرى الجنة الموصوفة في الأحاديث الشريفة، بل هل كان يخطر لي أن السعادة الحقيقية في جنات العلوم والمعارف التي ندركها في هذه الحياة، وأنه لولا نكبات الحياة ومصائبها لكان حبنا الآن آخذاً بقوانا وعقولنا ولعلمنا أن حب الولد لأمه، وحب الشاب لمن أغرم بجمالها فتزوجها ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة للحب الذي يترتب على الجمال العلمي، والحب العظيم هو الذي يذهب الحزن والغم ويجعل النفس في السعادة التي لا سعادة فوقها، ولكن هذا الحب الآن مخبوء عند العلماء ويحسون به في أوقات قليلة، ثم تغلب عليهم أحوال هذه الأرض وعوارضها رحمة بهم ليزدادوا علماً.

أقول: فهل كان يخطر لي زمن الشباب أن عقولنا فيها حساب الجذر والتربيع، وأن نفس الجذر والتربيع الجميلين عند عقولنا نراهما في نفس المادة كما تراه في سورة «الرعد» عند آية: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الآية: ٨]، وفي مواضع أخرى هناك، إذ تبين أن الضوء والجاذبية جرى حسابهما على الجذر والتربيع، وترى الحجر إذا قذفناه في البئر جرى بسرعة على تلك القاعدة فلا خطأ فيها، وهذا أمر عجب أن تكون هذه الأحوال الطبيعية على هذا القانون العجيب، أو كان عقلي يتصور أن للنمل حجرات منظمة كحجرات في أعظم قلعة، وأن لكل حجرة سكاناً، فمنهم الجند، ومنهم الأظآر وهكذا.

انظر ذلك كله في سورة « طه » وسورة « النمل » مرسوماً . أم كان يخيل لي وأنا في الشباب أن يكون بعض الطيور خياطاً ، ومنها حائك ، وبعض الدود يغزل ، وبعض الزنابير يصنع الورق ، وأن الخلد يعرف أحوال الطقس ، وأن النحل مهندس ، وأن اللقلق يحكم بالمشاورة ، وأن الكلب يعرف تعاطي المسهلات في الطب ، وأن الخنزير يحرث الأرض ، وأن العلق في بطن الأرض يبلغ في الفدان الواحد آلافاً وهو ينفع لتسميدها وحرثها قبل أن يحرثها الإنسان ، وأن للسرطان درعاً . أقول : هل كانت هذه العجائب تدور في خلدي وأنا أطوف على شواطئ الأنهار وفي الحقول أتلمس الحقائق . أم كان يختلج بفكري أن فأر الجبل يبني بناء متقناً ، ويحفر أقنية ليجري الماء فيها حتى قلده الإنسان ، إن أكثر ما ذكرته ملخص مما تقدم في سورة « طه » ، وأزيد مسألة حفر الخنادق إيضاحاً هنا مما جاء في إحدى المجلات العلمية ، فقد جاء فيها تحت العنوان الآتي ما نصه :

عجائب المخلوقات

الحيوانات التي تحتفر الخنادق

إن حفر الخنادق خاصة يشترك فيها كثير من الحيوانات على اختلاف درجاتها ، من أحط الأنواع إلى أرقاها ، فبين ذوات الثدي منها عدة أمثلة على ذلك ، وأشهر الأنواع من هذا القبيل « الخلد » ، وهذه صورته . انظر شكل ٢٢ .



(شكل ٢٢ ـ خلد في حفرته وعلى يمين الصورة هيكل يده التي يحفر بها خنادقه)

وقد منح الله هذا الحيوان يدين مسلحتين بأظافر قوية تمكنه من حفر الأرض بسرعة عظيمة جداً ، حتى أنك لو أخرجت خلداً من حفرته ووضعته على سطح الأرض وجدت أنه بعد هنيهة وجيزة جداً قد احتفر حفرة واختفى عن بصرك . ولا يكتفي هذا الحيوان بحفر نفق بسيط تحت الأرض ، بل هو يتفنن في عمله هذا ، ويشعب من نفقه الأصلي أنفاقاً في غاية البساطة ، ثم إن الخلد يحفر حفراً أخرى عديدة على شكل غريب تعد بجانبها صفوف الخنادق والأنفاق التي يحتفرها الجنود في ساحات في غاية البساطة ، ثم فضلاً عن هذه الأنفاق غرفة مستديرة يجعلها مركز إقامته العادي ، ويبلغ قطرها بين ثماني وعشر سنتيمترات ، ويحفر حول هذه الغرفة المستديرة نفقين بشكل دائرتين ، الواحدة على مستوى الغرفة والثانية فوقه ، والغرفة متصلة بهذين النفقين بواسطة عدة ممار حتى يجد لنفسه منفذاً من أي جهة يداهمه الخطر ، وفي داخل الغرفة شبه سرير من الأوراق والقش لينام عليه الخلد ، والثعلب أيضاً يقضي جزء من حياته داخل الأرض لا سيما في النهار ، وهو في الغالب يستولي على حفرة حيوان آخر بدلاً من أن يحتفر حفرة خاصة له ، وحفرته عبارة عن ردهات عميقة تنتهي جميعها في غرفة كبيرة لا يقل عمقها عن ثلاثة أمتار ، وهذه الردهات متصلة بعضها مع بعض بممار عديدة .

وأشد ذوات الثدي مهارة في حفر الخنادق وأكثرها توسعاً فيها حيوان بين ابن عرس والدب، فاتح اللون في الأعلى وقاتمه في الأسفل، يسمى عناق الأرض التفه، وهو من الحيوانات الليلية ويصرف الشتاء نوماً، فإن له براثن قوية يحفر بها الأرض بسرعة غريبة، وكيفية ذلك أنه ينبش الأرض بيديه القويتين، فإذا تراكم التراب استعمل يديه الخلفيتين لدفعه إلى الوراء، ثم يرجع إلى خلف بين آن وآخر، ويجر بجسمه التراب المتراكم إلى خارج الحفرة، ولنفق هذا الحيوان أبواب عديدة يبعد الواحد عن الآخر نحو ٣٠ قدماً، وكل نفق من أنفاقه يبلغ طوله بين السبعة والعشرة أمتار، وتنتهي في غرفة كبيرة على عمق متر أو مترين تحت الأرض يجعلها مقره العادي.

هذه بعض أمثلة من الحيوانات الثديية التي تحتفر الأرض، وهناك أمثلة أخرى كثيرة يضيق عن ذكرها المقام، والأغرب من ذلك أن بعض الطيور ـ والطيور عشيقة الهواء الطلق عادة ـ تحفر مثل هذه الأنفاق والحفر، فمن أنواع الطيور الخطاف نوع يحفر أنفاقاً على شاطئ البحر، يبلغ طولها متراً ونصف متر، ويضع عشه في داخلها، ولا شك أن مثل هذا الأمر من الغرابة بمكان، لا سيما إذا أمعنا النظر في تركيب هذا الطير ونحافة جسمه، وهناك طائر آخر يسميه الأسبان «البناء الصغير» يضع وكره في حفرة عميقة طولها متران أو أكثر، ومثله طير أزرق صغير يسمى عند الفرنسيين «الخطاف الصياد» يصطادونه من البحيرات حيث يعيش في وكر له منفذان.

أما في عالم الحشرات فإن مهارة بعض العناكب في حفر الأنفاق غريبة جداً، يقف عندها المرء وقد أخذت منه الدهشة كل مأخذ، وهي على أنواع تحفر أنفاقاً ودهاليز مختلفة، ومن أغرب أنواع العناكب نوع يبني وكراً غريباً في هندسته، وهو عبارة عن حفرة عميقة مبطنة بنسيج حريري خشية أن تهبط جدرانها، وفوقها باب يقي من المطر ومن الضيوف الثقلاء، وهذا النوع ينتخب عادة لحفرته مكاناً محوطاً بالحشائش حتى لا يظهر بيته للغادي والرائح، أما الباب فإنه جميل الهندسة كامل الصورة يشبه الأبواب التي تقفل وحدها بزنبلك لمرونة مفاصله، ولهذه العناكب مقدرة كبيرة للدفاع عن أوكارها، فإذا سعى أحد في فتح الباب تشبثت به العنكبوت من الداخل، حتى إنه يلزم قوة كبيرة لفتحه. وهناك حشرات أخرى كثيرة، منها نوع من الجنادب نشرنا صورته هنا وهو يقطع جذور الشجر والنبات ويتغذى منها. انظر شكل ٢٣. ولا ينبغي أن يبرح من ذهننا مهارة النمل في هذا الفن فإنها أشهر من أن تحتاج إلى التذكير.



(شكل ٢٣ ـ نوع من الجنادب في حفرته يقطع جذور الأشجار)

قوة الحشرات

إذا درسنا قوة الحيوانات بالنسبة إلى حجم جسمها وجدنا أن الإنسان من أضعفها وأنحفها، فإن المحار أو البطلينوس مثلاً يحمل ثقل ٣٧ رطلاً، ومن السرطان أنواع يحمل الواحد منها ٤٩٢ مرة وزنه، وعلى هذا المعدل كان يجب أن يحمل الإنسان المعتدل ٧٣٨٠٠ رطل.

وفي مقدمة الذين درسوا مقدرة الحشرات على حمل الأثقال «فليكس فلاتو» العالم البلجيكي ومما قاله: إن حمل الذبابة لعود كبريت صغير بأرجلها يعادل رفع الإنسان برجله لعمود خشب طوله ١٤ قدماً ومساحته عند قطعه عمودياً قدمان و٦ بوصات مربعة.

ومن البق نوع يجر ست عيدان كبريت، وهي تعادل للرجل (٣٣٠) عموداً من الخشب بحجمه، وطريقة العالم المتقدم في درس قوة الحشرات أنه يربطها إلى ميزان دقيق ثم يخزها، فحالما تمشي تتحرك عقرب متصلة بالميزان فتدل على قوة تلك الحشرة. انتهى ما أردته من مجلة الهلال. والحمد لله رب العالمين.

هذه بعض العجائب التي عرفها عقل الإنسان وملئ بها هذا التفسير. وهناك عجائب وعجائب في سورة «المؤمنون عند الآية ١٧»: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾، من تلك الحشرات والحيوانات التي كان حفظها بسبب مشاكلتها لما حولها. وهي مرسومة هناك مصورة.

وكذلك ترى في سورة «الفرقان» كيف كان للعنكبوت جهاز لغزله ظاهر واضح. وكيف كان لبعض الحشرات جهاز أشبه بجهاز الطبيب الذي به يضع الحقنة في جسم المريض، وهذا الجهاز يملأ سماً بهيئة عجيبة. وكيف كان للحشرات آلات للحرب وآلات لجلب المنفعة تراها هناك موضحة مرسومة، وهكذا في سورة «النمل» من عجائبه ومزارعه المنظمة المتقنة.

وكذلك دابة الأرض المصورة المرسومة في سورة «سبأ»، وهكذا ترى في أول «الروم» عجائب الحشرات وألوانها التي خلقت لحفظها وحفظ ما ماثلها اقتصاداً في الخلقة وإبداعاً في النظام، وهكذا ترى في سورة «السجدة» بعد سورة «لقمان» كيف كان نظام النخل من داخله غير نظام الأشجار وحكمة ذلك.

ثم ترى في سورة «يس عند آية ٣٦»: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾، تلك الأوراق المرسومة التي كونت من حجرات منظمات ذوات سوائل فيها المادة الخضراء، وكيف كان ذلك سبباً في أن الأوراق تجتذب المادة الكربونية المغذية لها من الهواء. وكيف كانت الورقة تتسع لآلاف وآلاف في آلاف من هذه الحجرات الدقيقة الصنع. هذا من عجائب النبات وغيره من عجائب الحيوان يفهمنا لماذا يذكر الله في سورة «الغاشية» الإبل ونحوها بعد ذكر الجنة. ولماذا يذكر الماء والنبات في هذه السورة بعد ذكرها أيضاً، ليفتح لنا باب التفكر في العجائب لنفرح بصانعها في هذه الحياة ونرى حقائق الجمال. وبهذا ندرك لماذا يقول الإمام الغزالي فيما قلناه في سورة «فاطر»: إن السعادة في معرفة العجائب، وهؤلاء هم الذين يرون ربهم أكثر من غيرهم، ونفهم قول «إخوان الصفاء» فيما قدمناه في أول سورة «الصافات». إن معرفة العجائب جزاء المحسنين. اهـ.

فلما كتبت ذلك قال صاحبي: هذا جميل جد جميل، ولكني أريد أن تشرح لي جملة لم أفهمها؟ فقلت: وما هي؟ فقال: لقد ذكرت الجذر والتربيع المتقدم في سورة «الرعد» وأنا الآن أريد مثالاً واحداً تراه فطرنا بعلم الحساب، ونرى له نظيراً في علم النبات مثلاً، حتى يكون ذلك نبراساً نعرف به ملاءمة فطرنا لهذه العوالم من حيث الحساب، وإن تقدم من هذا كثير، ولكنها ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين.

فقلت: انظر هذا العدد ٣٧، فهذا العدد إذا قسمنا عليه عدد ١١١ كان الخارج ٣، وإذا قسمنا عليه ٢٢٢ كان الخارج ٦، أو قسمنا عليه ٣٣٣ يكون الخارج ٩، أو قسمنا عليه ٤٤٤ كان الباقي ١٢، أو قسمنا عليه ٥٥٥ كان الخارج ١٥، أو قسمنا عليه ٦٦٦ كان الخارج ١٨، أو قسمنا عليه ٧٧٧ كان الخارج ٢١. فقال صاحبي: هذا عجب حقاً! لأن ضرب ٢١ في ٣٧ يساوي ٧٧٧ وهكذا البواقي. عجب إذن الخارج يكون مساوياً لجمع المقسوم فهو٣ في الأولى و٦ في الثانية و٩ في الثالثة وهكذا. فقلت له: لقد فهمت، فهذه الأعداد من واحد إلى ٩ إذا قسمت على ٣٧ كانت بهذه المثابة: فهذه المسألة في عقولنا عجيبة يدهش العقل لها وتطرب النفس، فإذا رأينا أن العناصر مرتبة ترتيباً أبدع وأجمل من هذا فانظر في سورة «العنكبوت»، ولها حساب مبني على المتوالية الهندسية والنسبة العددية بحيث يكون العنصر مع ما فوقه وما تحته جارياً على النسبة الهندسية ٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦، ويكون مع ما قبله وما بعده جارياً على المتوالية العددية ٢ ـ ٤ ـ ٦، وهكذا إذا رأينا ما تركب من العناصر له أمثال هذا ونظائره؛ فإننا ندخل إذ ذاك في جنة العرفان التي لا حد لها، ولعلك تتذكر ما تقدم في سورة «الحجر» عند قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾[الآية: ١٩]، وتتذكر صور أنواع من النبات ونسبة عدد الدوائر الحلزونية إلى عدد أوراق تلك الدوائر، وملاحظة المناسبات المدهشة بين النبات الواحد وما قبله وما بعده في صفه الأفقي وفي صفه الرأسي، وأن الأوراق في جميع الأشجار بينها نسب مدهشة يحار العقل فيها، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤].

هاأنت أيها الذكي قرأت الجمال المسموع، وأدركت المعقول ووازنت بينهما. أفلا يكون ذلك حصناً لبصيرتك تلجأ إليه، وملجأ يحفظك، وملاذاً وسعادة، أوَلا تتذكر معي ما قلته في أول هذا المقال من أن الرجل بين امرأتين إحداهما ترضعه، والأخرى يسكن إليها، ولا جرم أن الأم والزوجة كلاهما مخلوقتان مسخرتان لحياة تنقضي سريعاً، فالرحمة في الأولى، والشهوة في الثانية، وضعتا فيهما لغاية نافعة وهي المحافظة على حياة المولود وعلى نظام الأسرة، ورباط الزوجية، وحسن المعاشرة، فهما إذن محدودتان، والمحدود لا يصلح للدوام وإنّما يصلح للدوام ما كان من العناية الدائمة رأساً، وهل ذلك غير العلم بالعجائب، إذن ظهر لنا السر في آية: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾[الروم: ٢١]، فعبر بأنا نسكن إليها، وقال في سورة أخرى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨]، فالإنسان قد يسكن في منزله وهو غير آمن ولا مطمئن، ونهاية السعادة السلامة من المخاوف، ولذلك نسمع الله تعالى يقول: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾[الأحزاب: ٤٤]، وجاء في القرآن أيضاً: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾[فاطر: ٣٤].

إذن التعبير بالسكون إلى الزوجة غير التعبير بالاطمئنان بذكر الله، فالإنسان يكدح ويجد في حقله أو تجارته أو صناعته أو سياسته، ويحتمل ما يحتمل من النصب والتعب والألم، فلا بد له من وقت فيه يتخلى عن هذه الأعمال والهموم لتستجم قواه، وهل هذا إلا الائتناس بالزوجة والراحة معها، ولكن هذه الراحة غير تامة، ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وأيضاً الإنسان وإن سكن إلى زوجته من هموم الأعمال النهارية؛ فليس ذلك السكون تاماً من كل وجه؛ فهل في قدرتها أن تحل له مشكلات هذا الوجود والمسائل المشكلة، كأن تحدثه نفسه بأن الحياة شاقة، والدنيا كلها هموم وأحزان، فلم خلق هذا العالم؟ ولم كثر الظلم فيه؟ ولم كثر المرض والحرب؟ ولم نر الحيوانات يأكل بعضها بعضاً؟ ولم يعذبنا الله وهو قادر على كل شيء، بل أعمالنا كلها هو الذي قدرها؟ فهذه الشكوك والأوهام لا طاقة للمرأة بحلها، فهذا هو بعض السر في التعبير بالسكون إلى الزوجة دون الاطمئنان، وفي التعبير بالاطمئنان بذكر الله وعدم الاقتصار على السكون. وبعبارة أخرى: إن قراءة العلوم والعجائب مثل التي في هذا التفسير تورث الاطمئنان وسكون النفس لا مجرد سكونها إلى الزوجة، بل تسكن إلى الحقائق وتطمئن.

فلما سمع صاحبي هذا، قال: الحمد لله رب العالمين. أنا الآن عرفت سر النبات والحيوان بعد ذكر الجنة، وعرفت الجنة الحسية الجميلة، والجنة العرفانية البديعة، وأن هذه مقدمة للقاء الله، وأن هذه الطائفة أعلى العالمين، وهم المقربون. فقلت: الحمد لله رب العالمين. انتهى صباح يوم الاثنين أول سبتمبر سنة ١٩٣٠ م.

الأمم الإسلامية وأسماء هذه السور من غافر إلى الحجرات وحوادث الأيام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أكتب هذا قبيل الفجر ليلة عيد الأضحى في عام ١٣٤٩ هجرية، وأحمد الله عز وجل أن أراني بفضله بعض الأسباب وبعض النتائج لما أصاب أمم الإسلام من المحن والرزايا، وما أحاط بهم من النذر وما حل بساحتهم من تعذيب أمم الفرنجة لهم وظلمهم وعسفهم، وفتكهم بأجسامهم وأعراضهم، واغتصابهم ديارهم وأموالهم وأرضاً لم يطؤوها.

أكتب هذا وقد أصلى الطليان إخواننا الطرابلسيين منذ أيام ناراً حامية، وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً وهم آمنون في ديارهم، وهتكوا أعراض (٧٠) أسرة وشتتوا شملهم، وأخذوا (١٥) من قوادهم في طياراتهم، فألقوهم من أعلى الجو ليتسلوا بذلك وليفرحوا بما يرون من تهشيم وتكسير وموت عاجل وأجلوا ثمانين ألفاً من الجبل الأخضر، وأنزلوهم في أرض قفراء لا أنيس فيها ولا جليس، وأخذوا منهم أناساً وضعوهم في سلاسل من حديد ورموا بهم في البحر فالتقطهم جنود المصريين ودفنوهم، وأذلوا آخرين فهاموا على وجوههم في الصحراء، كل ذلك ذكر في الجرائد أمس وتلي في جلسة علنية كنت حاضرها، وأرسل به احتجاج لجميع العالم قاطبة.

دعاني ذلك أن أفكر الليلة في أمر الأمة المحمدية الحاضرة، وما ساقته الأقدار إليها، وكيف نشطت المسيحية كرة أخرى لتقتيل المسلمين وذبحهم وإهلاكهم وإشهارهم حروباً صليبية أخرى، ولقد شرح الله صدري الليلة وهداني ووفقني أن أكتب ما جاش بخاطري ليكون مما ينظر فيه حكماء الإسلام بفكر ثاقب عسى أن يهتدوا لإسعاد هذه الأمة الإسلامية في أيام حياتي وبعد موتي، وبالله التوفيق.

كان العرب قبل الإسلام أمماً متفرقة جاهلة خاطئة فأسلمت: (١) «فغفرت» لها ذنوبها السابقة واستأنفوا حياة جديدة. (٢) «ففصلت» لهم آيات القرآن تفصيلاً وعرفوا الحقائق فصار أمرهم. (٣) «شورى» بينهم، ثم انقلبت الشورى إلى استبداد والخلافة إلى ملك عضوض، ومالوا إلى. (٤) «زخرف» الحياة الدنيا، فهاهم أولاء أنذرهم الله البطشة الكبرى وأخذ ينتقم منهم وأرسل لهم. (٥) «الدخان» في الجو لما جاءت الحرب الكبرى، فإن أوروبا كلها اصطدمت فيها بالقتال، وازدادت العداوة والبغضاء، ولكن كانت النتيجة تقسيم بلاد الإسلام فأصبحت أمة. (٦) «جاثية» لأمم الغرب.

ولما كان من عادة الله عز وجل أن يجعل بعد الضعة رفعة، وبعد الذل عزاً، وبعد العناء راحة، وبعد العسر يسراً، أخذت أمم الشرق جميعها تستعد للوثبة، وتجدّ لإرجاع الوحدة، فهاهم أولاء الأمراء الإسلاميون في العراق وشرق الأردن ونجد والحجاز واليمن قد اضمحلت بينهم العداوات القديمة وأخذوا يسترجعون لهم مجداً جديداً، ويؤسسون هيكل الوحدة الإسلامية العربية، ومثلهم أهل الهند والأفغان ومن نحا نحوهم، فلا بد من جهاد هذه الأمم كلها لاسترجاع مجدها ووحدتها، فقد ظهر فيهم منذرون وهداة، ذاكرون ﴿أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾[الأحقاف: ٢١]. (٧) «بالأحقاف» ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾[الأحقاف: ٢١]، ولا بد من النصر والغلبة في هذا. (٨) «القتال» الأدبي والحربي ثم: (٩) «الفتح» و«النصر». ثم يكون أمم الإسلام، بل أمم الشرق بعد ذلك أمماً متضامنة، إجابة لقول ربهم في سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[الحجرات: ١٣].

الخلافة الإسلامية

وسينظر أمراء الإسلام في هذه الحملات الصليبية التي تشنها أوروبا علينا، ويفكرون في أمر الخلافة الإسلامية، فيجدونها في العصور السالفة كانت على غير أساس، فلذلك خر على المسلمين سقفها من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون. فيا ليت شعري أي خلافة كانت هذه الخلافة، خلافة لفظية لا معنوية، فأي خلافة صادقة بعد الخلفاء الراشدين، إن هي بعدهم إلا ملك عضوض، أخلافة الأمويين؟ أم خلافة العباسيين بدمشق وبغداد؟ أم خلافة الفاطميين بمصر؟ أم خلافة الأمويين بالأندلس؟ وكيف تتعدد الخلافة، كيف يقوم مهدي وراء مهدي، وكيف يرث الابن أباه فيها. إن إرث الخلافة إرث خاطئ فكرة جاهلية، لقد فرق المسلمين أحاديث موضوعة تفرقوا بها شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض، واقتفوا تلك الموضوعات بالتقليد، ونسي كثير منهم كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

لجنة الخلافة في الهند

ومن أمارات اقتراب أيام السعادة أن مسلمي الهند شكلوا جماعة خاصة بالخلافة لإرجاع مجدها، إن المسلمين لا بد لهم من الخلافة ليرجعوا لعصر النبوة، لكن على نهج أصحابه صلى الله عليه وسلم، لتترك نعرة الجاهلية، وهل يكون الخليفة إلا بالانتخاب، ليجتمع أمراء الإسلام في زماننا أو بعده، ولينتخبوا من بينهم أميراً هو الخليفة، ولا يجوز أن تتعدى خلافته مدة حياته، ثم بعد موته ينتخبون سواه، بل أقول أكثر من ذلك: لتكن خلافته إلى مدة معينة، وبعد تمامها يعاد الانتخاب، ولا مانع من إعادة انتخابه مرة أو أكثر، فأما أن تبقى الخلافة في أمة واحدة من أمم الإسلام، أو أسرة واحدة فهذا هو أسّ الشقاق والنزاع والخلاف والعداوة والحقد.

ويجب على كل من اطلع على هذا من أهل العلم في بلاد الإسلام أن ينشره بين أمراء المسلمين ويبعثه إلى لجنة الخلافة في الهند متى كان قادراً على ذلك. وهاهنا يظهر معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحجرات: ١٣]، ويظهر معنى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ويظهر معنى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٤٧]، ويظهر معنى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨]، ويظهر معنى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾[آل عمران: ١٥٩]، ويظهر معنى هذه الحكمة الإسلامية القديمة حكاية عن الله: اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي، وتظهر نتائج: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾[آل عمران: ١٠٣]، ونتائج: ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[الأنفال: ٤٦]، وتظهر آثار قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾[النساء: ٣٢]، وآثار: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾[النساء: ١٣٥]. وإذا كان المسلم محرماً عليه أن يشهد زوراً لأجل منفعة أبيه أو أخيه، فأولى ثم أولى أنه يحرم عليه أن يرشح لأجل الخلافة رجلاً مسلماً وهناك غيره أحق منه بالخلافة، هذا هو الحق الصراح.

أيتها الأمم الإسلامية، عار عليكم أن تشهدوا تلك المصارع والمخازي والمصائب والفضائح والجهالات المتراكمة بين العرب والعجم في مدة ١٣ قرناً، ثم لا تتوبون ولا أنتم تتذكرون. ألم تعلموا أيها المسلمون أن الفرنجة أيام الحروب الصليبية اتحدوا وأنتم متفرقون، لماذا ذلك، لأنهم لهم «بابا» يجمعهم على الباطل، فأما أنتم فقد كنتم متفرقين، فعبد المؤمن بالبلاد المغربية كان يرى أنه خليفة المهدي محمد بن تومرت، وهذا المهدي يجب اتباعه على جميع المسلمين، فلما لم يعترف صلاح الدين الأيوبي في خطابه لعبد المؤمن بأنه أمير المؤمنين رفض مساعدته وحارب صلاح الدين بمصر هو ومن معه من المسلمين الفرنجة، وأيضاً أليس من العار الذي يخزي ويخجل أن نرى الفاطميين ببلاد الغرب وبمصر هم كانوا أول من مزق الأمم الإسلامية شر ممزق، وكان ذلك فتح باب لدخول الفرنجة في بلاد الإسلام وهم لا يشعرون.

هذه المشاهد يجب أن يعرفها أمراء الإسلام. إن الله عز وجل جعل هذه دروساً لكم لتهتدوا بها، ودعوا النعرات القديمة التي مزقت الجموع، وشتت الشمل، وأبانت الصدع، وأعظمت الخطب، وأذلت أمم الإسلام، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[الأعراف: ١٠٠].

يجب على جميع المسلمين أن يعتبروا بتاريخ الأمم الإسلامية، دعوا أيها المسلمون تلك الشراهة والجهالة والبلاهة، بأي كتاب، أم بأية سنة أيها المسلمون تكون الخلافة متجراً؟ بأي حق تكون الخلافة التي تخلف النبوة متاعاً دنيوياً، الخليفة لا يجوز أن يقوم بها إلا من أحيا أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، إن لم يكن على منهاج هؤلاء فلتنبذوه، أتكون الخلافة في حجاب كحجاب العذارى كما حصل لبعض العثمانيين والعباسيين، لا لا، أيها المسلمون: كفى كفى، الخلافة زهد في الدنيا وحفظها وغرام بالأمم الإسلامية، وحب الله، وجمع للكلمة، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الحديد: ١٦-١٧].

أليس مما يخجل له جبين الدهر، وتخزى به الإنسانية كلها، وتكاد السماوات يتفطرن وتنشق الأرض وتخر له الجبال أن يتبوأ البابا في مكانته بروما، وتزداد هيبته، ويعظم نفوذه، ويقوى جاهه، ويشتد خطره، وتقوم إيطاليا فتسبي الذراري والنساء، وتهتك الأعراض، وتذل السنوسيين، كل ذلك يعلمه البابا وتحت سمعه وبصره، والمسلمون على بكرة أبيهم لا خليفة لهم ولا زعيم، بل هم أشتات في الأرض، فوالله لم أجد أمة كهذه الأمة. كل ذلك لشرهنا وجشعنا وحبنا للمال حباً جماً.

يقول كل جماعة من المسلمين: ليكن الخليفة فينا، ولماذا هذا؟ ليكون المال والسطوة لهم ويخضعون لهم سواهم، كما فعل الأمويون والعباسيون والعثمانيون، والأدهى والأمر أن الأقباط في ديارنا لهم بطريرك، والمسلمون خلوا من رئيس لهم يضارعه على الأقل، وما ذلك إلا لأن القوم يجعلون رئيسهم سواء أكان بابا أو بطريرك منتخباً من بينهم.

أما المسلمون فإنهم أبوا الشورى، فلما أبوها أصبحت الخلافة تبع السيف، فبنو أمية غلبوا فكانت فيهم، وبنو العباس غلبوا فكانت فيهم، والعثمانيون غلبوا فكانت فيهم. لا لا. كلا أيها المسلمون، الخليفة ينتخب، والأمراء والمسلمون يكونون حوله، والمواصلات اليوم متوفرة، إن لم يجتمع المسلمون على خليفة ازداد ذلهم وخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون.

أيها المسلمون، يكون ثلاثمائة مليون أو أربعمائة أقل من أمة القبط بين ظهرانينا التي لا تبلغ مليوناً واحداً، ورئيسها الديني له السيادة على بلاد الحبشة، أيحسن هذا بكم أيها المسلمون؟.

أيها المسلمون، أيليق بكم أن تكونوا أذل أمة في الأرض بتفرق كلمتكم وفيكم الحجاجيج الشجعان، والصماصيم والأقران، والعلماء الأعلام، والحكماء والبلغاء، والخطباء الفصحاء.

هاتوا لي أيها المسلمون أمة من الأمم محرومة من رئيس ديني، لقد أدبنا الله فأحسن تأديبنا، وفعل فينا كما قال طرفة بن العبد:

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى ... لَكَالطِّوَلِ الْمُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ
مَتَى مَا يَشَا يَوْماً يَقُدْهُ لِحَتْفِهِ ... وَمَنْ يَكُ في أَسْرِ الْمَنِيَّةِ يَنْقَدِ

يقول: إن الإنسان أشبه بدابة ربطها الموت في حبل وتركها ترعى كما تشاء، حتى إذا أراد انتزاع روحها قادها حالاً لذلك، فهكذا هنا العناية الإلهية شاءت أن يكون لأمم الإسلام ١٣ قرناً يتخبطون فيها في أمر الخلافة، وتبقى تبع السيف، وليس للعقل ولا للرأي ولا للشورى نصيب، وقال في القرآن ما يفيد أنه عز وجل ما منعه أن يرسل بخوارق العادات إلا أن الأولين كذبوا بها، لم يقول الله ذلك؟ يقول الله: أنا وأنا علاّم الغيوب، عاملت الأمم معاملة المختبرين الذين يقيسون الأمور بنظائرها، وأنا لا تخفى عليّ خافية، فلما طغت الأمم الماضية ولم تؤمن، لما رأت خوارق العادات أرسلت محمداً صلى الله عليه وسلم وجعلت أهم معجزاته القرآن. فإذا كان الله سبحانه وتعالى يخاطبنا بكلامه على قدر عقولنا، وهو العليم بكل شيء، ويقول لنا: أنا لما وجدت الأمم السابقة لم تبال بخوارق العادات جعلت النبوة اليوم راجعة للتفكر لا لخوارق العادات، أفليس هذا معناه أننا ننظر في الأمور ونزنها، فإذا وجدنا أسلافنا اتخذ أغلبهم الخلافة بالسيف؛ فكان ذلك باعثاً على الشقاق والافتراق، أفليس يجدر بنا أن نقول الآن: إنك يا ربنا أدبتنا وفعلت معنا ما يفعله الموت مع الناس، فنحن طغينا في أمر الخلافة فأنت عاقبتنا، وسلبت منا الملك، وحكمت بتفريقنا جزاء تركنا الشورى، وأريتنا أن أصغر أمم الأرض لها رئيس ديني، ونحن ــ وإن كنا خير أمة أخرجت للناس ــ لم نقم بالحق في الخلافة ولم نعطها إلا للقاهرين، فهانحن يا الله رجعنا عن جهلنا السابق. وامتثلنا لأمرك، فليكن الخليفة هو من يصطفيه الرؤساء والأمراء في الإسلام، هذا هو الذي يجب الآن.

اللهم إني أكتب للمسلمين ما شرحت له صدري، اللهم إني قد حذرت وأعلنت، وعلى كل من قرأ هذا من ذوي الرأي من أمم الإسلام أن ينشره ويفكر فيه المسلمون، وما ذكرني به إلا مناسبات هذه السور لأني عجبت كيف تكون سورة «الزخرف» بعد سورة «الشورى» وتكون بعدهما «الدخان». وما المناسبة بين هذه السور من حيث ترتيبها. وإني أحمدك اللهم على التوفيق والتعليم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم. وإلى هنا تم الكلام على سورة «الزخرف» والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء العشرون من كتاب
الجواهر في تفسير القرآن الكريم
ويليه الجزء الحادي والعشرون
وأوله: تفسير سورة «الدخان»



فهرس الجزء العشرين من كتاب
تفسير الجواهر

تفسير سورة الشورى، وفيها سبع لطائف ٣
اللطيفة الأولى والسادسة في قوله: (تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ)
وفي قوله: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا) ١٦
اللطيفة الثانية والرابعة في الكلام على التناسل واختلاف الذكور والإناث ١٨
فصل في حكمة خلق الحشرات ١٩
اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: (ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ) ٢١
الاستدلال على اليوم الآخر وعلى وجود الله بأدلة عقلية قريبة ٢١
اللطيفة الخامسة: في قوله تعالى: (وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ) ٢٤
الدين والدستور ٢٤
اللطيفة السابعة: في قوله تعالى: (وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) ٢٦
رأي المؤلف ٢٩
آثار هذه الآية في الأمة ٣٠
رأي الأرواح ٣٠
اعتقاد قدماء المصريين ٣٠
فتوح الرحمن الرحيم، ونور الدين الإسلامي ٣١
سؤال ورد على المؤلف ٣٢
بدائع أسرار التنزيل ٣٣
صفة الموسيقى عند القدماء، وصفتها عند علماء العصر الحاضر ٣٤
النظام العام في العالم ٣٥
الكلام على الرحمات ٣٦

منافع الموسيقى العلمية وضرر الموسيقى العملية	٣٨
(حمٓ ۝ عٓسٓقٓ) ومغارة أفلاطون	٤٣
خطبة حول بأي ميزان تزن الحياة	٤٣
موازنة هذه الخطبة بآراء أفلاطون في جمهوريته	٥١
سر من أسرار القرآن مخبوء في حرفين : حاء ، وياء	٦١
أشجار يرجع تاريخها إلى قبل ١٥ مليون سنة	٦٥
لطيفة في قوله تعالى : (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ)	٦٥
تأثير الحرارة في الضغط الجوي	٦٧
نسيم البحر ونسيم البر	٦٨
الرياح الموسمية	٦٨
التيارات البحرية	٦٩
تأثير دورة الأرض على محورها	٦٩
مناطق الضغط العظيم خلف المدارين	٧٠
الرياح الدورية على وجه الأرض	٧٠
خطاب الله للناس	٧٣
نظرة راكب السفينة فيما حوله من الماء والأرض	٧٤
الماء والسماء	٧٥
الكلام على السماء	٧٥
عالم الماء	٧٦
إيضاح بعض أسرار قوله تعالى : (وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ)	٨٢
الإنسان ومغالبة البحار والمحيطات	٨٢
مراكب التجارة	٨٥
خطاب المؤلف ربه شاكراً له نعمه	٨٦
في ملخص سورة الشورى	٩٠
الكلام على السماوات وعجائبها	٩١
خطابي للمسلمين	٩٥
هذا القرآن المنزل	٩٦
لماذا أمر صلى الله عليه وسلم أن ينذر أم القرى ومن حولها	٩٦
ولماذا ذكرت أم القرى في هذا المقام	٩٦
فصل في أن القرآن عربي	٩٦

تخصيص أم القرى ومن حولها ٩٦
قبائل البجة ٩٧
الطريق القديم والحديث من مصر إلى الحرمين ٩٧
تعداد المسلمين في بلاد الإسلام ٩٩
كيف يتحد المسلمون ١٠٠
الكعبة المشرفة أيام الحج دار ندوة ١٠٣
تبيان عام لمودة الأنبياء والمصلحين ١٠٥
خواطر في الحياة ١٠٥
جمال الحكمة والبهجة في هذا المقال ١١٠
نظام خلق الإنسان ١١١
امرأة تطحن على رحاها ١١٣
لطيفة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ ١١٤
حكم أرباب القلوب ١١٩
جمال العلم وبهجة الحكمة ١٢٤
آثار القرآن لا سيما سورة (الشورى) في أمم الأرض ١٢٨
فرنسا بعد إنكلترا ١٣١
خطاب المؤلف لله عز وجل ١٣٣
خطاب المؤلف لأمم الإسلام وأمرائهم ١٣٤
موازنة بين سيرة عمر وجمهورية سقراط ١٣٥
بيان العدل العام في السماوات والأرض ١٤٠
عدل عمر وإنصافه ١٥١
جمال الحكمة والعلم في آية: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ١٥٢
درة يتيمة ١٥٧
الحياة النيابية في أفغانستان ١٥٩
تفسير سورة الزخرف وفيها ثمانية عشر مقصداً ١٦٣
تفسير البسملة ١٦٦
المآكل والمشارب ١٦٨
الرحمة ١٧١
ملخص هذا المقام ١٧٦
امتحان آراء علماء الإسلام وآراء علماء اليونان ١٧٨

تفسير الآيات ١٧٨
المقصد الأول تأييد النبوة ١٨١
المقصد الثاني إثبات الألوهية بالأدلة الطبيعية ١٨١
المقصد الثالث بعض سيئات كفر القوم ١٨١
المقصد الرابع سبب كفرهم ١٨٢
المقصد الخامس شدة جهلهم وجمود عقلهم ١٨٢
المقصد السادس الانتقام منهم ١٨٣
المقصد السابع تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بذكر قصة إبراهيم ١٨٣
المقصد الثامن ليست المظاهر المادية من أسباب الدرجات العلمية والدينية ١٨٣
المقصد التاسع من ترك عقله فلم يشغله بالحكمة تولاه الشيطان ١٨٣
المقصد العاشر من تصادقا على المعصية تعاديا عند القضاء ١٨٥
المقصد الحادي عشر إنّما تنفع الذكرى من استعد للفهم ١٨٥
المقصد الثاني عشر عدة الله نبيه بالنصر وعلو أمره وإنه مسؤول عن الدين والقرآن هو وقومه ١٨٥
المقصد الثالث عشر قصص موسى لتأييد أن المظاهر المادية ليست سبباً للمعارف العقلية ١٨٥
المقصد الرابع عشر شؤم الحرص على الجدال وعدم جدواه في إبطال الحقائق ١٨٧
المقصد الخامس عشر ذكر عيسى عليه السلام واختلاف أتباعه ووعيدهم ١٨٧
المقصد السادس عشر معاداة قرناء السوء يوم القيامة وعذابهم وسعادة الصالحين ١٨٧
المقصد السابع عشر تنزيه الله تعالى ووصفه بسعة الملك والقدرة والحكمة ١٨٧
المقصد الثامن عشر سعة الصدر والصفح والمسالمة خير الأخلاق ١٨٧
حيوان ذري يدير دولاباً ١٩٠
في هذه السورة سبع لطائف ١٩١
اللطيفة الأولى في قوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا) ١٩١
اللطيفة الثانية في قوله تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ) ١٩١
اللطيفة الثالثة في قوله تعالى: (بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ) ١٩٤
اللطيفة الرابعة في قوله تعالى: (قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ) ١٩٥
اللطيفة الخامسة في قوله تعالى: (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ) ١٩٦
نتائج تلك المحبات ١٩٦
اللطيفة السادسة في قوله تعالى: (وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا) ١٩٦
الكلام على المهدي ١٩٧
الأحاديث المروية ١٩٧

آراء الصوفية وكلامهم في أمر المهدي ١٩٨
رأي العلامة ابن خلدون ١٩٩
فكرة عامة في مسألة عيسى عليه السلام والمهدي ١٩٩
رأي المؤلف ١٩٩
فائدة هذا الموضوع كله ٢٠٠
اللطيفة السابعة في قوله تعالى: (فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ) ٢٠١
لطيفة في قوله تعالى: (إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ) ٢٠٣
غريب اللغة العربية في القرآن ٢٠٣
النوع السادس والثلاثون في معرفة غريبه ٢٠٣
فصل في معرفة هذا الفن للمفسر ضرورية كما سيأتي في شروط المفسر ٢٠٤
الكلام على نفس الأمة العربية ٢٠٨
أمر ارتقاء العرب في المستقبل القريب ٢١٠
مصداق هذا الحديث ٢١١
الفصل الأول: في أثر الطب العربي في تطور الطب الفرنسي ٢١٢
تأثير المدنية العربية الإسلامية في نهضة الغرب ٢١٢
أثر الطب العربي ٢١٦
الفصل الثاني في أن هذه الأمة عوقبت في الحياة الدنيا فضلاً عما تعاقب به في الآخرة ٢١٨
الفصل الثالث في أن القرآن ذكر للمسلمين عموماً وللعرب خصوصاً ٢٢٤
الانتداب في البلدان العربية ٢٢٥
الفصل الرابع: في نتائج ذلك التفرق القديم الذي حل بالمسلمين اليوم ٢٣٠
التنافس الدولي ونصيب العرب منه ٢٣٠
المجمع النسائي العربي ٢٣١
الفصل الخامس في أن الوطن اليهودي في فلسطين مما قرر ارتفاع ذكر الأمم العربية ٢٣٢
الفصل السادس: في حادث لم يسبق له نظير من اتحاد العرب والهند ٢٣٦
بعد يوم محمد علي في فلسطين ٢٣٨
الفصل السابع في اتحاد المسلمين اليوم على فرنسا ٢٤٠
نداء إلى ملوك الإسلام وشعوبها جميعاً ٢٤٠
ظاهرة عجيبة من ظواهر التبشير الديني في تونس ٢٤٢
آخر ما في سورة الزمر من شرح الصدر للإسلام ٢٤٤
الجذور الهوائية ٢٤٦

اتجاه الجذور ٢٤٦
حركات الأوراق ٢٤٩
نعاس الأوراق ٢٤٩
الحركات المسببة عن الملامسة ٢٥٠
الحركات الذاتية ٢٥٠
سقوط الأوراق ٢٥٠
بهجة العلم في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ ٢٥١
فصل في أن أنواع النبات تكون في جميع الأماكن ٢٥٢
تقسيم النبات على الفصول ٢٥٣
تقسيم النبات على حواس الحيوان ومنه الإنسان ٢٥٤
تقسيم النبات على منافع الإنسان ٢٥٤
كشف النقاب عن بعض أسراره قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ ﴾ ٢٦١
لطيفة في قوله تعالى: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ ٢٧٠
ذكر صفة الجنة ٢٧٣
في ذكر أهل الجنة ٢٧٥
رؤية الله تعالى ٢٧٧
الكلام على العلم المعقول ٢٧٨
عجائب المخلوقات ٢٧٩
قوة الحشرات ٢٨١
الأمم الإسلامية وأسماء هذه السور من غافر إلى الحجرات ٢٨٣
الخلافة الإسلامية ٢٨٤
لجنة الخلافة في الهند ٢٨٥